روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

الحارث ملك الأنباط



دار الأندلس

الحَارِث مَلِك الأنباط

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

الحارث ملك الأنباط

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

دولة الانباط

ليس في الكتب التى نشرها مؤرخوالعرب في الاجيال التى مضت ، ذكر دولة عربية خفق لواؤها فيالجنوب الشرقى من فلسطين ، بل ليس للانباط الذين مدوا رواقهم في ذلك القطر ، والاقطار التى تجاوره ، ظل في التاريخ العربي .

بلى. كان المؤرخون يريدون بالانباط ـ اذا ذكروهم ـ اهل العراق دون ان يقولوا كلمة عن القوم الذين نكتب تاريخهم الان ، وهـذا معناه ان تاريخ هؤلاء القوم ، تغال في تاريخي فلسطين وسوريا القديميـن ، فحجب نورهما نوره ، ثم ضيعت العصور حادثاته ، فلم يبلغ العرب منها شيء ، وقد يكون هنالك سبب اخر هو ان اثار الانباط في تلك الناحية طمسها الزمان فلم ترها عيون مؤرخي العرب عندما تناولوا اقلامهم ليكتبوا ما كتبوه ، ولم يخطر للعربي ان يقرأ ما كتبه اليونان عن ابناء جنسه . أجل ، لقد ذكر اليونان تاريخ الانباطفي خلال ما ذكروه عن ملوك البطالسة والسلوقيينو الروم ، كما ذكرته اسفار التاريخ المقدس ، ولـم يكن هذان التاريخان وحدهما مرجعايستند اليه الادباء الذين كتبوا تاريخ الانباط ، بل كان هنالك اثارخالدة ناطقة بعظمة الروم ، واساطير صريحة ظاهرة قراوها على الانقاض وعلى صفحات الصخور في عاصمة الانباط وبعض مدنهم ، في حوران ومدائن صالح وغيرها ، على ما يذكر كتاب العرب قبل الاسلام .

★ ★ ★

مقر الدولة

لقدجاء في الكتاب المذكور ، ان مقرها كان في الجنوب الشرقـي من فلسطين ، وهي تمتد هنالك الى راس خليج العقبة ، يحدها من الغـرب وادي العرابة ، ومن الجنوب بادية الحجـاز ، ومـن الشـرق بادية الشام ، ومن الشمال فلسطين .

اما طولها ، فمن الشمال الى الجنوب مئة ميل ، وعرضها عشـرون ميلا ،وهي نفس مملكة الادوميين ،وقد تغيرت حدودها وسعتها بتغير

الاحوال على مر الاجيال . ارضها صخرية .فيها الجبال والشعاب ، وكانت تسمى قديما بلاد الجبال ، واليونان يسمونها العربية الحجرية Arabia petra نسبة الى عاصمتها التى كانت تدعى بترا ؛ اي الحجر، وهي ترجمة اسمها بالعبرانية ؛ لان اليهود كانوا يسمونها سلاع وسلاع في لسانهم هو الحجر . اما مملكة ادوم كلها فكانت تعرف عندهم باسم « سعير » واليونان يسمونها « ايدوما » .

واول من سكن العربية الحجرية ، الحوريون ، وهم سكان الكهوف القدماء ويعرفون عند اليونان بلفظة Troglodytes يؤيد هذا القول ، ما في تلك الجبال من الكهوف والمغاور الطبيعية او المنحوتة ، والهياكل والمدافن وكلها في الصخور .

غير ان الحوريين لم يمكثوا بهذا القطر الزمان كله؛ فقد فاجأهم الادوميون وغلبوهم وانتزعوا مافي ايديهم ، وجعلواالبلاد بلادا لهم ، في زمن لا يعرف التاريخ اوله وقد ورد ذكره في التوراة ، في سفرالتكوين.

كان الادوميون قبائل وفرقا يرأس كل قبيلة منها رجل . كما هي حال العرب اليوم ، وقد ذكرت التوراة اخبارا كثيرة وصفت فيها صلة الادوميين ببني اسرائيل . وكانت ادوم ، ادوم الجبارة العاصية ، قذى في عيون الملوك والامراء في ذلك الزمان ، يطمعون فيها لمناعتها ووعورة ارضها . ولموقعها الطبيعي الحصين ، الذي كان القوم فيه ، ضمن جدر من الصخر . ووراء اسوار من الصخر ، وداخل نطاق من الصخر ، لقد حمل شاول على ادوم في القرن العاشر قبل الميلاد ، ليضمها الى ارض دولته، ويجعل رجالها رجالا له ، فلم يفز ، كما كان يظن انه سيفوز .غير ان داود ، استطاع بعد توليه الملك ، ان يدوخ القوم ، ويقيم ببلادهم حامية من جنده. ويجعل هذه البلاد طريقا له من اورشليم الى البحر الاحمر ..

وجاء بعده ولده سليمان ، فهان عليه ان يجعل في خليج العقبة ، فرضة يبني فيها السفن اذا اراد السفر الى اليمن . او الحبشة . الهند .

على ان قائدا من الادوميين ، هم بان يخلع الطاعة ويخرج على سليمان

في ايام عزه ، فلم يفلح ، واستمر القوم تحت سيطرة الاسرائيليين ، حتى يوشافاط ملك يهوذا ، فهب القوم يحالفون اعداءه ، ويساعدونهم في حربه، ففشلوا ، ولكنهم اغتنموا ضعف الاسرائيليين واستعادوا ذلك الاستقلال الذي ضيعوه ، وعندما اقبل بختنصر فاتحا وغازيا فلسطين ، كان الادوميون عونا له على خصومه ، وقد شاركوه في نهب البلاد وذبح اهلها فكافاهم بختنصر بتأييد سلطانهم، وتوسيع بلادهم الى حدود مصر وشواطىء البحر المتوسط .

وبينا القوم ينشرون سلطانهم في نواحي الغرب ، داهمهم الانباط من الشرق ، وطوقوا ادوم من جهاتها الثلاث ، ثم وضعوا ايديهم على كل ما فيها واصبحوا سادة الموقف ، ثم اندمج اهلها في الفاتحين ، وصاروا امة واحدة ، فوضع الانباط اساس دولتهم العربية ، ثم شيدوها مملكة قوية قادرة ، في لقرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت دولة قوية قادرة ، الى اوائل الجيل الثاني بعده ، حيث بسط النسر الروماني فوقها جناحيه ، سنة ١٠٦ للمسيح .

بترا

هي عاصمة الدولة ومدينتها الكبرى ، ومقر عز الانباط وعظمتهم ومجدهم الذي جاروا فيه الدول العربية الاخرى ، التى مر ذكرها فى روايات الليالي التى قرات .

يقول سترابون : انها مدينة صخرية قائمة في مستوى من الارض تحيط به الصخور كالسور المنيع ، وليس وراءها غير الرمال المحرقة ، وبترا تقع في وادي موسى عند ملتقى طرق القوافل ، بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن . وكانت مدينة زاهية زاهرة ، في ظل اولئك الملوك الذين بذلوا دماءهم ودماء قومهم ليحفظوا قوميتهم العربية ، ويستقلوا في ارضهم . كانت حصونها ، وقصورها ، وهياكلها، مظهرا من مظاهر القوة ، كما كان قومها مظهرا من مظاهر المروءة والانفة والعز ، وهذه صفات العربي الحر .

لم يبن القوم قصورهم ليومهم ، بل لغدهم ، بل يبنوها لجيلهم

الذى عاشوا فيه ، وانما جعلوها اثرا جبارا تمر الاجيال ولا يـــزول، ويفنى الزمان واهل الزمان ولا يفنى !

ان في انقاض بترا اليوم ، وعلى اطلالها ، مدنية مهشمة ، ومجـــدا محفورا في الصخور ولكن تلك المدنية وهذا المجد ، تنحني عندهما فـــي جيلنا الحاضر ، رؤوس اصحاب المجد والسلطان .

تقف في بترا اليوم ، ايها القارىء ، امام اثر صامت طلقته البهجة ، وخلعت عليه الوحشة رداءهـــا البالي ، ولكنــك تشعـــر ان نفســك الكبيرة التى ترتفع الى العليا ، تصغر امام ذلك الاثر ، وروحــك العاليــة الجبارة تجثو عند قدميه ، انك امام دولة عربية شرفت قومها ، وحملت اللواء العربي خفاقا بضعة اجيال ، على رغم خلفاء الاسكنــدر الكبيــر ، وقياصرة الروم !!

انك امام عظمة تدمر ، وامام قوة رايت شبيهها لهـــا فـــي دول المناذرة في العراق ، والغساسنة في الشام . اعظم هذه الاثار الباقيــة الى الان ، بناء يقال له « خزنة فرعون » وهو بناء عال حفروه في صخــر وردي اللون ، وجعلوا على وجهه النقوش والكتابة بالقلم النبطــي ، يقوم الى جانبه مرسح في الصخر ..! نعم في الصخر ... يمتد نظرك منه ، الى ســهل واسع فسيح فيه الكهوف والمغاور ، على جدرها النقوش والسطــور ، اكثرها ظهورا اثر يقال له الدير .. وقد كانت هذه المغاور مســاكــن الحوريين القدماء ... اما اليوم فهي ملاجيء للفقراء والاشقياء!

ولكن بترا ، التي وصفت لك ، من بناء الانباط ، وانما هي مدينـــة ادومية ورد في سفر الملوك الثاني انها كانت حصنا في ايام امصيا سنـــة ٨٣٨ قبل المسيح وتسميها التوراة « سلاع » اي الحجر ، كما قرات ، غير انها عندما امست في ايدي الانباط ، وعرفها اليونان ، اصبح اسمها بترا الحجر في لغتهم ..

اما العرب ، فليس لبترا اسم في كتبهم ، بلى لقد عثـــر بعضهم علـــى لفظة « البتراء » في سياق غزوة النبي صلى الله عليه وسلم ، بنـــي لحيان ، فقام في الاذهان انها بترا عاصمة الانباط ، ولكـــن المعـروف من مجمل الحديث ، على ما يذكر ابن هشام ، انها تجاور المدينة وبينهـــا

وبين بترا الانباط ما يقارب ٥٠٠ ميل !

على ان في بلاد العرب ، غير مكان يدعى « سلع » وهو بمعنى بترا، بينها مكان ذكرياقوت انه حصن في وادي موسى ولعله بترا نفسها .

الرقيم

لقد راى العرب اثار بترا بعد الاسلام ، فسموها الرقيم ، وهو تعريب احد اسمائها اليونانية ، لان اليونانيين كانوا يسمونها ايضا اركه « Arke » نحرفته العرب وقالت الرقيم ، وربما ارادوا بالرقيم « خزنة فرعون » . واشتهر هذا المكان في دولة بني امية وكان ينزله الخلفاء منهم ، لا سيما يزيد بن عبد الملك وفيه يقول الشاعر ، كما ذكر ياقوت :

اميـر المؤمنين اليك نهوى على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائية يزيدا باكناف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود اذا اتوه بنصر الله والملك العظيم

وبالنظر الى ما راوا فيه من الابنية والاثار والنقوش ، خطر لهم انه المكان الذي كان فيه اهل الكهف ، ورووا عنه اخبارا ذكرها المقدسي في كتابه « احسن التقاسيم » قال : « والرقيم ، قرية على فرسخ من عمان، على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير يزعمون ان من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير ، وفي المغارة ثلاثة قبور تسلسل لنا من اخبارها ان النبي « صلعم » قال : بينما نفر ثلاثة يتماشون ، اذ اخذهم المطر فمالوا الى غار في الجبل ، فانحطت الى فم غارهم صخرة من الجبل فاطبقت عليهم » . ثم ذكر توسلهم الى الله بحسنات اتوها حتى افرج عنهم بحديث طويل .

وقال الاصطخري في وصفها : الرقيم مدينة بقرب البلقاء ، وهي صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها في صخر كانها حجر واحد . .

وقال المقريزي في عرض كلامه عن التيه : « ان بعض المماليك البحرية هربوا من القاهرة سنة ٦٥٢ هجرية ، فمرت طائفة منهم بالتيه ، فتاهوا فيه خمسة ايام ، ثم تراءى لهم في اليوم السادس سواد على بعد،

فقصدوه ، فاذا هو مدينة عظيمة لها سور وابواب كلها من رخام اخضر فدخلوا بها وطافوا فاذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طم اسواقها ودورها، ووجدوا بها اواني وملابس ، وكانوا اذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى .

ووجدوا في صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا عليها صورة غزال وكتابة عبرانية ، وحفروا موضعا فاذا حجر على صهريج ماء فشربوا ماء ابرد من الثلج ، ثم خرجوا ومشوا ليلة فاذا بطائفة من العربان ، فحملوهم الى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير لبعض الصيارف ، فاذا عليها انها ضربت في ايام موسى « كذا » ودفع لهم في كل دينار مئة درهم ،وقيل لهم ان هذه المدينة الخضراء ، من مدن بني اسرائيل ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص اخرى لا يراها الا تائه، ذلك ما عرفه المسلمون عن بترا ؛ وقد زارها غير واحد من المستشرقين في الجيل الماضي،وقرأواماعليها من النقوش .

الانباط

ورد ذكر الانباط على اثار اشور ، ايام الملك اشور بانيبال ،فقد كتب هذا الملك في الجيل السابع قبل المسيح ، اسماء الملوك الذين غزا ارضهم بين هؤلاء الملوك ، ناتان ملك النبطيين ، ولعله اراد بالنبطيين انباط العراق، بدليل ان المؤرخين والمستشرقين لم يقراوا اثرا واحدا ، يثبت لهم انانباط وادي موسى كانوا في ذلك الجيل .

اجل ، ان التاريخ لم يعرف شيئا عن هؤلاء القوم ، الا في اوائل القرن الرابع قبل المسيح على اثر الفتح الذي قام به الاسكندر الكبير في الشرق .

قال ديودورس الصقلي المتوفي في القرن الاول قبل الميلاد ، عندما ذكر هجوم انتيكون على بترا سنة ٣١٢:« كان الانباط عشرة الاف رجل لا شبيه لهم في قبائل البدو ، وان بلدهم الوعر القاحل ساعدهم في التمتع بالحرية والاستقلال لانهم كانوا يستغنون عن سائر العالم بصهاريج منقورة في الصخور يملأونها من ماء المطر في الشتاء ويحكمون سدها ويعتصمون في الجبال حولها فلا يصل اليهم فاتح او طامع ، وانهم خلفوا الادوميين في بلادهم ، ومن هو انتيكون هذا ؟ هو احد رجال الاسكندر الكبير الذين

تولوا الامر بعد موته ، وكانت اسيا الصغرى ، في باديء الامر حصة له .

اما مصر ، فقد تولاها رجل يدعى بطليموس ، كما تولى بابل رجل اخر ، كما تولى غيرها غيره ، اي ان ملك الاسكندر الواسع ، ذلك الملك الحب الذي لا تغيب الشمس عنه ، انتهى الى ايدي رجال كثار ، يطمع كل واحد منهم في العرش الاعلى ، عرش الاسكندر نفسه ، وعندما تظهر المطامع ، وتطمع النفوس ، تنشب الحرب ، ويصبح الاخ عدوا لاخيه ، والابن خصما لابيه . .

هكذا جرى بين خلفاء الاسكندر ، كانوا ولاة ، ثم صاروا ملوكا ، ثم رغبوا في التوسع والفتح ، ثم عمدوا الى السيف ، واضحت فلسطين وفينيقيا ، اى سوريا الجنوبية ، الى عكا ، ملكا لبطليموس صاحب مصر الذي كان عدوا لانتيكون . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تحالف ولاة اربعة بينهم بطليموس على ان يسلبوا انتيكون مايملك ، ويقذفوا به الى الهوة ، فحشد انتيكون جيشا كبيرا وزحف به الى سوريا يريد ان ينتزعها من يد عدوه ويقهر الملوك الذين تحالفوا عليه ، فأخذ بطليموس الى مصر ، جميع السفن التى وجدت على شواطىء فينيقيا ، وكثر الحامية في مدن الساحل ، على ان انتيكون لم يبال ، فقد خاض المجال واثقا بنفسه وقوة جيشه ، وفتح غزة ويافا ، وحاصر صور خمسة عشر شهرا حتى استسلمت اليه ، ثم بنى السفن الكثيرة في جبيل وطرابلس ، وبعث الى لبنان بالرجال يقطعون منه الاشجار ، حتى اصبح له في سنة واحدة ، اسطول ضخم دانت له بعده السيادة في البحر .

وبينما هو يصول ويجول ، على شواطىء بيروت وصيدا وصور ، بلغه ان اعداءه انتزعوا من يده بعض مدنه في اسيا الصغرى ، فترك ولده ديمتريوس في فينيقيا ومشى الى بلاده يسترجعها بدماء الرجال ، وكان ديمتريوس من ابطال ذلك الجيل ، غير ان جيش الحلفاء كثر حوله ، واحاطه ذلك الجيش في غزة ، بنطاق من السيوف ، فلم ير الا ان يخضع للقوة ، بعد دفاع شريف خسر فيه ازاهير جنوده ، ولكن بطليموس كان كريما ، فقد اعاد اليه ما سلبه اياه ، من خيام وسلاح ومتاع واسرى دون فداء ، وكان يقول له : ليس الغرض من الحرب المال ، بل الفخار .

فانتقل ابن انتيكون الى شمالي فينيقيا وجعل يحشد الجنود من جديد ويقيم الحصون وراء الحصون ليستعيد الشرف الذى خسره في الجنوب ؛ وكان ابوه قد عرف كل شيء ، فقال لرجال دولته :

« انتصر بطليموس على اولاد فسيلقى عما قليل حرب رجال »؛ ثم طلب اليه ولده يستاذنه في استئناف القتال ، فاذن له ، ونفخ في صدره وهو في اسيا الصغرى روح الحرب التى هي روح الابطال .

ولكن بطليموس لم يسكت ، بل سير احد رجاله واسمه شيل ، على راس جيش جرار الى الشمال ، ليطرد ديمتريوس من سوريا ، وادركه شيل في ضواحي طرابلس واشتعلت النار ، غير ان جنود بطليموس لم يظفر هذه المرة ، بل انطرح قواده ورجاله جثثا تحت حوافر الخيل وسقط قائده الاكبر اسيرا في يد عدوه ، فجمع ديمتريوس عندئذ رجل مشورته ؛ ثم دعا القائد الاسير قائلا له : انك حرمنذ الان وهؤلاء الرجال الذين استسلموا الينا احرار مثلك ، اراد بذلك ان يكون كريما مع بطيموس كما كان هو كريما معه ويظهر له انه من اولئك الرجال النبلاء الذين لا ينسون المعروف .

وبلغ انتيكون خبر ظفر ابنه ، فاقبل على سوريا ليضع يده عليها ورأى بطليموس انه ليس من رجال انتيكون ، فاثر الرجوع الى مصر وهو ملك ، على البقاء في سوريا تحت رحمة الاقدار ، ولكنه هدم القلاع والحصون في عكا ويافا وغزه ، قبل رجوعه ، ونقل الى بلاده جميع ما وصلت اليه يده من متاع ومال .

ويقول يوسيفوس في الفصل الاول من تاريخ اليهود : ان طوائف كثيرة من السوريين لحقت به مختارة الى مصر ، فعادت فينيقيا وفلسطين ، وسوريا المجوفة الى ولاية انتيكون وكان ذلك سنة ٣١١ قبل الميلاد، ولكن انتيكون لم يطمئن ولم يصف له الجو ، فان فرقامن العرب كانت تفاجىءجيشه من حين الى حين ، وتغير على سوريا تنهب وتسبي وتقتل ، ثم تعود الى البلاد التى خرجت منها ، وكانت هذه الفرق عرب الانباط .

وانتيكون ، فاتح غاز لا ينام على ذل ، ولا يصبر على ار ، ولا يطيق

ان يعكر عليه الانباط صفو العيش ، في ملكه الجديد ، فوجه اليهم الييناس ، احد قواد جيشه ، فقتل بعضهم واسترد بعض ما سلبوه وقام في ذهنه انه اذلهم واخضعهم لمولاه ، غير ان القوم لم يريدوا الا ان يسترجعوا مجدهم ، فتركوا بلادهم في احدى الليالي وسبقوه الى مضيق في الطريق فقتلوه وقتلوا معظم الجيش .

ذلك هو اول خبر ذكره التاريخ عن الانباط بصراحة وجلاء ، دون ان يكون هناك انتباس ، بين هؤلاء وانباط العراق . يقول « شارب » (sharpe)

في تاريخ مصر : « كان انتيكون خليفة الاسكندر قد حمل على بطليموس صاحب الاسكندرية فاضطر في مسيره ان يمر ببتراء وهي في ايدي النبطيين فلم ير بدا من محالفتهم او قهرهم .

وكان بطليموس لحسن سياسته قد اجتذب قلوبهم ، فعزم انتيكون على قهرهم ، واغتنم خروج الرجال للغزو وملاقاة بعض القوافل واكتسح مدينتهم ونهبها ، فلقيه النبطيون وهو راجع منها فقتلوا جميع رجاله ، ولكنه اعاد الكرة عليهم بحملة اخرى تحت قيادة ولده ديمتريوس فخاف الانباط كثرة الجند وأووا الى حصونهم ، ثم كتبوا الى انتيكون كتابا بالارامية يعتذرون له عما فعلوه ، ويذكرون فيه انهم دافعوا عن انفسهم فلا يعد ذلك ذنبا ، فاجابهم جوابا لينا واضمر الغدر ، ولكن لم تنطل عليهم حيلته، فتحصنوا وعولوا على الدفاع ، فجاءهم ديمتريوس وشدد الحصار والمدينة ممتنعة ، فلما طال الحصار اطل رجل منهم على السور وخاطب ديمتريوس قائلا : ايها الملك . لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون ببادية لا مطمع فيها لاهل المدن اتحاربوننا لفرارنا من الرق الى بلد لاشيء فيه من مرافق الحياة ؟؟.

ثم قال : اقبل ما ندفعه اليك نظير انسحابك وثق باننا اصدقاؤكم منذ الان ، واما اذا ابيتم الا اطالة الحصار فلا تنالون غير التعب والفشل لانكم لن تجدوا سبيلا الينا ونحن في هذه الحصون . واذا قدر لكم الظفر فلا تنالوه الا بعد ان نموت جميعا ولا يبقى لكم غير هذه الصخور ، فاثر كلام الرجل في ديمتريوس وانسحب عنها »

وثبتت اقدام النبطيين بعد ذلك ، فانشاوا دولة قوية ، وولوا عليها

ملوكا ضربوا النقود واستوزروا الوزراء . وكان ملوكهم يسمون على الغالب باسم الحارث ، وهو باليونانية اريتاس Aretas او عبادة، وفي اليونانية اوباداس Obodas او مالك ، وفي اليونانية ماليكوس Malichus . واول ملك عثر المستشرقون على اسمه هو الحارث الاول وسنعد لك هؤلاء الملوك ونذكر لك الاجيال التي عاشوا فيها في هذا الجزء.

نفوذ بترا

اتسعت دولة الانباط في عهد اولئك الملوك فبسطوا نفوذهم فوق جزيرة سينا من الغرب . وفوق حوران الى حدود العراق من الشرق، ولم يلبث هذا النفوذ حتى خفق في وادي القرى ، في الجنوب ، وفي الحجر ، مدينة ثمود ، ثم طمع بهم الرومانيون بعد استيلائهم على مصر والشام ، وحاربوهم في ايام اغوسطوس ثم تراجعوا دون ان يظفروا بهم .

وكانت بترا مرجعا تجاريا بين الشرق والغرب ، والجنوب والشمال، وظلت كما قرات ، حتى اعادوا الطريق من القصير على البحر الاحمر ، الى قفط على النيل ، فاخذت في التقهقر . وكان الانباط قد تحضروا ، اي انهم انتقلوا من خشونة البداوة ، الى الترف وسعة العيش ،وعمدوا الى الزراعة وبناء المنازل ، ثم انغمسوا وتقلبوا في جميع اسباب الرفاه ، وغاصوا في بحر هائج من الملاذ ، وهذا معناه ان دولتهم بدأت تتراجع الى الوراء ، ثم حنت راسها للذل في ايام الامبراطور الروماني تراجان ، الذي كان قادرا في ذلك الحين على الاستعانة بالجند المصري خواض الغمرات .

ارسل تراجان جنوده الى بترا فدان له اهلها ، وتهادى علم الروم الظافر في فضائها سنة ١٠٦ للمسيح ، ثم ضرب الروم نقودا خاصة بذلك الفتح تذكارا للنصر ، فذهبت قومية الانباط وخارت قواهم تحت وقع الشفار ، ثم اطاعوا وخضعوا الخضوع المطلق ، بعد ذلك التاريخ ، واختلطوا باهل البلاد من السريان او الاراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين سينا والفرات ، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين ، وبارت تجارةبترا وتحولت التجارة الى تدمر كما قرات في رواية زينب .

روما

من هي روما هذه التى كلما رفع ملك راسه في الشرق والغــرب ، ضربت ذلك الراس ؛ وكلما طمحت نفس الى المجد ، تصدت لتلك النفس ؟ ايكون لروما اصبع في كل حرب ، ويد تمتد الى التخريب ، فى كل دولة ؟ وهل تنبت ارض روما الرجال البـلاء ، حتى يطوفوا في ارض كلها فاتحين مدمرين ، ويملأوا بلاد العرب ، واوروبا ومصر ومعظم اسيا هولا ورعبا ؟!

من هي روما هذه التى عرفها قراء الليالي، غازية منفرة ، تحطم التيجان وتثل العروش ، وتزرع جنودها في كل قطر من اقطار العـرب ؟!

انها عفريت من عفاريت الجن له جناحان يطير بهما من قطب الـى قطب . حاملا سيفه يقطر منه السم ، وغضبه ينزله على بني الانسـان !!

وليس بين قرائنا من يجهل الرومان . بلى ان في الامة من يجهل اصل روما واصل الشعب الذي دوخ هذه الاقطار ، فمن الراي ان نذكر لـك شيئا عن هذا الاصل ، لتكون عالما بكل شيء.

الرومان

الرومان ، قبيلة من سلالة يافث بن نوح ، هكذا يقولون ، وقـد تركت اسيا الى اوروبا واقامت بوسط ايطاليا ، ويبتدىء تاريخهم مـن تاريخ بناء مدينتهم رومة ، الذي كان في منتصف القرن الثامن قبـل المسيح .

ولكن المؤرخين لم يجمعوا على السنة التى بنيت فيها فقال بعضهم : بنيت سنة ٧٥٤ ، وقال اخرون : سنة ٧٥٣ ، واخرون سنة ٧٤٩ ، فهب انها بنيت في هذه السـنة او السنة التى قبلهـا ، فليس فى هـذا البنـاء اختلاف يمس جوهر التاريخ .

نسبت روما الى رومولوس الذى قتل اخاه راموس ، لانـه بناها مدينة حقيرة ليس فيها مظهر من مظاهر العظمة ، وعـاد رومولـوس فجعلها مدينة جبارة خالدة فيها عجائب البناء والفن ، ثم خلفه ستـة ملوك في مدة مئتين واربع واربعين سنة ولا سبيـل الـى تحقيـق ما يروى عن هؤلاء الملوك .

ولكن الامر الذي لا بد من ذكره ان شان روما في ايام ملكهم ، بلـغ

المستوى العالي ، ووفرت الثروة لهم فبداوا يبسطون النفوذ ، ويمشون في سبيل التوسع حتى ضموا الاقاليم المجاورة الى مدينتهم ، عروس المدائن في ذلك الزمان ، ثم ثار الرومانيون على حكومتهم سنة ٥٠٩ او ٥١٠ ، واستبدلوا الملكية بحكومة جمهورية يعهدون فيها كل سنة الى حاكمين يسمونهما قنصلين ، وحق الانتخاب ، للاشراف ليس غير ! فتراجعت روما الى الوراء ، واشتد النزاع بين هؤلاء الاشراف الذين يدعونهم بطارقة ، وبين عامة الرومانيين ، وكان الضعف يزداد من يوم الى اخر ، حتى طمعت بروما العشائر المجاورة وكادت تستولي على دولتها لو لم ينهض القوم للامر ، ويتداركوه ، بانشاء ندوة مؤلفة من الاشراف والعامة ، يسمونها اليوم مجلس النواب ، وكان ذلك سنة ٤٩٣ ، ثم تبدلت هيئة الحكومة واسماء الحكام بمرور الزمن ،وكان دور الرومانيين دور اختبار ، ينتقلون فيه من حال الى حال ، وفي سنة ٣٩٨ قبل الميلاد ، غزت روما قبائل «الغال» والغال احدى عشائر فرنسا في ذلك الحين ، واستولوا عليها واوشكوا ان يحطموا ما قام فيها من انظمة وحكومات .

غير ان منايوس ، قنصلها ، وكاميل قائد جيشها ، تصديا للغزاة وطرداهم منها ثم عاد دور الارتفاع فصعد الرومانفي سلم المجد واخضعوا لسلطانهم اهل سيمنيوم الشرقية فاضحت ايطالياكلها في قبضة الرومانيين ، واستفحل امرهم ، وعدوا من اعظم دول العالم ، ونبغ رجالهم في قيادة الجيوش . انظر ماذا فعلت روما في الاجيال الثلاثة التي تقدمت المسيح ، اخذوا قرطجنة ، فتحوا اسبانيا ، وما وراء الالب في فرنسا ، وقهروا اليونان وطردوا السلوقيين من اسيا الصغرى الى ما وراء جبل طوروس ، جعلوا البلاد الفرنسية ، من طولوز الى نيس اقليما لهم، وضموا نوميديا الى ملكهم ، وسحقوا قوى الجرمان والبريتين ، ودوخوا الاقطار ، لا تراهم في الفرب حتى تراهم في الشرق ... حركة دائمة لا تسكت ولا تقف .

نحن الان في سنة ٦٤ قبل الميلاد ، وقد فتح القائد الروماني بمبايوس سوريا ، وخفقت في فضاء هذه البلاد ، اعلام الرومانيين

وكان النزاع قد نشبت ناره من جديد، بين الاشراف والشعب ،فعهدت الامة في سنة ٦٠ الى ثلاثة من مشاهير الرجال ، هم بمبايوس المشار اليه ، ويوليوس قيصر الغازي الشهير الجبار ، وكراسوس الداهيــة ، في تولي شؤون الملك ، وسياسة تلك الدولة الواسعة المنتشرة رعاياهــا في الخافقين .

وظلت هذه حال الرومانيين ، الى سنة ٥٣ التى توفي فيهـــــا كراسوس ، احد الثلاثة وخلا الجو للقائدين الاخرين ، على ان النــزاع لم يلبث حتى ظهر بينهما فكثرت وقائع الحرب ، واستظهر يوليوس قيصر من فاتح سوريا ، ففر هذا الى اليونان ، ثم الى مصر ، حيث قتل بامر بطليموس الثاني عشر زوج كليوباطره المشهورة في التاريخ ، ولكن يوليوس قيصر بكاه ، عندما حملوا اليه راسه ، ثم عاقب قاتليه ، وثل عرش بطليموس ، ورفع كليوبطرة الى عرش مصر سنة ٤٨.

وبعد ان استقام الامر لقيصر وحده ، بل بعد ان اباد اعداءه فــــى افريقيا واخضع اسبانيا وقتل بن بمبايوس الثائر ، عاد الى رومة كمــا يعود الظافر يتلألاء على جبينه اكليل النصر ، وعفا عن جميع خصومــه ، وجمل رومة بالابنية الكثيرة العجيبة ، وهذب شرائعها ، واصلح الحساب الفلكي المنسوب اليه ، غير ان الزمان يدور والدهر غدار لا يثبت على حال فقد اضمر الجمهوريون لقيصر البغض والحقد ، وخبروا الامة انه يريد ان يسمي نفسه ملكا ثم تآمروا عليه براسهم كاسيوس وبروتــوس الذي غمر قيصر بنعمه ، وقتلوه في دار الندوة نفسها ، اي في مجلــس النواب في ١٥ اذار سنة ٤٤ ، ولكن لم يتهيا لهذه العصابة ان تقبض على زمام الحكم ، فان الشعب انتخب ثلاثةمن قوادهم ، هم اوكتاف الذي دعي بعدئذ اغوسطس قيصر ، ومرقص انطونيوس ولابيد .

وكان اوكتاف« اغسطس قيصر » قد زوج أخته اوكتافـــيا ، بانطونيوس ، فاتفقا في بادىء الامر ، وحاربا اعداءهما وظفرا بجميـــع من نازعهما السلطان ، وابعدا رفيقهما لابيد عن الحكومة ، واستبــــدا بالامر ، ثم حدث لهما ما حدث للذين تقدمهما من رجال الحكم ، فالحسد آفة اصحاب الطمع وهو وحده محطم الممالك وهدام العروش .

اجل : لقد حسد احدهما الاخر فانتهى هذا التحاسد الى اقتسام الدولة ، اوكتاف اخذ المغرب ، وانطونيوس اخذ المشرق ، غير ان الحرب تهدأ بينهما ، فان انطونيوس هام بكليوبطره ملكة مصر وترك زوجته اوكتافيا اخت اغوسطوس لا يعبأ الا بعشيقته ، فغضب سيد الغرب على سيد الشرق ، وسعرها عليه حربا بحرية عوانا ، تجاه اكيوم، في طرف اليونان الغربي ، دارت الدوائر فيها على انطونيوس وفر بعشيقته كليوبطرة الى الاسكندرية ، ولكن أوكتاف لم يكتف بظفره ، بل تبع عدوه الى البلاد الى فر اليها ، ورأى الاخر ان لا مفر له من الموت ، فآثر الانتحار على ان يقع في يد عدوه ، واغمض الموت عينيه سنة ٣١ قبل المسيح.

اما كليوبطرة فافرغت جعبة دهائها ، واستعانت بالدلال والجمال ، على اقتناص قلب اوكتاف ، كما اقتنصت قلبي انطونيوس وقيصر فلم تستطع ، ان قلب اوكتاف كان حجرا لا يرحم ولا يلين ، فاهينت الملكة الفتانة ، في كبريائها ويئست من الحياة ، ففعلت كما فعل انطونيوس ، ورات الانتحار ، خيرا من العار .

قالوا : امرت فاحضروا لها حية في وعاء ملأه تينا ، فمدت اليها ذراعها فلدغتها وتمشى السم في احشائها فماتت ، وقالوا سرى السم في جسمها بابرة ، وكان عليهم أن يقولوا انتحرت وينتهي الامر ، فاخذ اوكتاف الاسكندرية ، وجعل مصر اقليما رومانيا ، وعاد الى رومة ظافرا سنة ٢٩ فسماه رجال الندوة امير الشورى ، وامبراطورا ، ثم دعوه اغوسطس اي سعيدا ، وابتدات به الحكومة الملكية سنة ٢٧ ، وهو ابن اخت يوليوس قيصر العظيم ، الذي رباه ، واتخذه ابنا له ، هؤلاء هم الرومانيون الذين دوخوا العالم قبل المسيح ، واحفاد هؤلاء هم الذين قوضوا اركان الممالك العربية ، في هذا الشرق .

آثار الانباط

اتسعت مملكة الانباط وشملت هيبتهم معظم جزيرة العرب ، فى الشمال ، وكانت مؤاب ، والبلقاء ، وحوران ، وشبه جزيرة سينا ،وارض مديان ، واعالي الحجاز ، تابعة بترا .

واما اشهر المدن التى دخلت في حوزتهم بصـــرى واذرع ، وعمان ، وجرش ، والكرك ، والشوبك ، وايلة ، ومدائن صالح ، تشهـــدبذلك النقوش والكتابة التى عثروا عليها بلسانهم على انقاض تلك المدن ولا سيما في بترا والحجر والعلاء وحبران ، صلخد ، مأدبا الوادي المكتـــب فـــى سينا ، وقد حل المستشرقون هذه النقوش ، في اواسط القرن الماضي واخره ، ووجدا نقوشا في لغتهم ، في دمر ، على حدود دمشق . واغـرب من هذا كله ، انهم عثروا على كتابة نبطية ، في ميناء بيتولي في ايطاليـــا فحواها ان رجلا اسمه صيدو ، وقف في السنة الرابعة عشرة من حكـم الحارث الرابع ، شيئا من مقتنياتــه على اسم هذا الملك وزوجته ، واحسـن من وصف اداب النبطيين واخلاقهم ، ديودورس الصقلي ، فـي القـرن الاول قبل الميلاد ، فكتب ما عرفه بنفسه قال : « ان الانبـــاط يعيشـون في البادية الجرداء التى لا انهر فيها ولا سيول ولا ينابيع ، ومـن امهات قوانينهم ، منع زراعة الحبوب ، واستثمار الشجر ، وتحريم الخمـر ، وبناء المنازل ، ويعاقبون من يخالف ذلك بالقتل، ويقتـــات بعضهم بلحوم الابل والبانها ، والبعض الاخر بالماشية او الغنم ، ويشربون الماء المحلـى بالمن ، ومنهم قبائل عديدة تقيم بالبادية ، ولكـن النبطيين اغنى تلك القبائل ولا يزيد عدد رجالهم على العشرة الاف ، اما ثروتهم فمــن الاتجـــار بالاطياب والمر وغيرها من صنوف العطور يحملونها من اليمن وغيرهـــا الى مصر وشواطىء البحر المتوسط ، ولم تكن تمر تجارة في ايامهم ، بين الشرق والغرب الا على يدهم، ويحملون الى مصر القـــار لاجـــل التحنيط ، وكانت حريتهم اثمن ما عندهم ، فاذا دهمهم عدو يخافـــون بطشه فروا الى الصحراء وهي امنع حصن لهم لانها خالية من الماء ، فـلا يدخلها سواهم الا مات عطشا ، اما هم فيشربون من صهاريج سريـــة ، مربعة الشكل ، منقورة في الصخر تحت الارض يختزنون المـاء فيهـا ، ولها فوهات ظاهرها ضيق وباطنها واسع ، اتساع احدها ثلاثون مترا مربعا فيملأونها بمياه المطر ، ويحكمون سدها بحيث يخفى مكانها على غير العارف ، ولهم على فوهاتها علامات ترشدهم اليها لا يعرفها سواهم .

اما الملوك الذين قرأ الباحثون والمشرقون اسماءهم علــى النقــود او الاثار حتى اليوم ، فهم ثلاثة عشر ملكا ذكرهم ديسو (Dussaud) ونقلهم كتاب العرب ، قبل الاسلام كما ترى :

اسم الملك	سنة الحكم
الحارث الاول	١٦٩ قبل المسيح
زيدايل	١٤٦ قبل المسيح
الحارث الثانى الملقب ايرونيموس	١١٠ قبل المسيح
عبادة الاول	٩٠ قبل المسيح
ربال الاول ابن عبادة	٨٧ قبل المسيح
الحارث الثالث ابن ربال	٦٢ قبل المسيح
عبادة الثاني ابنه	٤٧ قبل المسيح
مالك الاول ابن عبادة	٣٠ قبل المسيح
عبادة الثالث ابن مالك	٩ قبل المسيح
الحارث الرابع « الذي نكتب تاريخه »	
الملكة خلدو زوجته	٩ الى ٤٠ بعد المسيح
الملكة شقيلة زوجته	
مالك الثاني ابن الحارث الرابع	
الملكة شقيلة زوجته	٤٠ ــ ٧٥
ربال الثاني الملقب سوتر بن مالك الثانى	
الملكة شقيلة والدته اثناء وصايتها عليه	
الملكة جميلة امرأته	
مالك الثالث	١٠١ ــ ١٠٦

وهو الملك الذي انتهت في ايام ملكه دولة الانباط .

وقد يجد المستشرقون ، في هذا الجيل الآرا تنقل اليهم اسمــاء ملوك اخرين غير هؤلاء فالارض تخفي في جوفها اسرارا كثيرة من اسرار الزمان ، وهذه خلاصة ما عرف من اخبار هؤلاء الملوك ، على ما ذكــره دي فركوي ، وكاترمير الفرنسي ، وكوسين د يبرسفال وسواهم .

الحارث الاول

كان معاصرا لانتيكون ايفان السلوقي في ملك سوريا نحو سنة ١٦٩ قبل المسيح ، وبطليموس فيلوماتر صاحب الاسكندرية ، ووقع بين البلادين قتال غلب فيه السلوقيون ولعلهم استعانوا بالانباط .

زيد ايل

كان معاصرا للاسكندر ملك سوريا الذى جاء ذكره في سفر المكابيين وكان على الاسكندرية في زمانه ، بطليموس اترجب الثاني ، سابع البطالسة .

الحارث الثاني

كان في ايام بطليموس الثامن صاحب الاسكندرية المتوفي سنة ٨٢ قبل المسيح، واسكندر يانوس صاحب سوريا ، المتوفي سنة ٧٩

الحارث الثالث

لهذا الملك شأن عظيم في تاريخ هذه الدولة ، لانه استولى على البقاع في سوريا ، ودعاه الدمشقيون ليتولى امرهم لانهم كانوا يكرهون بطليموس، فملكهم سنة ٨٥ ، وكانت دمشق عاصمة السلوقيين ، فتربع في عرشها ، ولقبوه من اجل ذلك فيلهلين (Philhelene) اي محب اليونان ، وهو الذي اشترك في النزاع الذى قام بين الاميرين المكابيين هركان وارستوبولس متشيعا للاول منهما ، وحاصر اورشليم لهذه الغاية ، لكن الرومانيين الذين انتصروا لارستوبولوس ردوه عنها ، واكرهه القائد الروماني سكاوروس على الالتجاء الى « ربة عمون » اي عمان التي كان اليونان يسمونها فيلادلفيا ، فر اليها مع هركان ، فادركهما ارستوبولوس في مكان يدعى بابيرون وغلبهما ، وقتل ستة الاف جندي من رجالهما ، وبعد ثلاث سنوات كان سكاوروس المشار اليه قد اصبح واليا على البقاع ، تحت رعاية فاتح سوريا العظيم ، بومبايوس ، فحمل على بترا ، فاعجزه الوصول اليها لوعورة الطريق ، وقلة الزاد لجيشه ، فاثر الرجوع عنها بمبلغ من المال اخذه من الحارث فيلهلين .

والحارث اول من ضرب النقود من الانباط ، اقتبس ذلك من

اليونان في اثناء ملكه على دمشق، وقد وجد بعضهم دينارا عليه نقش يرمز به عن اتفاق الحارث وسكاوروس ؛ وصورة جمل وشجرة عطرية .

عبادة الثالث

ليس لعبادة الثاني ومالك الاول ؛ خبر يستحق الذكر . اما عبادة الثالث فقد غزا ، القائد الروماني اليوس غالوس ، في ايامه بلاد العرب ، واستعان في غزوته هذه بالنبطيين ، وكان سترابون ، الرحالة اليوناني معاصرا له ، فذكر هذه الغزوة في رحلته قال : « ان اغسطس قيصر بعث سنة ١٨ قبل المسيح ، حملة بقيادة اليوس غالوس عامله على مصر لفتح جزيرة العرب واستنصر النبطيين ، وكان لعبادة الثالث وزير يدعى سيلوس ، وقد اظهر الانباط رغبتهم في نصرة القائد الروماني ، وسيلوس على راسهم ، يقول سترابون : ان هذا الوزير خدعهم ، فذهب بهم في طرق وعرة اعجزهم السير فيها فقضوا اياما قاسوا بها العذاب الشديد، واخر موضع بلغوه ، بعد ذلك العذاب ، مدينة دعاها سترابون بلد الرأمانيين(Ahamanitea) وملكها اسمه اليزاروس .

اجل ينسب سترابون فشل الحملة الى خيانة وزير النبطيين ، ولكن يرى المطلعون أن سترابون اخترع ذلك العذر لتبرئة اليوس غالوس لانه صديقه ، ووصل القائد الروماني الى نجران ، ومر بالجوف الجنوبي، وما زال ينتقل من بلد الى بلد حتى وصل الحجر وهي يومئذ تابعة ترا ، وسار منها الى البحر الاحمر ، ومنه الى مصر ، بعد أن قضى في هذه الحملة ستين يوما ، وقد كتب المستشرق سبرنجر اخبار هذه الرحلة وذكر كل شيء.

ويذكر المستشرقون ، بعد عبادة الثالث ، الحارث الرابع الذي تقوم هذه الرواية على الحادثات التي جرت أيام ملكه ، ولم يكتبوا شيئا من الملوك الذين جاءوا بعده لان الدولة كانت قد بدات بالاضمحلال واشتركت النساء في شؤونها حتى ضربن النقود باسمائهن مع رجالهن ، واخر ملك ، هو مالك الثالث الذي خسر ملكه، سلبه اياه القائد كرنيليوس ايام القيصر تراجان سنة ١٠٦ كما مر .

الانباط عرب

قال كاتر مير الفرنسي: ان هؤلاء الانباط من اهل العراق لان النبط يطلق على سكان ما بين النهرين ، ولغة الانباط التى قراوها على الانقاض ارامية ، ماخوذة عن لغة ما بين النهرين ، وانهم هاجروا من الانباط الى ادوم في ايام بختنصر، وذهبت طائفة اخرى من المؤرخين ، مذهب اهل التوراة فقالت : انهم من سلالة بنايوط بن اسماعيل ، وقال اخرون: انهم من جبل شمر – في اواسط جزيرة العرب – نزحوا الى جزيرة العراق لما فيها من الخصب والرخاء فمكثوا هناك حتى دهمهم الاشوريون او الماديون فاخرجوهم من ذلك الوادي.

وقال بعضهم : ان الانباط غادروا شواطىء خليج العجم الى بترا . ويقول المستشرق الفرنسي كوسين دي برسفال انهم عراقيون . جاء بهم بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين ، وهذا راي كاترمير الذى مر ذكره ، اما الان فيجب ان تعلم اذا كان هؤلاء الانباط عربا ام اراميين ، يرى دي فوكوي : انهم عرب ،للاسباب الاتية :

اولا : اسماء الاعلام عندهم .

ثانيا : اسماء معبوداتهم .

ثالثا : استعمالهم ال ، حرف التعريف ، وتسمية يوسيفوس المؤرخ اليهودي اياهم عربا ، ويرى صاحب كتاب العرب قبل الاسلام : انهم عرب للاسباب الاتية : اولا قول الذين عرفوهم من مؤرخي اليونان فانهم يسمونهم عربا ، اسماءملوكهم وللاعلام دخل كبير في بيان اصول الامم .

قد يقول قائل ان هذه الامة قد تسمي ابناءها باسماء امة اخرى ، كما يفعل نصارى الشرق في هذا العهد فيسمون ابناءهم باسماء فرنجيه ؛ ولكن ذلك لا يكون الا بتقليد الضعيف القوي وهذا لا ينطبق على بترا لان العرب لم تكن يومئذ اهل تمدن وسطوة وانما كان التمدن للاراميين والبابليين .

والقائلون ان اهل بترا اراميون يستندون الى الحان لغتهم ارامية

وان لفظة ، النبط تطلق عند العرب على اهل العراق . وهو رأي وجيه كما ترى ، غير ان مؤرخي اليونان الذين سموهم عربا قد عاصروهم وهم اعلم الناس بهم ، نعم ان اللغة التى قراوها على اثارهم ارامية ، ولكنها ليست هي لغة التكلم عندهم بل لغة الكتابة . وان النبطيين فرقة من العمالقة في العراق الذين هجروا ضفاف الفرات بعد ذهاب دولة حمررابي من العراق ، وتفرقوا قبائل وبطونا في جزيرة العرب ، ولعلهم هم الارمانيون المتسلسلون من ارم كما يقول ابن خلدون فالنبطيون قبيلة منهم قامت زمنا على شواطىء خليج العجم وكانت ترتزق بنقل التجارة في البادية بين ذلك الخليج والبحر المتوسط والبحر الاحمر عرفوا ادوم فاستولوا عليهم وجعلوا بترا عاصمتهم .

ومن كلام ابن خلدون : اول ملك للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة ثم لبني ارم بن سام يعرفون بالارمانيين . وقال حمزه الاصفهاني : الارمانيون نبط الشام والاردوانيون نبط العراق .

اللغة

اما لسانهم فعربي مثل اسمائهم ، ولا عبرة لما وجدوه منقوشا على اثارهم باللغة الارامية فانها لغة الكتابة في ذلك العهد مثل اللغة الفصحى في هذه الايام . فلو ذهب اهل هذا الجيل ، من سكان مصر والشام ، وذهب لسانهم الذي يتكلمونه ، ثم اراد اهل الاجيال القادمة ان يستدلوا على جنسنا من اثارنا الكتابية ، لحسبونا من اهل البادية او من قريش، لاعتمادنا على لغة قريش في الكتابة ، ذلك كان شأن الدولة القديمة فى الشرق ، ولكل دولة في هذا الزمان لغة رسمية تذيعها بين القوم فيتكاتبون بها وينقشونها على اثارهم كما تتراسل دول اوروبا بالفرنسية واهل الشرق الاقصى بالفارسية ، فاللغة البابلية كانت اللغة التى يتكلمها اصحاب السلطان ، من الساميين في العراق وما حولها ، واخذوا يكتبون اوامرهم ويدونون اخبارهم بها ، بالحرف المسماري الذى اقتبسوه ، وشاع استعمال هذه اللغة في الدولة البابلية على اختلاف عناصرها حتى صارت لغتها الرسمية يتكاتب بها اهل العراق وفارس وغيرها ،ظلوا على ذلك اكثر من الفي سنة واللغة واحدة لم يحدث في الفاظها تغيير يستحق

الذكر ، ولكن ليس من الطبيعي ان تبقى كذلك على السنة الناس ، فهي لا بد لها من أن تتفرع الى لغات كثيرة كما جرى للغة قريش قبل انقضاء الالف الاول على ذيوعها ، فعلى هذا القياس تفرعت لغة بابل على السنة المتكلمين ، الى لغات شتى احداها الارامية ، واما لغة الكتابة فبقيت على ما هي وكانت تكتب بالحرف المسماري.

ولما انقضى العصر البابلي والاشوري ، قامت اللغة الارامية مقام اللغة البابلية في السياسة والتجارة ، وقد اصبح في حكم الثابت الان ان المخابرات السياسية الرسمية واللغة التجارية ، التي كانت لسان الامم الحية ، في القرون الاولى قبل الميلاد ، في بابل واشور وفارس ومصر وفلسطين انما هي اللغة الارامية ، وهي لغة بترا ، واللغة التي كتب بها « البابيروس » الذي عثروا عليه من زمن في اصوان ، في القطر المصري، ويظن أنها كانت لغة التكلم في بابل .

ولما ضعف الاشوريون ، وتراجعوا الى الوراء ، كانت الحروف الهجائية التي ينسبون اختراعها الى الفينيقيين قد شاعت في العالم المتمدن ، واصبحت فروعا كثيرة من جملتها القلم الارامي وقد استخدمه البابليون لتدوين لغتهم العامة ، فضلا عن اللغة الرسمية الخاصة ، وشاع هذا القلم ولغته في الامم التي كانت متحدة بدولة البابليين .

اما العرب الذين خالطوا الشعوب المتمدنة في ذلك الحين ،بتجارتهم وسياستهم ، كانوا مكرهين على معرفة لغة رجال الدولة واهل الوجاهة، لاستخدامها في اعمالهم وتدوين غاياتهم ، فتعلموا اللغة الارامية ،وكتبوها بالقلم الارامي لسهولته ، ثم تنوعت هذه الاقلام بتوالي الاجيال ، فاصبحت فروعا كثيرة عرفت بالاقلام الارامية ، اشهرها عند الساميين القلم التدمري ،في تدمر والنبطي في بترا وغيرها ، واشكال هذه الاقلام وصورها متشابهة مثل تشابه تلك اللغات ، وهي في كل حال غير لغة التكلم ، وان تقاربت في معظم الالفاظ ، لهذا السبب نفسه ، اضطر الجرمانيون ، الذين نزلوا المملكة الرومانية الى تعلم اللغة اللاتينية ، وجعلوها لغتهم الرسمية ، في حين ان لكل طائفة منهم لغة خاصة .

وظلت اللاتينية لغة النقش والعلم ، ولغة الاثار في اوروبا ،

اجيالا كثيرة بعد زوال دولتها. ولكل امة من اممها لغة تتفاهم بها ، ولـم تهمل اللاتينية ، وتدون اللغات العامية ، الا في نهضة هذا التمدن ، كمـا دونت اللغة العربية في نهضة الاسلام بعد ان كانت لغة الكلام ، والاراميـة لغة التدوين ، فاللغة التى نقراها على اثار بترا وغيرها من اطلال الانبـاط ارامية ، واما لغة الكلام فكانت عربية ، واللغتان مرتبطتان بامهما القديمة، لغة بد والاراميين او اللغة البابلية القديمة ، بعلامة تشتركان بها دون سائر اللغات السامية هي حركات الاعراب في اواخر الكلمات ، في بعض الاحوال . واللغة الارامية التى تعلمها الانباط وكتبوا بها ، غير الاراميـة المعروفة اليوم، وفى تلك اللغة اثر من لغة العرب التي كان يتكلمهـا ذلك الشعب .

وقد كتب رجل من الانباط ، يدعى عائذ بن كهيل ، على قبـره في مدائن صالح، في السنة الاولى قبل الميلاد ، في زمن الحارث الرابع الـذى نكتب تاريخه ، عهدا بالحرف الارامي، مؤلفا من تسعة سطور ، يقـرا بالاحرف العربية هكذا :

دنه قبرا دي عيدو بر كهيلو بر
الكسي لنفشه وبلده واحره ولمن دي ينفق بيده
كتب تقف من يد عيدو قيم له ولمن دي ينتن ويقبر به
عيدو بحيوهي بيرح نيسان شنة تشع لحرتت ملك
نبطو رحم عمه ولعنو ذو شرا ومنوتو وقيشه .
كل من دي يزبن كفرا دنه او يزبن او يرهن او ينتن او
يؤجر او يتالف علو هي كتب كله او يقبر به انوش .
لهن لمن دي علا كتيب وكفرا وكتبه دنه حرم .
كحليقت حرم نبطو وشلمو لعلم علمين .
وهذه ترجمتها باللغة العربية ، كل سطر على حدة
هذا هو القبر الذى بناه عائذ بن كهيل بن
القسي لنفسه واولاده واعقابه ولمن يكون في يده
كتاب من يد عائذ يبيح له ولاي واحد يخوله عائذ في حياتـه ان يدفن فيه .

في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك
الانباط محب لشعبه ، ولعن ذو الشرى ومناة وقيس
كل من يبيع هذا القبر او يشتريه او يرهنه او يهبه او
يؤجره او ينقش عليه شيئا اخر او يدفن فيه احدا
الا الذين كتبت اسماؤهم اعلاه ، ان القبر وما كتبت عليه حرم مقدس

حسب القاعدة التي يقدسها الانباط والسلاميون الى ابد الابدين.

على ان اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون ، لم تكن نفس اللغة التي عرفت في صدر الاسلام ، ان بين اللغتين فرقا يقضي بوجوده ناموس الارتقاء ، ولعل لغة الانباط ، كانت اقرب الى ما قراوه على قبر عمرو بن امرىء القيس في خرائب نمارة بحوران ، فاذا قرات لغته اتضح لك انتقال وتحول اللغة من حال الى حال عملا بناموس الارتقاء .

وهذه هي الكتابة بالحرف النبطي ، وتقرأ بالحرف العربي هكذا :

في نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج
وملك الاسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
بزجو في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب وكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذوولده

اما تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى فهو هذا :

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
واخضع قبيلتي اسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
الظفر الا اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل بنيه
على القبائل وانابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ مبلغه
الى اليوم ، توفي سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من ايلول وفق بنوه للسعادة

اما سنة ٢٢٣ التي قرات ، فهي ان اهل الشام وحوران كانوا يؤرخون في ذلك بالتقويم البصروي نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو

يبدا بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد ، فاذا اضفت ١٠٥ الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ وهي السنة التى توفي فيها امرىء القيس .

فالانباط اذن عرب يتكلمون العربية ، ولغتهم الكتابية الارامية تنم عن اصحابها العرب ، يؤيد ذلك اجماع مؤرخي اليونان على تسميتهم عربا ، كما يؤيده قول يوسيفوس : ان أدوم قسمان ، قسم يسكنه العمالقة اي الانباط والاخر في جنوبي فلسطين ، زد على ذلك اهل التوراة حيثما ذكروا النبط او ابناء نبايوط ، ارادوا العرب ، فعندهم ان نبايوط وقيدار ابنا اسماعيل جد عرب الحجاز

● ●

١

الحارث الرابع

ابن مالك الاول وشقيق عبادة الثالث ، انتقل اليه الملك ، في السنة التاسعة لميلاد المسيح، وهو عربي جبار ، العظمة والمروءة في صدره ، والخلق العالي مذهبه في حياته ، وهو رجل نظام ، ورجل حرب ، الناس في دولته ، اخوان في نظره ، لا يؤثر احداً على احد في مجالس عدله ، ولا يطيق ان يستبد القوي بحق الضعيف ، ولو كان ذلك القوي كبير وزرائه او ولي عهده . .

بلى ، كان يؤثر الشجاع على الجبان ، ويغدق نعمه على فتيان الميادين الذين يسبقونه الى حمل السيف ، في مواقف الفخار ، يؤثرهم بالاحسان والعطايا ، ويحيط اهلهم باسباب السعة والرفاه ، ليحمل اولئك الجبناء على خوض المجال ، بقوة وايمان ، حتى اضحت الحرب احب الى الانباط من رعي النوق في الخلاء ، واعز عليهم من الصلاة في هياكل الالهة . وكان كريما جوادا ، يهب المال بدون حساب ، للمخلصين لعرشه ، الصادقين في خدمته ، والمقيمين على عهده ، والويل للخائن الذي يظهر الحب ويضمن البغض ، فالملك يقظان يعرف كل شيء وعيناه عينا نسر تريان كل شيء.

وبلاط الحارث ، ذلك البلاط المحفور في الصخر ، يغص بنبلاء الانباط واشراف العاصمة ، وجميعهم من اولئك الرجال الذين يرون ملكهم الها لهم يستحق ان تبذل له الارواح، وانك لتستطيع ان تقول، ان للحارث الرابع ، صفات الملوك الطيبة ، وادبهم الغزير ، وبعد نظر السياسيين ومرونتهم ، والدهاء الذي يعرفون به ، وهو صعب المراس في مواقف القوة ، سهله في مواقف الضعف كانه لم يكن يريد ان يكون خصمه اقوى واكرم نفسا منه . وعلى رغم ذلك الجود الغريب الذي عرف به ، كان عيشه في القصر ، بعيدا عن الترف والبذخ وعيش اللذات

بل كان اقرب الى حياة البداوة منه الى حياة القصور .

ان نقول ان حياته في بلاطه لم تكن حياة ملك ، بل هي حياة رئيس عشيرة في البادية يطوي خيمته وينشرها عندما يشاء. العبيد والغلمان كثار في القصر ، والجواري يملأن حجزاته، ومعظمهن من فلسطين ودمشق ، ولكن ليس في هذا كله دليل على تمرغ الملك في احضان الدلال ، ولم تكن ابهة الملك ، تقضي على الملوك بان يجروا في قصورهم اذيال النعمة ، لما رايت في منزل الحارث ، غير جاريتين تعدان الطعام لاضيافه وعبدين يحملان ذلك الطعام !!

ولكن نسينا ان في البلاط ملكتين ، هما خلدو وشقيله زوجتا الحارث ، والنساء في جميع ادوارهن ، يؤثرن الظهور بمظاهر العز ، على الحياة الصامتة والعيش الجاف . اذن فعبيد القصر وجواريه كانوا عبيدا وجواري للملكتين ، أما الملك فلم يكن يبالي الا بشعبه وكرامة قومه ، وحفظ هيبته في نفوس مجاوريه أمراء اليهودية ورؤسائها ، عمال الرومانيين ، وكان يحب زوجتيه حبا غريباجاوز فيه حدود الحب، ولم يشأ الا ان يجعلهما شريكتين له في ملكه ، لهما راي مثل رايه ،ونفوذ يشبه نفوذه ، والزوجتان من بنات الاسرة المالكة في بترا ، وليس في البلاط من يجرأ على اغضاب الملكتين ، فهما قطعة من روح الحارث ، وقلبه، وسبب من اسباب هنائه وراحته . ورجال الدولة جميعهم يعلمون ذلك ويثقون بان ارادة الملكتين هي ارادة الملك ، وكل كلمة تلفظها احداهما تخرج من فم الالهة . وبلغ من دلال الاثنتين انهما كانتا تشهدان مجالس المظالم مع الملك ، ولكن دون ان ترحما مذنبا ، او تسعيا للحكم على بريء. واغرب من هذا كله، ذلك الاتفاق الذي ينشر ظله فوق المراتين كانهما شقيقتان تتمنى الواحدة منهن للاخرى ما تتمناه لنفسها ، وليس لشقيلة اولاد ، فولدا الحارث هما ولدا خلدو ، ولم تنعم الآلهة على الملك الا بهذين الولدين . وكانت المراتان تحبان الحرب، كما يحبها الحارث ، ولو اراد لرافقتاه الى الميادين تنفخان الايمان في صدور جيشه ، وتوحيان الظفر الى الصفوف . وليس غريبا ان يكون شانهما شأن الرجال ، فهما ابنتا رجلين كانا فارسي بترا ، ورفيقي الملك ، قبل ان يملك في حرب الانباط مع هيرودس الكبير ملك اليهودية السفاح.

اجل ، لم يكتب النصر للعرب في تلك الحرب ، ولم يرجع عبـــادة الثالث منها رجوع الظافر ، ولكنها كانت درسا له ولشقيقه الحـــارث ، ولاهل بترا . وقد حفظ الحارث للرجلين،منذ ذلك اليوم ، اجـل مـا يحفظه لاصحاب صهره والمقربين اليه ، ولم يعد الى بترا ، حتى اصبحت خلدو وشقيلة ، زوجتين له . ولم ينس ،عندما تربع في العرش ، حرب هيرودس ، بل كان همه ان يخطب ود اليهودية جارتـه ، ويحفظ السلام بين الشعبين ، ريثما تستعيد بترا القوى التى ضيعتها في تلك الحرب .

لقد كان الرومان يسندون دولة اليهود كما سيجيء ، فليـس من الراي ان يستهين الحارث بالدولتين ، ويعكر الجو بينه وبين فلسطين ، ولكن ، عندما يخطر لامراء اليهود ورؤسائهم ان ينتكهوا حرمـة بترا ــ او يجرحوا كرامتها ، يخطر له عندئذ ان يقتحم المجال ولو خسر حياتـه . نعم ان هيرودس الكبير قد مات ، مات في السنة التى ولد فيها السيـد المسيح، ولكن في اليهودية هيرودس اخر ، وولاة يخضعون للروم بـل تجد في اليهودية بغضا يضمره القوم للانباط العرب ، فخير ما يلجأ اليه ملك بترا ، ان يجعل هؤلاء القوم حلفاء لدولته لتستطيع بترا ، بفضـل هذه المحالفة ، وفضل السلام الذي ينشر ظله فوق الامتين ، ان تبلغ فى نهضتها المستوى العالي الذي تتوق اليه ، وترغب فيه ، وهو دهاء من الملك يعترف له به المؤرخون ، فقد كانت اليهودية في ذلك العهد اتونا تضطرم فيه النار ، وكان القوم فيها فوضى، في السياسة والاحكام، والمطامع ، والمسيطر الروماني ، الذي لا يعرف له هوى ، يضـع يـده على البـلاد، وملوك مصر وسادتها يتنازعون عن السلطان ، وفي اليهودية حزب لهـم ، وحزب عليهم ، ورروما ، وروما نفسها تطويها السياسة وتنشرها في كل شهر ، والعرب في معاقلهم ، قذى في عيون هؤلاء، ومرجع لهؤلاء .

ولم يكن الحارث يعلم ما يحفظه له امراء اليهود في الصدور ، حتى ان جواسيسه الذين ارسلهم الى بلاد جيرانه ، لم يستطيعوا ان يقـرأوا الاسرار ، وقبل ان نذكر جميع اعضاء بيت الحارث ونصفهم لـــك ، نكتب لك فصلا مختصرا عن حال اليهودية ايام هيرودس الكبير ، وايـام ابنائه اصحاب العلاقة مع الانباط ، نذكر لك ذلك لان نار الحرب كانـت تخمد حينا ، ثم تشتعل حينا اخر بين اليهود والعرب فى ذلك الزمان ،



هيرودس الكبير

كان رجل يهودي ، يدعى سمعان المكابي ، رئيس الكهنة في اليهودية وواليا في الوقت نفسه ، يتصرف في امر ولايته كما يشاء ، فلما مات . خلفه ولده يوحنا هرلان ، في الولاية والرياسة ومد رواق نفوذه في اقاليم كثيرة في سورية وفينيقية واشتبد ما طاب له الاستبداد ، في امور ولايته ، ثم ارسل وفدا الى روما يجدد عهد الولاء بينه وبين الرومانيين فجددوه له ، واظهروا الرضى عن عمله في بلاد اليهود . وكانت السامرة قد تمردت على هذا الوالي ، فافتتحها على رغم ملك دمشق وملك مصر ، واستفحل امره في هذه الاقطار وغدا من مشاهير الملوك ، وكان موته سنة ١٠٧ قبل المسيح ، فسمي ولده ارسطوبولس ملكا على اليهود بعده ، واشرك اخاه انتيكون في الملك معه ، ولكن عهد ملكه لم يطل ، فقد تربع في العرش اخوه اسكندر ، وكان غازيا ، فافتتح غزه وعكا وكانت كليوباطرة ملكة مصر ، وهي غير عشيقة انطونيوس عونا في حروبه ، ولكنه طغى ، بل جاوز الحد في طغيانه ، فأضمر له اليهود البغض ، حتى انهم ضربوه على راسه بثمار الليمون ، عند دخوله الهيكل في عيد المظال .

على انه لم يسكت ، بل خرج عليهم بحرسه فقتل منهم ستة الاف رجل وجعل له ، منذ ذلك الحين ، حرسا من كيليكيا يرافقونه في رواحه ومجيئه . وعندما اخمد نار الثورة ، ثورة اليهود ، ارسل نظره الى الاقاليم التى تجاور اليهودية ، فلم ير اقرب اليه من عرب الانباط ، فتقدم جيشه زاحفا الى بترا سنة ٩٤ ، وكان عبادة الاول على عرشها ، وتبارز الجيشان خارج بترا فخسر عبادة الحرب .

ثم غزا الموابيين فظفر ، وضرب الجزية على جميع اعدائه ، ولم يلبث اعداؤه حتى هاجموه بعد حين يقتلون من جيشه ، ويقتل من جيوشهم حتى استمرت الحرب ستة اعوام وحتى قتل من الفريقين خمسون الفا ، وانتهت الحرب بظفره ، ثم اصيب بالحمى ، وهو في

التاسعة والاربعين من عمره ، واحس بالموت الذي لا يرحم احدا يدنـــو منه فاوصى بالملك لزوجته اسكندرة ، ولفظ روحه بين ايدي ولديــه هركان وارسطوبولس ، فملكت اسكندرة ، وجعلت الفريسيين اعوانـــا لها ، والبست ولدها هركان تاج رئيس الاحبار وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة .

فدب الحسد في صدر اخيه الاخر ، واخذ يستوي النفوس ، ويوغر الصدور ، حتى انضم اليه معظم الشعب ومعظم الجيش ، واكرهوا اخاه هركان على الخضوع له على ان يتخلى له عن تاج الملك ورياسه الكهنـوت وان يعيش كأحد الناس تحت حماية اخيه منصرفا الى ادارة املاكـــه .

انتيباس

لم يهنأ ارسطوبولس بسرير ملكه ، فان رجلا ادوميا ، اكرهه يوحنا هركان على ان يتهود ، اقام اليهودية واقعدها دفاعا عن هركان المخلـوع :

هذا الرجل هو انتيباس ، ابو هيرودس الكبير . كان انتيبــاس من رجال الملكة اسكندره ومن المقربين الى بكرها هركان ، وكان يطمـع بان يرفع هركان مقامه اذا استوى في عرش الملك ، فلما خلع الشعـب هركان ، كاد يضيع رجاءه ، ثم نهض ليدافع عنه بالحيلة ، والدهــــاء والسيف ، وهو واثق بانه سيستطيع ان يعيده الى العرش

واقبل يستفيث بالعرب ، عرب الانباط ، وملكهم يومئذ الحارث الثالث الذى قرات شيئا عنه ، فزحف الحارث الى اورشليم وحاصرها، ولكنه اضطر عند وصول سكاوروس القائد الروماني ، الـى ان يرجــع الى عمان . وفى ذلك العهد اتى بمبايوس الروماني الفاتـح الى سوريـا ، سنة ٦٤ و ٦٥ ، واراد ان ينظر في دعوى الاخوين ، فدعا ارسطوبولـس الى دمشق ، فاقبل ، واقبل وراءه طائفة كبيرة من اليهود تسال الفاتح الروماني ان يعزل الاثنين لانهم لم يتعودوا ان يخضعوا لملك منهـم بـل لرئيس كهنة .

وكان هركان يشكو ان اخاه سلبه ملكه ، وهو البكر ، وان ليس له من المال ما يقوم باوده ، وان اخاه يسطو كاللص على جيرانه وينهــب مالهم ويستولي على ما يملكون ، وكان ارسطوبولس يقول : انــــه لـم

ينتزع الملك الا لان هركان لم يكن اهلا وقد ازدراه الشعب وهزأ به ، فعرف بمبايوس ان الاصغر اعتدى على الاكبر ، ولكنه لم يشأ ان يقول كلمة خوفا من ان يتصدى له ارسطوبولس في حربه مع العرب ،واملى عليه الدهاء ان يجامله قائلا له :

« سأمر باليهودية بعد ان اخضع الملك العربي» ! فشعر اليهودي بما يضمره له الرومي ، وغادر دمشق دون ان يودعه ، ورجع الىاليهودية يسلح قومه ويشحذ سيفه ، ولكنه لم يلبث حتى ندم على ما فعل ، وخرج للقاء الفاتح، عند وصوله الى أورشليم يعرض عليه سيفه والذهب الكثير ، فرضي القائد الروماني ، غير ان حزب اليهودي لم يرض، ولجأ الى جبل في فلسطين يظهر التمرد والعصيان ، فجن بمبايوس ، وعمد الى التقتيل والترويع حتى اخضع خصومه ، وقبض على ارسطو بولس وولديه اسكندر وانتيكون واخذهم معه الى روما ، واجلس هركان على عرش اليهودية ، وجعل سكاوروس احد قواده واليا على ما بقي من سوريا .

ولم يطل الامر ، حتى فر اسكندر بن ارسطوبولس من رومة، ثم لحق به ابوه واخوه ، واشتعلت النار في فلسطين تلتهم كل شيء، الى ان استولى القائد العظيم يوليوس قيصر على عرش الرومان وفر بمبايوس من رومة كما قرات ، فجعل ارسطوبولس واليا على سوريا ،ولكن حزب بمبايوس قتله بالسم ، واخذ اصحاب القيصر جثته ودفنوها فى مدفن الملوك ، ثم قتل ولده اسكندر فى انطاكية بأمر بمبايوس نفسه .

ودار الزمان ، فغزا القيصر مصر سنة ٤٧، فاغتنم انتيباس ابو هيرودس الفرصة ، واقبل على مصر ، بأمر هركان مع جيش من اليهود والعرب ، فاصبحت له المنزلة الكبرى عند قيصر ، واصبح له بعد ذلك صيت وذكر .

ثم اتى قيصر الى سوريا فطفق انتيكون بن ارسطوبولس يتزلف اليه ليرفعه الى عرش ابيه ثم اخذ يشكو هركان وانتيباس ويسعى بهما ، غير ان قيصر لم يسمع له بل امر بان يستمر هركان رئيسا للكهنة وواليا على اليهود .

ولم يكتف بذلك بل جعل حق الرياسة والولاية لذريته من بعده ، وامر فجعل ابا هيرودس مدبرا لليهودية في ظل هر كان ، فاستعان انتيباس بنفوذه الجديد واقام بكره فازئيل واليا في اورشليم وابنه الاخر هيرودس واليا في الجليل سنة ٤٤ قبل المسيح . وفي السنة نفسها في ١٥ اذار قتل يوليوس قيصر في الندوة فخسر هركان وانتيباس اعظم نصير كان لهما .

وفي سنة ٤٠ دخل ملك البرتيين سوريا وبعث بجيشه الى اورشليم يأمره بأن يجلس انتيكون على العرش ، ففعل قائد الجيش ما امره به وقبض على هركان وفازئيل وكبلهما بالحديد .

اما هيرودس ففر من اورشليم ، فنهب الجيش المدينة واحاطها واحاط ما حولها بنطاق من الرعب والذعر واجلس ابن ارسطوبولس على عرشه وسلم اليه الاسيرين اللذين مر ذكرهما ، فلما علم والي اورشليم انه سيقتل كسر راسه على جدار السجن ولفظ الروح ، وابقى انتيكون على هركان ولكنه صلم اذنيه كي يصبح غير اهل لرياسة الكهان ثم نفاه الى اقليم بابل ثم دعاه بعد ذلك هيرودس نفسه الى اورشليم وقتله فيها .





تولى مرقس انطونيوس عشيق كليوبطره امر رومة مع رفيقيه اللذين مرات اسميهما في غير هذا الفصل ، وكان هيرودس الذى فر الى مصر لا يطمع الا بأن يكون الملك ، فسار الى رومة يسأل انطونيوس ان يهب له هذا المنصب الذي يطمع فيه ، ولكن الحظ كان خادما له فان انطونيوس جعله ملكاوغير بذلك عادةالرومانيين الذين لم ينتهكوا قط حرمةالاسرالمالكة واقر المجلس الروماني هيرودس ملكا على اليهودية سنة ٣٩ .

على ان تربعه في العرش لم يرض انتيكون . وكيف يرضيه والعرش عرشه وهو الذى بذل ماله ودم اتباعه في سبيل الوصول اليه ، فاشتد النزاع بين الرجلين ، واستمر سنتين كاملتين . يتقدم هذا ويتراجع الاخر

ثم يظفر المغلوب ويفر الظافر حتى انضم جيش والي سوريا الروماني بامر انطونيوس الى هيرودس وحصروا الملك المغلوب على امره في اورشليم، ثم دخلوا المدينة من جهاتها الاربع سنة ٣٧ وملأوا اسواقها جثثا .

وارسل انتيكون الى انطونيوس وهو في انطاكيه فحوكم هذا الملك المسكين ونفذ فيه حكم الموت في السنةنفسها فانقضىبموته ملك المكابيين بعد مئة وتسع وعشرين سنةبدؤها ولاية يهوذا المكابي وانتقل الملك من يهوذا الى هيرودس بن انتيباس الادومي الاجنبي عن اليهود .

* * *

كان هيرودس يخشى ان يولي رجلا من سلالةالملوك رياسة الكهنوت خوفا من ان ينازعه الملك بل كان يخشى ان يولي رجلا من فلسطين، فاستقدم احد اعوانه من بابل وجعله رئيسا ؛ فكرهت حماته ام زوجته مريمنا أن يبعد ابنها ارسطوبولس عن الرياسة ولم تستطع الا ان تلجأ الى كليوباطره لتستعطف عشيقهاوتسألهان يوليه ، فأمر انطونيوس بذلك واذعن هيرودس مكرها ، ولكنه لم يسكت على غل بل امر بعض غلمانه فغرقوا ارسطوبولس وهو يستحم معهم في نهر الاردن . ثم قالوا لامه انهم لم يتعمدوا هذه الجريمة .

غير انامه كانت تعلم كيد هيرودس وبغضه ، ولكنها لا تجسر ان تبوح بما تعلم . وتظاهر هيرودس باللوعة والاسف واحتفى بدفن الرجل احتفاء عظيما ليظهر براءته ، فكتبت اسكندرة حماته الى كليوباطره تقص عليها ما جرى . وارسلت كليوباطره بدورها الى انطونيوس تصف له غدر ملك اليهود .

وكان انطونيوس في اللاذقية فاستدعى هيرودس فلبى طائعا ولم يترك ملكه الا بعد ان عهد الىصهره زوج اخته في تدبير هذا الملك وطلب اليه ان يقتل زوجته مريمنا اذا قتله انطونيوس في اللاذقية. اجل، لم يكن هيرودس يطيق ، وعنده النساء الكثيرات ، ان تكون مريمنا لسواه بعد موته .

على ان هيرودس لم يقتل فقد بهر عيني انطونيوس بذهبه وهداياه فأعاده الى بلاده محترما مشمولا برضاه .

نحن الان في سنة ٣٢ للمسيح . وقد نشبت الحرب بين أوكتاف وانطونيوس الرومانيين كما قرات، فاعد هيرودس جيشا كثيفا يكون معه عونا لانطونيوس على عدوه ، فمنعه القائد الروماني من ذلك ورغب اليه في ان يزحف بذلك الجيش الى العرب ويخضعهم لسلطان الروم ، وكان ملك الانباط في ذلك الحين « مالك الاول ابن عبادة الثاني » .
فدخل اليهودي ذلك الاقليم العربي وتلاحمت السيوف ، ولكن ذلك الهجوم الفجائي مهد لليهود سبل الظفر فعادوا الى اليهودية يجرون اذيال الفخار والعز.

اما العربي فلا ينام على ذل فان هيرودس لم يترك الانباط حتى جمع هؤلاء جيشهم من جديد وزحفوا حتى اتوا « قانا » في عبر الاردن واستعانوا بجيش حليفتهم كليوباطره فاستعادوا الشرف الذي خسروه .
ومرت ايام وهيرودس الكبير يتهيأ لحرب اخرى تقضي على اعدائه ثم قاد صفوفه الى عبر الاردن فكتب له النصر وقتل من العرب وحلفائهم خمسة الاف رجل وحصرهم في احد الحصون مانعا عنهم الماء والزاد ، وانتهت الحرب بالاستسلام وخضع مالك الاول لهيرودس واتخذ الانباط محاميا لهم .

وكانت اخبار فوز أوكتاف على انطونيوس في واقعة اكسيوم قد ملات فلسطين ، فذهبت بعز هيرودس وسروره وخشي ان يخلعه ذلك الروماني الظافر عن عرشه ، اجل لقد كان حليفا لانطونيوس المغلوب واوكتاف يعرف ذلك ولا يسكت عنه ، وكان هركان الذي نفي الى بابل، قد بقي وحده من سلالة الملوك فعزم هيرودس على قتله خوفا من ان يوليه الروم على فلسطين ، وكانت اسكندرة ابنة هركان وحماة هيرودس قد اضناها الاضطهاد والذل فطلبت الى ابيها ان يكتب الى مالك الاول ملك الانباط يطلب حمايته ويسأله ان يمهد له سبيل الذهاب اليه فكتب هركان الى الملك ما اقترحته عليه ابنته وعهد الى رجل من اعوانه في حمل رسالته الى بترا، وكان ذلك الرجل نذلا فعمد الى الخيانة وفكر في ان يسترضي هيرودس عنه .
فاطلعه على رسالة هركان فامره هيرودس بان ينقل رسالته الى

مالك الاول ثم يحمل اليه جوابه بعد رجوعه ، ففعل الرجل ما امره بـه وكتب الملك العربي الى هركان : لقد اذنت لك في المجيء مع القوم الذين ينتمون اليك ، فاخذ هيرودس الرسالة ودعا رجال مجلسه وامرهم بان يحاكموا هركان الخائن ففعلوا وقتل هركان كما مر وقد جاوز الثمانين من عمره .

ولم يبق على هيرودس الا ان يمثل بين يدي اوكتاف اوغوسطوس فيستميله اليه ، وقد بلغه ان اغوسطوس في رودس فذهب اليه ولم يلبث حتى استرضاه وامره اغوسطوس بالسفر معه الى مصر، ولما مر اغوسطوس هذا بسوريا بالغ هيرودس في الاحتفاء به في عكا والقى بين يديه الذهب الكثير ,اهدى اليه والى رجاله هدايا لم يروا اعجب منها من قبل .

★ ★ ★

ومع ذلك فهيرودس لم يهنأ بكل هذا فان زوجته مريمنا وامها اظهرتاله الجفاء وكان هو يتوق الى تلك الابتسامة الساحرة التى تعود ان يراها على ثغر زوجته ، ولكن مريمنا لم تفعل ، وكيف تبتسم له وقد جعلها م ع امها ،يوم ذهابه الى اوكتاف اغوسطوس ، في حصن لم يكن غير سجن لهما .

ولم تسكت مريمنا عند هذا الحد بل جعلت تلومه كلما ضمهما مجلس ، على قتل من قتل من اسرتها ، وراحت اخت هيرودس توغر صدر اخيها على زوجته التى تجفوه، ثم اتهمت تلك الزوجة بانها حاولت ان تقتل زوجها بالسم ، ولم يبق بعد هذه التهمة الا ان يامر هيرودس بقتل الجارية وينقضي الامر ،وقتلت مريمنا وهي تبتسم لقاتلها وتهزأ بالجلاد.

وكان حزن هيرودس شديدا حتى قاده ذلك الحزن الى نوع من الجنون فكان ذووه يسمعونه في كل ساعة ، ينادي تلك الزوجة ، ويبدي من الشكوى ما لا يليق بالملوك .

ولم يكن يعبأ بالملاهي والملذات، بل كانت لذته ان يامر خدمه لينادوا مريمنا كأنها حية ، ونسي مع هذا الجنون عرشه وملكه ونساءه ، ثم نسي نفسه فارسل جنودا قتلوا حماته وطائفة من الرجال المقربين اليه. وتمادى السفاح في سورته فقتل ولديه اسكندر وارسطوبولس ، ثم

قتل ولده الاخر انتيباتر بعد حين ، وحرق بعض انصاره وهم احيــــاء، ولم يلبث حتى اشتدت عليه اوجاعه فأخذ خنجرا وجعل يطعـــن به بفسه . ولو لم ينتزع احد خاصته ذلك الخنجر من يده لهوى تحت تلك الطعنات ثم توفي في السنة الاولى للمسيح ونفسه العطشى لم ترتو من الدماء.

★ ★ ★

تزوج هيرودس الكبير عشر نساء ولد له منهن اربعة عشر ولـــدا ذكرا وانثى بينهم هيرودس الصغير احد ابطال هذه الرواية ، وكان قـد اوصى بالخلافة مرات كثيرة قبل موته ، لكن هواه كان يتغير فيمحـــو هذه الوصية كلما خطر له وكلما تغير هذا الهوى . اوصى اولا بـــان يخلفه ولداه اسكندر وارسطوبولس ثم قتلهما . واوصى لانتيباتر ثـم تغير عليه فقتله . واوصى اخيرا ان يخلفه اولاده الثلاثة : ارشيــــلاوس في اليهودية والسامرة . وهيرودس انتيباس الذى مر ذكره ، فى الجليل وفيليبوس في اللجا والجولان الى ينابيع الاردن اي الى بانياس ، وفــوض في وصيته الى اغوسطوس قيصر ان ينفذها او يمحوها عندما يشـــاء فورث ابناء السفاح الخصومة مع الخلافة وجعل الواحد منهم ينـــازع الاخر ويحاول ان يسبقه الى استرضاء الشعب.

وطال امر النزاع وحصد السيف بعض جنود اليهود حتى ملوا القتال وآثر الاخوة الثلاثة الذهاب الى رومة يسألون اغوسطوس ان يثبت الوصية ولكنه لم يترك اليهودية حتى القى اصحاب الاغراض الشر بين القـــوم واصبحت اليهودية بين ليلة وضحاها ساحة قتال.

وقام في ذلك الحين زعماء كثار يسمون نفوسهم ملوكا ،ثم كثـــر القتل والنهب وحرق المدن ، وراح سابينوس خازن اغوسطوس ، الــذى عهد اليه والي سوريا الروماني في اخماد نار الاضطرا ب، يزيد تلك النـــار اضطراما ، وينفخ روح الخصومة في صدور القوم ، وكان حينئذ عيـــد لليهود فاقبل اليهود من كل ناحية طوائف طوائف وخطر لهم ، وهم في ذلك العيد ان يبطشوا بالرومانيين ، ولكن الزمان كان خصما لهم فقـــد شتت الرومانيون شملهم ،وسلبوا ما في الهيكل واخذ سابينوس وحـده اربع مئة وزنة من الذهب ودنسوا ذلك الهيكل واحرقوا رواقه ، ثـــم كثر اليهود فاستعان سابينوس بالوالي الروماني وبالحارث ملك الانباط ،فاقبل

الاثنان على الجليل يضمانه تحت الحديد والنار ثم جاوزاه الى اورشليم يدوسان جثث اليهود بحوافر الخيل .

واراد الوالي الروماني ان يرحم القوم ، فعلق الفي رجل منهم على صلبان ، واستعبدت رومة اهل فلسطين ، وابقت في اورشليم منذ ذلك الزمن جنودا يحرسونها باسم قيصر .

وكان اغوسطوس قيصر قد مل الاخوة الثلاثة ، ومل سعاياتهم واكاذيبهم ، وجاء بعض اليهود يسالونه ان يضم فلسطين الى سوريا ويجعلها اقليما رومانيا ، وينحي ابناء هيرودس الكبير عن العروش ،ولكنه لم يفعل بل جعل ارشيلاوس واليا على الاقاليم التي اوصى له ابوه بها ، واجاز لهيرودس انتيباس وصيته على الجليل ، ولفيليبوس وصيته على اللجا وحوران .

★ ★ ★



مالك بن الحارث

فتى قوي الارادة صلب العود مثل ابيه ، وهو ولي العهد وليس للحارث ولد سواه غير « قدرة » الحسناء ، ومالك جبار ورجل صحراء، يقضي معظم ايامه في ميدان الالعاب ويطوف وهو على ظهر فرسه الصحراءالجرداء التى تجاور بترا من الجنوب والشرق ، راميا حمر الوحش بسهامه الصائبة ، والعبيد وراءه يحملون اشياءه ، ويعالجون صيده ، ويعدون له خيمته في ذلك السهل كلما خطر له ان يستريح . ومع مالك رفيق له لا يفارقه يدعى زيدا هو ابن عياش، احد قواد الانباط المقربين الى الملك ، وكان الواحد منهما يحب الاخر كما يحب نفسه . ولا يطيق ان يبتعد عنه ، وقد عرف القوم في بترا ، وفىالعشائر المنتشرة حولها ان الاثنين اخوان ، وان الذي يسيء الى زيد يسيء الى مالك نفسه ، حتى ان الحارثالرابع،لم يكنيريد فيالظاهر، ان يؤثرولدهعلى ابنعياش ،بل لم يكن يبتسم لهذا الا كما يبتسم للاخر كأن الفتيين قطعة من قلبه . والاثنان في فجر الشباب ، وفى زهو العمر ، والدنيا كلها اماني لهما واحلام ، وزيد

ابن شرف، ومجد ، فابوه القائد من رؤساء العشائر اصحاب النفـــوذ والسلطان ، وامه تمت بنسبها الى ملوك الانباط ، وليس في بترا من يجهل مقام عياش في عشيرته ، وفي بلاط ملكه ، والحارث نفسه كان يدعوه عندما يخاطبه : يا ابن الخالة ، وكان يقول لرجال بلاطه : ليس في رجال العشائر مثل عياش ، وليس بين فتيان بترا مثل زيد .

ولم يكن يحب حدا من ابناء قواده وخاصته مثلما يحب زيــــدا ، احبه لخلقه الطيب وعزة نفسه ، ومروءته ، بل احبه لشجاعته واستهانته بالاخطار ، وكان يلذ له ان يراه ويرى والده مالكا في ساحة القصر ،يجولان على فرسيهما كانهما بين صفوف الاعداء ، ويضربان بسيفيهما الهواء ، بل كان يلذ له ، كلما ذهب الى صيد ، ان يقف بشرفة قصره ، منتظـرا رجوعهما من الصحراء ، امام العبيد والنوق التى تحمل صيدهما . وكان الاثنان قد ولدا في عام واحد ، وكانا في تلك السنة ، سنة ٢١٥ للميـــلاد في الثامنة عشرة من العمر .

فدرة بنت الحارث

اصغر من اخيها ولي العهد ،وبينها وبينه سنتان ، وهي فتاة سمراء فتانة المحاسن، وذات جمال ساحر جذاب ، وقد نشأت في البــــلاط كما تنشأ بنات الملوك، الجواري حولها يحرقن لها الطيب ، والعبيد يحنون لها رؤوسهم ويجعلون هذه الرؤوس موطئا لقدميها الغاليتين !

ولكن لو خيروها ، لعاشت كما يعيش ابوها بعيدة عن التـــرف ، وآثرت ذلك الثوب الفضفاض الذي تلبسه البدوية في العشيرة ، علــى ثياب الخز والديباج .

كانت تشبه اباها في خلقه ،وتريد ان تشاركه في البعد عن الملذات، على ان فدرة ، كانت تتجاوز الحد في عاطفتها ، اذا احبت مشت في سبيل ذلك الحب الى النهاية ، لا تبالي بما يخلق لها الزمان ، واذا ابغضـــت

ابغضت بكل قواها لا تبالي بما ترى وتسمع !! كانها بدوية تعيش طليقة في الفضاء الواسع ، لها الحرية والرأي !

ولكن لا ، فقد كانت هنالك ارادة ابيها التي جعلتها مع عاطفتها في كفة واحدة ، وخضعت لها الخضوع المطلق الذي لا قيد فيه ولا شرط ، حتى انها لم تكن تحب ، اي انها لم تكن تجاري شعورها الا اذا شاورت اباها ، ولم تكن تبغض الا اذا سألته رأيه في ذلك البغض .

وفدرة في السن التى عرفت، احبت وابغضت ، احبت زيداً باشد ما منح الله القلوب من عاطفة واحساس ، وابغضت فتى اخر بغضا لم تعرف القلوب مثله ، وباحت لابيها وامها بالعاطفتين .

ومن هو هذا الفتى الذى كرهته فدرة ، هو صياح بن مضاض ، ومضاض احد رجال المشورة في البلاط ، واحد امناء الملك . وكان صياح في العشرين من العمر ، وهو من رفاق ولي العهد ومن اصحاب سره ، كما كان رفيقا لزيد وصديقا له . وكانت فدرة ترى الاميرين في القصر ، وتشهد معهما مجالس الملك عندما تشهدها الملكتان ، ولكن دون ان يجسر احد منهما على النظر اليها الا كما ينظر المرء في الهيكل الى احد الالهة ، حتى تجرأا فجعلا يمتعان النظر بذلك الجمال ، كلما وقعت عليه العين. وارتقى زيد بعد ذلك فأخذ يجالس اخاها مالكا حينما يجالس مالك اخته ، وتبادل الاثنان النظرات البريئة في اول الامر . ثم اصبحت نظراتهما ذات مغزى ، ثم احس كل منهما بلذة الشعور تتغلل في اعماق نفسه ، ثم كان الحب .

ولم يلبث ابن عياش حتى باح لولي العهد بحبه ، وراح ولي العهد يبوح به بدوره لفدرة ، فاعترفت له الاخرى بما في قلبها من هوى ، وتعاهد العاشقان وولي العهد على ان يخبروا الحارث حكاية ذلك الغرام .

وكانت ليلة نشر فيها القمر ظله الفضي على بترا ، وجلس الحارث والملكتان على احدى شرفات القصر في ذلك الظل، يسمعون حكاية هذا الغرام من فم مالك وولي العهد ، وفدرة وزيد حاضران . وقد قام في اذهان القوم ان الملك سيعبس وجهه ويجفو . ثم ينصح لابنته وابن عياش بأن ينسيا هواهما ، بل قام في ذهن ولي العهد نفسه ان والدته الملكة

لا تلبث حتى تغضب وتمنع فدرة من النظر الى زيد ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك ، فان الملك لم يسمع الحكاية حتى ابتسم ابتسامة الرضى وقال لابنته : متى عرفت الحب يابنية؟

فاجابته دون ان يطرف لها جفن : عرفته يا مولاي منذ ليلتين اثنتين .

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ لقد احسست يا مولاي من قبل ، ان عيني زيد تبعثان السحر الى عيني، ثم تمشى هذا السحر في القلب ، وجعل يجري مع دمي ، فعرفت حينئذ اني امسيت اسيرة غرام .

فضحك الحارث قائلا : ما رايت فتاة تصف حبها بمثل ما تصفينه به .. ولكن من قال لك يا فدرة ان الملك يأذن لك في ان تحبي احدا وانت في هذا السن ؟ .

ـ اعترف لك يا مولاي باني لم افكر في الملك عندما خفق القلب كما ذكرت !

ـ واظن انك لا تفكرين في احد في هذه الساعة .

قالت : انت تعلم يا مولاي اني لا اخطو خطوة في حياتي الا اذا كان لك فيها راي ، ولكن الحب الذي كنت استلذ الشعور به فاجأني وانا لا اعرف ما هو ، ولم يستفق شعوري الا وانا مقيدة القلب.

فقهقه الحارث وقال لام فدرة : ماذا ترين ايتها الملكة ؟.

قالت : ارى ان فدرة لم تخف شيئا ولا ذنب لها في هذا الحب .

ـ وانت يا مالك ؟.

فارخى ولي العهد نظره الى الارض ولم يجب .

فقال ابوه يظهر انه لا راي لك في امور المحبين ..

واوما الى والدته قائلا : اسأليه فلعله يخجل من ابيه ...

فاجابته قائلة : اما انا فقد عرفت رايه .. لقد احب قبل ان يعرف زيد الحب ، وعرف ان سلطان الهوى لا يرد . فلم يبق الا ان يعذر اخته ويسمع راي ابيه الملك قبل ان يقول كلمة .

قال : لقد تعشق مالك شقيلة ، واحبت فدرة زيدا ، دون ان تعلم ،

فليس لنا اذن في ذلك راي.

فقالت فدرة : اتريد يا مولاي ان انسى ابن عياش ؟

ـ وهل تستطيعين ذلك يا بنية ؟

ـ لا يا مولاي ، ولكني اعدك اني لا اذكره بشفتي ، ولا اجلس حيث يجلس ، ولا انظر الى وجهه ما بقيت... وهذا معناه اني تناسيته ، وخنقت غرامي بيدي.

ـ قال : هات يا زيد .

فجثا الفتى على ركبتيه قائلا : ليس لي الا ان احني راسي لكل ما يأمر به الملك . ثم اندب حظي بعد ذلك ... لقد جاوزت حدي يا مولاي في هذا الهوى وكان علي ان اعلم ان الاميرة لا يطمع بحبها غيرالملوك والامراء .... ولكن ماذا اصنع والذنب ذنب قلب خفاق ارتفع في غرامه الى العملاء . ولم يقم في ذهنه قط ان النسر يكمن له في الفضاء..

قال : انهض

فنهض .. فقال : ادن ، فدنا منه .. فوضع يده على كتفه قائلا : لم يكن لي اصبع في هذا الحب كما قلت ، فارجع عنه اذا طلب لك الرجوع ، او فامش وراءه كما تشاء ولكن دون ان تفكر الان في الزواج.

قال : انا اعلم يا مولاي اني لست اهلا لهذا .

قال : انك يا زيد احب الى الملك من جميع الفتيان الذين يراهم حوله ، واعز في نظره مقاما من جميع الملوك والامراء في سوريا وفلسطين، ولكن الملك لا يستطيع الا ان يعدك بفدرة لانه لا يعلم ماذا يخبىء له القدر الذي لا عهد له .

قال : وكيف ينتهي هذا الحب يا مولاي اذا لم تكن فدرة لي.

ـ ينتهي كما ينتهي كل حب لا امل فيه .

ـ اذن يريد الملك ان اقطع الرجاء.

ـ بل يريد ان لا تستسلم الى الاحلام فقد تعود الملك ان يرى من الزمان ما لم يخطر له .. قلت لك افعل ما تشاء فالحب لا تقوى عليه الملوك . ولكن اذا رايت ما تكره بعدئذ فلا تلم .

قال : اياذن لي مولاي الملك ان اساله سؤالا ؟ قال : افعل.

فقال : الم يخفق قلب ولي العهد للحب كما خفق هذا القلب ؟

ـ بلى

ـ افلم يعترف للملك بهواه كما اعترفت انا الان ؟

ـ بلى

ـ اليست شقيلة التى احبها اختا لزيد بن عياش ؟

ـ وماذا ترجو من سؤالك ؟

ـ ارجو ان يقول لي الملك لماذا وعد ولي العهد بشقيلة بنت عياش ، ولم يعد ابن عياش بابنته ؟؟؟ لقد اخطأت في ما قلته الان يامولاي . . ان آل عياش يستحقون ، على ما رأيت رضى الملك ، ولو لم يكونوا اهلا لرضاه ، لما خطر له ان يجعل شقيلة بعد حين ولية لعهد . . افيجوز يا مولاي ان تزف اختي الى نجل الملك واحرم انا من ابنة هذا الملك ؟

فاراد الحارث ان يعبث به مازحا فقال : الا تدري لماذا فعل الملك ذلك ؟

ـ لا يا مولاي

ـ فعله لان رأى ان شقيلة تصلح لولي العهد وان زيدا لا يصلح للقدرة ، فاصفر وجه الفتى وقال : واي ذنب جناه زيد حتى منعت عنه رضاك ؟

ـ ذنبه انه احب فتاة اجمل منه ! ! فايقن الفتى بأنالملك يهزأ به ، فقال : ومع ذلك فالفتاة راضية يا مولاي ، فجعل يضحك ويقول : اجل ولقد غلبت الملك بهذا الرضى الذي ذكرت ، ثم انتقلوا من احاديث الغرام الى احاديث السياسة والحرب، واخذ الملك يصف للفتيين دهاء ولاةالروم في انطاكية واورشليم ويحدثهم بما جرى له ولابائه الملوك مع امراء فلسطين من الحروب التى غاص فيها البلدان في لجة من الدماء ، وكان يقول : لا تطيق روما الا ان ترى السنة النار تمتد الى جميع الاقاليم ، لتضع يدها عليها قائلة لاصحابها : جئت لاخمد هذه النار . . .

فطاب لولي العهد ان يسمع حكايات الحرب ، فقال : خير لسكان هذه الاقطار ان يطرحوا السيف ويحملوا لواء السلام وان غضبالرومان.

قال : ان للامراء يا بني مطامع لا تسكت ، وكل امير ينظر الى جاره بالعين التى ينظر فيها الى عدو، ان الانباط يطمعون باليهودية ،وملوك

اليهود يطمعون بدولة الانباط، وروما توغر الصدور ، وتغذي المطامع ، فيعمد القوم الى السيوف ولا يبقى الا ان يخوضوا المجال.

ـ وانت يا مولاي ؟

ـ ماذا ؟

ـ اتفكر في الاستيلاء على فلسطين ؟

فهز راسه قائلا : لا نستطيع ذلك الا باحدى وسيلتين ، اما ان تكون روما حليفة لنا في هذا الاستيلاء، واما ان نعمد اليه ، بالحيلة والدهاء.

ـ وما الذي يمكنك يا مولاي من ان تضع يدك بيد القيصر ؟

قال : لا يريد طباريوس ان تتوسع العرب في السلطان ، ان الروم جميعهم قيصرهم وقوادهم وولاتهم، يريدون ان يسلبوا العرب هذه البلاد التى انبتتهم ويجعلوها كلها اقليما واحدا يخفق النسر الروماني فوقه ، الم يغز بمبايوس العرب ، فاتحا مدمرا لا يبالي بالدماء البريئة تسفح في الصحراء ؟.. الم يستعن اغسطس قيصر باخينا عبادة الثالث وهو على العرش ليساعده في فتح الجزيرة منذ ثلاث واربعين سنة ؟؟ الم تسلح روما يد هيرودس الكبير وتدفعه الى حرب بترا ؟؟ اجل يا بني ان الرومان يعالجون السياسة حتى يفتر لهم ثغر الزمان فيدفعوا خيلهم الى كل قطر عربي ويملكوه ... ولكنهم لا ينالون ما يريدون وفى العربي دم .

قال : وجيش الروم الذي لا تستطيع العرب ان تتصدى له ؟

ـ يفوز اليوم ثم يسقط غدا اذا عرفت العرب ان تحتفظ بكرامتها التى لم تمس ، وبالمجد الذي اشتراه الجدود بالدماء ...

قال : اخشى ان تنفخ روما روح الطمع من جديد في صدور ابناء هيرودس فتنشب النار بيننا وبينهم وتسندهم من الوراء.

قال : لقد اعددت للامر عدته يا بني ..

ـ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ـ ستسمع في مجلس الملك بعد ايام ، ما تريد ان تسمعه الان.

وكانت خلدو الملكة ، تهامس ابنتها ، وتنصح لها بان تستسلم في حبها الى الهدوء وان تطيع اباها في كل امر يسألها اياه ... وفدرة تقول

لها: ساترك حبي عندما يشاء الملك !!

ثم قال الحارث : لقد تم لك ما تريد يا زيد ، اليس كذلك ؟ فحنى راسه قائلا : اشكرك يا مولاى .

ـ ولكن يجب ان لا تنسى الحرب فقد تحول بينك وبين حبك بعد ايام ...

قال : اخوض غمارها يا مولاي باسم هذا الحب ...

فقال : لقد فتنتك فدرة فلا حيلة لنا في ردك ...

وخرج من القاعة دون ان يزيد كلمة .

فقال زيد للملكة خلدو : باركي هذا الحب يا مولاتي وقولي انه سينتهي بالزواج .

قالت : لقد باركته واسأل الالهة ان ترعاه .. ولكني لا استطيع ان اقول لك غير ما قاله الملك فالراي رايه في كل شيء.

فقال ولي العهد : انهض الان واكتف بما سمعت ورايت .. وانصرف الاثنان ، والعاشق يفكر في تردد الملك وعبثه به ، وهو لا يعلم اي خاطر خطر له ..

وبعد ان خرجت فدرة الى الرواق ، عرفت الجواري والغلمان انها تحب زيدا ، وان الملك والملكة امها باركا الحبيبين

ولم تمر ساعة حتى تناقل اهل القصر ما جرى في قاعةالجلوس ..

★ ★ ★



شقيلة بنت عياش

شقيلة من اجمل حسان العرب في دولة الانباط، ومن اعظمهن ... ، واخفهن ظلا واكرمهن خلقا ، وقد دعاها ابوها باسم احدى الملكتين لانه كان يعلم انها ستصبح ملكة وتجلس على العرش الذي تجلس فيه ..ميلة الكبرى .

احبها ولي العهد حبا ملك نهاه ، وشغفت به هي شغفا غريبا حتى امست ايامها كلها حلما عذبا يوحي به الغرام ، وتسنده قوة الصبا والشباب

وقد نشأ غرامهما في قلب الصحراء منذ عامين ، في اليوم الذي خرجـــت فيه حسان بترا يشهدن سباق الفرسان ، ومنذ ذلك اليوم ، والحب ينمو في القلبين حتى اضحى هياما لاتستطيع ان تصفه الاقلام ، وحتى خيـــل الى الحارث ان في هذا الهيام شيئا من الجنون ..

ولم يلبث الحارث حتى قال لعياش : قل لشقيلة ان الملـــك راض عن هذا الهوى الذي يبسط جناحيه فوقها وفوق مالك ، وانها ستصيـــر ولية للعهد ، ولقد اراد بذلك ان لا يضيع رجاء العاشقين ..

وهل يجد الحارث في بلاد الانباط ، فتاة احسن وجها وخلقا واشرف نسبا واكرم محتدا من شقيلة يجعلها زوجة لوحيده ؟ ومن قال انه يجد مثلها في دمشق وفلسطين وشواطىء فينيقيا كلها ؟

ان امها من سلالة الملوك ، كما عرفت ، وعياش سيد عشيرته واوجه امراء بلاده وولي العهد يحب شقيلة وهذا يكفي.

نعم ، قد لايجد الملك ،في قصور الملوك والامراء الذين يجاورون بترا، اميرة تليق بولاية العهد ، فاذا رضي بشقيلة فقد احسن الى ولده ، والى قائده عياش ، والى نفسه ، بل احسن الى دولته ، فان اخلاص عيـــاش للعرش ، وبقاءه على عهد الولاء للملك يساوي نصف بترا . ان ابا زيـــد وعشيرته القوية الجبارة ، دولة صغيرة فيها الاموال والرجال . وكانت شقيلة تجاري الرجال في ركوب الخيل ، والرماية ، والصيد ، وكلما ركبت الى الغاب او الى الصحراء، ركبت وراءها بنات الاشراف ، ولحق بهن مالك ، وزيد ، وصياح ، وجميع الفتيان النبلاء .

اما فدرة فلم تكن تركب فرس من قبل الا اذا ركب الملك ، ولكنهـــا بعد ان احبت زيدا ، اثرت الخروج الى الصحراء على كل شيء ، وكـــان الجلوس على كثيب في الخلاء ، وهي ترى الحبيب، احب اليها من الجلوس في القصر ، تفوح منه رائحة المسك والطيب، وكما كان ولي العهد وزيـــد اخوين لا يفارق احدهما الاخر ، هكذا كانت العاشقتان اختين ، لا يطيب لهما الا ان تقصا حكايات الحب ...

ولكن فدرة كانت تفكر في قول ابيها انه لا يعد بالزواج، وكانت تخشى ان يكون وراء ذلك القول سر من الاسرار ، وهذا ما كان يعكر صفو العيش

ل كان قلبها يحدثها بان القدر سيتصدى لها في الساعة الاخيرة ، وزيد وشقيلة يهزآن بظنونها ويقولان : ان ذلك القول اسلوب من اساليب الملك ، اجل ، لم يكن يخطر لابن عياش ان الحارث يبخل عليه بفدرة وهو اعز الفتيان عليه واقربهم الى عرشه .

وكادت السنة الخامسة والعشرون للميلاد ، تنقضي ، والجو صاف والزمان يبسم للعشاق .



صياح بن مضاض

خانه الحظ فلم تعبأ به ابنة الملك ، وكانت ارفع من ان تنظر اليه نظرة حب ، ولو وقف الامر عند هذاالحد لما ثار ثائره ، ولكنها آثرت زيدا عليه وقيل له انها لم تكتف بالاعراض عنه ، بل كانت تكرههولاتطيق ان تراه .

وهي طعنة في صدر ابن مضاض ، ارسلتها اليه الفتاة المتكبرة ، التى قضى ابوه حياته كلها في خدمة العرش النبطي ، عرش ابيها الحارث، بل هي طعنة في صدر مضاض نفسه ، الذي كان واثقا بان فدة لا تستطيع ان تجد لها زوجا ارفع مقاما من صياح !!

وذلك جهل لا تسمع الاذن اغرب منه ، فقد كان يظن ان الفتاة التى لاتحبولده ، تسيء الى شرفه وتجرح كبرياءه . ومضاض من حوران ، وقد انشأ في البادية الجافة التى تنبت الرجال الاشداء الذين يملكهم الزهو ، وهو لم يقم ببترا الا بضعة اعوامعندما امرهالحارثبذلك، فليس غريبا ان يغضب لكرامته الجريحة ... ويعتب الملك على هذا الاستخفاف الذي بدر منه ..!!

ومعنى ذلك انه كان يريد ان يأمر الملكابنته بان تحب صياحا ... ولكنه لم يفعل ، فهو اذن مستهين بمضاض ، ولم يبق على مضاض الا ان يسأله عن ذلك ، قبل ان « يسحب سفراءه » ..! فأستأذن عليه فى مساء اليوم الثاني ، وليس في المجلس احد من الرجال ، بل ليس بالباب غير حاجبه الحوراني ، وطارق الحاجب من عشيرة مضاض ومن ابطالها

المغاوير ، ولم يكن الحارث يعلم شيئا عن ذلك الحادث العظيم الــــذي احتزله قائده ، والذي دعا هذا القائد الى المثول بين يديه، في تلك الساعة

فلما دخل ، كان الملك ينظر من نافذة القاعة ، الى ناحيتي الجنوب والشرق، بعينين تضطرم فيهما نار الطمع والطموح الى المجد ..

فقال له دون ان يلتفت اليه : ماذا ترى يا مضاض وراء هـــــذا الافق ؟ واومأ الى الشرق ...

فأرسل القائد نظره وقال له ، وهو يتكلف الهدوء : كأنـــي ارى حوران

قال : حوران لنا ، فانظر ايضا ...

ـ ماذا يا مولاي ، اتعني العراق ؟!

ـ اجل العراق الذى سيخفق في فضائه اعلام الانباط بعد حين..

فكاد القائد ينسى الامر الذي جاء من اجله ، فقال : وهل يغـزو الملك ذلك القطر ؟

فلمعت عيناه قائلا : نغزوه .. ثم ننتقل منه الى الجنوب ولا نعلـم في اي موضع تقف بنا الخيل ..

ـ ومتى يكون ذلك يا مولاي؟

ـ عندما تطمئن نفس الملك من هذه الناحية .. واشار الى الشمال الغربي ، فعرف مضاض انه يريد فلسطين ، فقال : اليهود اقوياء بقـــوة الرومان .

ـ ولكننا لا نشهر عليهم السيف.

ـ وماذا اذن ؟

ـ نضع ايدينا بايديهم ونكون حلفاء هجوم ودفاع .

ـ ومن يضمن لنا انهم يرضون بذلك؟

ـ قد تكون رغبتهم في هذا اشد من رغبتنا فيه ، ومع ذلك فنحـن سنعمد الى الدهاء واللين لبلوغ الغاية .. ان الرومان يا مضاض ،الرومان انفسهم ، يريدون ان يخطبوا ودنا لانهم يعلمون ان دولة الانباط لا تؤخذ بالسيف . فاذا تم لنا الامر كما نشاء ، همزنا خيولنا الى العراق وجعلنـا قبائله كلها رعية لنا.

وسكت قليلا ثم قال : الا يطيب لك الغزو مع الملك ايها الامير؟
فتنهد قائلا : لا اعلم كيف تطيب الحرب لامير اهين شرفه!
ــ انت ؟

ــ نعم انا يا مولاي .. لقد كانت حياتي كلها ، في حوران وفي بترا اخلاصا لك ، فلم تشأ الا ان تنسى هذا الاخلاص وتؤثر غيري علي !فكاد الملك يلمس ذلك الشعاع الناري الخارج من عينيه ، فقال : اعد قولك يا مضاض .

فأعاده وهو لا يبالي ، فقال الحارث وقد غضب : انصح لك قبل ان عرف غرضك ،بان لا تذكر اخلاصك للملك عندما يخطر لك ذلك .. ان لهذا الاخلاص ساعات يذكرونه فيها ثم يحفظونه في الصدور دون ان يمنوا به في كل ساعة ، على الملوك ... قل الان ما هي غايتك من الاستئذان على مولاك ؟ وكانت لهجته لهجة ملك لا يطيق ان ينسي جلساؤه هيبته ... فلم ير الرجل الا ان يلين ، فقال : لقد عرفت يا مولاي ان زيدا ابن عياش ، وصياحا ابني ، احبا الاميرة فدرة ، وطمع كل منهما ، بان يشرفه الملك بجعله صهرا له ، فعرف الحارث عندئذ ان القضية تستحق ضحكه ، اكثر مما تستحق غضبه ، ورأى ان يبتسم لهذه العقلية الغريبة ، ويقابل صاحبها بالنعومة والحلم فقال هادئا : وبعد ذلك ؟
ــ رضي الملك بزيد ولم يرض بصياح، وكنت اظن ان مقام والدي يشبه مقام ابن عياش ، في البلاط .

فملأت ضحكة الحارث القاعة ، ووضع يده على رأسه قائلاله :
من قال لك ايها الامير ان الملك فعل ذلك ؟
ــ جميع اهل القصر يتحدثون به.
قال : كذب الجميع فالملك لم يعلم ان صياحا من العشاق ، الا في هذه الساعة ...
ــ الم تذكر لك الاميرة نفسها هذا الامر يا مولاي ؟
ــ لا ، بل هي لم تذكر شيئا ولولا ولي العهد لما عرف الملك ان بين ابن عياش وبين فدرة ، صلة غرام ، وضحك ثانية كأنه يهزا بمحدثه ، فصبغ دم الخجل خدي الامير واطرق ساكتا ، فقال الملك : اذن فصياح

يحب ...

ـ نعم يا مولاي .

ـ وقد دلهه حبه حتى ارسل اباه ليخاطب الملك بشأنه ؟

ـ نعم يا مـولاي

قال : ذكروا لنا زيدا وحده ، ورأينا قدرة ترغب فيه فلم نشأ ان نحول دون رغبة القلبين ... ومع ذلك فنحن لم نعد الفتى بالزواج لاننا نفكر في ان نزوج مالكا قبل ان نزوج قدرة .. فليحب زيد الان ما طاب له الحب ، وسنرى بعد ذلك كيف ينتهي حبه...

ثم اراد ان يقرأ سره فقال : الا ترى يا مضاض ان زيدا ابن شرف ونسب يليق ببنات الملوك ؟

ـ ارى ذلك يا مولاي ولكن ليس في نسبه ما يحجب نسب صياح .. ابوه سيد قومه ، وانا سيد قومي، وعياش امير من امراء البلاط وانا مثله . واذا كان مولاي الملك راضيا عنه ، فانا لم يحرمني الملك قط هذا الرضى منذ خضعت له حوران الى هذا اليوم.

ـ هذا ما يعترف به الملك ولا ينكره ، قل الان ما هو رأيك فيما سألناك عنه ، ايليق ابن عياش بان يكون صهرا للحارث ام ماذا ؟

ـ ولكنك لم تعده بالزواج يامولاي .

ـ من يعلم فقد يأتي يوم نزوجه‌فيه ...

فتردد قليلا ثم قال : ما يراه الملك يراه رجاله ، انه لو لم يكن اهلا للاميرة لما خطر للملك ان يسكت على غرامهما .

ـ ولما خطر له ان يجعل شقيلة بنت عياش زوجة لولده ... انولي العهد يتزوج بعد ان يتم الاتفاق بيننا وبين فلسطين .

فلم يشأ مضاض الا ان يتمادى في وقاحته فقال : وكذلك تتزوج الاميرة .. اليس كذلك يا مولاي؟

ـ قلنا لك اننا لم نعد بشيء وهذا يكفي .. ولو علمنا ان صياحا يريد ما يريده زيد لامرنا قدرة بان تترك الاثنين .. والان فلم يبق الا ان تختار لولدك فتاة من بنات الامراء نخطبها له نحن .

قال : لا يهم صياح بالزواج اليوم ، ثم قال : وقد لا يجد بين‌حسان

بغرا الفتاة التى يريد

ــ وبين حسان حوران ؟!

ــ اما حوران فليس له في حسانها راي !

ــ اذن فخير له ان يعمد الى اليهودية ففي قصور امرائها طوائف من ملكات الجمال .

قال سأنقل اليه اقوال مولاي الملك فيرى فيها رايه .

ــ وهل رضيت انت ايها القائد ؟

ــ انا عبد لك يا مولاي ولكنهم قالوا لي ان ارادة الملك فجئت اسالك عن هذا وانا ارجو ان تتناسى ما قلت ، فابتسم قائلا : ليس للملك شان بحب ابنته ايها الامير وانما سيكون له شأنه بالزواج عندما تأتي ساعته . . ومد اليه يده فقبلها وخرج وهو يتعثر بخجله ، فقال الملك نفسه :

لقد اراد قائدنا ان يكره الملك ابنته على حب ولده ، وكان يظن اننا سنطرد زيدا من البلاط ونقرب هذا الولد !!. .

وعاد الى النافذة وقد بدأ الليل يرخي سدوله ، وجعل ينظر الى النجوم المتلألئة في الشرق ، وفى الجنوب ، ثم ما لبث حتى حول وجهه الى الشمال الغربي ، !! اليهودية التى هي قذى في عينيه ، ومكث ساعة وقد اصيب بالذهول . .

٨

اخطأت يا بني ، فالملك لم يعرف قط انك لعشقت ابنته ، ولم يذكر له احد اسمك ، عندما اعترف له العاشقان بالحب .

فقال صياح :ومع ذلك فقد امست فدرة خطيبة لزيد ، وهذا هو الامر الذي اهتم له . . .

ــ بل امست عاشقة ليس غير ، واما الخطبة فالملك لم يعد بها ولا يفكر فيها الان كما قال لي، وجعل يقص عليه ما جرى بينه وبين الحارث الى ان قال : ولولا حرمتي عند الملك ووثوقه بي وعطفه علي لطردني من قاعة الجلوس وامر حاجبه باخراجي من القصر . . . اسمع يا بني

لقد عدت الى نفسي الان فوجدت من الراي ان لا نعرض للملك في امـر ابنته ، وان نظهر له الرضى بكل ما يفعل فقدلا يطيق بعد الان ان يحدثه احد بما لا يعنيه .

ـ وانا لا اطيق ان ارى زيدا زوجا لفدرة .

ـ قلت لك ان الملك لم يذكر الزواج.

ـ ولكن سيذكره بعد عام او عامين وينتهي الامر .

قال : هب انه فعل ذلك فماذا تصنع ؟

ـ اقتل نفسي كي لا تقع العين على الزوجين !

قال سننظر في هذا يا بني فلا تعد الى ذكره ، واعلم ان الامر اعظم مما تظن .. لقد رايت الغضب في عيني الملك وسمعت حديثه فانا خائف.

ـ اتخاف ان يطردك الملك كما ذكرت ؟

ـ اجل ، فقد يفعلها في ساعة من ساعات غضبه ... يأمرني بالرجوع مع قومي الى حوران ، ازرع ارضي وارعى نوقي وعياش والامراء يتمتعون بخير الحارث وتشملهم النعم ، وهذا ما لا اريده انا ولا تريده انت .

قال : لا تنس ان الملك بحاجة اليك والى قومك ...

ـ وانت لا تنسى ان الملك يهزأ بقوى الرومان وقوى اليهود ، لا يبالي باحدى عشائر بلاده ، اذا هي اخرجته عن حده ، وخرجت عن طاعته .

قال : خير لي اذن ان ارحل عن بترا .

ـ بل خير لك ان تعتصم بالصبر كما تعتصم الرجال ، وتكون واثقا بان الاقدار تخلق الحادثات ، وقد لا يتم هذا الزواج .

قال : عدني يا ابي بانك تحول دون هذا الزواج.

ـ لا استطيع ان اعدك بهذا لان الامر ليس في يدي ولكني اقسم لك بأني سابذل جهدي كله واستعين بالحيلة والدهاء لانال الغرض الذي ترغب فيه ، فدمعت عينا صياح من القهر وجعل يقول: لقد بدات منذ امس اشعر بالحقد على فدرة وزيد يملأ صدري .

قال : احذر ان تنم عليك المظاهر فالحارث لا يغفر لمن يبغض بنيه :

قال : لا تخف فسأتعلم كيف اخفي هذا البغض !

ـ واذا رايت زيدا فابتسم له واذهب معه ومعولي العهد الى الصيد كما كنت تفعل، واعلم ان الموت يكمن لك ولابيك اذا نسيت ما اوصيك به ، فمسح دموعه قائلا: ويل لزيد بل ويل للملك نفسه اذا جعل ابن عياش صهرا له. وخرجوهو يفكر في فشله ، وقد قام الحسد فى صدره مقام ذلك الحب .

★ ★ ★



دعا الملك قواده واصحاب الراي في البلاط ، لينظر معهم في شؤون الملك ، وعواد الحارث كثار ، عياش ومضاض اللذان عرفتهما ، وقرة بن سليم ، وهوذة بن ذلول، وذيابة الصفوي ، وجميعهم من رؤساء العشائر، التي تنزل في ضواحي بترا ، وتنتقل في الربيع والصيف الى جبل الصفا والحراء .

وانت لا تجد بين هؤلاء الرؤساء ، رجلا غير مخلص لمولاه ، فهم اهل الوفاء والشهامة ، والعز والاباء ، وذلك المظهر الذي بدامن مضاض ، ان مظهر عتب ، ثم اصبح مظهر دفاع عن ولده، وهذا لا ينتقص اخلاص الرجل لسيد الانباط ، ولم يكن بينهم من يخالف الملك في امر ، ولو كان موت العشيرة في ذلك الامر ، بل لم يكن بينهم من يبخل علىمولاه ،بماله وحياته ، وقد عرفوا جميعهم ، عندما دعاهم الىقاعة الجلوس ، فى تلك الليلة ، انه سيحدثهم بشأن حرب جديدة يسعر نارها ، على قطر من تلك الاقطار المنتشرة تحت هذه السماء ، فلما اقبلوا ، رأوه يخاطب ولي العهد والابتسامة على شفتيه ، فانحنوا له، وجلس كل واحد منهم على مقعده وهم ينظرون اليه .

فقال لعياش : اتعرف الغاية من هذه الدعوة يا زيد ؟

فأجابه قائلا : القواد يقولون انها دعوة الى حرب !

قال : بل هي دعوة الى صلح دائم تعقده بترا مع امراء اليهود . .

ـ ولكن السلام يمد رواقه اليوم وليس هنالكحرب .

ـ غير ان الملك لايريد ان يستسلم الى القدر فيبسم له عندما

يشاء ويخونه عندما يشاء .

ـ وماذا يريد الملك ان يصنع .

ـ يريد ان يسترضي هيرودس انتيباس والي الجليل ،

قال : انسيت يا مولاي انك ساعدت الرومانيين فياخمادثورة اليهود وجعلت الجليل ميدانا لخيلك تقتل رجالها وتسبي نساءها وتسلب اهلها ما يملكون ؟

ـ لم ننس ذلك ولو لم نكن فعلنا هذا لما كنا نفكر في الاسترضاء لقد قام في ذهن الملك ان الرومان سيعترفون بالجميل فينزلون لنا عن اليهودية او يعطوننا بعض الاقاليم فيها ثمنا لدماء العرب التي صبغت ارض اليهود ... ولكنهم لم يفعلوا ولم يريدوا الا ان يستأثروا بكل شيء ويضعوا ايديهم على قطر من اقطار الشرق ولو استطاعوا لاخضعوا بترا لسلطانهم وجعلواملككم عبدا لقيصرهميطيعه كما يطيع العبدمولاه

قال : ليس في العرب من يجهل مطامع الرومانيين .

ـ اذن لم يبق الا ان ننظر في امرنا من الجانب الاخر فنمد ايدينا الى رؤساء اليهود ونحالفهم على روما ، ثم نبرز مجتمعين الى الميدان فنكره روما على التراجع الى الوراء .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ نعمد الى اليهود انفسهم فنأخذ منهم ما نريد اخذه ونترك لهم ما لا حاجة بنا اليه .

فقال مضاض : الزعماء فياليهودية كثار يا مولاي ولهيرودس انتيباس اخ اخر هو ايضا من الولاة فهل تريد ان يكون الجميع حلفاءلك؟

قال : اما فيلبوس والي اللجا وحوران فهذا لا نعبأ به لان ملكنا في ذلك الاقليم اوسع من ملكه ونحن قادرون ان نسلبه ولايته عندما نشاء ومع ذلك فهو ضعيف ولا يستطيع الا ان يجاري اخاه هيرودس في كل ما يفعل ولا تنس ان الزعماء الذين ذكرت ضعاف مثله ولو لم يكونوا مستسلمين الى الضعف لماآثروا الذل والخضوع للرومان على الاستقلال بالحكم والذود عن الكرامة ، ثم قال : الم يكن ارشيلاوس اخو هيرودس انتيباس واليا على اليهودية والسامرة ؟

ـ نعـم
ـ واين هو الان ؟
ـ في منفاه الذى اختاره له القيصر .

ـ وماذا فعل هؤلاء الزعماء الذين انتهكت حرمتهم ونفـي اميرهم ؟؟ نحن نقول لك ماذا فعلوا .. لقد اكتفوا بالزفرات يرسلونهـا وهـم في القصور وبالفاظ التذمر ترددها الافواه داخل الجدران .. اكره سيدهم على ترك بلاده وهم ساكتون ، ثم جعلت روما اليهودية وما يليها اقليمـا رومانيا وهم ساكتون ، ثم جاءهم رجل سمي نائب القيصر يولـي مـن رجالهم من يشاء ، ويعزل من يشاء ، وهم ساكتون ، ولو خطر لـه ان يدخل فرسه الى هياكلهم ويستهين بعاداتهم وتقاليدهـم لرايتهم ساكتين ... اجل يقولون لك ان الثورة تضطرم نارها فى اورشليم ، ولكن لا تمر ليلة حتى يخمد السيف الروماني في هذه النار ، ويقوم الخمـول مقام ذلك الهوس الذي يظن الناس انه سيغير اليهودية من حال الى حـال.. هذا هيرودس انتيباس نفسـه ، الم ينم على ذل الاستسلام الى رومـا فيما فعلته مع اخيه ؟؟ الم يقل لمن حوله يوم نفي اخوه : ان الامر لرومـا وحدها فهي تحيي وتميت وليس لليهودي ان يرفع راسه !! هؤلاء هـم الزعماء نا مضاض ليس فيهم من يجرؤ على حمل السيف للدفاع عـن حقه .

ـ وكيف تعمد الى محالفتهم يا مولاي ؟
ـ انهم حدهم جبناء لا يصلحون لشيء ، ولكنهم يمسون رجـالا عندما تدفعهم يد قوية الى الامام وعندما يتقدمهم الى الساحـة ، رجل حرب تعود خوض الميادين .
ـ ومع ذلك فهم يخافون روما ولا يجسرون على المجاهرة بالعداوة .
قال : سنبدأبهيرودس انتيباس ، فاذا رايناه غير اهـل للمعاهـدة حولنا وجهنا عنه وانثنينا نبحث عن رجل اخر يجـود بدمه في سبيـل شرفه .
ـ وان لم تجد في اليهودية ذلك الرجل ؟
ـ نلجأ عندئذ الى الوالي الروماني الذي هو نائب القيصـر ، نضـع

يدنا بيده ، على ان يعطينا حصتنا من هذه البلاد التى اصبحت ملكـــا لمولاه .

ــ ولكنه لا يفعل يا مولاي لان الارض ارضه وهي كلها له . .

ــ ومن يتصدى عندئذ لملك الانباط في حربـــه ؟!!! ان الارض التـــي تخفق فوقها اعلام بترا لا تكفينا فسنستعين برجالنا ليس غير ونقودهم الى مواقف الفخار ولا نبالي باليهود والرومان ، والتفـت الـى القـــوم قائلا : اتترددون في الزحف الى روما نفسها اذا اكرهنا الزمان ؟

فاجابوا جميعهم : بل نزحف الى الموت اذا طاب لمولانا الملك ان نموت

ــ وماذا ترون الان ، اليس من الراي ان نقرأ افكار هيـــرودس واسراره قبل ان نبوح له بما في الصدور ؟

فقال هوذة بن ذيول : هذا هو الراي يا مولاي . .

ــ ولكن خطر لنا ان نزور هيرودس في قصره لنمهد سبل الاتفاق!

فقال عياش : تزور الجليل يا مولاي ؟

ــ لقد فكرنا في هذه الزيارة من قبل ولكننا مترددون فيها الان .

قال : انسي مولانا انه ملك الانباط ؟

ــ ينسى الملك كل شيء الا هذا ... ماذا اردت بقولك ؟

ــ اردت ان الملوك لا يزورون الولاة الا لامر . .

قال : يفعلون ذلك اذا كانت الغاية منه عظمة بترا ومجد العرب .

قال : ولكن اليهود سيقولون فى انفسهم ان والي الجليل اعظم شأنا من الملك العربي واعز مقاما .

وقال ذيابة الصفوي : بل يقولون : لو لم يكن الحارث بحاجة الـــى هيرودس انتيباس لما خطر له أن يزوره فى قصره ، وهكذا قال الاخرون، الا قره بن سليم فكان ساكتا ،

فقال له الملك : ماذا تقول انت ؟

قال : الم يسمع الملك ان اليهود تصدوا لجنود نائب القيصر فـــي اورشليم ، وكادوا ينتزعون اعلامهم التى يحملون ؟

قال : ويلك من خبرك هذا ؟

ــ رجلان من فلسطين قدما بترا ليشتريا النوق ،

ــ ومتى رايتهما ؟

ـ عند غروب شمس هذا اليوم يا مولاي .

قال : لم يقص علينا احد هذه الحكاية .. قل ماذا جرى في اورشليم .

قال : الا يعلم الملك ان نائب القيصر يقضي فصل الشتاء في قيصرية كل عام .؟

قال : تلك عادة ولاة الرومان .. ثم ماذا ؟

ـ ارسل الوالي بعض جنوده الى اورشليم منذ شهر يحملون الاعلام عليها صورة تيباريوس قيصر ملك الرومان .

ـ وسنة اليهود تمنع الصور

ـ نعم يا مولاي فلما رأوها اقبلوا يسألون رئيس الجند اخراجها من اورشليم ولجوا في الطلب حتى كادت تنشب الحرب

ـ وماذا صنع الوالي؟

ـ امر الجنود بان يقبضوا على القوم ، ثم هددهم بالقتل فلم يبالوا به ، ثم امر فأخرجت الاعلام من اورشليم وحملوها الى قيصرية.

ـ وانتهى الامر عند هذا الحد ؟

ـ لا يا مولاي فان الوالي اراد ان يأخذ مالا من خزانة الهيكل لبعض شؤونهم فمنعوه وجرت الدماء من اجل ذلك في اورشليم كالانهار

استوى الحارث جالسا وهو يقول : لقد خلق الزمان لنا سببا للوصول الى هيرودس انتيباس .. هات ايضا يا ابن سليم .

قال : سترى يا مولاي ان في الحكاية سببا اخر غير هذا ..

ـ ما هو ؟

ـ لقد ذبح الناس في الجليل !!..

ـ ماذا؟!

ـ نعم يا مولاي وكان ذلك بامر الوالي الذي لا يطيق ان يتمرد اهل الجليل ويذكروا القيصر بسوء .

ـ وهيرودس ؟

لو رأى هيرودس حوله رجالا لعمد الى السيف ولكن اهل الجليل رجال كلام لا رجال حرب .

وهل انت واثق بان هذه الحادثات جرت منذ شهر ؟
ـ هكذا قيل لي يا مولاي .
فاطرق مليا ثم رفع راسه قائلا : وماذا ترى الان ؟
ـ ارى ان تمد اصبعك في الامر فقد اتت الساعة التى تريد .
قال : نرسل الى هيرودس من يسأله عن ذلك ويعرض عليه سيف الانباط اذا قضت الحاجة بحمل السيف .
قال : هذا ما اردت ان اقوله لك يا مولاي .
قال : اتوافقون الملك في ذلك ايها القواد ؟
فقال عياش : اذا كان لا بد من قراءة اسرار هيرودس فخير الوسائل ان تبعث اليه اثنين من رجالك يحملان اليه صداقة الملك وينقلان اليك اخباره .

فقال لولي عهده : وهذا رايك يا مالك؟
ـ نعم يا مولاي فاما ان تضع يدك بيده واما ان تحول وجهك عنه.
ـ اذن يذهب عياش وقره بن سليم ولك يا عياش ان تحمل من الهدايا لرئيس الربع في الجليل ما يطيب لك .
ـ ومتى نرحل يا مولاي ؟
ـ ترحلان غدا على ان تقرآا الصفحات المكتوبة في صدر الرجل كلمة فكلمة دون ان يشعر بما تفعلان .
ـ وغير ذلك يا مولاي؟

ـ لا نوصيكما بشيء غير هذا فانتما تعلمان ما هي غاية الملك .
ـ وتريد ان ندعوه باسمك الى زيارة بترا؟
ـ اليس من الراي ان يزورنا في بترا بل في دمشق .. ان الرومان عندما يرون نبطيين يزوران هيرودس ، ثم يرون هيرودس في بترا يزرور ملكها ، يقوم في اذهانهم ان العرب واليهود يتآمرون على قيصر .
ـ اذن يجب ان يذكر اليوم الذى يذهب فيه الى دمشق .
ـ اجل وليذهب اليها متنكرا بلباس الدمشقيين حتى لا يلفت اليه نظر القوم
ـ واين يراك فيها يا مولاي ؟

ـ سيعرف ذلك عندما يهم بالذهاب .

ـ وهل بقي شيء اخر؟

ـ بقي ان تنصرفا غدا وتكونا الرسولين اللذين يشرفان قومهما ، وقام لخرج من القاعة ليقص على الملكتين ما روي له ويسالهما رايهما في الامر الذي عول عليه ، وانصرف القوم وراءه ومضى عياش وقـرة يتهيآن للرحيل .

١٠

كان هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير في الثلاثين من عمره، في السنة السادسة والعشرين للمسيح ، فكان متكبرا طماحا ، وسفاحا مثل آبيه ، وكان قصره في الجليل ، يشبه قصور القياصرة ، فيـه الحراس والكهان والجوارى والغلمان ، وفيه طوائف الحسان ، من كـل بلد ومن كل جنس ، ومقام هيرودس ، وهو رئيس الربع ، مقام ملـك في قومه ، الناس حوله يامرهم فيطيعون ، الجنود الذين جعلهم حراسـا لراسه ، يبذلون دماءهم ويجودون بارواحهم ليحفظوا ذلك الراس ، ولا يجسر الناس في الجليل على اغضاب رئيس الربع الذى هو من صـف الانبيـاء ...

هيرودس لا واي راس من رؤوس القوم لا ينحني لذكر اسمه ؟ اي عظيم من عظماء الجليل لا يخضع له ؟ ان سلطانه في بلاده، اوسـع من سلطان سيده الوالي الروماني، وهو ابعد نفوذا واعظم هيبة منه ، ولقد عـرف الرجل الداهية كيف يسترضي الرومانيين ... كانـت سياسته ان يصون عرشه ، ويحفظ عزه ، والعرش والعز لا يصونهما الا الفاتحون الذين تخفق اعلامهم فوق اورشليم . لاجل ذلك ، كنت تراه في الظاهر ، عبدا لرجال الرومان ، يتمرغ على اقدامهم ولا يخطـو في اموره خطوة الا برايهم، ولا ينظر في شؤون السياسة العامة الا اذا امـروه .

ولكنه عدوهم في الداخل ، لا يطيق ، لو استطاع ، ان يرى فيبلاده

وجه روماني ، ولو كان لهيرودس جيش ، يتماثل في عدده وقوته وغناه ، جيش روما ، لاشتعلت نار الحرب في اورشليم اعواما طويلة ؛ ولرات روما انها اعجز عن ان تخمد بالسيف هذه النار ، ولكن رئيس الربع عاجز ، عاجز في طبيعة بلاده ، وقوى رجاله ، عاجز في سلاحه وفي ماله ، ولو عرف انه قادر على اخذ ما في خزانة الهيكل من جواهر ومال لتناول جميع ما في ذلك الهيكل من ذهب واشترى به السلاح والرجال .

كان ابوه صاحب عرش وهو لا عرش له ، وكان يعصب جبينه بالتاج، في كل مجلس وكل عيد ، وهو ليس له تاج، فكيف ترضى نفسه الطماحة بان يرتفع ابوه الى ذروة المجد ، ويكتفي هو برياسة الربع ، التى وهبت له ، ان رضاه بما هو له ضعف وذل ، ولكنه مكره على ذلك الرضى كما رايت ، وهو لا يستطيع الوثوب الى عرش ابيه ، الا اذا ارسلت اليه السماء حليفا قويا يرفعه بيديه الى ذلك العرش ، ويجعل جنوده الاشداء حراسا له . وفي اي ارض ام في اية سماء يجد حليفه القوي ؟؟ اخوه فليبوس والى الجيدور واللجا راض بما قسم له الله ، وابناء اخيه المنفي ، طواهم ونشرهم الفقر والذل ، وكهنة اليهود والزعماء ، اضعف من ان يحملوا سيفا ويبرزوا الى المجال ، وليس في اليهودية كلها ، على رغم كثرة الرجال ، وعز الاجيال ، رجل واحد يطمئن هيرودس الى قوته، ويستعين به على نيل غايته .

اذن لم يبق عليه الا ان يستعرض الابطال والرجال من غير اليهود، ويعاهد احدهم على الوفاء ، في الهجوم والدفاع ، حتى يتم له الامر كما يشاء ، او يموت ، فكر اولا في مصر ، ولكل اهل مصر لم يكونوا ، في ذلك الزمان ، رجال حرب ، ولم تكن مصر سيدة نفسها ، فهي اقليم خاضع لروما خضوعا كاملا ، وقد هوى عرشها بعد مقتل ابن كليوباترة في السنة ٣٠ قبل المسيح .

ثم فكر في جاره الملك العربي ، في الحارث الرابع نفسه الذي كان عونا للرومانيين على اهل الجليل ، واخذ يستعيد في ذهنه ، حوادث الماضي وحروبه ، واغراض الحارث وغاياته ، فبدا له ان هذا الملك طامع مثله ، وانه اذا حالف الرومانيين او حالف اليهود فانما يفعل ذلك

لمصلحته الخاصة ، ليكون له نصيب من التوسع والفتح !!
وقد يؤثر الحارث صداقة الرومان على صداقة اليهود ، فهو يخاف اولئك على ملكه ، اذا غضبوا عليه وظنوا الظنون . والملك العربي يطمع في اليهودية كما تطمع فيها القياصرة ، فهل يجوز ان يتعاهد الاثنان على طرد الرومان ، ثم يعطي هيرودس ، ملك العرب ، حصته من البلاد التي كانت ملكا لابيه ؟

انها صفقة غير رابحة ، وهيرودس يريد ان يستأثر بكل شيء.. الان لخير له ان يضع يده بيد ارتبان ملك البرتيين وان بعد المجال بينه وبينه..! الم يكن ملك البرتيين رجلا جبارا فاتحا وقد دانت له الارض بين الهند والفراء وخضعت له بابل ومادي وجميع الاقطار التي تجاور الاثنتين ؟ الم يستول البرتيون على اورشليم ، منذ خمس وثمانين سنة ؟ وكان ملكهم مظفرا في جميع الميادين ؟
اليس من الراي ان يحالف هيرودس هذا الملك الذي لا يطمع في اليهودية لبعدها عنه ؟ ان صداقة ارتبان ، خير له من صداقة جميع الملوك ، وليس عليه الا ان يرسل اليه بعض رجال الجليل ، يدعونه الى عقد الاتفاق .

ولم يتردد رئيس الربع في ذلك ، بل ارسل الى هذا الملك ثلاثة من رجاله الامناء ، يحملون اليه هداياه، ويسألونه باسم اليهودية ،المنكودة الحظ ، ان يكون عونا لرئيس الجليل على استرجاع المجد الذي سلبوه اياه!
على انه لم يكتب اليه ، فقد خاف ان تخطر له الخيانة فيطلع الوالي الروماني على كتابه ، فيخسر ملكه وحياته ،بل اكتفى بالالفاظ الخلابة ، ينقلها باسمه ، اولئك الرجال المخلصون له ، وغاب الثلاثة خمسة اشهر ، ثم اقبلوا يجرون اذيال الخيبة ، وقد عرف هيرودس، عندما وقعت عليهم عيناه ، ان الفشل كان نصيبهم ، فدعاهم الى قاعته الخاصة قائلا لهم : الم تروا الملك ؟
فقال كبيرهم : رايناه يا مولانا ومكثنا شهرا كاملا بالقرب منه .
قال : اعد علي قولكم وقوله . .
ـ طرحنا الهدايا بين يديه فقبلها شاكرا ، ثم سألناه باسمك ان

يعطف على اليهودية ويساعدك ، وانت ابن هيرودس الكبير ، في استرجاع الحق الذي غصبته روما.

ـ وماذا قال ؟

ـ تردد قليلا في الجواب ثم قال : ليس لنا ، كما كان لابائنا طمع في اورشليم ، ان ارضنا بعيدة عن ارضكم ، وذهب اليهودية كله لا يكفي الجيش الذي نوجهه اليها ليطرد الرومانيين .

قال : الم تذكروا له ذهب الهيكل ؟

ـ بلى يا مولاي ، ولكنه قال : يجب ان يكون هذا الذهب بين يديه قبل ان يامر جنوده بالزحف الى هذا القطر .

ـ ومن يجسر من اليهود على اخذ مال الهيكل ؟ ايريد ارتبان ان يخلق في اليهودية ، حربا اهلية ، يشترك فيها النساء والرجال ؟ الا يعلم ان هذا المال لا يؤخذ بالرضى بل بقوة السيف ونحن لا نريد ان نخسر جنودنا كلها في سبيل اخذه ؟

ـ لقد ذكرنا له كل ذلك يا مولاي.

ـ ولم يرض ؟

ـ رضي بامر اخر هو اخف وطأة عليك واقرب منالا .

ـ وما هو هذا الامر ؟.

ـ هو ان يجمع رئيس الربع في قصره سلاحا يكفي سبعين الفا من الرجال !!

ـ وهل ذكر لكم غايته من هذا ؟

ـ اجل ، فهو لا يزحف الى اليهودية الا عندما يصبح هذا السلاح في قصرك وتصبح قادرا على بذله لجنوده يوم يضعون اقدامهم في هذه البلاد !!

ـ كانه يريد ان نقوم نحن بنفقة الحرب!

ـ نعم يا مولاي ، وبعد أن تنتهي مهمته عندنا ، ياخذ من مال الهيكل ، لكل جندي من جنوده ، دينارين من الذهب !! فوضع هيرودس يده على جبينه وساد السكوت . . .

كان يقول في نفسه : الحارث الطامع في التوسع ، خير لي من ارتبان

الطمع في المال .. هذا يسلبني القوة التى تصون العرش ، وهو بعيد عني لا يراني ولا اراه ، والاخر ، الذي يبقى جارا لي ، تحمى جنوده هذا العرش ، الى الابد . ثم رفع راسه قائلا : وهل سمعتم شيئا اخر ؟

ـ لا يا مولاي ، فقد امر بأن تدعوه الى ارضك يوم يتم لك الامر كما اراد ، ويملأ السلاح اروقة قصرك ودهاليزه !..

ـ اذن لم يبق الا ان نعاهد ملك العرب وينتهي الامر ، فقال احدهم: خير لك ان تعاهد الملكين يا مولاي.

ـ وكيف ذلك ؟

ـ تمد يدك من هذه الناحية ، الى الحارث العربي ، وتجمع السلاح لجيش البرتيين ، من الناحية الاخرى ، دون ان يعلم هذا الملك ، ان لك صلة بالملك الاخر ، ودون ان يشعر القوم في الجليل ، بأنك تستاثر بالسلاح ...

قال : اصبت ، فاذا خاننا الحظ من هذا الجانب ، لجأنا الى الجانب الاخر ، ولكن اخفاء امر السلاح صعب كما ترون .

ـ لا يا مولاي فسنستعين بظلام الليل على جمعه واخفائه

ـ ويذهب العمر كله ونحن نجمعه من وراء الستار خوفا من ان تعلم روما بما نفعل فتفضح الاسرار .

قال : ان الرجل الذى يريد ان يبلغ غايته لا يعبأ بالزمان .

قال : اتريدون ذلك جميعكم ؟

فقالوا جميعهم : نعم وهذا هو الراي .

فانفرد يفكر في امره وينظر في الوسيلة التى ينال معها غرضه من الملك العربي ، وكان ذلك في اول شتاء ذلك العام .

فلما حدثت حادثة الاعلام المصورة في اورشليم ، كما مر ، وغضب اليهود لمذهبهم وعاداتهم ، راى هيرودس ان يتعجل في الامر ، ويبعث الى بترا بعض شيوخ قومه المجربين .

وعندما هم بان يفعل ، كان الربيع قد اقبل ، وكان عياش وقرة بن سليم العربيان ، في طريقهما الى الجليل ...

★ ★ ★

١١

دخل سمعان اليهودي ، ناظر مخدع هيرودس يقول لمولاه :

بالباب رجلان من اهل بترا يطلبان المثول بين يديك

وكان رئيس الربع مضجعا على وسائده ، وهو يحلم بالعرش الذي سيبنيه

فقال له : صفهما لنا .

قال : اصفهما بكلمة واحدة هي ان لهما صفات الملوك ..!

ــ وهما فتيان ام شيخان ؟

ــ في مقتبل العمر يا مولاي . قال : ليدخلا .

ثم اقبل هيرودس يجر ذيل ثوبه الارجواني ، فنهض الاثنان وسلما ثم امرهما بالجلوس قائلا : من اي بلد قدمتما ؟ فقال عياش : من بترا .

ــ أأنتما من رجال ملك العرب اريتاس « الحارث » ؟

ــ من قواده يا مولاي ، وقد اوفدنا اليك نحمل هداياه من تحف دمشق

فاشرق جبين هيرودس وجعل يقول : اريتاس نفسه ؟ واي شان له مع رئيس الربع في الجليل ؟

قال : اتأذن لنا في ان نقول كل شيء.؟

ــ اجل كل شيء...

قال : مر هذا الرجل بان يخرج من القاعة ، فقال دون ان يتردد : اذهب يا سمعان ولا تعد الا اذا دعوناك ، ثم قال لهما : ماذا يريد الملك؟

قال : لقد بلغ الملك ان حادثا جرى في اورشليم بين اليهود وجنود الوالي فاراد اللعين ان يتظاهر بعدم الاكتراث فقال :

ذلك حادث لا صلة لنا به لان اورشليم ليست من اعمال الجليل كما تعلمان .

ــ ولكنك يهودي يا مولاي وقد قيل لنا ان الرومان خالفوا سنة اليهود .

ــ ان الرومان اصحاب السلطان في اليهودية ولهم ان يصنعوا فيها ما يشاؤون .

ـ وخزانة الهيكل ؟
ـ وهذه ايضا ليست من شأننا بل من شأن رؤساء الكهنة !!
ـ اذن انت لا تنظر يا مولاي الا في شؤون الجليل وحده
قال : ما اسمك ؟
ـ عياش . .
قال : تكفينا شؤون الجليل يا عياش .
ـ ولماذا ذبح الوالي بعض اليهود في الجليل ؟!
قال: وتعرف هذا ايضا ؟
ـ ان مولانا الملك يعرف كل شيءوهو الذى امرنا بان نسألكعن هذا
قال : لقد اصاب الوالي فيما فعل في الجليل ، اترضى ايها العربي بان يقوم رجل في حوران فيقول : لا تدفع الجزية لاريتاس ملك العرب .
ـ لا
ـ اذن كيف يرضى الروماني بما لا ترضاه انت ويصبر على اليهود الذين لا يدفعون الجزية لقيصر ؟
فعرف عياش ان الرجل يلبس ثوبا غير ثوبه فقال : فهمت كل شيء يا مولاي الا امرا واحدا لا اجسر على التفكير فيه .
ـ ما هو ؟
قال : لا افهم كيف يقدم ابناء روما على ذبح ابناء قومك وانت حاضر ؟
فاضطرب الرئيس الشاب ، ولكنه استطاع ان يخفي اضطرابه ، وراء ابتسامة الخبث والدهاء، ثم قال : اهذا ما امرك الملك بان تقوله لنا ؟
ـ نعم يا مولاي ، فقال لقرة : وانت تقول مثلما يقول ؟
ـ اجل فالواحد منا ينطق بلسان الاخر .
فدب الريب في صدر هيرودس وجعل ينظر الى الاثنين نظرات الغضب ثم قال لهما : ايجعلكما الملك رسولين الينا ولا يكتب في ذلك كلمة ؟
فأجابه قرة قائلا : هذه هداياه في فناء الدار تشهد لنا .

فنادى ناظر مخدعه وقال له : احمل الهدايا التى يحملها الرجلان ، الى هذه القاعة . فخرج الرجل ، وحملت الغلمان تلك الهدايا الى هيرودس .

وابلغ ما يقال فيها انها هدايا ملك جواد ، يريد من ورائها ان يبلغ غايته ، فلما رآها افتر ثغره ، وايقن بان الرجلين صادقان وهما مندوبا الملك ، ولكنه اراد ان يستوثق من ناحية اخرى ، فقال لسمعان: الا تجد في سوق الجليل بعض فتيان العرب ؟

قال : في السوق طوائف من هؤلاء يا مولاي

قال : علينا ببعضهم الساعة . . فانصرف سمعان لينفذ امر مولاه ؛ فقال عياش : لقد قام في ذهنك يا مولاي اننا من جواسيس الرومان ...

ـ ومن اين عرفت ذلك ؟

ـ من هذه الكلمات التى خاطبت بها حاجبك الان ... ان روما لا تستطيع ان تجعل الانباط جواسيس لها على اهل هذه البلاد ...

قال : وان هيرودس رئيس الربع لا يصدق احدا في هذا الزمان ... سننظر بعد ساعة فيما قدمتما لاجله .

ـ اي بعد ان يعود سمعان مع رجال العرب ..

ـ اجل فقد علمتنا الايام ان نحذر كل ما نرى وكل ما نسمع

ـ ولكن قد يجد حاجبك رجالا لا يعرفون من نحن !

ـ الستما من قواد اريتاس ؟ ـ بلى

ـ وهـ يوجد بين العرب من لا يعرف قواد الملك ؟

فقال قرة : اتظن يا مولاي ان جميع اليهود المنتشرين في هذه الاقطار يعرفون هيرودس رئيس الربع في الجليل ؟

قال : الرجل الذي لا يعرفنا ليس يهوديا ... فقال قرة في نفسه انه ادهى مما كنا نظن ، ثم اقبل سمعان يتقدم رجلين من العربان ، فقال هيرودس :

الم تجد غير هذين الرجلين ؟

قال : في الفناء بضعة رجال يا مولاي.

فقال لهما : ممن انتما ؟ ــ من عرب النوازل . . .
ــ اليس لعرب النوازل ملك ؟
ــ بلى ان ملكنا الحارث بن مالك
ــ اتعرفان هذا الرجل ؟ واشار الى قرة بن سليم ، فقالا : لم نر له وجها من قبل . وهكذا قالا عن عياش
فقال قرة : وهل تعرفان الحارث بن مالك؟
ــ وكيف نعرفه ونحن نازلون في اطراف ملكه ! فقال هيرودس : ليدخل جميع من فى الفناء ، فدخلوا وهم مزيج بينهم الشيخ والفتى فقال : اليس فيكم من يعرف هذين العربيين ؟ فجعلوا يحدقون اليهما وهم ساكتون . .

الا فتى منهم اخذ يدنو وهو يقول : يخيل الي اني اعرفهما . . هذا يدعى عياشا ، وهذا . . . هذا ابن سليم ولا اعرف اسمه . . .
ــ وكيف تعرفهما ؟
ــ رايتهما مع ملكنا الحارث في ميدان السباق ، منذ عام ، وقيل لي انهما من قواد الجيش العربي . .
وكان الفتى المتكلم لا يجاوز الثالثة عشرة ، فاوما اليهم هيرودس بالخروج وهو يقول : لقد انتهت مهمتكم الان فانصرفوا ، ثم قال : اذكر الان ما تريدان ان تذكراه فقد وثقنا بكما . . ما هي غاية الملك من ارسال قائديه الى الجليل ؟

فقال قرة : ايريد مولانا ان نحدثه بجلاء؟
ــ اجل ، وسنحدثكما ايضا بجلاء ، قل ماذا يريد الحارث ؟
ــ يريد ان يعلم ما هي الحكمة التى قضت عليك بالسكوت ، يوم سفح الرومان دماء بعض اليهود ، في الجليل ، ومزجوها بدماء الذبائح؟
فهز راسه قائلا : ان الحكمة التى قضت علينا بذلك ، هى الحكمة نفسها التى قضت عليه بترك دمشق للرومانيين ، وقد كانت ملكا لابائه ! وهو جواب صريح وبليغ كما ترى . .
فلم يشأ قرة الا ان يدافع عن مولاه ، فقال : اذا كان الملك لم يسر ان يسترجع دمشق ، فهذا معناه ان جنوده اقل عددا من جنود روما

النازلين في هذه الديار ،

ـ واما نحن ، فاذا كنا لم نتصد للفاتحين، يوم ذبحوا ابناء قومنا، فهذا معناه اننا اضعف منهم واقل عددا !!

ـ ولكن اي شيء يمنعك يا مولاي من ان تصير الضعف الذي ذكرت، قوة يهتز لها الرومان في اليهودية ، وفي سوريا ؟

ـ وما الذي يمنع مولاك عن هذا ؟

ـ ان مولاي يبحث عن الرجل الذي يقويه . . .

ـ ومتى يجده ؟

ـ لقد وجده الان ، على ما رايت . . . .

ـ اذن فمولاك يبغض الرومان وهو يريد ان يعاهدنا على هذا البغض .

ـ قد لا يبغضهم يا مولاي ولكنه لا يطيق ان يراهم سادة الموقف في هذه البلاد .

قال : الا ترى اننا اضعف من ان نظفر بهم في ساحات الحرب .

ـ اذا اجتمع اليهود والعرب كانت روما اضعف مما تظن

ـ وهل يستطيع هيرودس رئيس الربع في الجليل ، ان يجمل اليهود جميعهم جنودا له ؟ الا يعلم ملككم اريتاس ان سياسة رومـا ابعدت الزوج عن زوجته والابن عن ابيه، وجعلت عشائر اليهود فرقا تسودها الفوضى ، وتكتنفها الغايات والاغراض ؟

قال : لا اظن اليهود يرضون بان تكون رقابهم موطئا لنعال الرومان .

قال : لو كنت يهوديا لرأيت اغرب مما تقول ، ومع ذلك فلنترك هذا الان ولننظر في الامر من جميع وجوهه . . . ما هو عدد جنود العرب يا ابن سليم ؟

فراى عياش ان الرجل يعود الى دهائه ، فقال : جنود العرب كثار يا مولاي ولكن الملك لم يجد مجالا ليدفعهم جميعهم الى الميدان . . . الا تستطيع انت ان تجمع يهود الجليل تحت لوائك ؟

ـ بلى ونستطيع ان نضم اليهم بعض يهود السامرة وارشليم .

ـ وكم يبلغ عدد الفريقين ؟

ـ انهم يجاوزون الاربعين الفا .

قال : هب ان الملك اعطاك مثل هذا العدد واصبح الجيـــــش الذي تقودان ثمانين الفا فماذا تصنع روما بعد ذلك ؟

قال : بين ليلة وضحاها تخلق روما الرجال !

ـ اتخلقهم من اليهود ؟

ـ من هؤلاء ومن جميع الاجناس

قال : عار على اليهودية ان تساعد الفاتحين .

قال : نحن لا ننظر الان في اسباب العار ... ان الثمانين الفـــا التى تحمل وراءنا السيف ، يقابلها من الجانب الاخر بثمانون اخـرى براسها قواد الروم .

ـ ولكن الجيش الروماني في اليهودية لا يجاوز العشرين الفا .

قال : هذه هي الحامية ، ولكنك نسيت ان هذه اليهودية تجـــرد على الفاتح بعشرين ، ثم تجيء الجنود من البر والبحر فيملأون الاقاليم .

ـ ومن اين يجيئون ؟

ـ ترسل الرسل الى انطاكية ، الى والي سوريا ، فيصدر امــره الى الاقطار وتزحف الجيوش من بيروت وصيدا ومن جميع المـــدن التى على الساحل .

قال : تستولون على كل شيء قبل ان تصل القوى التي ذكرت .

قال : لقد فكرنا في هذا وقد تكون مصيبا فيه ، ان في عبـر الاردن زعماء نريد ان نكتب اليهم قبل ان نعاهد الملك .

ـ اولئك يعيشون في ظلك يا مولاي.

ـ لم يبق لنا ظل في ظل الرومان .. سنكتب ايضا الى اخينـــــا فيلبوس والي الجيدور فقد يخرج معنا عن الطاعة يوم ندعوه الى ذلك.

ثم قال : ما هي شروط اريتاس ؟

ـ لك ما له يا مولاي وعليك ما عليه .

ـ هب اننا استرجعنا الاقاليم التى استولى عليها الروم فاي اقليم يطمع فيه الملك ؟

ـ هذا ما لم يذكره لنا الملك يامولاي...

قا ل: لعله يطمع باورشليم ...

ـ اذا كان لا بد من هذا فهو يؤثر الارض التى تجاور حدود بلاده.
قال : اننا نخشى امرا يا عياش ..
ـ ماذا تخشى يا مولاي..
ـ ان يهب الرومان للككم احد الاقاليم فينسى المعاهدة ..
فاضطرب عياش قائلا : اتتهم ملك العرب بشرفه وهو يجود بكل ما يملك دفاعا عن هذا الشرف ؟!
ـ ومن يضمن لنا هذا ونحن لا نعرف اريتاس ، الم يستعن به الرومان في حروبهم فأعانهم على الجليل وانتهت الحرب بصلب الفين من رجالنا على الاعواد ؟ الم تنشب الحرب بين العرب وبين والدنا هيرودس الكبير وانتهت بفوزه ؟

ـ ولكن العرب لم تكن يومئذ مع الرومان .
ـ اجل ، وهذا معناه ان الملك العربى لا يضع يده بيد اليهودي، حتى يضعها بيد الرومانى وذلك وفقا لهواه .
قال : لم يكن بين العرب واليهود عهد .
ـ اما اليوم فسيكون هذا العهد وسنكتبه بيدنا ..
ـ اكتب الان يا مولاي.
ـ بل نكتبه يوم نرى اريتاس وجها لوجه ... فتجاهل عياش الامر قائلا : واين تراه ؟

ـ فى قصره في بترا
ـ اتزور الملك يا مولاي؟
ـ نزوره بعد شهر وننظر في كل شيء .
قال : اخاف ان يظن الرومان الظنون فيفسدوا عليك الامر .
ـ وكيف يظنون وهم لا يعلمون شيئا .
ـ سيعرفون انك تركت الجليل ذاهبا الى بلاد العرب
ـ ولكن سنقول لهم اننا نرغب في رؤية القصور والهياكل التى حفرت في الصخور .
قال : خير لك ان تعمد الى حيلة اخرى تحفظ فيها سرك .
قال : ما هي؟

ـ هي ان تقول لاهل الجليل ، ومن حولك من الرومانيين انك ذاهب الى الجيدور لزيارة اخيك فيلبوس .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وتمر بدمشق فترى ملكنا فيها .

ـ دمشق ؟ انها ليست للملك بل هي للرومان

ـ وهذا ما يبعد عنك الظنون يا مولاي

قال : اهذا رايك ام راي اريتاس ؟

ـ رايي انا يا مولاي فوجودك في دمشق لا يلفت الانظار

ـ انه راى ليس فيه شيء من الحكمة

ـ ولماذا ؟

ـ لان دمشق ستهتز كلها لوجودنا فيها .

ـ ولكنك ستذهب اليها متنكرا .

قال : هذا هو الخطر .. ان الرومان يحصون على اليهود انفسهم فلا يخطو احدهم خطوة واحدة الا وهم وراءه يعدون خطواته ، اتظن ان هيرودس رئيس الربع يزور دمشق وهم لا يعلمون ؟ وهل يستطيع هيرودس ان يتحجب شهرا دون ان يشعر الناس وجوده دون ان تراه العيون ؟ ان في هذا التحجب وسيلة يغتنمها الرومان ليشهروا علينا السيف قبل ان نتهيأ للحرب .

ثم قال : يخرج اريتاس من بترا ، ويخرج هيرودس من الجليل فيلتقيان في دمشق !! انه قول هين يسهل على قائله ، ولكن يصعب على الاثنين ان يتنكرا في بلد مثل دمشق ، حراسها وحكامها وجنودها من الرومانيين .

ـ اذن تؤثر اللقاء في بترا نفسها .

ـ اجل وسنذهب اليها بدون خوف ، حتى اذا اراد قائد الحامية ان يرافقنا اليها فلا نمنعه ...

ـ وهل نعد مولانا الملك بذلك ؟

ـ عده ، باننا سنراه بعد شهر ولكن لا تذكر له ان لنا شروطا .

وكأنه كان يفكر في امر اخر فقال: ان لاريتاس ولدا هو ولي عهده اليس كذلك ؟

ـ نعم يا مولاي

ـ ويدعى مالكا ؟

ـ نعـم

ـ وهل يجاوزمالك العشرين من العمر ؟

ـ لم يبلغها بعد

ـ وبنوه الاخرون ؟

ـ ليس له غير الاميرة فدرة التى هي في ربيع الحياة .. فاشـرق جبينه قائلا : وهل خطبها احد؟

ـ لا اعلم اذا كانت مخطوبة يا مولاي..

ـ وزوجات اريتاس ؟

ـ عنده زوجتان ليس غير .. فبدا الاستغراب في عينيه وجعـل يقول : ايرضى ملك العرببزوجتين اثنتينوهو يستطيع ان يجعل حسان العرب كلهن جواري في قصره وحظايا له ؟

فابتسـم قائلا : يظهر انه لا يريد ان تكثر النساء حوله .

ـ وهل يشرباريتاس الخمر ؟

ـ لا يجسر احد في الانباط ان يشربها يا مولاي.

ـ وماذا يخافون اذا فعلوا ؟

ـيخافون الشريعة والملك ..!

ـ وهل ترقص النساء في قصر ملككم كل ليلة ؟!!.

قا ل: تحتجب النساء فيمخادعهن كل ليلة الا الملكتين والاميرة فدرة فانهن يظهرن للناس ويشهدن مجلس الحارث.

فقهقه هيرودس ثم قال : اذن يعيش اريتاس كما يعيش الكهان فـي الهياكل .. انها حياة لا نطيقها نحن وليس لها وجود في الجليل .

وكيف تعيشون هنا يا مولاي ؟

ـ سترى الليلة كيف يعيش اليهود في قصورهم .. وظل الثلاثـة يتحدثون حتى كادت الشمس تتوارى وراء الافق ، فنهض هيرودس

قائلا : اتبعاني لنطوف في المدينة قبل ان يجن الظلام ، وخرجوا جميعهم وسمعان لا يفارق مولاه ، حتى امسوا في السوق ، فرأى العربيان ان رؤوس القوم تنحني لهيرودس وان الايدي ترتفع للسلام على رئيس الربع، من الجانبين . فهامس عياش قرة قائلا له : ان رئيس الربع ملك في قومه .

فقال : بل هو اعظم من ملك ...

ـ ولكنه خبيث داهية ياخذ ولا يعطي !

ـ ومع ذلك فقد كنا اشد دهاء منه . .وكان هيرودس في تلك الساعة يصافح احد زعماء الجليل ، وقد سمعه عياش يقول له : انهما صديقان من العرب يريدان ان يقضيا في الجليل بضعة ايام ، فقال له الاخر : لا اذكر في اي مكان رايت هذين الوجهين ..

ـ لعلك رايتهما في اورشليم .

ـ لا اعلم الا اني اعرفهما من قبل . فقال هيرودس في نفسه : لقد رايتهما مع سيدهما اريتاس يوم زحف الينا مع رجاله الصرب باغراء الرومان ... ثم حول وجهه عنه قائلا لضيفيه : اكنتما مع الملك في حرب الجليل ؟

قالا : نعم ولكننا لم نرك فيها ..

قال : كنا في روما يوم نشبت هذه الحرب .

ـ وهل تذكر ذلك الرجل الروماني الذي سعر النار ؟

ـ وكيف ننسى ذلك اللعين سابينوس ، خازن اغوسطوس قيصر؟ بل كيف ننسى سيده فاروس والي سوريا الذى صلب الرجال ؟ ان ذكرى هذه الحرب لا تفارق الصدر ولولا هذا التفرق الذى نلمسه فياليهود لايقن الرومان بانهم لا يستطيعون البقاء في اليهودية يوما واحدا . وكانه ندم على ما بدر منه فقال : ولكن الرومان ابرياء ... ابرياء يا عياش ... ان اليهود انفسهم يؤثرون الحياة في ظلهم على العيش وهم احرار ..!

ثم قال : لقد غربت الشمس فخير لنا أن نعود الى القصر قبل ان نرى جنود الحامية يطوفون في الاسواق .

ـ ايطوف هؤلاء الجنود كل ليلة ؟

ـ اجل ولعلهم يخافون ان يحيي اليهود ليلهم في المؤامرات !!
ـ وما هو عددهم يا مولاي ؟
ـ الحامية كلها تعد مئتين ليس غير !
ـ اذن ليس للرومان قوة في بلاد الجليل !
ـ يكفي ان لهم فيها هيبة الفاتحين .. وانثنى راجعا وهو يقول : اتبعاني .. فالجلوس في القصر بين الحسان اللواتي يسلب رقصهن العقول ، ويفتن القلوب ، خير من ذكر الرومان واليهود ... نعم .. الليل لنا والنهار لاهل الجليل ، وساعة واحدة نقضيها بين نساء القصر، تنسينا هم الولاية ومتاعب الجلوس للاحكام ، ورجع الثلاثة الى القصر يقضون ليلهم في الطرب واللهو حتى كاد يبزغ الفجر . وتلك كانت عادة هيرودس في بلاطه الصغير .. الرجال ينفخون في المزامير ، والنساء يرقصن على انغامها حتى تخور القوى ، ويستولي النعاس على الجفون.. وعندما طلعت الشمس ، ترك عياش وابن سليم قصر رئيس الربع ، وهما يتحدثان عما رأياه ، من دهاء صاحبه ، والملذات التي يتمرغ فيها ، في ذلك القصر . ولم تمر عليهما بضعة ايام ، حتى امسيا في بترا ، ومثلا بين يدي ملكهما يقصان عليه ما سمعاه .



١٢

انه داهية يا مولاي ، بل اقسم براسك انه من ادهى الناس .
قالها قرة بن سليم وهو يعيد قسمه ، فقال الحارث : لو لم يكن كما ذكرت، لما استطاع ان يثبت في ولايته ساعة واحدة .. صف لنا يا قرة هذا الدهاء
ماذا اقول لك يا مولاي ؟ انه يريد ان يعلم ما في بلاد العرب من اسرار ، دون ان يبوح لنا بسر واحد من اسرار قومه !
ـ اضرب لنا مثلا .
قال : لقد حاول ان يطلع على عدد الجنود الذين يحملون السيف

في بترا ليخوضوا المجال ، وكان يظن اننا من اولئك الرسل الذين يعترفون له بكل شيء.

قال : نريد ان نجعله حليفا لنا ونحن نكتمه ما عندنا من قوى وهـذا ما لا يفعله الحليف مع حليفه .. كان عليكما ان تذكرا له عدد الجيش العربي فالملك لا يخاف ان يدل الناس على جنوده .

ـ ذكرنا له ذلك يا مولاي بعد ان عد لنا جيوش الجليل الذين ينضوون تحت لوائه ..

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟ فقال عياش : احسسنا من خلال كلماته انه يرغب في المعاهدة كما يرغب فيها مولانا الملك، وهو لا يصدق ان السماء ترسل اليه ملكا قويا يكون عونا له على الفاتحين ، ولكنه يا مولاي لم يكن واثقا بنا وكان يظن اننا من جواسيس الروم . ثم اعاد عليه حديث الرجل الى ان قال : وقد بدا لنا يا مولاي انه يريد ان يعلم عنك كل شيء قبل ان يزور بترا .

ـ اهو قال انه سيفعل ؟

ـ نعم يا مولاي

ـ مع اننا اردنا ان تكون هذه الزيارة في دمشق .

ـ ولكنه لم يرض الا ان تكون في بترا فهو يكره الذهاب الى دمشق لان عيون الرومان فيها تملأ الاسواق ، ولانه لا يطيق ان يكون تحت رحمتهم في تلك المدينة التى انتزعوها من ايدي العرب وجعلوها ملكالهم.

وقص عليه ما حدثهما به ، ثم قال : ولم يشأ ان ينظر فى الشروط التى تبنى عليها المعاهدة ، الا عندما تجتمعان في القصر ، ويظهر انه لا يريد ان يبوح بسره الا للملك .

قال : سيثور الوالي الروماني لزيارة هيرودس .

قال : اما هو فلم يعبا بذلك وسيسأل قائد الحامية فى الجليل ان يرافقه الى بترا . فقطب الملك حاجبيه قائلا : نخشى ان يكون في الامر غرضا له . . .

ـ اي انك تخاف ان يخوننا ويطلع والي الروم على غاية الملك قبل ان يجيء . . أليس كذلك يا مولاي

ــ اجل وهذا معنى قوله انه سيجعل قائد الحامية رفيقا له !
ــ لو رأى الملك هيرودس ، وسمع حديثه بشأن الرومان ، لوثق بانه ليس خائنا ... اني اضمنه من هذهالناحية يا مولاي.
ــ ولكن كيف يبوح لابناء رومابسر زيارته ؟
ــ يريد ان يثبت لنا انه لا يبالي بهؤلاء وسيقول لهم ان الغاية من زيارته ، ان يرى الاثار البادية في بلادنا بين الصخور !
ــ ومتى يجيء؟

ــ بعد بضعة وعشرين يوما يا مولاي ، وقد سألنا عن ولي العهد وعن الاميرة فدرة ، واحب ان يعلم اذا كانت مخطوبة لاحد من الامراء . وابتسم عياش قائلا : ويظهر ان له من وراء هذا السؤال غرضا لا اعلم ما هو .. فخطر للملك عندئذ خاطر خفق له قلبه ثم قال : انه سؤال رجل لا يريد ان يزور الملك الا بعد ان تصفا له اهل بيته .. لقد سأل عن الملكتين ، وولي العهد وفدرة فهو اذن يسأل عن سكان القصر كلهم دون ان تكون هناك غاية خاصة ، اجل يا عياش ان هيرودس لم يفكر فيما ظننت ولا يخطر له ، وهو الامير اليهودي ، ان يجعل الفتاة العربية زوجة له ..

ــ خيل الي يا مولاي ان في عينيه شيئا من هذه الرغبة .. فضحك وهو يقول : وستقول بعد قليل انك لمست العاطفة التي تجيش في صدره . فقال قرة : لمستها انا يا مولاي واستطيع ان اقول انه سيخطب الاميرة يوم يمثل بين يديك ..
قال : لو خلقت يهوديا لكنت يا ابن سليم من الانبياء اترى صاحبك يفكر في فتاة لا يعرفها وفي قصره العشرات من النساء كما وصفتمالنا .
ــ من يعلم يا مولاي فقد يخطر له ان يتزوج فتاة من عاصمة الروم .
فوقف فجاة وقال : انصرفا الان ولا تقولا لاحد انهيرودس سيزوربترا، ولا تذكروا ما قاله لاحد من الناس :
ــ وماذا نقول لاهل القصر اذا لجوا في السؤال ؟
ــ تقولان : لقد عرفنا ما اراد الملك ان يعرفهوانتهى الامر . فخرجا وقرة يقول للاخر : لقد اضطرب الملك لسؤال هيرودس عن فدرة ويظهر

انه لا يريد ان تفضي المعاهدة الى هذا الزواج.. فأجابه عباس قائـــلا : اما انا فاظن انه سيمهد السبل ليتم له هذا الامر . وترك الملك قاعـــة الجلوس ذاهبا الى القاعة التى تجلس فيها زوجتاه ، فخرجت الجواري اللواتي كن فيها وخلا للثلاثة الجو .

★ ★ ★

١٣

لم يجلس الملك حتى امر الغلام القائم بالباب بأن يدعو ولي العهد. ثم لم تمر لحظة حتى اقبل والابتسامة على شفتيه . فقال الملك : اجلس يا مالك واما انت ايها الغلام فاحفظ الباب ، وخفض صوته قائلا : لقــد عاد عياش وقرة بن سليم من الجليل .

قال : رايتهما الساعة يا مولاي .

ــ وماذا قالا لك ؟

ــ لقد اكتفيا بقولهما : ان الملك يعرف كل شيء فلم اشأان الـــج في السؤال لاني ايقنت بان الملك اوصاهما بالكتمان .

ــ هو ذاك ، وقد دعوتك الان لاقص عليك وعلى الملكتين مـــا جـــرى بين القائدين وبين رئيس الربع ، قال : اظن انه رضي بما اقترحـــــاه عليه باسمك يا مولاي .

ــ اجل ووعدهما بانه سيزور بترا في اخر هذا الشهر .

ــ ولكنك امرتهما بان يدعواه الى دمشق .

ــ اما هو فلم يرد الا ان يزورنا في بترا . وجعل يروي لهم حكاية عياش وقره ثم التفت الى زوجتيه قائلا : الملك يظن ان هيرودس سيخطب فدزه !!.. فاضطربت خلدو قائلة : يخطبها يا مولاي ؟

ــ نعم فقد كان سؤاله عنها سؤال راغب في الزواج ..

وهل يرسل الملك ابنته الى الجليل ؟

ــ هذا ما اردت ان ارى رايك وراي شقيلة فيه ، اني لا احـــب ان يفاجئني هيرودس بطلبه قبل ان تنظر جميعنا في الامر ، فماذا ترين ؟ فاطرقت مليا ثم رفعت راسها قائلة : ان الراي فى هذا رأي الملك وحده فقد يخطر له ما يخطر لنا نحن .

ـ وانت يا شقيلة ؟
ـ لا اجسر على ابداء الراي يا مولاي.
ـ لمـــاذا ؟
ـ لان الامر اعظم من ان تنظر فيه النساء.
ـ وانت يا مالك ؟
ـ اما انا فليس لي الا ان اسمع راي الملك .
قال : الم تكن الغاية من ارسال قرة وعياش ، جعل هيرودس حليفا لنا على الرومان ؟
بلـى
ـ وهل يقوم في الذهن ان فدرة ستجد زوجا لها اكفأ من والـــي الجليل واعز مقاما منه ؟
قال : ليأذن لي مولاي ان انظر في الامر من وجه اخر .
قال : هات
قال : اانت واثق بان هيرودس انتيباس يرغب فيما ذكرت ؟
ـ هذا مـا يبدو لي
ـ لنفترض انه جاءنا خاطبا فهل تزف شقيقتي اليه وهـــي لا تعرف تقاليد اليهود وعاداتهم ولم تر وجهه من قبل بل لم تر زمانهـــا رجلا من اليهود ؟!
قال : لو خطر للوالي الروماني نفسه ان يتزوج فدرة ، ثم يتم لنا بعد ذلك الزواج ، ما نفكر فيه من التوسع وبسط النفوذ في الاقطـار، افتقول عندئذ لهذا الروماني نحن لا نزوجك لاننا نعرف من انت؟؟
ـ وهل تستطيع فدرة ان تعيش مع هؤلاء؟
ـ ومن قال لك انها خلقت لتتزوج عربيا وتعيش في جو عربي؟؟
انك لا تستطيع ان تجد في دولة الانباط ، على كثرة من فيها مـن نبلاء وامراء رجلا له مقام هيرودس وعزه وغناه ، وتاثيره في الناس ، افترسل الاقدار الى فدرة رجلا هو نصف ملك وتابى ؟؟ انها اذن لا تنظر الا الى يومها وليست تلك الفتاة الكبيرة النفس التى تتحدث بها العـرب كلما ذكرت الكرامات .

ـ انا لا اقول يا مولاي انها تخالف الملك فيما يامرها به ..

ـ وماذا تقول اذن ؟ تقول انها لا تستطيع أن تعيش مع امثال هيرودس اي انها لا تستطيع ان تعيش في قصور الملوك وهذا هو العجز بل هذا هو الخمول والذل .. ان فدرة التى خلقت ونشأت في حضن ملك ، يجب ان تنتقل في حياتها الجديدة الى قصر ملك اخر ، ترى فيه ما كانت تراه في قصر ابيها من اسباب العظمة والدلال .

ثم قال : وهنالك امر اخر ذكرت لك شيئا منه ، وها انا اذكره كله الان ... الا ترى يا مالك انك اذا جعلت هيرودس صهرا لك ملكت نصف اليهودية ، ونظرت اليك روما نفسها نظرها الى ملك كفوء لها في النفوذ والسلطان ؟ الا تعلم انك اذا حالفت اليهود، تراجع الرومان الى فينيقيا ليقيموا بالشواطىء يحميهم البحر ؟ الا تريد يا بني ان يمتد ملكك ويخفق لواء العرب حيث يخفق لواء الروم اليوم ؟؟ انك لا تفكر الا في تقليد اليهود وعاداتهم وتخشى ان تغرق اختك في ذلك التقليد وهذه العادات .

فتمتمت خلدو قائلة : مسكينة فدرة فهي لم تهنأ بحب زيد .

ـ ولكنها ستهنأ بحب هيرودس وتصفو لها الحياة عندما تمسي سيدة الجليل وعبر الاردن وصاحبة الامر في الولايتين .

قالت : وهل انتهى الامر الان يا مولاي ؟

ـ لم ينته شيء . فنحن لم نعلم اذا كان الرجل يرغب في الزواج، ولكني اردت ان ننظر في الامر واتهيأ له قبل ان افاجأ بطلبه كما قلت . وقد عرف الملك في تلك الساعة ، ان الملكة خلدو لا تريد ان ترسل ابنتها الى الجليل ، فراى من الحكمة ان يذكر لها جميع الاسباب التى تقضي عليها بالرضى ، ويصف لها عظمة هيرودس، والنفوذ الذي تمد العرب رواقه اذا اصبح الرجل صهرا له ، فقال : يخيل الي انك لست من هذا الراي ايتها الملكة ؟

قالت : اتاذن لي ان اقول كل شيء؟

ـ اجل ، ويجب ان لا تكتمي الملك ما تفكرين فيه .

ـ اذن فاعلم اني لست راضية ، بل انا خائفة يا مولاي، فقد خفق قلبي عندما ذكرت الجليل والزواج.

ـ ذلك شان قلوب امهات ايتها الملكة ، فلا تستسلمي الى العاطفة. ان في الجليل نعمة لفدرة وخيرا للعرب .
ـ ومن اين تجيئنا هذه النعمة يا مولاي ؟
ـ من هيرودس نفسه فهو قادر على ان يجعل لزوجته سيدة نساء اليهود ، وان يمهد لملك العرب سبل الاستيلاء على الاقاليم الخارجة عن طاعته .
ـ ولكني اخشى ان يمهد لنفسه سبل الوصول الى العرش اليهودي الذي كان لابيه والذي حرمه اياه الروم .
ـ ليفعل ما يشاء فيكفي ان يكون مع جيشه عونا لملك الانباط .!
ـ الا تجد يا مولاي ان الاتفاق مع الرومان على اليهودية ، خير من الاتفاق على هؤلاء ، مع اليهود ؟
قال : ان الروماني الذى يطمع بالارض كلها لا يضع يده بيد ملك الا لينتزع التاج من راس ذلك الملك ويجعله عبدا له .
ـ ولكنه ابعد نفوذا من اليهودي واكثر مالا .. وهو يستطيع ان يسلح اهل سوريا جميعهم ليبلغ بهم غايته .. ثم قالت : انا لا اسالك ان تبقي فدرة في بترا الى الابد ولكني اسالك ان تختار لها زوجا لا تندم على اختياره بعد حين .
ـ ليس امامنا اذن الا الرومان ..
ـ ولماذا لا تنظر الى واحد من قومك ؟
ـ لاني اريد ان تصير فدرة ملكة وتكون سببا لتوسع العرب في الفتح .
ـ اذن ضاع رجاء زيد الى الابد .
ـ ومن قال لزيد ان يستسلم الى هذا الرجاء ؟
ـ الحب يا مولاي !
ـ ولكني نصحت له بان لا يفكر في الزواج .
ـ اجل ، انه لم يستطع الا ان يفكر فيه فهو فتى يعيش بالعاطفة وليس غريبا ان يمشي وراء عاطفته كما تمشي العاصفة الهوجاء.
قال : ساحدث اباه عياشا بالامر واساله ان يتناسى زيد حبه

ليحطم ملكه .
ــ وهل يخضع الحب للارادات يا مولاي؟
ــ لا ، ولكن الارادة تستسهل التضحية في سبيل الوطن . قولي لي ايتها الملكة اتريدين ان يجيء الرومان من اقاصي العالم ويستولوا على هذه البلاد التي نشأنا تحت سمائها ونحن متحجبون وراء اسوارنا ليس لنا شبر منها نرعى فيه النوق؟!
ــ بل اريد ان تكون البلاد التي ذكرت ملكا لك يا مولاي.
ــ ولكنك في الوقت نفسه تمنعين الملك من ان يستعين باليهود ليكون له هذا الملك ...

فقال ولي العهد : اراك يا مولاي تعمد الى المغلوب الضعيف فتضع يدك بيده ، وتترك الظافر القوي الذي يلمع النصر فوق جيشه.
ــ وهذا معناه يا بني ان الغالب لا يحتاج اليك لتكون عونا له ..
قال : الم تر يا مولاي أن الرومان حالفوا العدد الكبير من الامراء في هذه البلاد ، وحفظوا لهم حقهم ، واعطوهم ما يطمعون فيه من اقاليم ؟
ــ كان ذلك في اول عهدهم يا بني .

ــ وهم يفعلون اليوم ما فعلوه بالامس .
ــ اجل ولكنهم لا يعطون حلفاءهم شيئا .
قال : الم يكن اليهود اصحاب هذا القطر الواسع الذي تنتهي حدوده عند حدود مصر ؟
ــ بلى
ــ وماذا بقي لهم منه ؟
ــ بقي كله ولكن بالاسم .
ــ وهل تظن ان هؤلاء القوم يجودون عليك بما يخطر لك اذا هم ظفروا بالرومان ؟
ــ هذا ما اراه .
ــ اما انا فارى ان المالك لا يجود بما يملك الا اذا اكرهوه على ذلك.
فسكت الملك وتردد في الجواب . ثم قال ولي العهد : هبانك استطعت مع والي الجليل ان تطردا الرومان من اليهودية فهل تظن ويظن هيرودس

ان روما تمسكت عند هذا الحد وبتراجع جيشها من هذه البلاد الى الابد؟

ـ وماذا تصنع ؟

ـ تدعو جنودها من الجبل والساحل وتقذف بهم صفا وراء صف الى هذه الارض حتى تسد على عدوها منافذ البر والبحر ؛ وتسترجع بقوة السيف ، ما سلبتموها اياه ؛ثم هي لا تغادر الميدان حتى يفنى جيش عدوها او تفنى هي! وكان الملك يصغي الى ما يقوله ولسي عهده ، وهو يرى الصواب فيما يقول ... غير انه كان ينظر الى الامر من وجه اخر ، هو ان الرومان لا يعدلونه حليفا لهم اذا عرض عليهم سيفه . بل ينظرون اليه نظرهم الى ملك كان خارجا عن طاعتهم ، ثم استسلم خاضعا لما يامرونه به . وهو راي رشيد لا باس به . وكان يرى من الناحية الاخرى ، ان المحالفة لا تثبت ، الا اذا استندت الى ذراعين قويتين كذراعي فدرة ، في زواج شرعي يوثق عرى الولاء بينه وبين الامير الذي تزف اليه . ولكن ، ليس في اليهودية ، بين اليهود والرومان ، امير يفكر في فدرة غير هيرودس ، فخير له اذن ان يصانعه ، ويبتسم له ، لم يزوجه ابنته ، من ان يغض طرفه منه ، فيخسر ويخسر الامل بامتداد النفوذ والسلطان ، فقال : اسال الملكة خلدو سؤالا ..

قالت : اسأل يا مولاي

قال : اتؤثرين ان يكون زوج الاميرة من ولاة الروم ؟

ــ نعم يا مولاي فالرومان اقوياء وهم سادة الموقف .

قال : اؤمن بهذه القوة كما اؤمن بالهة العرب ، ولكني لم ار رومانيا يعبأ بالملك العربي ويسأله عن ابنته ، كما فعل والي الجليل ، وليس من الشرف ان اعرض فدرة وهي لؤلؤة الانباط ، على هؤلاء القوم الاجلاف المتكبرين .

ثم قال : هذا والي الرومان في اليهودية .. انه يعيش في قصره ، بين طوائف النساء ، كما يعيش والي سوريا ، وكما يعيش مولاهما القيصر ، فاذا طلعت في سماء هذه البلاد ، فتاة كالشمس ، فهو لاينظر اليها نظره الى المرأة التي يجعلها زوجة له ، بل يلهو بها كما يلهو

بفرسه ، ثم يملها ويبحث عن فتاة اخرى من جنس اخر . ثم ظهرت عاطفته الوالدية وهو يقول : وهل تطيقين ابنتها الملكة ان تصبح فدره زوجة لعظيم من عظماء الرومان لا يعلم هو ولا تعلمين انت في اي بلد يضع قدميه ؟! الا يجوز ان يصدر القيصر امره بان ينتقل هذا الروماني من اليهودية الى مصر او الى انطاكية او الى روما نفسها لتترك فدرة بلادها معه ويحرمك الزمان من النظر اليها الى الابد ؟ قولي .. اتريدين ان يتم هذا ؟

فصاحت قائلة : اريد ان يفاجئني الموت قبل ان تحتجب ابنتي عن عيني .

ـ اذن ليس لك الا ان ترضي بهيرودس صهرا اذا هو اراد ذلك !

ـ ولكني اخاف ان يحول الحب بينها وبين الرضى بما نريد ...

قال : ايليق بملكة العرب ان تقول مثل هذا القول ؟

ـ نعم يا مولاي ، اقوله وانا واثقة بان الخبر سينقض على فدرة كما تنقض الصاعقة وستذرف له الدموع .

ـ ومع ذلك فستطيع اباها الملك في كل ما يأمرها به وستنسى حبها كما ينساه زيد دون ان تتردد في الامر .

ـ وهل تريد ان اذكر لها شيئا من هذا ؟

ـ أما اليوم فيجب ان تكتمها كل شيء .

ـ ولكن عياشا سيقص قصة هيرودس على زيد .

ـ بل يكتمه اياها كما كتمها ولي العهد وقد اوصيته بذلك .

وكانت الملكة خلدو قد اقتنعت بان زفاف ابنتها الى هيرودس، خير من زفافها الى امير من امراء الروم . ذلك لانها خافت ، كما قال الملك ، انَ تنتقل مع زوجها الى اقليم اخر ، فتسلبها الاقدار هناء العيش وصفوه . انها لا تستطيع ان تسلم بذلك ولو خسر الحارث ملكه ! غير انها كانت تذوب لوعة على فدرة ، وعلى هواها الذي لم يظهر الى الوجود الا ليختفي ،مخنوقا ، مغلوبا على امره . وكانت تحس ، كلما فكرت في هذا ، ان قلبها يضطرب في صدرها ؛ خوفا على ابنتها المنكودة الحظ .

ولكنها ترى ، من ناحيـة اخرى ، ان مصلحة العرش تقضي عليهـا بخنق عاطفتها ، وعلى قدرة بخنق غرامها ، وان تكن التضحية كبيرة وقاسية . وهب انه لم يكن هنالك غير ارادة الملك ، فارادة الملك تكفي وهي القضاء الذي لا يرد . . . اما الملكة شقيلة ،فلم تقل كلمة ، كمـا رايـت ، ولـم تشـا ان يكـون لهـا في هذه القضية الخطيرة راي . وكانت قد رات ، ان كلا الاثنين ، الملك والملكة خلـدو ، مصيب فيما ذكره ، ولكل واحد منهما حجته وبرهانه ، فآثـرت السكوت على ابداء الراي . ولو استطعت ان تقرأ افكار ولي العهد ،في تلك الساعة ، لرئيتها صورة لافكار والدته ، ورايت الاثنين في العاطفة. ولكن ما حيلتهما ، وهنالك الملك . . . وهنالك العرش . . .

١٤

لم يفكر هيرودس مرة واحدة في حياته ، في ان يكون مخلصـا لاحد من الناس ، الا في ظاهره ، بل لم يخطر له قط ، ان يبتسم لرجل من الرومان ، او من العرب ، او من اليهود ، الا اذا كان مـن وراء تلك الابتسامة غرض من الاغراض ، رجل خبث وكذب وريـاء ، ورجل مكر وشر ودهاء ، وهو من اصحاب الحيل ، واصحاب المطامـع كما قرات ، وليس له في حيله ، ومطامعه ، مذهب يشبه مذاهـب الرجال الذين يطمحون مثله ، الى العلاء .

يحبك اليوم . . . ثم يتغير عليك غدا وانت لا تعلم ، وقد يبغـض احدهم البغض كله ، وهو يحرق له البخور عند قدميه . . . خلـق غريب لا قياس له؛ وطبع من الزئبق لا يعرف الهدوء . ولكنه في جميـع مظاهـره ، صاحب سياسة ولين ، وذو اسلوب ناعم جذاب ، يسحر سامعيه ، ويستهوي مبغضيه . اليس هو هيرودس ، الذي يبغـض الرومان الفاتحين ، ويرسل نظرة الى الاقطار باحثا عن السـيف القاطع ، الذي يستطيع معه ان يطردهم من بـلاده ؟ اليس هـو وارث العرش الذي سلبته اياه روما ، لتجعله عرشا لابنائها يتربع فيه عمال

القيصر الواحد وراء الاخر . اليس هو هيرودس الذي ينظر الى ذلك العرش بعينين تتقد فيهما النار ؟

انه هو ... ولكن الناس لا يرون شيئا مما وصف لك !!

كانوا يرون هيرودس الهادىء .. هيرودس المستسلم الى الغاصب استسلاما هو الضعف والعجز والذل ، والواضع عنقه عند قدمي الوالي يدوسها بهما ، عندما يشاء ... كانوا يرون هيرودس ، ابن ملكهم ، منصرفا الى لذته ، يمتع اذنه بانغام المزامير ، وعينه برقص النساء ، وهو لا يعبأ بالذهب يخرج من ايدي اليهود ، وبخيرات اليهودية تحملها السفن الى عاصمة القياصرة !

ذلك هو هيرودس ، طامع ومستسلم ..! ثائر وهو هادىء ، ملتهب الاحشاء وهو يبتسم للهيب ...! انها صفة من صفات القدرة في الرجال . وكان الرومان يثقون به ، وثوقهم بجميع الرجال الذين جعلوهم مطاياهم ، وقد راوا ، كما راى الناس ، انه الصادق في الخدمة، المخلص لهم في بلاد قومه ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ،فاغسطوس قيصر ، الذي اثبت وصية هيرودس الكبير ، آمن باخلاص هيرودس الصغير ، والقيصر طيباريوس ، الذي خلف اغسطس في السنة الرابعة للمسيح ، لم يكن اضعف ايمانا من سلفه . والفضل في هذه الثقة الغالية ، يعود الى هيرودس نفسه ، فقد استطاع بدهائه وصبره ، وقوته على احتمال الهوان ، ان يخفي طمعه وثورة نفسه ، وراء مظاهر الخضوع والاستسلام ، بل استطاع ان يخفيهما وراء ذلك الذهب الكثير الذي بذله في سبيل تكريم القيصرين .

بنى الحصون في مدينة بيت صيدا ، وجعلها مدينة زاهرة واسعة ، ثم سماها جولية ، اجلالا لابنة اغسطس ، ثم بنى بعد موت اغسطس ، مدينة كبيرة ، على شاطىء بحيرة جانشر ، وسماها طيبارية اجلالا لطيباريوس ، اليس في هذين العملين ، دليل على ذلك الاخلاص الذي يتغلل في صدر والي الجليل ، وعبر الاردن ؟

لقد عرف هيرودس ان يستغل منصبه ، فجاد بالمال يسترضي به سادة الموقف ، واحتفظ بطمعه وحقده ، يعمل على استغلالهما من

وراء الستار .. فكان في ذلك رجلين اثنين ، رجل ولاء وطاعة ، يحني راسه لامر الفاتح ، ورجل رياء ودهاء ، يعدهما لليوم العصيب . وليس اقدر من هيرودس على الكتمان والاحتفاظ بالاسرار ، يسراه لا تدري بما تصنعه يمناه ، وحوله رجال امناء ، يموتون واسرارهم لا تفارق الصدور .

بعث رسله الى ارتبان ملك البرتيين ، وعادوا اليه يحملون جواب ذلك الملك ، والرجال والنساء في قصره لم يعلموا شيئا من هذا . وجاء عياش وقرة بن سليم يحدثانه باسم ملك العرب ، ويسألانه ان يحالفه على الرومان ، وسمعان نفسه ، سمعان ناظر مخدعه ، وحاجبه وامينه ، لم يعلم شيئا من هذا مع ان العرب لم تكن قط حليفة لليهود ، بل كانت عونا للرومان في كل حرب تشتعل نارها في اليهودية، وكان ملوكها ، في اورشليم ، وفي الجليل جلادين لكل يهودي . اجل ، كان الانباط ، منذ فتح الرومان سوريا وبلاد اليهود ، انصارا للفاتحين، كلما رفع اليهودي المغلوب راسه ، وكانت تلك البلاد الواسعة ميدانا لخيلهم ينهبونها في وضح النهار ، ويسلبون اهلها الاموال والنعم .

ومع ذلك ، فهيرودس الخبيث الداهية ، لم يشأ الا ان يحتفظ بالسر لينتفع به ، وقد عول على مصافحة اليد التي امتدت اليه ، في حين انه كان قادرا على ان يفضح الرسولين ، ويفضح ملكهما ، في ساعة واحدة دون ان يعلما . نعم ، كان يستطيع لو اراد ، ان يدعو قائد الحامية الى قصره ، ويعد له مكانا يسمع منه حديث العربيين كلمة فكلمة . ولكنه لم يفعل ، فابن هيرودس الكبير لا يضيع الزمان ، وقد يكون الحارث النبطي خيرا له من ملك البرتيين . وعندما كان ملك بترا يفكر في ان يصيدوالي الجليل ، كان والي الجليل يفكر في ان يصيد ملك بترا ، وللاثنين فيصيدهما ، طريق واحد وهو طريق الزواج ..

كان هيرودس يظن ان الحارث سيكون عونا له في كل شيء ، اذا هو تزوج ابنته ، وكان الحارث يظن ان هيرودس سيكون عبدا لارادته ، اذا استطاع ان يجعله صهرا له ! اي ان الرجلين كانا يتهيآن للبراز بايمان واحد ، وسلاح واحد هو المرأة ...!

ولكن قد تجد في صدر الحارث من حسن النية ، والاخلاص ما لا تجده في صدر ذلك اليهودي الذي لا يماشي غيـر هواه .

وقد تجد في صـدر هيرودس دهاء لا تجد مثله في صـدر ملك الانباط ...

١٥

مر الشهر وزيد وقدرة لا يعلمان شيئا ...

كانت حياتهما حياة عاشقين يبسمان للامل الذهبي والمنى الضاحكة، والجو صاف والنور يتلألأ في الافق ..

ومن يجسر على ان يقص على الاثنين حكاية امير الجليل ، لقـد اوصى الملك عياشا وقرة بان يكتمـا الناس جميعهم ما سمعا ،واوصى الملكتين وولي العهد بان يحفظوا السر . وليس في البلاط من يعـرف هذه الحكاية ، غير هؤلاء . والايام تمر ووجه السماء لم يكفهـر ... حتى انقضى اربعة وثلاثون يوما على رجوع قرة وعياش ، وكان ذلك في مساء يوم خرج الملك في صباحه الى الصيد مع اركان حربه ، ولم يرجع الا عند غروب الشمس . وبينما هو في الرواق ، الذي يؤدي الـى شرفة القصر الكبرى ، ومعه زوجتاه وقدرةوزيد وولي العهد، دخل الحجـاب يقولون له : بالباب ضيفان يريدانالنزول على مولانا الملك ! فنظر لهـم نظرة غضب وقال : اليس للملك بيت للضيافة ؟

— بلى يا مولانا ولكنهما يلحان في طلب الدخول .

قال : ضيفان من العرب ؟

— لا يا مولاي بل فهما يقولان انهما يهوديان . فخفق قلب الملكة خلدو قائلة : يهوديان ؟

— نعم ومعهما فرسـان لا تقع العين على اكرم منهما . فقال الملـك: اذن هما من عظماء القوم فليدخلا .

فهامس ولي العهد امه قائلا : هذا هو ...

— اتظن ؟

— بل اعتقد لان الضيوف الذين لا شأن لهم لا يلحون في طلـب

المثول بين يدي الملك ، في مثل هذه الساعة .

ـ اذن اذهب مع فدرة وتبقى انت .

ـ بل تبقين انت وتبقى هي فقد لا يدور بين الرجل وبين الملك حديث سري ، في هذا الليل . وكأن الملك عرف ما يقولان ، فأومأ اليهما والى القوم بأن يتبعوه ، وتقدمهم الى قاعة الجلوس ، ولعله اراد ان تفتن فدرة قلب اليهودي قبل ان يخوضا مجال السياسة ؛ ويتعاهدا . ثم استوى القوم في مقاعدهم ودخل الضيفان ، فمشى احدهما حتى توسط القاعة وانحنى مسلما ، اما الاخر فوقف بالباب بالقرب من الحجاب ،كانه منهم . فجعل الملك يحدق الى الشاب الذى دنا منه ، وقد اعجبته تلك الكبرياء التى ظهرت في مشيه وفي عينيه . واخذ القوم جميعهم ينظرون اليه وقد ايقنوا بانه ذلك الامير اليهودي العظيم ، الذي ينتظرون .

كان هيرودس في مقتبل العمر كما مر ، له عينان صغيرتان فيهما الخبث والفطنة والكبرياء ، ووجه مستدير تحت جبين واسع وله انف صغير ، لحية قصيرة سوداء ينبعث منها شيء من الجلال . اجل ، لم يكن جميلا الى حد يكون معبود المراة ، وليس في وجهه شيء يسمونه فتنة ، الا تلك الابتسامة التى لا تفارق ثغره ، وان تكن ابتسامة دهاء. والملك لا يرفع نظره عنه ، ثم قال له : خبرنا الحجاب انك يهودي فمن اي بلد انت ؟

ـ من اورشليم ، ثم من الجليل !..

ـ اهلا بكل من يقدم بترا من اليهودية .. ما اسمك ؟

فتردد الشاب في جوابه ، ثم رفع عينيه الى العلاء كأنه لا يريد ان يذكر اسمه في ذلك المجلس . وهو منذ دخل لا يلتفت الا الى الملك . فقال الحارث : قل ولا تخف..

ـ اما انا فلا اخاف ايها الملك بل اخشى ان تخاف انت ... ووضع يديه على صدره ينتظر جوابه ،

ـ اذن فالاسم الذي تذكره يبعث الخوف !!

ـ هكذا اظن ايها الملك .

قال : نحن في قصرنا وبين جنودنا فلا تخاف شيئا .. اذكر اسمك .

قال : هيرودس ..

ــ امير الجليل ؟

ــ نعم امير الجليــل ...

فنهض الملك واقفا ومد اليه يده ودعاه الى الجلوس بالقرب منه وهو يقول : امير الجليل يدخل علينا ولا نعلم؟

قال :فعلنا هذا لان قائديك اللذين ارسلتهما الينا ارادا ان نتنكر عند الدخول ... ثم التفت الى القوم فرأى ولي العهد وزيدا والملكتين وفدرة فقال اظن اني بحضرة الملكتين ؟

قال : نعم ، هذه الملكة خلدو وهذه الملكة شقيلة اما الفتاة فهي الاميرة فدرة ابنة الملك . واوما الى الفتيين قائلا : اما هذا فولي العهد ، والاخــر زيد بن عياش الذي عرفت . وتم التعارف كما تفعل الملوك في مجالسها . .

ثم اخذ هيرودس يسأل الحارث عن بترا والانباط وهو يعبث بلحيته، وينظر الى فدرة وفدرة تنظر اليه كأن نفسها تحدثها بان ذلك الامير لــم يجيء الى بترا الا لاجلها ... ودار الحديث عن النوق والخيل ، وهياكــل العبادة ، وهيرودس يحس ان جمال فدرة اثر في نفسه ، حتى ان لسانــه كان يتلجلج كلما قال كلمة ... ولو نظرت الى زيد ، لرأيت نار الغيــــرة تجول في عينيه ، وهو يكاد يفترس اليهودي الذي ينظر الى فدرة ولايبالي!! حتى مرت ساعة كانت في نظر الحبيبين اطول من الدهر . فنهضت الملكتان، وفدرة يسألن الملك ان يأذن لهن في الانصراف ، وتبعهن زيد، وهيرودس يشيعه بنظره حتى احتجب واحتجبت النساء في الرواق . فقال الملك : ام نسألك ايها الامير عن هذا الرجل القائم بالباب .

قال : انه حاجبي وناظر المخدع .

فقال : يا غلام ، عليك بهذا الرجل ، واعلم ان الملك يريد ان تكون فى خدمته .. خذه وانصرف ..

فأجابه سمعان قائلا : لا افارق مولاي الا اذا امرني هو .. فضحــك هيرودس وقال : اذهب يا سمعان فالامر في هذا القصر للملك وحـــــده ومولاك ضيف .. ثم قال : لقد حدثني عياش وابن سليم بامر المعاهـــدة فلم اشأ ان اكون صريحا في الجواب الا عندما اراك .. قل ماذا تريد الان؟

فعرف الحارث ان الرجل سيتسلح بالدهاء ، فتناول هو الآخر سلاحه وقال له : ما هي هذه المعاهدة التي ذكرت ؟

ــ تلك التي أمرت رسوليك بن يحدثاني بها . .

قال : ليس في الامر معاهدة ايها الامير ولكننا امرناهما بان يسالاك عن الحادث الذى جرى بين الرومان واليهود ويعرضا عليك سلاح العرب وسيف ملكها اذا قضت الحاجة عليك بالالتجاء الى احد .

قال : وهذه هي المعاهدة ايها الملك . .

ــ اذن فاسأل الان عما تشا ، بعد ان تقص عينا اسباب ذلك الحادث الغريب الذي هز فلسطين .

فهامسه قائلا : لا اطيق ان اقص عليك هذه الاسباب فقد عرفتها من سواي . . يكفي ان تعلم ان الرومان ارادوا هذا .

ــ تريد ان تقول انهم اصل البلاء . فظهرت الرصانة على وجهه وقال : اما اصل البلاء فنحن يا مولاي !!

ــ نحن ؟!

ــ نعم ، انا وانت وكل امير يسود قومه .

ــ ومعنى ذلك ؟

ــ معناه ، انهم يحاربون بسيوفنا ، وينفقون من اموالنا ، ويقذفون برجالنا الى الهوة ونحني لهم الرؤوس ! فارخى الملك نظره الى الارض ، كأنه يريد ان يثبت لضيفه ان الندم على ما بدر منه بالامس ، يملأ نفسه . ثم قال هيرودس : الم تزحف قوى العرب الى اورشليم والجليل ، منذ اعوام ، انتصارا للروم ؟

قال : نسيت ايها الامير ان للعرب ثأرا كانت تطلب به ؟ ان اليهود هم الذين بدأوا الحرب بينهم وبين العرب ، وهم الذين اطمعوا بنا الرومان . . لقد كان جدنا ، ملك حجر « بترا » عونا لجدك انتيباتر ابي هيرودس الكبير على اعدائه وكان الجيش العربي كله نصيرا له . .

قال : كان ذلك منذ جيل ايها الملك .

ــ ولكن نسيت ايضا ان اباك هيرودس نفسه ، حبا بان يسترضي القيصر انطونيوس ، عشيق كليوباطرا ، أطلق على العربية الحجرية جنوده

واستباح الدماء ، وقتل الاطفال ، وسبى النساء. فحاول والي الجليل ان يجيب فاسكته قائلا : لقد حاولنا ان نضع الايدي بالايدي ، ونثبت لهؤلاء الرومان ان العربي واليهودي اخوان ، فلم ترضوا .. ثم لم يقف الامر عند هذا الحد بل اردتم ان تمحوا العرب من الوجود ، في تلك الحرب المشؤومة التى ذكرناها الان ، فلم تجد العرب بدا من ان تغضب لكرامتها وكان ما كان .. افلم يكن اليهود هم الذين سلحوا يد روما فشربت من دماء قومنا حتى ارتوت ،واستبدت بنا ما طاب لهاالاستبداد ؟

ثم غير لهجته قائلا : لقد اصبت ايها الامير في قولك اننا نحن اصل البلاد ... ولكننا نسينا الماضي الان ولم يبق الا ان نضم القوى ، ونوحد الصفوف لنستطيع ان نتصدى للغاصب كلما خطر له ان يستهين بالكرامات .

فراى هيرودس ان الحارث اقدر منه على رواية التاريخ، فقال : اخطانا واخطأتم ايها الملك فلنترك ذلك الخطأ ولنتعاهد من جديد على الوفاء ...

هات الان . فلمع الطمع في عيني الحارث وقال : اتريد ان تكتفي بولاية الجليل وعبر الاردن ام ماذا ؟

– بل اريد ان اثب الى عرش ابي اذا استطعت واتربع فيه .

ثم قال : ولكن الرومان كثار كما تعلم ونحن ضعاف .

قال : قص علينا اخبار قومك قبل ان تذكر قوم الروم .

– انك تعلم هذه الاخبار كما اعلمها انا .

– ولكننا لا نعلماذا كان اخوك فيلبوس يريد ما نريد ..

– اذا لم يكن فيلبوس لنا فلن يكون علينا .

– ويهود اورشليم ؟

– اما هؤلاء فلا اراهم يغضبون الا لدينهم ؟

– واذا استعان بهم الرومان ؟

– نستعين بهم نحن وندعوهم باسم الدين الى الدفاع عن البلاد

– وعندئـــذ ؟

– وعند ئذ يشهرون في وجه الرومان السيف

ـ وهل انت واثق بهذا ؟
ـ نعم فليس في اليهودية يهودي واحد يحارب اخاه انتصارا للروم ..
ـ ولكنه يحاربه ليجلس في كرسيه وتنتصر روما لاحدهما فيقوم النزاع مقام الاتفاق وهذا ما نراه في كل يوم . ذلك شان الناس في كل زمان يا مولاي ، الا ترى ان الرومان انفسهم يتنازعون العرش والقياصرة يموتون الواحد بعد الاخر طعنا بالخناجر ؟
ـ وماذا نفعل اذن ؟
ـ ليس لنا حيلة الا بان نعطي كل واحد من عظماء اليهود ما يطمع فيه ... ان لكل رجل منهم شروطا يمليها علينا قبل ان يعاهدنا على ما نشاء .
ـ وفي اي شيء يطمع هؤلاء ؟
ـ هذا يريد رياسة الكهنة ، وهذا يرغب في خدمة الهيكل ، والاخر يطمع بان يكون واليا الى اخر ما هنالك .. وانت يا مولاي اتفكر في بلد يهودي تضمه الى ملكك ؟! قالها وهو يبتسم ابتسامة جديدة لم ير الملك مثلها ، في تلك الساعة التي مرت على وجوده بالقرب منه . فاجابه الحارث قائلا : لقد فكرنا في الرجال ولم يخطر لنا ان نفكر في بلد نجعله ملكا لنا
وكان في جوابه من الدهاء اكثر مما في سؤال هيرودس .. فقال ! وعلى اي شيء نبني المعاهدة ؟
ـ نبنيها على الكرامة ، فملك العرب مكره على الدفاع عن اليهودية ، وهيرودس والي الجليل وعبر الاردن مكره على الدفاع عن بلاد العرب ، يوم يشهر احدهما الحرب على الرومان .
ـ ويوم يشهر الرومان الحرب على احدهما ...
ـ نعم .
ـ ولكن اذا كتب لنا الظفر وكتب للروم ان يتراجعوا الى شواطىء فينيقيا فمن هو الرجل الذي يمسي سيد اليهودية ؟
ـ الا تعرف من هو ايها الامير ؟ انه هيرودس الذي اخاطبه الان ..
ـ واجلس في عرش ابي واعصب راسي بتاجه ؟

ـ اجــــل ....
ـ وتدين لي هذه البلاد من صيدا الى حدود مصر ؟
ـ اجــــل
فضحك قائلاً : وحصة ملك العرب ؟
ـ ليس لملك العرب حصة الا ان يرى اميرا يهوديا على العرش !
ـ وتنفق مالك يا مولاي وتجود بحياة رجالك من اجل هؤلاءاليهود الذين كانوا اعــداء لك ؟
ـ بل ننفق مالنا ونجود برجالنا ، من اجل العرب اولا ثم مــن اجل من ذكرت ..
ـ اذن فالغنيمة لنا وحدنا يا مولاي !
ـ لنا ولك ايها الامير ، تسترجع انت البلاد التى اخضعوهــا لسلطانهم ، ويتسلم اليك جميع من في هذا القطر ، ونحتفظ نحن بعزلنا ، ونرضى من الغنيمة بان يكون ملك اليهود حليفا لنا الى الابد .
وكانت لهجة الحارث، لهجة ملك يؤثر الموت على ان ينكث عهده .. وخيل الى هيرودس انه امسى ملكا فقال : اتعاهدنــي على ذلــك يا مولاي ؟
ـ نعم وسنكتب ما نقول ونثبته بختم الملك ...
ـ وتعد بان يكون الجيش العربي عونا فى كل حرب ...
ـ كما تعهدانت بان يكون الجيش اليهودي عونا لنــا في الهجــوم والدفاع ...
ـ ومتى نكتب هذه المعاهدة ؟
ـ يكتبها مالك ولي العهد فى هذه الساعة .
فقال اليهودي فى نفسه : وقع الحارث في الشرك .... وكــان العربي يقول فى نفسه وقع هيرودس في الشرك ... كان الاثنان يرغبان في وضع ذلك العهد ، ولكل منهما غاية تخالف غاية الاخر ...
وكانت لهيرودس فكرة لم يشا الا ان يحدثبها الملك في ذلــك الليل، قبل ان يكتب مالك ما يأمره به ابوه ، فقال: لي كلمة اخــرى يا مولاي
ـ قل مــا تشــاء

ـ اسألك عن زيد بن عياش الذى خرج وراء الملكتين والاميـــرة فدرة، اهو نسيب مولاي الملك؟

ـ انه احب الينا من جميع فتيان العرب، ومقامه في البـــلاط مثل مقام ولي العهد !! ثم قال : وهو نسيب لنا واقرب الينا من جميع من فى القصر من رجال ونساء .

ـ وانا اظن انه سيصبح صهرا لمولاي .

ـ هكذا يريد هو وتريد الملكة خلدو ...

ـ والاميرة ؟

ـ لم نسألها رايها في هذا الامر ولكننا نظن انها تؤثر زيدا علـى سواه . وابتسم قائلا: ومن اين عرفت انه سيصبح صهرا لنا ؟

ـ من عينيه يا مولاي فهما عينا عاشق!

فقهقه ثم قال : ليس غريبا ان تكون نبيا ، فبلادكم انبتـــت الانبياء ... اسمع ايها الامير ، ان زيدا خير فتى عرفه الملك وعرفتـه بترا، فهو ابن شرف لا يجاريه فيه غير الملك وولي عهده ، وابن مجد ورثه ابوه من اجداده واستطاع هو وزيد ان يحتفظا به، ويكفي انـــه سيد الفتيان عندما تجول الخيل في الميادين . وجعل يصف زيـــدا بأحسن الصفات ليشعل نار الغيرة في قلب الامير ... وكانت تلـــك النار قد اشتعلت ، فهيرودس بدأ يشعر بالحب من ناحية ، ويحلـــم بتاج الملك من الناحية الاخرى ، وهذا التاج لا يصل اليه الا اذااصبحت فدرة زوجة له، واصبح ملك العرب القوي حماه . ولكن حبه لم يكن يشبه في شيء، حب زيد ، فهذا احب عن عاطفة تغلغلت فى صدره ، وشعور ملأ قلبه والاخر احب حبا فيه مصلحته الخاصة، وقد املتـه السياسة في بادىء الامر ، ثم غذته الغيرة ، في هذه الساعة.

اجل، يعز على هيرودس ، وهو الامير الذي فكر في الاميرة العربية عندما وصفت له في الجليل، وهو الوالي الواسع النفوذ ، العريـــض الجاه الذي يطمع ملكالعرب بمحالفته، ان يرى فتى من فتيان العرب ينظر الى فدرة نظرة غرام ، وان يكون اسبق اليها منه . وهو يريدها زوجة له، فعلى جميع الفتيان أن يحترموا هذه الارادة ويتنحوا عـن

الساحة ... وكان صدره يغلي والملك يتكلم ، فلما انتهى قـــال له :
ومتى تزف الاميرة يا مولاي؟
ــ لم يجعل الملك موعدا لهذا الزواج لانه لم ينظر في الامـــــر بعد ..سنزوج ولي العهد قبل ان نزوج اخته .
قال: من هي الفتاة التى تتشرف بزواجه؟
ــ هي شقيلة بنت عياش!!...
فردد قائلا: بنت عياش ..!! اذن فابن عياش يصبح صهرا للملك، وابنة عياش ولية لعهده !!
ــ بل قل ان ابن عياش عندما يصبح صهرا للملك يصبح ابنا له لزوج فدرة حبيب الينا مثل فدرة نفسها . قال هنيئا لال عيـــاش يا مولاي فقد خدمهم الحظ.
ــ بمـــاذا ؟
ــ بالنعمة التى انعمهم بها ملكهم .
ــ ولكنك ملك في قومك تكنفك النعم .
ــ ومع ذلك فلست صهرا لملك العرب ... فتجاهل الحارثامره قائلا : كم هو عدد نسائك ايها الامير ؟ فذكر الشاب، انه سال عياشـــا وقرة مثل هذا السؤال عن الملك، فقال : لم اتزوج بعد .. فأظهـــر الاستغراب وقال: اذن تستطيع ان تصير صهرا لقيصر !!
قال: اتعاهدني على بغض هؤلاء الرومان ثم تطلب الي ان اتـــزوج منهـــم ؟
ــ ولكنك ستتزوج بعد حين فهل تختار زوجتك من اليهود؟
قال : كنت فكرت في الزواج قبل ان اقدم بترا ...
ــ والان ؟
ــ اما الان فقد عولت على تركه .
ــ لمـــاذا ؟
ــ لاني ضيعت في قصرك رجائي يا مولاي ...!
ــ انت ؟
ــ نعم انا فقد كنت اظن ان الاميرة فدرة ليست مخطوبة ..

ـ وان لم تكن كما ذكرت ؟

فقال وكأنه لم يسمع: وقد خطر لي ان اتجرا يا مولاي فاخطبها اليك .. فاطرق الملك كان تلك المفاجأة تدعوه الى التفكير. ثم رفع رأسه قائلا : اخطر لك ان تفعل هذا ثم عدلت عنه ؟

ـ اجل، وكيف لا اعدل عنه وقد سمعتك تقول الان ان الاميرة ووالدتها الملكة تريدان زيدا، وانك تؤثر هذا الفتى على جميع الناس؟

قال: ذكرنا لك هذا لاننا لم تكن نعلم انك طالب زواج...

ـ ولكنك علمت الان يا مولاي.

ـ نعم غير انك نسيت ان الملكة وعدت ابن عياش ، كما وعدنا نحن ولي عهدنا بشقيلة ...

قال : لقد خيل الي في هذه الساعة ان العهد الذي نكتبه الان لا يكون عهدا ابديا الا اذا صارت الاميرة فدرة ملكة اليهود ... فخفق قلب الملك وقال : لولا وعد الملكة لاثرناك على ابن الخالة عياش نفسه ، ولما ترددنا لحظة واحدة في وضع التاج اليهودي على راس فدرة ... ولكننا نخشى الان ان نغضب الملكة اذا وعدناك ، وان يغضب عياش وقومه اذا نحن جعلنا ابنتنا زوجة لك ...!

قال : اذكر يا مولاي ان وراء هذا الزواج خير للعرب ..

ـ واي شأن للعرب في هذا ؟

الا تعلم يا مولاي ان هيرودس عندما يصبح ملكا ينزل بتسرا عن شطر كبير من بلاده ويجعله ملكا لك؟!

وهل تعمد الي الاغواء ايها الامير ؟ قال : عفوك يا مولاي فانا اعلم ان دولة العرب اوسع من اليهودية وان الملك لا يحتاج الى ارض يضمها الى ارضه...! ولكني اردت ان اقول اني سأهب لفدرة الملكة اقليما كاملا تهبه هي بدورها لدولة العرب ...

ـ اي انك تهب الجليل ونواحي الاردن ..

ـ بل اهب لها اخصب ارض في الدولة .. اكتب في العهد ، يا مولاي ، اني ساعطيها اقليم اورشليم كله الى ارض كنعان ...

وتلك هي رغبة الملك وامنيته .. ان اورشليم الى ارض كنعان ، ووادي

سرحان ، هي الارض التي يحلم بجعلها اقليما عربيا ، بل هي الارض التي لم يفكر في المعاهدة ، لو لم تكن موجودة . وكان هيرودس كان يعرف تلك الرغبة ، فعمد الى الوتر الحساس يعالجه بدهائه ، ويتظاهر بالاخلاص والحب ، ليبلغ الغاية ، ولكن الملك ، لم يشأ الا ان يتدلل ما طاب له الدلال ، فقد لج هيرودس في طلبه ، وهذا معناه انه احب قدرةحبا لا يستطيع معه الصبر . ومن الراي ان يتدلل ، فهو صاحب مقام لا يذكر معه مقام امير الجليل ،ونسب قدرة نسب ملوك وليس لهيرودس شيء منه .

اجل كان ابوه ملكا ، ولكن اسرته لم تكن قط اسرة مالكة بل لم يكن جده يهوديا كما قرات ، وهو كان يعلم، ان الحارث اذا رضي به ملكا ، فرضاه نعمة يتيه بها عزا ودلالا على الامراء، ويفاخر بها جميع عظماء اليهود .

وكان هيرودس ، وهو يذكر هبته، ينظر الى عيني الملك ليقرا فيهما لمعان الطمع والشراهة، ولكنه لم يقرا شيئامن ذلك، فعينا الحارث كانتا صافيتين هادئتين لا تختلجان ولا تلمع فيهما عاطفة ... وبعد سكوت قصير قال : وهل تظن ايها الامير ، ان اليهودية كلها ، لو كانت هبة لنا ، تستطيع ان تغير الملك من حال الى حال اخرى ليس له فيها رغبة ؟

قال : اذن فالملك لا يرضى بوالي الجليل صهرا له ..

ـ نحن لا ننظر في امر الرضى الان ، بل في امر ذلك الوعد الذي تعجلت فيه الملكة خلدو قبل ان تسال الملك.. .

ـ ولكن ارجو ان تقول كلمتك لاتدبر امري...

ـ وماذا تصنع؟

ـ ارحل عن بترا في هذا الليل على ان لا اعود الى ذكرها ما بقيت .

ـ وهذه المعاهدة التي قدمت من اجلها؟

قال : اعترف لك يا مولاي باني لم اجيء من اجل هذا بل من اجل الاميرة ، فاذا راى الملك ان يحرمني ما اساله اياه فليس علي الا

ان ارجع الى الجليل واستسلم الى الروم استسلام العبد الذليل الذى ليس له ملجأ غير مولاه....!! قل كلمتك ايها الملك.

قال: نعد باننا سنحدث الليلة ، الملكة والاميرة ، بما نتحدث به الان .

ـ وانت راض يا مولاي ؟

ـ ان رضى الملك لا يكفيك ...

ـ ومع ذلك فانا ارجو انِ اسمع كلمة الرضى من فمه .

ـ اذن فاعلم اننا نؤثرك على زيد بن عياش ... فرفع هيرودس عينيه الى العلاء كانه يشكر الله، ثم قال : لقد وثقت الان يا مولاي بأن الاميرة ستكون لي.

قال : سيبذل الملك جهده كله ليجعلها زوجة لك ... ان النساء يؤثرن المجد على الحب، والتاج على العاطفة ...

ـ ولا تنسى يا مولاي اورشليم وارض كنعان ...

ـ وكيف ننسى ذلك ونحن سنجعل هذا الاقليم فاتحة الحديث بيننا وبين الاثنتين ؟!.. وهل تبخل على فدرة بوادي سرحان؟

ـ ان الذي يجود على الفتاة بتاجه، يجود عليها بكل شيء.

فقال : الطعام ايها الغلام...

فقال هيرودس : ومتى أسمع جواب مولاي؟

قال: لا تعجل فستبقى عشرة ايام ضيفا على الملك..

ـ ابقى شهرا على ان ينعمني الملك بهذه النعمة ..

قال : كن واثقا بان الملك يريد هيرودس وهذا يكفي ..

ـ لقد اكتفيت يا مولاي وسأطوي ليلي على الامل . ومرت ساعة اخرى والملك وضيفه يتحدثان، هيرودس يحلم بالعرش والحارث يحلم باليهودية ، وقد قام في ذهن كل واحد منهما انه استطاع ان يهزا بالاخر ويبلغ غايته منه ... حتى دعاهما الغلمان الى الطعام ، فخرجا واليهودي يرسل نظره الى الاروقة والدهاليز عله يرى فدرة فلم يسر لها ظلا .. وبعد العشاء ، انصرف الى القاعة التى اعدوها له ، اما الملك فقد رأى ان يمهد لهيرودس، ولنفسه، سبل الظفر ...

فدرة .. ان الامير اليهودي الذي زارنا الليلة طـالب زواج!
قالها، والملكتان وولي العهد وزيد، في القاعة ، وقد اراد ان يفاجئهـا
بذلك الخبر امام هؤلاء، ليضيق عليها سبل التنحي والاعتذار ..

فاصفر وجه الفتاة وتلعثم لسانها ، ووضعزيد يده على صدره
ليمنع قلبه الخفاق من الوثوب ... وكان الملك قد راى هذين المظهرين،
ولكنه لم يبال ، بل كان يقول : وقد سألنا ان نزفك اليه وهو يريـد
ان يسمع جوابنا غدا .

فقوى الحب جنان فدرة واجابته قائلة : اتسألني يا مـولاي
رأيي في هذا وانت تعلم اني عاهدت زيدا على الوفاء؟

قال : لا تذكري زيدا فسيجيء دوره بعد ساعة .. ان هذا الزواج
يريده الملك لان فيه خيرا للعرب، فماذا تقولين ؟

ــ ولكني لا احبه يا مولاي .. ان في بترا حسان هن بنـات
الحسب والشرف فليتزوج واحدة منهن حتى لا يضيع الخير الـذي
ذكـرت !!

قال : لو اراد ان يتزوج احداهن لما خطر له ان يشاور الملك ..
هو يريد فدرة لا سواها وقد وعدناه...

ــ مولاي ؟!..

ــ نعم وعدناه ، لاننا لا نريد ان نظن ان الحب مهما عظم شأنه،
يستطيع ان يمنع الملك من ان يعد بما يشاء...

قالت : يعز علي يا مولاي ان اخرج من قصر ابي الى بـلد لا
اعرف فيه احدا.

ــ وماذا قال لك ابوك ان الاقدار بنت لك في ذلك البلدعرشا...

ــ حسبي اني ابنة رجل عربي عظيم له عرش يرتفع الـى
الجـوزاء....

ــ الا تحبين العروش يا بنية ؟

ــ احب عرشا واحدا هوعرش مولاي الملك .

ــ وتحبين اباك ايضا اليس كذلك ؟

ـ نعم

ـ اذن فاعلمي ان العرش اليهودي الذي ستجلسين فوقه ، سيكون نصفه لابيك الذي تحبين ، ولاخيك مالك من بعده .

قالت: ان هيرودس رئيس الربع في الجليل، وهو لا يملك عرشا.

قال : يبني عرشا بقوة جيشه وجيش العرب ، بعد حين .

ـ والرومان يا مولاي ؟!

ـ لا يبقى لهم ظل في بلاد اليهود ... ثم قص عليها خبر المعاهدة، حتى انتهى الى ذكر الهبة ، فقال: واورشليم يا بنية عاصمة البلاد، وستكون حصة لك يوم يعصب راسك بالتاج ..

قالت : اتأذن لي ان اقول كل ما اعلم ؟

ـ قولي

ـ ان العرش والتاج اللذين تصفهما لي يا مولاي، حلم من الاحلام.

ـ ولكن الملك واثق بانه سيلمس هذا الحلم بيديه .

ـ وانا واثقة باني ساضيع قبل أن تلمس شيئا ... وتردد البكاء في صدرها .. غير ان الكبرياء منعتها من ان تذرف الدموع.

فقال: لنفترض ان المعاهدة كانت حلما كما تقولين ، فهل تريدين يا قدرة ان تخالفي الملك في ارادته ، وانت التي كنت مثلا للعرب في احترام هذه الارادة ؟

قالت : خير لي ان اموت قبل ان افعل ...

ـ ومع ذلك فانت تحاولين ان تنتهكي حرمة الملك وتستخفي بوعده ..

ـ لا يا مولاي، ولكني افترض كما تفترض انت ...

ـ ماذا ؟

ـ اريد أن اعتقد ان هيرودس سيصير ملكا ..

ـ وبعد ذلك ؟

ـ غير اني لا اريد ان اعتقد بعد ذلك ، انه سينزل عن زهرة مدن اليهودية مهما يتبعها من سهول وجبال واودية، ليهبها لزوجته ثم تهبها هي لبترا .. اجل يا مولاي لا اريد ان اعتقد ان هذا اليهودي

يجود بربع ملكه على العرب ، ولو جعلت له العرب خمسة عـروش ، والبسته خمسة تيجان . . .

قال : اذا لم يفعل ذلك اخذنا حصتنا بقوة السيف . .

ـ ولماذا لا تعمد الى السيف قبل ان تخسر فدرة . .؟

ـ اذا فعلنا لجأ هيرودس الى الرومان .

ـ وانا ارى يا مولاي ان تكون اسبق منه الى هذا وتضع يـدك في يد روما ثم تدفع جنودك الى الساحات التى تحارب فيها خصـوم القيصر فتعطيك من اليهودية ما تطمع فيه .

قال : ان الفاتحين لا يعطون حلفاءهم شيئا بل يحفظون لهم مـا يملكون . . ثم التفت الى الملكة خلدو قائلا : يظهر انك خبرت فـدرة كل شيء . . .

ـ لا يا مولاي واقسم براسك . . .

ـ ومـن علم فدرة ان تعرض لابيها في سياسته ؟؟ ان هذا الذي تقوله الان سمعناه منك قبل ان يجيء هيرودس

قالت: لقد رات يا مولاي ما رأيته انا وما رآه ولي العهد . وكان زيد مطرقا واليأس يملأ قلبه ، فقال : الم يقص علينا مولانا الملك منـذ عامين ان هيرودس الكبير لم يكن له عهد ؟

ـ بلـى

ـ وهل تظن الان ان بنيه تعلموا ان يحفظوا العهود؟

ـ وما هو غرضك من هذا السؤال؟

ـ اما غرضي فهو ان العهد الذي تكتبه اليوم يمحوه هيـرودس عندما يتم الزواج .

ـ بل يضمه في صدره خوفا من أن تمتد اليه الايدي . . الا تعلم انامراء اليهود الذين يطمحون الى العلاء يرغبون جميعهم في ان يجعلوا ملك العرب حليفا لهم .

ـ اعلم ذلك يا مولاي ولكني لا انسى انهم يضمرون للعـرب ، مع هذه المحالفة ، ما يضمره العدو لعدوه. ثم قال : ستقول الان فـي سرك يا مولاي ان الحب يملي علي هذا ، ولكن سيأتي يوم تعلم فيـه

اني كنت صادقا في قولي ، واني لم انظر الا الى خير العرب الــذى تفكر فيه . وكان الجميع قد ايقنوا في تلك الساعة ، ان الملك ماض في امره الى النهاية، دون أن يصغي الى احد. وقد دب الهم في صـدري العاشقيـن ، ورأيا ان الامل الذهبي الذي عللا به نفسيهما كان امـلا كاذبا لم يبق لهما منه غير ذكراه..

وبينا القوم يحاولون ان يقنعوا ملكهم ، دخل عيـاش ، وقـرة ، ومضاض،وابن ذلول ،وقد عرفوا ان فيالبلاط ضيفا مـن اليهـود هو امير الجليل. فاذن لهم مولاهم في الجلوس ثم قال: الا ترون ايها الامراء ان الملك الذي نتربع فى عرشه لم يزل كما هو ؟

فقال مضاض : نعم يا مولاي

ـ وهل تستطيعون ان تجعلوه ملكا واسعا بدون أن تشهـروا السيف ؟

ـ لا ...

ـ واذا خدمتكم الاقدار ووهبت لكم ملكا اخر تضمونه الى هـذا الملك فماذا تقولون؟

فاجابه ابن ذلول قائلا: لم تتعود الاقدار ان تجود بمثل هـذا يـا مولاي .

ـولكنها تجود اليوم ... ان هيرودس امير الجليـل ، الـذي هو ضيفـفيالبلاط الليلة، يسالنا ان نكون عونا له على الروم، على ان يعطينا اورشليم وارض الكنعانيين

ـ اورشليم عاصمة اليهود؟

ـ اجل ....

قال : اقسم لك يا مولاي بجميع الهة العرب انه كاذب ...

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لو قال انه سيعطي العرب الجليل والاردن بما فيهما ، لصدقت ... ولكنه يعد باورشليم وهو اعجز عن أن يهب لاحد منها شبـرا واحدا؟ ان هذا لا اصدقه .. ايقوم في ذهنك يا مولاي ان هيـرودس يجسر على ان يذكر ذلكامام رؤساء قومه ؟.. انها حيلة يعمـد اليهـا

هذا اليهودي لغاية له وليس من الرأي ان يستسلم الملك الى حينه..
وسكت قليلا ثم قال : انا لا اعلم يا مولاي ماذا فعل عياش وابن سلبه في الجليل . ولكني لا اريد ان اؤمن بالحيل التي يلجأ اليها هذا الرجل . ولا استطيع ان انسى ما ذكره لي ابي عن ابيه هيرودس الكبير .

قال : اتعرفه يا ابن ذلول ؟
ـ لا يا مولاي وقدجئت الليلة لاراه ...
ـ وكيف قدرت ان تحكم على ما لا تعلم ؟!
ـ حكمت على ما سمعت يامولاي .

قال : سيكتب لنا عهدا يذكر فيه كل شيء..
ـ وسيكون هذا العهد كاذبا اذا ذكر فيه اورشليم ... اما والذي بسط هذه الارض لئن اقتطع هيرودس ذراعا واحدة من هذه المدينة لما بقي من اليهود رجل لا يصفعه امام الهيكل ... وقد يحملون جثته بعد ذلك على رؤوس الحراب...

مدينة المجد اليهودي ، ومقر الكهنة والرؤساء ... وعاصمة الدين الذي يبذلون حياتهم من اجله ، يبذلها هيرودس لملك العرب ويبقى حيا ؟!! اني اريد يا مولاي ان ارى هذا الرجل لاسأله عن هذه الاكاذيب .

وكانت لهجته صريحة وجريئة كما رايت ، وقد افتر لها ثغر الملكة خلدّو ، وعاد الامل الى صدر الفتاة ، المنكودةالحظ . اما زيد، نكان قد ضيع ذلك الامل، واستسلم الى يأسه ، وتمادى ابن ذلول في صراحته فقال : انا لو كنت ملكا يامولاي لطردت هذا اليهودي الكاذب من البلاط وامرت غلماني بان يتبعوه بالسياط حتى يغادر بترا !!!
فبان الغضب في وجه الحارث وقال له : يا ابن ذلول.. ان هذا الرجل الذي تدعوه كاذبا سيصير صهرا للملك ...
قال : اتهزأ بي يا مولاي .
ـ ومتى كان الملك يهزأ في مثل هذه الشؤون ؟
ـ اذن فقد اخطأت يا مولاي وانا اعترف الان بان هيرودس

فقد طلقا الابتسام . اما مضاض فقد برقت عيناه واشرق جبينه ، ان الساعة التي ينتصر فيها لكبريائه قد اتت الان ، وسيحول بين فدرة وبين زيد ؛ فقال : اظن ان هيرودس لم يقدم بترا الا ليخاطب الاميرة ....

ــ وليكتب المعاهدة ...

ــ وبماذا وعدته يا مولاي.

ــ بالاثنتين .

قال : ويظن ابن ذلول انك اخطأت وان امير الجليل لا يفي بما وعد ؟ انك فعلت اليوم يا مولاي ما لم يفعله اجدادك منذ اجيال .. فعرف الحارث مايعنيه، فقال : لقد انتهى الامر بيننا يا مضاض وتعاهدنا على الرومان وسنعالج امورنا بالصبر حتى تأتي الساعة التي تسلب فيها الغاصب كل شيء... وحول وجهه عنه كانه لا يريد ان يسمع آراءه .. ولكن الرجل لم يسكت بل كان يقول: اما وقد انتهى الامر فلم يبق علينا الا ان نشحذ السلاح ..

قال : سنامركم بهذا عندما تاتي ساعته . ثم قال لعياش ، رأيك يا ابا زيد ..

ــ في اي شيء يا مولاي ؟

ــ الا ترى ان هيرودس والي الجليل كفوء لفدرة ؟

ــ ذلك رايك يا مولاي وراي الملكة فلا تسألني عنه

ــ ولكن الملك يريد ان يشاور رجاله في ذلك .

قال : ارجو ان يشاورني الملك في امر الحرب لا في امر الزواج ..

ــ ولكنك رأيت هيرودس في قصره وبين رجاله ، وعرفت عنه كما عرف قرة بن سليم ، ما لم يعرفه الناس ..

فقال قرة: ايريد مولاي الملك ان يسمع رأيي فيه ؟

ــ اجل

قال : اذا رآه الملك كفوءا للاميرة في المقام فهذا يعنيه وحده ولكني

قال : يكفي ان تعلم يا مولاي ان قصره يغص بالنساء ، من كل جنس، في كل ليلة ، وقد ذكرنا لمولانا الملك، ما رأيناه من انواع رقصهن .

ـ اهذا كل ما رايت يا ابن سليم ؟

ـ هذا بعضه يا مولاي.

ـ والبعض الاخر ؟

ـ انه يضمر ما لا يظهر يا مولاي فهو خبيث الى حد انه يخدع اقرب الناس اليه ...

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ ان الزمان القصير الذي قضيناه في الجليل دلني على هذا.

ـ وماذا ايضا ؟

ـ والامر في قصر هيرودس يا مولاي لاجمل نسائه .. ثم لرجل يدعى سمعان هو ناظر مخدعه ...

ـ وتعد ذلك عارا ايها القائد ؟

ـ اني اصف لك ما عرفت يا مولاي ، فعد أنت ما اصفه كماتشاء..

ـ وهل بقيءشيءاخر؟

ـ فعلم الرجل، كما عرف القوم، من لهجة الملك التى هي لهجة استخفاف واستهزاء بما يسمع ، ان هيرودس سيتزوج قدرة على رغم الزمان ، فقال قرة: لم يبق الا ان تأمر الان بما يخطر لك.

قال : سنسأل زيدا سؤالا واحدا ثم نقف عند هذا الحد .. ما هو رايك يا زيد في كل ما سمعت .

فأجابه قائلا: وماذا تنفع الاراء اذا كان مولاي الملك يريد ان يمضي في امره كأنه لم يسمع شيئا .. قالها ولم يبال وهو ينظر اليه بعينين يبدو فيهما يأسه . فابتسم الحارث وقال : ولكننا نريد ان نسمع اراء رجالنا فيما يعني مصلحة العرش .. قل اتؤثر هواك على عرش مولاك ام ماذا ؟

ـ اؤثر العرش على كل شيءيا مولاي .

ـ وتتناسى هذا الهوى؟

ـ لا اعلم يا مولاي ولكن يكفي ان يعلم الملك اني اقتل نفسي اذا كان في هذا القتل ما ينفع العرش.

ـ اذن نسألك ان تقتل عاطفةالهوى الذي تغلل في صدرك ... فمرت غشاوة سوداء امام عيني الفتى واحس ان الارض تنحدر به.. ثم استيقظت مروءته فقال: لقد قتلتها يا مولاي

ـ وانتهى امر هواك ؟

ـ لن اذكر هذا الغرام . وحبس دموعه كي لا يفضح نفسه . فخيل الى عياش ان زيدا سيموت في ذلك الليل ، فهامس الملك قائلا: ارحم شبابه يا مولاي فهو لايستطيع ان يحتمل مثل هذا .

قال : اتريد يا عياش ان يحول غرام زيد بيننا وبين اورشليم وارض كنعان وهما اوسع من دولة العرب ؟

قال : وهل انت واثق بما يقوله امير الجليل؟

ـ اجل ولكنه اذا نكث عهده معنا انتزعنا هذا العهد انتزاعا منه واكرهناه على الوفاء بما وعد به . فحول عياش وجهه ولم يبدا من السكوت . اما مضاض فحاول ان يمد اصبعه في الامر من جديد، فاوم االيه الملك بالسكوت ، وقد اعمى القدر بصيرته فلم يضع الى نصائح اهله، وقواده ولم يعبأ بما قالوه . والتفت الى الملكة خلدو قائلا لها : سننقل الى ضيفنا عند الصباح رغبة الملكتين وفدرة في هذا الزواج ونجعل له وعدا !..

وسكت لعله يسمع جوابا ... فساد الصمت ، كأن القوم جميعهم قد عرفوا في تلك الساعة، ان الملك ماض في امره، وليس على الارض قوة تمنعه عنه .

ثم استطرد وهو يقول : اليس لك ايتها الملكة ما تقولين ؟

ـ لا يا مولاي .

ـ وانت يا فدرة؟ فوضعت راسها بين يديها لتخفي الدموع .

فقال : قولي كلمتك فسننصرف الان .

قالت : يستطيع مولاي الملك ان يقول عني هذه الكلمة ...

فاحس الحارث ان قلبه يكاد ينشق ، ولكن طمعه في اورشليم حجب عاطفته ومنعه من الاستسلام الى حنوه الابوي . ثم قال : اتريد يا زيد ان يدلك الملك على فتاة تشبه فدرة في كل شيء وتصلح للجلوس على العرش ؟

قال : لم يبق لزيد يا مولاي رغبة في هذا ..

قال : اعدلت عن الزواج ؟

ــ نعم يا مولاي

فنهض قائلا : سيحدثك ولي العهد الليلة بما يعلم .. اما انتم ايها القواد انصرفوا الان فلم يبق لنا ما تقوله . فخرج القوم وهم ساكتون ، وانصرف هو مع الملكتين وفدرة الى حجراتهم الخاصة ، اما ولي العهد وزيد فلم ينقلا من تلك القاعة ، قدما .

١٧

بكى زيد ، وهو الفتى الشجاع ، الذي يستهين بالمحن ، كما تبكي الاطفال ، كان يشعر باليأس القاتل ينشب مخالبه في صدره ، بل كان يشعر بيدي الموت تمتدان اليه . لقد خسر عاطفته ، وخسر رجاءه ، وهو لا يلبث حتى يخسر حياته ! واي معنى لهذه الحياة وفدرة بعيدة منه ؟! وما هي الغاية من العيش اذا لم يصف له ، ومن الزمان لم يفتر له ثغره ؟ ذلك ما كان يفكر فيه ، في تلك الساعة المتاخرة من الليل ، وهو مستسلم الى البكاء وقد نسي ولي العهد ، حتى تعب المسكين ونضب دمعه ، فقال له مالك : والان يا زيد ؟!

ــ والان ماذا؟!

ــ كف عن البكاء لنتحدث بالامر .

قال : لقد قال الملك انك ستحدثني بما تعلم ، فماذا تعلم يا مولاي ؟

ــ لا اعلم غير ما تعلمه انت ، لقد اراد الملك بقوله ، ان ننظر نحن الاثنين في امر هيرودس ...

ــ بل قل في امر صهر الملك ..! ان فدرة ستصبح زوجة له ،

ويمسي زيد بن عياش ، فتى شقيا مخنوقا ،ليس له عاطفة بل ليس له قلب !

قال : اترى اني كنت راضيا بماأراده الملك ؟

ـ لا

ـ الم اقل له ان هذه المعاهدة التى يخيل اليه انها سترفعه الى العلياء ستكون وبالا على العرب ؟

ـ بلى

ـ اذن لم يبق الا ان نتحدث بالامر كما قلت في جميع نواحيه

قال : انتظر في امر لا رجاء لنابه ؟

ـ اجل ، فاذا كان الملك لم يشأ الا ان يسلبك فدرة ، فهذا لا يمنعك من ان تكون رجلا .

فهز راسه قائلا : لقد نسيت الان اني حي . .

ـ بل تنسى هواك كما قال الملك وتظهر لرجال البلاط ان العرش في نظرك اغلى من الحب .

ـ لقد اظهرت لهم ذلك كما رايت .

ـ ولكنك ندمت الان على ما ظهر واستسلمت الى يأسك وهذا ما لا اريده .

ـ وماذا تريد من فتى سلبوه اعز ما يملك .

قال اخطات فالملك لم يعدك بالزواج وقد خيرك بين الاستسلام الى هواك والرجوع عنه ... ومع ذلك فانت ابن القائد عياش الذي شرف الانباط وهذا يكفي.

قال: لا يطيب لي العيش يا مولاي الا اذا رايت فدرة، فى كل يوم !! ايجيء هذا اليهودي من الجليل فيسلبني اياها وانا ارى ذلك بعيني ؟

ـ تلك ارادة الملك وليس لليهودي شان بذلك .

فتمتم قائلا : اجل تلك ارادة الملك ولكنها ارادة جائرة قاسية قذفت بي الى هوة الشقاء . .

قال : ان الملك لم يفكر في الحب عندما رضي بهيرودس صهرا

له ، بل كان يفكر في اورشليم الزاهرة التى قامفي ذهنه انهـــــــــا ستنضم اليه .

ــ وهل تظن انها ستكون له؟

ــ بل اظن ان هيرودس سيخون الملك فعيناه عينا خائن .

ــ اذن فهو قد باع فدرة بدون ثمن !!

ــ وباع اسراره واسرار دولته دون ان يقبض شيئا ..! وسيعلم بعد حين اني كنت مصيبا فيما رايت.

ــ وهل انتهى امر فدرة الليلة؟

ــ نعم فقد قالالملك كلمتهوستضيع عنده الشفاعات ...

قال : لقد خطر لي خاطر لااجسر على التفكير فيه . ولمعت الغيرة والحقد فى عينيه .

فقال : ما هو

قال : هو ان اخرج من هنا الى القاعة التى ينام فيها هيرودس واغمد هذا الخنجر في صدره!

فتراجع ولي العهد الى الوراء قائلا : ويلك يازيد اتريد ان يجعلك الملك مضغة في افواه الناس ؟

ــ ماذا يصنع الملك يا مولاي ؟ انه يقتلني على مرأى مـــن اهـــل بترا ويسدل الستار على زيد بن عياش اليـــس كذلك ؟

ــ وماذا يحدث لفدرة بعد هذا القتل ؟

ــ تتزوج رجلا غير هيرودس وتنسى زيدا ..

ــ بل تقتل نفسها ثم يقتل ابوك نفســه وتهيم امك على وجههـــــا في الصحراء ثم تتبعها شقيلة التي يمنعني الملك من ان اجعلها وليـــة العهـــــد .

ــ اذن سأغمد خنجري فى صدري كي لا ارى احدا .

قال : احذر فالاحياء لا يضيعون الامل .

ــ وماذا ارجو بعد الان والفتاة التى كانت رجاء لي ستنتقل الـــى الجليل ؟

قال : اختر لك فتاة غيرها من بنات الامراء

فابتسم ابتسامة اليائس وجعل يقول : اقسم براسك يا مولاي اني لا انظر ، ان بقيت ، الى فتاة ولا افكر في زواج وقدرة في الوجود.

قال : الاترى ان ريحانة بنت ذبابة الصفوي خير من اختي؟

ـ لتكن كالشمس فليس لي فيها راي.. لقد اقسمت الان ولست براجع ..

ـ ولكني اسالك ان تقسم لي قسما اخر هو الا تفكر في الموت.

قال : لا استطيع ان اعدك بهذا يا مولاي

ـ بل تعدني الساعة قبل ان تخرج من هذه القاعة .

ـ وان لم افعل؟

ـ نقلت الى قدرة الليلة ما تفكر فيه .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اطلب اليها ان تسبقك الى عالم الفناء...

قال : اموت انا وتبقى هي.

ـ بل يموت الاثنان...!

قال : استحلفك براس ابيك الملك الا تقول لقدرة شيئا .

ـ وانا احلف لك براس ابي الملك اني ساقول لها كل شيء ولا ابالي بما يحدث بعد ذلك في البلاط..

فاطرق مليا ثم خطر له خاطر اخر فقال : اعدك باني لا افكر في الموت .

ـ وتقسم لي؟

ـ واقسم لك بهذا الحب الذي خنقه مولاي الملك بيديه ...

ونهض عن مقعده وهو يقول: اما الان فدعني انصرف يا مولاي ..

قال : الا ترى قدرة قبل انصرافك ؟ اني ذاهب اليها الان فاذهب معي وقل لها ان ترضى بهيرودس خدمة للعرش ..

قال : ليس للعرش شان بهذا، ومع ذلك فقد مضى الزمان الذي كنت اخاطب فيه الاميرة عندما اشاء...

ـ وتستطيع ان تقيم في البلاط ولا تراها ؟

ـ اجل يا مولاي فخير لي ان يمر الزمان كله وهي محجوبة عن

عيني .

ـ ولكنك تراها في مجلس الملك على الرغم منك .

قال : اذا دخلت المجلس وهي فيه رجعت على الاثر وانا مطرق لا ارفع نظري عن الارض .

ـ واذا دخلته هي وانت موجود ؟

ـ خرجت منه دون ان استأذن ...

ـ ولا تبالي عندئذ بغضب الملك ؟

ـ ان الذي يؤثر الموت على الحياة لا يبالي بغضب الملوك . ومشى يريد الخروج ، فاستوقفه قائلاً: انك في فجر العمر يا زيد فلاتستسلم الى اليأس ، وستستطيع بالقليل من الصبر ان تنال غايتك بعد حين .

فضحك كما يضحك المجنون وتوارى في الرواق الذي يؤدي الى الباب الخارجي فقال ولي العهد يخاطب نفسه : لقد اخطأ الملك في هذا الحكم الذي اصدره على ابن عياش وسيندم على ما فعل ..

١٨

لقد ظن القوم ان الملك ترك قاعة الجلوس ليستغرق في النوم ..

مع انه لم ينم ،بل كان يعالج بالحسنى، اصرار الملكة خلدو وفدرة، حتى استسلمتا الى ارادته في اخر الليل. ولكن ذلك الاستسلام كان مزيجا من الرضى والاكراه ...! اراد الملك ان يخدم امته، ويمد رواق ملكه فوق اورشليم .. وارادت الملكة ان تمشي وراء تلك العاطفة ،التي غمرت احساس ابنتها العاشقة .. وكانت فدرة ، بين تينك الارادتين، اللتين تجاذبتاها ، مضطربة الذهن ، خافقة القلب ، لا تعلم اي طريق تختار . حتى انتهى الامر اخيرا بفوز ارادة الملك ، واكرهت العاشقة المغلوبة على الخضوع لها، خضوعا لا رجوع فيه . وعندئذ نام الملك ملء عينيه وهو يحلم باورشليم وارض كنعان ..

اما الملكة وابنتها فلم يغمض لهما جفن . وهنالك اربعة اخرون لم تذق عيونهم الكرى، هم ولي العهد وزيد،وعياش،وصياح بن مضاض.. على ان صياحا هذا، لم ينم من فرحه ، واما الاخرون فالهم وحده

هو الذى ابعد النوم عن عيونهم ، والراحة عن اجسامهم التى اضناهـا التفكير . وقد حاول عياش ، في تلك الليلة ، ان يثبت لولده براءة الملـك ويحمله على الرضى بما جرى،خدمة للعرش .

غير ان زيدا لم يكن يعلم في تلك الساعة، ان في يثرا عرشا وان على هذا العرش ملكا ... كان يعلم ان هنالك فتاة جعلها امنيتـــه في حياته، ثم سلبوه اياها فخسرها الى الابد ، فقال لابيه : اتدعو ولدك يا مولاي الى خـدمة العرش وهو الذي ورث من ابيه الاخلاص للملك والوفاء له ؟

ــ بل ادعوك الى الظهور بمظهر الخضوع التام ليعرف الملك انك تجود بهواك في سبيل دولته ..!

قال : لا اقدر على هذا يا مولاي .

ــ بل تقدرعليه عندما تشاء.

ــ ولكن عندما يخطر لي ان فدرة ستمسي زوجة لهيرودس ، يرقص قلبي في صدري وتثورنفسي فاهم بان أقتل هذا اليهودي على مرأى من الملك نفسه .

ــ وهل تعود اليك فدرة اذا فعلت ؟

ــ لا

ــ اذن تجني على نفسك وعلى فدرة ، وعلى ابيك

ــ وماذا اصنع اذن؟

ــ تعالج امرك بالصبر حتى تسلو هذا الهوى ...

ــ بل اعالجه بغير الصبر يا مولاي.

ــ بماذا يا زيد ؟

ــ بأن اقتحم الغمرات في ميادين القتال حتى اقتل .

ــ واين تجد هذه الميادين اليوم ؟

ــ الا يريد الملك ان يحارب الرومان ؟

ــ من يعلم فقد تنتهي هذه المعاهدة بالاتفاق مع هؤلاء ...!

فهز راسه قائلا : ولكنها تنتهي بالزواج وهذا يكفي ... وباتا تلك الليلة وهمايتحادثان، وزيد يحاول ان يخمد نار قلبه ولا يستطيع .

حتى طلع الصباح . وخرج اهل بترا الى الاسواق .

١٩

يا غلام قل لامير الجليل ان الملك في مجلسه .. فاقبل هيرودس والنار السهر في عينيه .. فدعاه الحارث الى الجلوس قائلا : لقد انقضى الليل كله ونحن نتحدث بأمر المعاهدة والزواج ، والملكة لا تريد ان تنسى ما وعدت به زيدا به ..

فاصفر جبين الشاب وتمتم يقول : اذن اعود الى الجليل حاملا فشلي وخيبة رجائي، بل اعود وانا احمل الذل والعار !!

فابتسم وقال : ارايت الذل والعار في زيارتك ملك العرب ؟

ـ بل رايتهما في هذه الخيبة وقد ايقنت الان باني لست كفؤا للاميرة فدرة ولست اهلا لمصاهرة الملوك..

قال : لا تعجل ايها الامير ..

ـ وماذا بقي يا مولاي؟ الم ينته كل شيء الان ؟

ـ لا ، فقد رضيت الملكة اخيرا بما اراده الملك ...

فبرقت عيناه قائلا : رضيت بالزواج ؟

ـ اجل ، ورضيت فدرة ايضا .

فامتلأ قلب اليهودي من الفرح وجعل يقول فينفسه : لقد وقع ملك العرب في الشرك الان وسيقع بعده ملك البرتيين ...

ثم هم بان يقبل يد الحارث فمنعه قائلا : ستمسي بعد ايام ايها الامير صهرا للملك

ـ والمعاهدة يا مولاي ؟

ـ نكتبها الان وتضع عليها خاتمك ثم يوقعها ملك العرب .. فدب الرعب في صدرهيرودس اللعين ، وقام في ذهنه ان الحارث يريد ان يضع المعاهدة ثم ينكثعهدهمعه بشأن زواجه ...

فقال : لقد رايت يا مولاي رايا ارجو ان توافقني فيه.

قال : ما هو ؟

ـ هو ان نكتب المعاهدة يومتزف الاميرة الي.

ـ وما هي غايتك من ذلك؟
ـ ان امهر زوجتي بهايوم الزفاف ، وساضيف الى اورشليم وارض كنعان ، الارض التي تجاور الاثنين ..
فعرف الملك ان هيرودس يشك فيه ، فاخفى غضبه وقال، اكتبها اذن في اليوم الذي تشاء.
ـ ولكنني ارى انك ترغب في كتابتها الان ..
قال : الملك يرغب فيما ترغب انت فيه .. متى تريد أن يتم الزواج ؟
ـ بعد ان اتهيأ له يا مولاي .
ـ اذن ترجع الى الجليل ثم تعود الى بترا ..
ـ نعم يا مولاي .
فقطب جبينه قائلا : ولكننا لا نضمن لك رضى الملكة عن هذا .. انها لا تطيق ان يسألها زيد بن عياش ، في كل يوم ، ان تفي بما وعدت ...
ـ وهل تريد الملكة ان يتم الامر اليوم ، وانا وحدي في بترا ليس معي غير خادمي، واهل الجليل لا يعرفون شيئا عن هذا الزواج؟
ـ بل تريد ان تكتب المعاهدة وعقد الزواج في ساعة واحدة ، ثم تسبق زوجتك الى الجليل ، على ان تتبعك بعد حين مع ولي العهد وامراء العرب . فاستحسن هيرودس الراي، فقال : ليكن ما اردت يا مولاي ...
ـ اذن تمكث عندنا بضعة ايام ريثما تعد فدرة ما تحتاج اليه.
ـ ولكن اللالىء التي ازين بها عنقها ليست في يدي الان .
ـ لا بأس فستكون لها عندما تنزل في قصرك .
قال : وهل تأذن لي في ان ارى الاميرة قبل ان يكتب العقد ؟
ـ ليس هنالك ما يمنعنا من ذلك ، اندعوها الان ؟
ـ افعل اذا اردت يا مولاي..
فنادى احد الحجاب قائلا: قل لمولاتك الاميرة ان تحضر الساعة. ثم خاف ان تبدر منها بادرة، فخرج الى الرواق، حتى اقبلت

فقال : لقد تم كل شيء الان يا بنية وامير الجليل يريد ان يحدثـك بالامر فاذكري دائما انك ابنة الحارث ملك العرب،وانك ستخدمين العرش . فاستندت الى الجدار كي لا تسقط على الارض ، ولم تقل كلمة . ثم دخل ابوها ودخلت وراءه وهي تبتسم لامير الجليل . . .

٢٠

عرفت نفسها انها ضحية؛ فرضيت مكرهة بذلك الحكم الجائر الذى اصدرهعليها الجالس على العرش.. ولم يكن غير واحد من امرين ، اما ان ترضى بكل ما يأمرهابه الملك ، واما ان تؤثر الموت ،على الحياة .. ولكن موتها ينغص على والديها العيش، ويجعلحياتهما حياة شقاء وعذاب، ولولا ذلك ، لعمدت الى خنجر تطعن به قلبها الخفاق . . .

وكان هيرودس واقفا ويداه علىصدره ، وهو يظن ان وجهها سيعبس له ، وان شفتيها سترتجفانعندما تقع عينيها عليه . ولكنه كان مخطئا في ظنونه ، فالابتسامةالخلابة كانت تغمر ثغر فدرة ، فى تلكاللحظة وعيناها كانتا عينيملكة . . . وتلك قوة لا تجاريها فيها الرجال . . .

يقتلها الياس، وتبتسم. . . .! وتضطرم النار في صدرها ، ولا يطلق على ثغرها ، من لهيب تلك النار ، غير الابتسامات . .! انظر اليها . . لقد انحنت لامير الجليل، ثم جلست في مقعدها وهي تنظر الى الملك .

فقال: قلت لك يا فدرة ان امير الجليل يريد ان يخاطبك الساعة!

قالت : عرفت ذلك يا مولاي فليحدثني بما يشاء

فتلعثم هيرودس وهو يقول: خبرني مولاي الملك انك رضيت بي زوجا لك . .

ــ وتريد أن تسمع كلمة الرضى من فمي اليس كذلك ؟

ــ نعم يا مولاتي

ــ اذن فاعلمايها الامير اني راضية بكلما يرضى به الملك . . .

ـ ويطيب لك العيش في الجليل ؟
ـ يطيب لي ان اطيع ابي ومولاي في ما يريد .
قال : لقدسمعت ان هنالك فتى من ابناء الامراء يطمع بان يكون صهرا لملك العرب واسم هذا الفتى زيد !!
فالتفتت الى ابيها كأنها تقول له : ان صاحبك وقح ومجنون . ثم قالت لهيرودس : لقد كان ذلك....
ـ والان ؟
ـ اما الان فلم يبق هنالك فتى يدعى زيدا ..
واحست عندئذ ان بينها وبين الموت خطوة واحدة ... فقال الملك: سنختار لزيد فتاة من بنات عمها نهب له معها ضيعة من ضياعنا التي تجاور « عمان » .

قالت : لا ابالي بهذا يا مولاي ، لقد اردت ان استبدل زيدا بامير الجليل ففعلت ولو قلت لي في هذه الساعة انك ستبعث بي الى انطاكية او روما لما ترددت في القبول .
قال : ماذا رايت ايها الامير؟

ـ رايت طاعة واخلاصا يا مولاي، ان الاميرة تشبه اباها الملك في صراحته ولا تطيق الا ان تبوح بما في الصدر .. ثم قال لها :لقد صدر الامر ايتها الاميرة بان يتم الزواج في هذين اليومين .
ـ امر الملك ؟
ـ نعم
قالت: ليتم اليوم ، بل الان، ولكن اتفعل ذلك وانت بعيد عن قومك ؟
ـ هكذا اراد مولاي .
ـ وما الذي يمنعك يا مولاي من ان تجعل الزواج في هذا الصباح؟
قال : كرهنا ان نفاجئك به وانت لم تتهياي له ..
ـ لقد تهيأت منذ امس !!
ـ وترحلين غدا الى الجليل؟
ـ ارحل عندما تامرني بالرحيل يا مولاي .

قال : ابقي لك ايها الامير ما تقوله لفدرة ؟
ـ بقي ان اسألها سؤالا اخر اذا اذنت لي.
قالت : افعل
قال : اريد ان اعلم اذا كنت تؤثرين هيرودس على زيد بن عياش
فارسلت عيناها شعاعا غريبا ثم انطفأ ذلك الشعاع فجأة وجعلت تقول : انه سؤال لم يخطر لي انك ستوجهه الي ، اسمع ايها الامير ، لقد كنت امس اؤثر زيدا على جميع الفتيان النبلاء الذين اراهم في بترا ، وفي بلاط ابي، بل كنت اؤثره عليك ، عندما رايتك في هذا المجلس، ولكن عندما اراد ابي ان امحو صورته من الذهن محوتها دون ان اسأله، وبدأت منذ امس ، اؤثرك على زيد وعلى كل فتى سواه ...
قال : لم ار فتاة تغلب طاعتها حبها ، قبل اليوم ..!

ـ ولكنك رايتها الان ، وسترى بعد ايام ، عندما انتقل الى قصرك، اني اطوع لك من خيالك .. ثم قالت : اسأل ايضا ايها الامير ..
قال : لقد اكتفيت بما رايت وسمعت فليأمرك الملك بما يشاء
فقال الملك :العقد والمعاهدة غدا .. انصرفي يا فدرة
فقامت فخرجت والدموع تجول في عينيها الصافيتين ، وكانت الملكة خلدو ، تروح ، وتجيء على احدى الشرفات وهي مضطربة الذهن، فلما اقبلت فدرة فاجأتها بقولها : ماذا جرى في قاعة الجلوس يا بنية ؟
فتفجرت دموعها وقالت: وماذا جرى ؟ لقد محوت هنائي يا اماه ، وكتبت بيدي سطور شقائي الابدي .. ان كل شيء قد انتهى الان .
قالت : لماذا دعاك الملك الساعة ؟

ـ ليحدثني هيرودس احاديث الغرام ..!
ـ اعيدي علي حديثه . فقصته عليها وهي تشهق بالدمع .
فقبلتها قائلة : احسنت يا ابنتي فطاعة الملك قبل كل شيء ، وستحرسك الالهة وانت في الجليل ...
وحولت الملكة وجهها لتبكي البكاء الغزير . فاستسلمت فدرة عندئذ الى الكآبة واخذت تقول : لو ارادت هذه الالهة لانقذتني من هذا اليهودي قبل ان امسي زوجة له .. ثم سارت الى غرفتها وهي تندب

سوء حظها وتردد قائلة : الوداع يا بترا ، الوداع يا ملك العرب . . وتبعتها امها تعزيها وهي لا تسمع اصوا تالعزاء.

ثم رات الملكة ان تخاطبها بلهجة اخرى ، فقالت لها :

ارايت زيدا في البلاط؟ فرفعت راسها قائلة: لم ارى غيـــــر هيرودس .

ـ وهل تريدين ان تريه في هذا اليوم .

ـ ولماذا اراه ؟ اادعوه لي لاقول له لقـــد انتزعني الملـك من يـــدك وساترك بترا الى الابد ؟ ؟ ام اقول له : اني وان سرت الى الجليـــل فانا باقية على عهدك؟ لا . . لا . . . خير لي ان لا اراه وخير ا ه ان لا يراني ولتكن ارادة الملك . . .

ـ بل قولي يا فدرة لتكن مصلحة العرش .

قالت : لست ارى مصلحة للعرش في فلسطين .

ـ ولكن اباك واثق بهذا وليس لنا حيلة في الخضـــوع له . . .

فعضت على شفتها من القهر ولم تجب. ثم اغمضت عينيها كأنها تريد ان تستسلم الى الكرى ليزورها طيف الحبيب

فتراجعت امها الى الوراء وهي تقول في نفسها : لو لم يكن خير العرب وعز الانباط في هذا الزواج ،لاثـــرت الموت على الرضي بــــه، ولو ماتت فدرة ايضا .

وكانت الاميرة في تلك اللحظة تناجي طيف زيد . .

٢١

كان قائد الحامية ،في الجليل ،من اولئك الرجال، الذين يخدعـون، في مظاهرهم اهل بيتهم، واقرب الناس اليهم . يامر بجلد اليهـودي ، وهو يبتسم له، ويفتر ثغره للسيف الذي يحاول عدوه ان يضربــه به . اي انه من الناس الذين يلبسون ثوب الاسد ، وثـــوب الثعلـــب عندما يشاؤون ،وكان في ظاهره ، يحب هيرودس اكثر مما يحب ابناء جنسه ، ويؤثره على الوالي الروماني الذي هو نصف ملك . وهيرودس الداهية الخبيث، وثق به واستسلم الى ارائه ، مع انه لم يكـن يثـق

باحد، ولا يحب احدا من الرومانيين ، وقد جاوز الحد في وثوقه ، يدلك على ذلك انه دعاه الى زيارة بترا ، يوم جاء اليها ولج في دعوته ولم يبال. ولكن روفيس القائد لم يشأ ان يرافقه ، كما رأيت بل تمنى له سفرا تكتنفه فيه النعم ،وتشمله البركات . ولم يخرج هيرودس وسمعان من الجليل ، حتى دعا روفيس احد امنائه ، من اليهود، وبعث به وراءهما الى بترا ، يحصي عليهما الانفاس ، وعندما كان هيرودس ينظر في امر زواجه ،واهل البلاط يتأهبون لذلك الزواج ، كان غلام روفيس، في بترا ، ينصت الى كل همس، ويصغي الى كل كلمة ، حتى عرف كل شيء، وانتهى اليه ان هيرودس سيسبق زوجته الى الجليل، بعد بضعة ايام ، ثم تلحق به مع قومها ، على الاثر.

فمشى عائدا الى مولاه وقص عليه ما سمعه في بترا ... فاصفر وجه روفيس قائلا: اتقسم بالهك انك صادق ؟

ــ واقسم بآله اسرائيل يا مولاي اني لم ارو لك غير ما سمعت

ــ ولكن هيرودس لم يكن يعرف الملك العربي من قبل !

ــ ومع ذلك فقد استطاع ان يجذبه اليه، في يوم واحد ، وان يتخذ ابنته التي يقولون عنها انها اية في الجمال ، زوجة له !

فتمتم الرجل يقول : ايتآمر هيرودس اللعين على قيصر ؟! انه اذن خائن يستحق الموت، بالنار امام الهيكل .. وفي اى يوم يعود .

ــ لا يمر يومان حتى تراه في الجليل.

قال: اذن ابعث بك غدا صباحا الى اورشليم، تحمل رسالة الى الوالي .

ــ وماذا تريد ان تكتب اليه يا مولاي؟

ــ اقص عليه هذه الحكاية التي رويتها لي،

قال خير لك يا مولاي أن تصبر ريثما يجيء الزوجان .

ــ لماذا ؟

ــ لانه يجب ان تلمس خيانة الرجل بيديك قبل ان تكتب كلمة .

فاطرق مليا ثم قال : احسنت فالذي يتعجل في امره ، يندم بعد حين ولكن خبرني الان ... هل دخلت بلاط اريتاس ؟

ـ نعم يا مولاي

ـ وكيف دخلته وانتغريب لا تعرف فيه احدا ؟

ـ انبلاط اريتاس يا مولاي يدخله الف رجل ، فيكل يوم .

ـ ويلك وماذا يصنعون فيه؟

ـ الوفود تتبع الوفود يا مولاي . هذا يدخل ثم لا يخرج الا في المساء . وهذا لا يلبث حتى يعود وقد قضى حاجته ..

ـ والناس كلهم يقابلون الملك؟

ـ اجل فهو لا يرد احدا ولا يترك مجلسه حتى ينصرف القوم.

ـ وأي وفد دخلت انت بين رجاله ؟

ـ وفد من الجنوب يا مولاي .

ـ ولكنك لمتقابل اريتاس ..

ـ لا يامولاي بل مكثت قليلا بالرواق ، ثم اقبل الغلمان يدعون الناس للطعام في قاعات من الحجر ، تسع الواحدة منها هيكلالجليل!

ـ وهيرودس ؟

ـ لم ار لهيرودس ظلا فيذلك البلاط الواسع الذى يغص بالقوم .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ جعلت اطوف في البلاط مع القوم، ثم انصرفت عندما انصرفوا وانا احمل من الطعام مثلما يحملون .

ـ اذن فأريتاس في بترا اعظم من بيلاطوس في اورشليم

ـ أأقولكل ما اعلم واناآمن ؟

ـ قل .

ـ لو جمعت قصور الولاة والامراء في اليهودية ، وسوريا ، ومصر لما رأيتم شيئا، في جانب قصر اريتاس العربي.

ـ وبترا كلها من الحجر كما يقولون؟

ـ جميع الهياكل ، والمنازل ،والقصور، من الحجر يا مولاي .

ـ واين يقيم الجند؟

ـ في اطراف بترا الاربعة وحول قصر الملك ولا يستطيع احد ان

يدخل بترا الا من بابين . الواحد من الغرب، والاخر من الشرق، ثـم قال: والسور كله يا مولاي من الصخر وقد جعلوه عاليا لا يبلـــغ الرجل مستواه وهو واقف على ظهر فرسه .

ـ ولم تعلم ماذا جرى ، بين هيرودس واريتاس ، بعد الاتفاق على الزواج ؟

قال : ماذا تعنييا مولاي ؟

ـ اعني ان الزواج بني على مامرة ، وستبوح لنا الايام ، بسـر الاثنيـن .

ـ اتظن ؟

ـ بل اعتقد ، اذ لا يصل هيرودس ، الى اريتاس ، الا مـــن هذا الطريق . وصرفه قائلا: سننظر في هذا بعد قدوم العروسيـــن فاحذر ان تقول لاحد كلمة او تذكرله شيئا مما سمعت . . .

وجعل يقول في نفسه: لقد نسيت يا هيرودس ان عيـــون الرومانيين تنظر اليك ، في ظلام الليل . . .

٢٢

كتبت المعاهدة . . وكتب عقد الزواج !! ووهب هيرودس للعـرب اورشليم ، وارض كنعان ،وما يجاورهما !! لكن لا تنسى انه وهـــب ارضا لا يملك منها شبرا واحدا، وكان كريما وجوادا ، بما ليس فـــي يده،منه شيء!!

الم تره كيف يقتطع الارض ويبذلها للناس ، وهو يعلم ان النسْر الروماني باسط فوقها جناحيه؟!

الم نقرأ معاهدته وقد جاء فيها : « ينزل هيرودس لاريتاس ملك العرب ، عن اورشليم وما حولها ، وارض كنعان وما جاورها ، عندما يظفر الاثنان بالرمان ، ويتربع هيرودس في عرش ابيه !» وان لم تظفـــر يا اريتاس كما تظن ، فاي ارضتبقى لك ؟ وفوق اي جبل من جبـــال فلسطين ، ترفع العلم العربي؟! »

اجل، لقد فكر الاثنان ، هيرودس والحارث، في ان يخدع احدهما

الاخر ، ويعد له الشرك ... ولكن هيرودس عرف كيف يخـــدع صاحبه، واما الحارث فقد سقط في الحفرة التى حفرها لاخيه .... نفى ابنته الى فلسطين، وكسر قلب زيد بن عياش ، وهو يظن ان وراء هذا النفي عزا يفوق عز القيصر . نعم .... انه عز ذلك الذي كـــان يفكر فيه .. يستولي بالرضى ، علىاورشليم بعد أن يفر الجيـــش الفاتح ثم يستولي بالقوة على جميع فلسطين ، ويجعل صهره هيرودس ... صهره الابله .. عاملا من عماله ، كما هي حاله مع الرومانيين . وماذا يصنع هيرودس بعد فرار الروم ؟ ماذا يصنع الامير اليهودى الذي كان يحميه سيف القيصر؟ يستسلم مكرها الى العربي الظافـــر الذي لم تثبت روما فى وجهه ...! ثم يسأله ، باسم ابنته فـدرة ، ان يبقي له ولايته. انها فكرة لا بأس بها يا اريتاس ...ولكنها حلم ! حلم ، جذاب خلاب ، تلمع فيه الامال والمنى ، ويبلغ التصور فيـــه ، ذرى العظمة ، والقوة ، والمجد ،والسلطان ...

وكيف يقوم في ذهن الحارث العظيم ان الحادثات ستمحو حلمه، وهو القوي الجبار، الذى تخضع له الرجال، في ساحات الوغى ؟ بـل كيف يخطر له أن اليهودي يستطيع ان يعبث به، وفدرة فى الوجود ، لقد فكر في حلمه غير مرة ، فرأى الخير من ورائه، فحكم على ابنتــه ذلك الحكم القاسى الذي صفع عاطفتها، وخنق غرامها ، ثم جعـــل يستعيد ذلك الحلم ، فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، وهو يبتســم له !!... ثم تمادى في تصوره .. فاخذ يضم تلك المعاهدة الى صدره، عند اعتقاده انها تحمل تاج فلسطين . .

٢٣

غص البلاط بنبلاء العرب والقواد والاشراف ، تتبعهم النســـاء والحسان ، وقد اقبلوا ، يهنئون صهر الملك، سيد الجليل وعبر الاردن، والاميرة الفتانة، التى احبوها كما احبوا اباها ، الازيدا فلم يكن بين القوم، ولم يجسر احدهم ان يسأل اباه عنه ، غير ان ولي العهد لـم يشأ الا ان يعرف كل شيء ، فهامس عياشا قائلا : اين اخي؟ وكـان

يدعوه اخاه .

فقال : في الصحراء

فذعر وقال : اترسله وحده الى الصحراء وهو يائس؟

ـ انه مع ابن عم له يصيدان الظباء

قال اخشى ان نسمع الليلة ما نكره .

قال لا تخف فقد اقسم لي انه سيعود ... فذكر مالــك ذلــك القسم فقال: اجل فقد سمعت قسمه ولا خوف عليه . ويظهر ان الملك عرف ما يتحدث به الاثنان ، فاسكتهما، قائلا : اتذكر يا عياش ما قالــه امير الجليل لك ولقرة بن سليم؟

ـ اي قول تعني يا مولاي؟

ـ الم يسألكما عن الملك وزوجته وولديه؟ والتفت الى هيــرودس وهو يبتسم ، فقال عياش: اذكر هذا يا مولاي ولا انسى سؤاله عـــن الاميــرة ...

لقد كنتما مصيبين فيمــا قلتماه لنا عن رغبته في الــزواج .

وجعل يضحك ويقول لهيرودس: لقد اطلعا على سرك ايها الامير قبـــل ان تقدم بترا .

قال : اني فخور بهذا السر يا مولاي، ولكن لم تقل لي انهما خبراك.

ـ لقد كتمناك هذا لتقص علينا انت نفسك ما قلته لهما ... ان الملك كان يعلم قبــل ان تجيء انك طالب زواج.

ـ اذن فسري قد سبقني الى بترا .

ـ نعم ، ولكن لم يعرفه غير القائدين والملك ، ثم قال : اين ولدك يا ابن الخالة؟

ـ ذهب الى الصيد يا مولاي منذ ايام.

ـ اذن سنطعم صهرنا من صيده عندما يعود. فتجاهل هيرودس امر زيد فقال: ولكن قد لا يعود الا بعد شهر .

ـ بل يرجع الليلة او يبقى الى الليلة القادمة اليس كذلـــــك يا عياش ؟

ـ بلى يا مولاي .

فقال هيرودس : اما انا فساسافر غدا ..

ــ ولكنك وعدتنا انك ستمكث عندنا اسبوعا اخر .

ــ لقد ذكرت امرا يا مولاي هو ان الوالي الروماني سيمر بالجليل بعد بضعة ايام وسينزل في قصر الامارة .

ــ ومن قال لك ذلك ؟

ــ خبرني قائد الحامية قبل ان اغادر الجليل .

ــ وما هي غاية الوالي من ذهابه ؟

ــ انه يطوف في كل عام ، في جميع نواحي الولاية يا مولاي .

فقال هوادة بن ذلول : وهل يخطر له في هذه المرة ان يذبح طائفة من رجال اليهود ؟ فاصفر وجه هيرودس وتردد في الجواب ، ثم قال : قد يخطر له ذلك...

ــ ولا يجد من يرده ؟!

ــ لا ...

قال : لو فعل ذلك في بلاد العرب لجعلناه قطعا وارسلناه في صندوق من الخشب الى مولاه... فسكت اليهودي ... اما الملك فقال : سياتي يوم تفعل العرب فيه ما ذكرت الان .. لقد هيانا للامر عدته ووضعنا يدنا بيد صهرنا الذي يطيعه معظم ابناء اليهودية وستنقل فلسطين من هذا العهد الى عهد اخر يمد فيه السلام رواقه فوق هذه الربوع .. اليس كذلك ايها الامير؟ فاكتفى هيرودس بقوله: اجل يا مولاي

ــ ومتى تظن اننا نستطيع ذلك؟

ــ من يعلم يا مولاي فقد يمر شهر او عام ، او بضعة اعوام .. ونحن على حالنا التى تعلم .

ــ بل لا يمر عامنا الحاضر حتى تنقلب هذه الحال .

ــ ومن اين لك ان تعرف هذا يا مولاي ؟

قال : اي ملك لا يعرف ما عنده؟ انالجند العربي يحمل سلاحه ، عندما يخطر لنا ان يحمله ، وارادة الملك من الحديد ، لا ترجع الى الوراء .

ـ ولكن ذلك لا يكفي يا مولاي .

ـ لماذا ؟

ـ لان الواحد منا لا يحارب الرومان وحده ..

ـ ولكنك ستكون عونا لنا ونكون عونا لك .

ـ نعم، غير ان اليهود لا يستطيعون ان يحملوا السيف بعد عام.

ـ وما الذى يمنعهم من ذلك ؟

ـ السلاح الذى ليس عندهم منه غير ربعه ... فقال عياش فى نفسه : لقد بدأ صهر الملك يخلق الاعذار . وقال الملك : سنعطيك منه، عندما تأتي الساعة ، ما تحتاج اليه .

قال : ليس في بترا ما يكفي الجيشين يا مولاي

ـ بل عندنا منه ما يكفي ثلاثة جيوش ... فرأى اللعين ان يستغل الموقف ، وقد ذكر عندئذ شروط ارتبان ملك البرتيين ،وحاجته الى سلاح يكفي سبعين الفا ، فقال: ولكن الذي يحتاج اليه الجليل كثير ايها الملك .

قال : ما هو عدد جيشك ؟

فذكر هيرودس ضعفي هذاالعدد، فقال : اربعون الفا ..!

فقطب الملك حاجبيه قائلا : انى الجليل من الجيش ما في بلاد العرب ؟

قال: ان الصحراء التى تجاور الاردن تغص بالناس من جميع الاجناس وجميعهم من رجال الحرب يا مولاي.

ـ ولكنهم ليسوا يهودا .

ـ كما ان جنودك جميعهم ليسوا من العرب .

قال : ذلك كثير كما قلت ايهاالامير .

ـ ولكني استطيع ان اسلحهم كلهم يا مولاي بعد بضعة اعوام، اذا لم تعطني انت شيئا من سلاحك .. فنظر الملك الى عياش ، كبير القواد ، وقال له: رأيك يا ابن الخالة .

ـ ماذا يأمر الملك ؟

ـ الا ترى اننا نستطيع ان نعطي صهرنا سلاحا ؟

– بلى يا مولاي فسلاحنا لا تملك روما اكثرمنه ، ولكن متى نعطيه .

– عندما يشاء ... متى تريد ذلك ايها الامير ؟

– خير لي وللملك ان يتعجل في امره ..

قال : انظر اذن في هذا يا عياش ..

– ارى يا مولاي ان تصبر ريثما يتهيأ الامير للحرب وبعد نهاية المدة ، بل اصبر ريثما تزحف جنودك من بترا الى قتال الرومان .

– ولم ذلك ؟

– لانك اذا ارسلت النوق الى الجليل ، تحمل لاميرها سلاحه ، عرف الوالي الروماني بالامر ، ونفخ في بوق الحرب قبل ان نستعد.. ولكن هيرودس كان يريد ان يجود الملك بهبته ، في ذلك اليوم ، فقال : انا اضمن سكوت الروم.

– وكيف تضمن ذلك ؟

– اثبت لهم ان السلاح للامارة تحتفظ به لليوم العصيب .

فابتسم عياش قائلا : ومتى كانت روما تستسلم الى ما يقوله اهل هذه البلاد ؟ وهل تظن ان الوالي الكثير الحذر يصدق حكايتك ؟

– اجل ، فقد تعودت ان اقص عليه مثلها كلما اشتريت سلاحا ..

– ومع ذلك فانا لا اوافق الامير في هذا الراي فليفعل الملك ما يشاء ، ونظر الى مولاه نظرة يحذره بها من الاستسلام الى العاطفة..

فقال الملك : اذن يبقى السلاح في بترا ريثما ننزل الى الساحة فعياش مصيب فيما رآه .. ان عيون الرومان لا تنام ، والسلاح ايها الامير هو لك على كل حال ... ثم قال لقواده : لقد انتهينا من هذا الان فساعدونا في امر اخر.

فقال ابن ذلول : ما هو هذا الامر يا مولاي ؟

– اقنعوا صهرنا ان يبقى في بترا اسبوعا اخر

فاجابه هيرودس قائلا : : لو استطعت البقاء عاما كاملا لفعلت ولكني عاجز عن هذا يا مولاي فارجو ان تأذن لي بالذهاب

ـ ومتى تعود ؟

ـ ازور بترا في كل عام مرتين اثنتين ، وعندما اتهيا للحـــرب ارسل اليك سمعان واذكر لك في رسالة يحملها اليك ، جميع مـــا اعرفه عن الرومان .

ـ ولكننا نسألك الا تضيع الزمان فقد يدب الشك في صـــدور الرومانيين فيزيدون الجيش، ويدعون الى اليهودية جنودهم التـــي تقيم بالاقاليم . .

ـ سأبعث رجالي الى جميع الاقطار يشترون السلاح، حتى اذا اصبح عندي منه ما يكفي الجيش اليهودي ، برزت الي الميدان .

ـ ولكن لا تنسى ان لك عندنا سلاحا لعشرين الفا من الرجال . فقال في نفسه : في الجليل ما يكفي لعشرين الفا، وفي بترا مثل ذلـك فليس علي الا ان اعد الباقي ، كما اراد ملك البرتيين . . . ثم قال له: اشكرك يا مولاي ، وسأبذل الجهد كله في سبيل الوصول ، بعد عـام واحد ، الى ما نرغب فيه . . .

وجعلوا يتحدثون بكل شيء ، حتى انقضى من الليل نصفـه، فانصرف الملك، وخرج القوم وعياش يقول لزملائه: لقد اخطأ الملـــك في مصاهرة هيرودس ، فهيرودس ليس له عهد . . .!

فقال مضاض : كيف عرفت ذلك؟

اوحت الي به، عيناه الصغيرتان اللتان تفضحان ما في صــدره . . وسترون بعد حين ، اني كنت من الانبياء . . . قال : ان الملك ابعـــد نظرا من قواده . . .

ـ اجل ، ولكن في شؤون الحرب .

ـ وكيف يستطيع الاستيلاء على اليهودية اذا لم يضع يـده بيـد هيرودس ؟ فسكت عياش ، ولم يشأ ان يبوح بجميع ظنونه . وكـان جميع القواد يظنون كما يظن . . .



٢٤

في مساء اليوم : الذى وضع فيه هيرودس، قدمه في قصره ، اقبل على الجليل، بيلاطوس الوالي، وكان قد بدأ طوافه في بلاد اليهود . وقد عرف من قائد الحامية ، جميع ما حدث في بترا ، وقام في ذهنه ، كما قام في ذهن قائد الجليل، ان هناك مؤامرة على الرومان ... وقد اراد ان يسبر غور هيرودس ، قبل ان تجيء العروس ، مع رجال العرب، فارسل من يقول له : انه سيزوره في قصر الامارة ، في صباح اليوم الثاني ، وكان من عادته ان يدعوه اليه ... فاعد هيرودس العدة لاستقباله ، وعندما وصل الى القصر ، كان هو، وطائفة الكهان ،ورؤساء القوم ينتظرونه امام الباب الخارجي، وقد صافحوه بالاحترام والاجلال، واظهروا له الخضوع والطاعة. ثم دخل الجميع ، قصر الامارة الذى هو بلاط ملك ، ولم يشأ الوالي، ان يحدث رئيس الربع امام القوم، بما كان يفكر فيه، بل كان الحديث، حديث ملك مع رعيته ..

اجل، كان الوالي في فلسطين ، ملكا ، ولكن ليس له تاج .. حتى تناولوا طعام الغداء، فقال لهيرودس: لي ما اقوله لك ايها الامير ، وكان بيلاطوس من الدهاة ، الذين يعرفون كيف ينتزعون الاسرار .. اجل ، لم يكن قد مر على وجوده في اليهودية ، غيرعام واحد ، فقد خلف فيها ، سنة ٢٥ للميلاد ، فاليريوس كراتوس الذي ارسله طيباريوس واليا ، سنة ١٥ ، ولكنه كان قد خبر معظم الرؤساء ، وعرف عادات اليهود ، واخلاقهم ، وتقاليدهم بل كان قد عرف ما تحمله الصدور، من البغض للرومان .

ولكن هذا الداهية لم يكن اخبث من رئيس الربع .. فلما اجتمع الاثنان ، جعل الواحد منهما ينظر الى الاخر ، نظرات الحذر ، وهو يبتسم له ... ثم قال هيرودس : عندما قدمت امس ، هممت بان ارسل اليك ، بعض عظماء اليهود، يسألونك باسم رئيس الربع في الجليل - ان تحضر حفلة زواجه..

فتجاهل اللعين قائلا: حفلة زواجك؟؟

ـ نعم ايها الوالي...
ـ ومتى يكون هذا الزواج ؟
ـ بعد بضعة عشر يوما.
ـ والفتاة التى اخترتها زوجة لك؟
ـ ليست هذه الفتاة من الجليل
ـ اذن هي ابنة عظيم الكهنة ؟
ـ بل هي ابنة ملك !
قال : ليس فى اليهودية ملوك..
ـ ولكن هذا الملك لا يقيم باليهودية بل يقيم بالعربية الحجرية ، كما تعلم ، فتراجع اللعين الى الوراء قائلا : اريتاس ؟!
ـ نعم ايها الوالي.
فتردد الرجل في الجواب ثم جعل يقول : ان اريتاس عدو اليهود وعدو الرومان ..
ـ وهذا معناه ان هيرودس سيتزوج ابنة عدوه !
قال : اتهزأ ايها الرئيس ؟
ـ وهل يخطر لي ان اهزأ بسيد اليهودية ونائب القيصر ؟
ـ وكيف فعلت هذا وانت لم تطلب بدماء اليهود التى سفحها العرب ؟
ـ رايت ان اطلب بهذه الدماء وانا صهر الملك العربى!!
فقال : لقد ذكر لي قائد الحامية امس ، انك كنت في بلاد العرب ولكن لم يخطر لي قط انك ذهبت اليها خاطبا .. حدثني الان بمارأيت في بترا بل اخبرني كل شيء. فانا اخشى ان ينتهي امر هذا الزواج الى مانكره نحن وتكره انت.
فابتسم قائلا : بل ينتهي الى ما يحب الفريقان ايها الوالي، الم تقل الان ان اريتاس عدو الرومان واليهود؟
ـ بلى
ـ وهل من الرأي ايها الوالي ان يظل عدوا لنا يحذرنا ونحذره ونضع جنودنا على حدود ملكه يحصون عليه انفاسه وانفاس قومه ؟

قال: افعلت انت لتمحو هذه العداوة؟

ـ فضحك ضحك الخبيث الواثق بنفسه وقال: بل فعلت ذلك لامحو اريتاس نفسه، من الوجود، وامحو بلاده القائمة على حدودنا منذ اجيال، تهزأ بكل يهودي...! ثم خفض صوته قائلا: الا تريد أن تقسم لي ايها الوالي، براس قيصر. انك لا تبوح لاحد من القواد والزعماء بما ساقوله لك الان؟

فاستوى بيلاطوس في مجلسه وجعل يحدق اليه... فقال: ما بالك؟

قال: افكر فيما سمعته الساعة وانا لا اصدق كلمة واحدة منه..

ـ بل تصدق كل ما تسمع عندما تعلم كل شيء، اني ساعترف لك بما فعلت، خوفا من ان يدب الشك في صدرك فيتلاشى الامل الذى عللت نفسي به، وتخسر روما ملكا ليس في الاقاليم كلها اخصب منه..

قال: اسالك سؤالا قبل ان تقص علي حكايتك...

ـ اسأل ما تشاء.

قال: ان رئيس الربع في الجليل، لا يزور ملك العرب، الا اذا مهدت له اسباب الزيارة من قبل، افتقول لي الان كيف كان ذلك؟

قال: خطرت لي هذه الفكرة وانا في القاعة، وقد جلس الي رجلان من رجال العرب، منذ شهرين... وهذا ما لم يكن الوالي، يعرفه، فقال: من هما:

ـ لا اعرف اسميهما ولكنهما من رؤساء العشائر..

ـ وماذا كانا يصنعان في الجليل؟

ـ يبيعان بعض النوق، ويشتريان الثياب، لنساء العشيرتين.

ـ هل كنت تعرفهما من قبل ذلك اليوم؟

ـ لا، ولكن جاءني الحجاب يقولون: ان عربيين يريدان أن يقابلا امير الجليل، فأذنت لهما، وايقنت في تلك الساعة، بانهما من جواسيس اريتاس...

ـ وبعد ذلك؟

ـ عرفت بعد ذلك انهما لم يكونا كما ظننت ، وبدلا من ان ينتزعا اسرار اليهود، انتزعت منهما اسرار العرب ، وهما لا يعلمان اني ثائر على كل عربي ...

قال : اذكر اذا شئت بعض هذه الاسرار ..

ـ اتعلم كم هو عدد جيش العرب، ايها الوالي ؟

ـ يقولون انه عشرون الفا...

ـ بل هو اربعون ، وقد يزيد هذا العدد ، عندما يرى اريتاس نفسه مكرها على طلب المزيد!! وهذا ما عرفته منهما .

ـ اواثق انت ؟

ـ نعم ، وقد رايت بعيني، ولمست بيدي...

ـ ثم ماذا ..

ـ ثم وصف لي ذلك الرجلان بلاط الملك ، كما وصفا لي رجاله ، وانتهى بهما هذا الوصف الى ذكر الملكتين ، زوجتي اريتاس ،وابنته قدرة وولي عهده ..

ـ فخطرت لك، في تلك الساعة ، فكرة الزواج ...

ـ بل خطرت لي عندئذ فكرة الانتقام، ولم ار لها مجالا اوسع واقل خطرا ، من مجال الزواج الذى ذكرت . وكان العربيان قد اثبتا لي، ان قدرة اجمل فتاة في العرب، وان اليهودية كلها ، لم تنبت فتاة تجاريها في الجمال ... ولم تكن مخطوبة كما قالا لي، فسألتهما ان يمهدا اسباب التعارف بيني وبين الملك ، واظهرت لهما رغبتي في ان اخطب ابنته ..

ـ وقد تم لك الامر كما اردت .

ـ اجل ، ولكني ترددت اولا في الذهاب ، وخفت أن يردني اريتاس ردا قبيحا فيضيع الرجاء.. غير ان ذلك الدم البرىء ، الذى سفح في الجليل، كان يدفعني الى بترا ، فمشيت اليها في صباح يوم صفت سماؤه، بعد ان دعوت قائد الحامية الى الذهاب معي ، وانا اكتمه الفكرة التى خطرت لي.. الم يقل لك ذلك .

ـ لقد قال انك تريد ان ترى بترا المحفورة في الصخرة

ـ نعم ذلك ما قلته له، ولكنه لم يشأ ان يرافقني اليها فقد خاف ان تغدر به العرب اذا عرفت انه من الرومان ..

ـ واما انت فلم تخف ..

ـ اما انا فقد استولى علي الذعر ، وملأت قلبي هيبة ذلك الملك السفاح الذي يشرب الدماء... وعندما مثلت بين يديه ، كانت ركبتاي ترتجفان ، وقد احسست ان وجهي المصفر ، كان يشبه وجوه الاموات .

ـ كأنك كنت تظن انك ستقابل نمرا يلبس ثوب انسان ...

ـ اجل ، ولكني عندما رايته رأيت نظرا هادئا ، ووجها جذابا ، وحديثا عذبا ، فاضمحل ذعري، واستيقظت في صدري عندئذ عاطفة الثأر ، ثم بت ليلتي وانا اعد لثأري عدته .

ـ وعند الصباح؟

ـ سألته عند الصباح ان يؤمنني لاقول له كل شيء، ففعل ، فحدثته بأمري، وقصصت عليه حكاية غرامي الكاذب الذي احس به، ثم طلبت اليه باسم هذا الغرام ان يرأف بي، ويزوجني ابنته ،ويشترط علي، لقاء هذا الزواج، ما يشاء ، وقد آنست منه ميلا الي . ولعله كان اشد رغبة مني، فيما سألته اياه ، اتعلم ماذا صنع ؟ لقد رضي بالزواج ولكن بعد ان سلم الي ما ستراه . وخرج هيرودس الى مخدعه ثم رجع بعد قليل، ودفع الى الوالي رقا مطويا قائلا له : اقرأ ما جاء فيه ..!

فقرأ الروماني تلك المعاهدة التي وضعها الحارث بالاشتراك مع صهره ، ولكنه لم ينته من قراءتها ، حتى اصفرت شفتاه ، وارتجفت يداه، وجعل ينظر الى ذلك اليهودي الوقح بعينين تتقد فيهما النار ...

اما هيرودس فكان يبتسم ابتسامة الاستخفاف .. ثم قال : افهمت كل ما جاء فيها ام اترجمها لك ؟..

فقال : اتجرؤ يا هيرودس على الاعتراف بهذا و لاتبالي ؟! اتتآمر على قيصر وتطلع نائبه على هذه المؤامرة كأنها لا تعنيه، وانت مطمئن؟!

قال : لا تغضب بل اعد علي ما قرأت..!!

قال: قرات ان اورشليم وارض كنعان ستكونان لاريتاس بعد ان يساعدك في طرد الرومان من فلسطين..!

ـ بل قرات حكم الاعدام ، اصدره هيرودس على اريتاس،وكتبه بيده ...

قال اني اقرا لغتك كما تقرؤها انت .

ـ اجل ايها الوالي ولكنك لم تنظر انت الى الامر كما ينظر اليه رئيس الجليل

قال : ماذا ؟

قال : لقد جاء في المعاهدة ، ان اريتاس سيزحف الى فلسطين ، عندما يدعوه هيرودس الى هذا الزحف ، اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اي اني لا ادعوه ، الا اذا وفرت لي اسباب القوة ، ولمست في صفوفكم اسباب الضعف .

ـ هذا ما ظهر لي..

ـ ولكني سأقلب الدعوة يا سيدي واحفر لرجال العرب قبورهم قبل ان افعل .

قال : صف لي ما تريد ان تفعله ..

قال : سادعو صفوف الرومان الى حمل السلاح، والاحتجاب في قصور اورشليم ، ووراء هيكلها العظيم، قبل ان يبلغها الجيش العربي!

ـ وماذا يحدث عندئذ ؟

ـ ثم ادعو جنود اليهود ليكونوا في الظاهر اعوانا لاريتاس ، ولكن هؤلاء الاعوان ، سيحيطون بجيشه ، عندما يدخل اورشليم ، من النواحي الاربع ، ويجيء بعدئذ من الوراء، ذلك الجيش القائم وراء الهيكل، فيسد على العرب منافذ الفرار وتمسي اورشليم ، الذي يطمع فيها والد ندرة، قبرا لرجاله .. وهذا هو حكم الاعدام الذي وصفته لك..!

وغمرت ثغره في تلك اللحظة ، ابتسامة جديدة ، وهي ابتسامة الظفر ... فاستولى الاستغراب على بيلاطوس ، ثم ظهرت على وجهه ، دلائل الفرح والاستبشار ، غير انه اراد ان يستوثق من كل شيء ، قبل

ان يستسلم الى فرحه . فقال: فعلت كل ذلك لتقهر اريتاس ؟
ـ بل لافنيه وافني قومه . .
ـ وهذه الفتاة التى ستمسي زوجة لك؟
ـ ومن هي الفتاة التى تتصدى لي فى ثاري؟!
ـ انها زوجتك وانت تحبها . .
قال : اتصدق ان فتى يتعشق فتاة لا يعرفها ولم يرها غيـــر مرة واحدة ؟
ـ اذن لم تكن ابنة الملك الا ضحية .
ـ اجل ، انها ضحية ثاري ، ومطامع اريتاس . .
ـ ولماذا لم تحدثني برغبتك هذه قبل الان ؟
ـ لاني خفت ان تكون من غير هذا الراي .
ـ ولكنك كنت قادرا على الاستعانة بي، فأوجه تحت لوائـــك الجيش الروماني الى بترا ،فتقضي على الملك !
قال : ان بترا لا تؤخذ بالسيف فالاسوار امنع مما تظن ،ورجال العرب بسلاء . لا يستسلمون ، ولو غمرتهم عاصفة الموت .
ـ ومتى تقوم بما وعدت به حماك ؟
ـ اوهمته ان الجليل ،لا سلاح عنده ، وسالته ان يصبر ريثمـــا نتهيا للامر .
قال : احذر ان تفعل ذلك في هذه الايام .
ـ لمـــــاذا ؟
ـ لان حامية اليهودية ، بعضها في سورية ، وبعضها في مصر .
ـ وهل تظن ان هيرودس يفعل شيئا قبل ان تامره به ؟ فسقط عندئذ دهاء الروماني عند قدمي دهاء اليهودي . . وقامت الثقة في صدر الوالي . مقام ذلك الشك الذي تغلل فيه ، وصافحه وهو يقول : هـــذه هي المعاهدة فاحتفظ بها ، ولكني كنت احب ان ابعث بصورتها الـــى طيباريوس قيصر !
قال : ستبعث بها اليه يوم يتم لنا الامر .
ـ اذن سانقل اليه اخلاصك لعرشه .

ـ لقد كان هذاالاخلاص واجبا فقد ابقى لي مولاي طيبـاريوس ولاية الجليل والاردن، وكان قادرا ان يسلبني الاثنتين .

قال : نسيت ان اسالك عـن العرش الذي قرأت الان ان اريتاس سيعيدك اليه او عدك هذا المغرور با نيجعلك ملكا ؟

ـ اجل ايها الوالي، فانا الذي سألته ذلك ، ليقوم في ذهنه انـي طامع، واني ابذل مالي كله لاجله عونا لي على امري. . . فصدق الروماني كلما سمع ، لان ذلك الاعتراف الصحيح، كان قد انتزع الشك مـن صدره ، ولم يدر ، ان الامير اليهودي ، الذي استطاع أن يخـدع اريتاس ، استطاع ، في الوقت نفسه ، ان يخدعه ، ويهزأ به .ولم يخطر له، ان هيرودس ، يبيع اليهودية كلها، ويبيع زوجته ، وجميع العرب، بل يبيع دينه وشرفه وعرضه، في سبيل الوصول الى عرش ابيه ا. .

وبعد ان ساد السكوت لحظة ، قال هيرودس : لقد جاء دوري في السؤال الان اتأذن لي؟

ـ افعل

فقال وهو يتكلف المزاح: الم يكن ابي، هيرودس الكبير ملكـا على اليهودية ؟

ـ بلـى

ـ ومن البسه التاج ، وجعل السيوف حول عرشه تذود عنه ، وتحميـه ؟

ـ انطونيوس قيصر .

ـ وهل رأى الرومان بعد ذلك ان هذا الملك يخون العهد وينسـى اولئك القوم الذين احسنوا اليه؟

ـ لا اعلم ولكنهم يقولون لي انه كان ملكا خاضعا للرومان مستسلما الى قيصر ، وكان السلام في ايامه يسود هذا القطر . . . .

ـ ولكن لماذا حطمت روما هذا العرش وقد كان سياجا لكـل يهـودي ؟

قال : انسيت يا هيرودس ، ان ابناء ذلك الملك، وانت احدهـم ، الذين حطموه؟

ـ نحن ؟

ـ اجل انتم ولولا ذلك النزاع لظل العرش قائما ولما عمد اغوسطس قيصر الى انتزاعه من ايدي اصحابه»، ثم قال : ولكني نسيت ان اقول ان هيرودس الكبير نفسه هو الذي اراد ان يزول عرشه من الوجود الم يجعل مملكته ، قبل موته اقساما ذكرها في وصيته لابنائه؟

ـ ولكنه لم يرد من وراء ذلك ان يقوض اركان ملكه ..

ـ وماذا اراد اذن؟

ـ كان همه ، قبل ان يموت ، ان يرضى ابناؤه بما قسم لهم ، على ان يبقى العرش مرجعا لجميع الاقاليم . .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟ قام هؤلاء الابناء ، وتبعهم الرؤساء والزعماء يسمون انفسهم ملوكا فلم يشأ اغوسطوس ان يجعل في اليهودية عشرين عرشا .

ـ والان ؟

ـ والان ماذا ؟

ـ ألا تستطيع روما ان تعيد هذا العرش ، وتجلس فوقه اشد عمالها اخلاصا ووفاء ، واقربهم الى الخضوع والطاعة ؟

ـ لو ارادت روما ذلك لفعلت .

قال : اسألك ان تلتمس ذلك من قيصر فهو لا يردك ..

قال : لا يستطيع والي اليهودية ان يلتمس امرا مثل هذا ..

ـ ومن يستطيعه ؟

ـ والي سوريا وحده فهو مرجع الولاة وسيدهم ونائب قيصر الاول ..

ـ وهل تريد ايها الوالي ان تستعطفه علي؟

قال : هذا مزاح لا احب ان اسمعه ...

قال : لو افترضنا الان اني لا امزح، فماذا تصنع ؟

ـ انصح لك بان تكف عن طلبك ..

ـ وهل اسيء في طلبي هذا الى احد من الناس ؟

ـ تسيء الى طيباريوس قيصر نفسه .

ـ لماذا ايها الوالي؟

ـ لانه يكره العروش ولا يطيق ان يكون في العالم الذى يخفق لواء روما فوقه عرش غير عرشه..

ـ ولكن عرش اليهودية هو له ، وسيكون الملك المتربع فيه عاملا من عماله خاضعا لكل ما يأمره به!

ـ ومع ذلك فهو لا يرضى بهذا فخير لك ان تسكت ..

قال : كنت احلم اني ساضع التاج على رأسي، واستند الى العرش الذي كان يستند اليه هيرودس الكبير .

قال : انه حلم تمحوه اليقظة كما ترى . فقهقه ولم يبال ، ثم قال: اذن لقد ضاع الرجاء الذى كنت اظن انك ستكون عونا لي على نيله .

ـ نعم لقد ضاع، فقم الان فقد انتهى دور المزاح .. فقال هيرودس في نفسه : نعم انه حلم يا بيلاطوس ولكنك سترى بعد اعوام انه سيصبح حقيقة رائعة تلمسها بيديك.. سأضرب الرومان والعرب لان الفريقين يريدان أن تكون اليهودية لقمة سائغة. وسأعطي ملك البرتيين ما طلبه من المال فهو خير لي، من اصحاب المطامع المستبدين ... ومشى وراء ضيفه وهو يقول. الا تريد ايها الوالي ان نحتفل بالزواج وانت على راس القوم ؟

ـ بلى ، ولكني سأذهب الى ما وراء الاردن، ثم اعود الى السامرة . قبل ان تجيء عروسك . ثم هامسه قائلا : وملك العرب ؟ الا يرافق ابنته الى الجليل؟

ـ لا ، بل يرافقها ولي العهد وامراء الجيش والنبلاء .

ـ اذن سنرى هؤلاء العرب للمرة الاولى ونسمع اقوالهم .

قال : الم تر عربيا الى الان ؟

ـ بلى، غير اني لم ار ، بين اولئك الذين رايتهم، ولي عهد .. وخرج الاثنان الى البهو الواسع الذي يطل على الجليل ، وجلس ، الوالي يصغي الى المظالم ، ويأمر بوضع العدل في موضعه ...



٢٥

غادر موكب العروس بترا ، بعد ان غادرها هيرودس ، بثمانية ايام . وكان ولي العهد رئيس القوم ، ومعه قواد العرب ورؤساء العشائر ، يتبعهم حول الموكب ووراءه اربعون حارسامن حراس البلاط ، وسيد هؤلاء الحراس ، صياح بن مضاض ، العاشق الذي غلب على أمره ، ومع فدرة عشرة من الجواري ، جميعهن من حسان دمشق ، اللواتي اثرن العيش مع مولاتهم ، في بلاد اليهود ، على البقاء في بترا ، بين اهلهن .

وكان صياح قد نسي الاميرة .. واستولى الفرح على قلبه يوم نقل اليه انها ستزف الى هيرودس ، غير انه ، كان في تلك الساعة عطشان .. الى نظرة تجود بها عليه ، وهووراء الهوادج ، لا يفصله عن الناقة غير العبيد . ولكن فدرة لم تفعل ، فقد كانت مضجعة في هودجها ، لا ترسل نظرها الى خارج الستر ، ولا يخطر لها ان تستنشق الهواء الحر ، بل لم يكن يخطر لها غير زيد !! فقد تركت بلادها دون ان تراه ، فقد تنقضي الاعوام وهي لا تبصر ذلك الوجه الفتان ، الذي اسرها سحره ، وكانت تبكي ... حتى خيل الى جاريتها ، ان ذلك البكاء سيقذف بها الى هوة الموت ، قبل ان يبلغ الموكب الجليل ، وحتى عرفت الجواري ، في هوادجهن ، ان العروس لا تكف عن البكاء .

وكان اخوها مالك ، يهمز فرسه من حين الى حين ، ليسألها سؤالا ، او يخاطبها بكلمه ، والدمع يتفجر من عينيها ، كلما نظرت اليه، كأنها كانت ترى ،في وجه اخيها صديقه ورفيقه زيد ، الذي ابعدها القدر الجائر عنه ، او كانها تبكي الامل الخائب ، والاحلام العذبة ، التي ضيعتها مطامع الملوك،وسياستهم ، القاسية .. الهوجاء

وعلى رغم ذلك الحزن المذيب ، والالم الذي كانت تحس به ، لم تسأل مالكا عن ذلك الحبيب، ولم تشأ ان تنزل عن كبرياء الملكات ..

كانت قد عرفت بعد ان تم الامر لهيرودس كما اراد ، انها ليست له ، فاحتجبت في مخدعها في البلاط ، كي لا تراه ، وهكذا فعل زيد .. واحتفظ الاثنان كما رأيت ، بالشمم العربي ، الذي هو اقوى من الغرام!

ومالك نفسه ، الذي لم يكن من راي ابيه في ذلك الزواج ، لم يذكر لها ريدا بعد ان كتب العقد ، ولكنه كان يعلم ، ان الحب الذي تغلل في القلبين ، لا يضمحل الا بالموت ... على انه كان يخاف شيئا واحدا ، هو ان تبلغ شقيقته قصر زوجها ، وهي على تلك الحال ، فتتجه اليها العيون .. وتكثر حولها الظنون .

نعم ، ان الفتاة ، مهما تكن كثيرة الجلد ، وقوية الارادة ، لا تستطيع ان تنتقل من بيت ابيها ، الى بيت زوجها ، وهي ضاحكةالثغر مشرقة الوجه . ان هذا البكاء مظهر من مظاهر الضعف ، لا بد منه !

ولكن بكاء الاميرة لم يكن من هذا الصنف .. كان لوعة ، واسى ، وكآبة وحسرة ، لا تزول مع الايام ..

وماذا يقول ولي العهد لهيرودس ، اذا استقبلت اخته عظماء اليهود وكهانهم بالنحيب والبكاء ؟

انه عار لا يرضاه ، ففدرة يجب ان تكون في الجليل ملكة ، كماكانت ملكة ، بين العرب .. وهذاما يهتم له ولي العهد العربي .

فلما غربت شمس اليوم الاول ، ضربت العبيد خيام القوم ، في مكان فسيح ، يجري الماء بالقرب منه ، وجلس مالك في خيمةاخته بعد ان انزل ستار الباب ، ثم قال :

فدرة ! لقد مر هذا اليوم وانت تبكين ، وانا اخشى ان تقتلك اخيرا هذه اللوعة التي تصرع الاسد ..

فابتسمت لاخيها ابتسامة اليائس وجعلت تقول : كانك تريد يا اخي ، ان امر بهذا الحادث المفاجىء ، الذي ضيع رجائي ،دون ان تجود العين بدمعة واحدة !! الا تعلم ان في بكائي هذا ، ابكي شبابي واحلامي ، وعمري وحياتي ؟

قال : لا يفعل ذلك الا الذي يرى الموت بعينيه .

ــ وهل تظن يا مالك اني اذهب الان الى الحياة ؟

فذعر ولي العهد قائلا :

ــ ويلك اتقتلين نفسك وتنسين ان لك أما ؟

ــ لا يا اخي ، ان هذه الحياة اذا بقيت للجسد فهي ليست باقية

لهذا القلب الذي يدوب في الصدر الان ..

ـ ولكنك ستفضحين ملك العرب .

ـ وماذا يطلب مولاي الملك ؟ افلا يريد ان اقيم بقصر هيــرودس كما تقيــم الزوجة مع زوجها ، وان استسلم اليه كما تستسلم الامـــة لسيـــدها ؟

ـ بلى

ـ اذن فاعلم اني ساكون معه كما ذكرت ، دون ان اعكر عليـــــه صفو حياته ، ودون ان اخالفه في امر يكون فيـــه هواه .. ولكن قلبــي .. اه ان قلبي لا احبه لرجـل بعد ابن عيــاش ، ولا اريــد ان يخفق الا على ذكراه ...

قال : لا يستطيع ان يعرف ما في القلوب غير الالهة ، اتقسمين لي انك ستكونين في قصر هيرودس تلك المــراة التــى تشرف العرب ؟

قالت : اقسم لك براس زيد.

ـ وهذه الدموع التي لا تنضب ؟

ـ سأمسحها قبل ان اصل الى الجليل ، حتى ليظن القوم ، ان زوجة سيدهم فتاة تشبه الرجال ..

ـ وكيف تقدرين على ذلك وانت لا تحبين هيرودس ؟

ـ قلت لك ان فدرة ملك لهيرودس فهذا ما اراده الملك وانا لااخالفه واما القلب فيملكه زيد ، اذ ليس للملوك سلطان على القوب .

وعادت من جديد الى ذرف الدموع ، كأن مالكا غير موجود ،فايقن الفتى بأنها ماضية في امرها كما ذكرت له ، وبـــات وهــولايخشىان تفضح قومها بين رجال اليهود ، ولم يرد ان يحادثها بشؤون الحــب ، فقد كان من العشـاق ،المطلعين على كابة النفوس ، وثورات الغرام ...

وترك خيمتها ليفسح لهــامجــال البكاء ، ولم يلبث حتى ارســل اليها جاريتها « نفتاريت » اليونانية الاصل ، لتكون الى جانبها في ذلــك الليل .. اما هي فلم تره عندما خرج ، لان خيال الحبيب ، كان مــلء ذهنها ، وعينيها ، وقد حجب عنها جميع الناس ...



٢٦

اقبل على قصر هيرودس ، عند فجر احد الايام ، اثنان من حرس ولي العهد ، يحملان الى سيد القصر خبر وصول زوجته ،

وكان رئيس الربع قد اعد كل شيء ، واراد ان يحتفل القوم بزواجه احتفالا لم تشهد مثله فلسطين ، فقال للرجلين :

— اين هو الموكب الان ؟

— في اول المدينة يا مولانا

قال : ارجعا وقولا لولي العهد اننا ننتظر وصوله ، ثم امر فخرجت نساء الجليل الى الساحة بايديهن الازاهير ، ووقفن صفين متقابلين ، بينهن سيدتا حسان اليهود ، هيرودية ، زوجة فيلبوس والي ائجيدور والجا ، وشقيق هيرودس ، والبيد ابنة اخيه اسكندر الذى قتله ابوه ، هيرودس الكبير ،

وتقدمت ذينك الصفين ، طائفة من الرجال تحمل المزامير ، وامامها طائفة اخرى تحمل اغصان النخل الخضراء ...

وقام هيرودس مع الكهنة ، وراء جماعات النساء ، وقد لبس ولبسوا الحلل الارجوانية الزاهية تتلألأ عليها خيوط الفضة والذهب .

وكان والي فلسطين ، قد رجع من السامرة ، فدعاه هيرودس الى القصر ، فاقبل ، وجلس في القاعة الكبرى ، مع امين سره ، ليظهر لهيرودس ورجال العرب ، انه اعظم من ان يخرج للقاء موكب غير موكب مولاه القيصر .

ثم اطل الموكب في طرف الساحة ، وكان الناس قد احاطوا به من كل ناحية ، وهم يهتفون لهيرودس وحده ، دون ان يذكروا الملك العربي . فامتعض ولي العهد والنبلاء ، ولو وجهوا نظرهم الى فدرة ، لراوا عينيها تتقد فيهما نار البغض . وكانت قد نزلت من الهودج ومشت بين الجواري .. فنفخ القوم في مزاميرهم ، وبدات النساء ينثرن الازهار ، حتى وقعت العيون على العيون ، فعانق هيرودس ولى العهد ، وصافح امراءه ، ثم تقدم عظيم الكهان وفعل كما فعل رئيس الربع ، وكانت

الساحة قد غصت بطوائف اليهود حتى لم يبق فيها موضع لقــدم.

واقبلت النساء يرسلن نظراتهن الى العروس ، ثم تهامسن ، يقول بعضهن لبعض الاخر : لقد عرف هيرودس ان يختار زوجته :

الا هيرودية زوجة فيلبوس فقد كانت تنظر اليها باستخفـاف وازدرا ...

ودخل القوم الهيكل القائم بجانب القصر ، ليتم الكهـان الواجـب الذي يمنيه عليهم مذهبهم اليهودي ، ثم خرجوا وفدرة تستند الى ذراع زوجها والبهجة تتلألأ على وجهها والابتسامة تغمر ثغرها الذي يفيـض سحرا وعذوبة . فخيل الى الناس ، ان هذه الاميرة الفاتنة ، بدات تشعر وهي بعيدة عن اهلها ، بصفو العيش ، والسعادة والهناء ... بل خيـل الى ولي العهد ومن معه ، انها نسيت العرب وبلاد العرب عندما بـارك زواجها كاهن الجليل ...

انها قوة جبارة ، يعترف بها لفدرة ، اصحاب الارادات الحديدية ، وتنحني لها قوى الرجال .

لقد ظن الناس انها تعشق هيرودس ، ولو ذلك العشق المبـرح ، لما كانت تلك البهجة وذلك الابتسـام ...

وهذا معناه ، ان الاميرة كانت تعلم انها ملكة ، في كل زمان ومكـان ، وكان هيرودس قد اخبر ولي العهد ان نائب القصر ينتظرهم في قاعـة الجلوس ، ولم يشأ ان يقف بالباب ، مع المستقبلين ،

فقال ولي العهد : ليفعل هذا الروماني ما يشاء فليس لنا شـأن معه ... ولكن اتعلم لماذا لم يهتف القوم لملك العرب ؟

وكان هيرودس هو الذي منع قومه من ذلك الهتاف ، ارضاء للرومان كما منعهم من الهتاف لقيصر ارضاء للانباط ..

فقال : لقد صدر امر الوالي بان يهتف الناس لهيرودس وللقيصـر دون ان يذكروا في هتافهم اريتاس ..! ولكني نهيتهم عن ذلك وامرتهم بان يجعلوا هذا الهتاف لهيرودس وحده ...

ـ وما هي غاية الرجل ؟

ـ لقد اوحت اليه الكبرياء بان يقول للعرب ، ليس لملككم في بـلاد

اليهودية صوت وذكر .. ان البلاد للرومان وستبقى لهم الى الابد ..
تلك هي غايته ايها الامير .. الم تركيف دعته هذه الكبرياء نفسهاالى
البقاء في القصر الان ليكره الناس جميعهم على ان يمثلوا بين يديه
ويحنو له !

وكان الملك قد امر ولده مالكا بان يستشير عياشا في كل امر ،
قبل ان يمضي فيه، فخفض صوته قائلا له :

ان نائب القيصر في القصر الان ، وهو امر القوم بالا يهتفوا لابي ..
فهل ترى ان نصافحه عندما نراه ؟

فاطرق عياش مليا ثم رفع راسه قائلا :

من قال لك ذلك يا مولاي ؟

ــ هيرودس !

فجعل الرجل يقول : هيرودس ..! هيرودس ! ثم بدت على ثغره
ابتسامة الشك فيما يقوله امير الجليل ..

فقال ولي العهد : ماذا رايت ؟

ــ رايت ان نصافحه يا مولاي كما نصافح سواه .

ــ ولكنه اهان الملك ..

قال : اخشى ان يكون بريئا مما نسب اليه !

ــ ومن يكون المذنب ؟

ــ هيرودس نفسه فهو صاحب الدهاء والحيلة على ما ظهر لي ..

ــ وما الذي يدلك على ذلك؟

ــ يدلني عليه ان نائب القيصر لا يعبا بمثل هذه المظاهر التي
لا تعنيه ومع ذلك فلنفترض انه هو الذي فعل هذا افتريد ان تسعر نار
الحرب بيننا وبينه، في مثل هذه الساعة ؟

ــ بل اريد ان اهينه كما اهان ابي وافضحه وافضح هيرودس اذا
كان هو الفاعل .. ان العربي لا يهان مليكه وهو ساكت .

وارتفع صوت ولي العهد حتى خيل الى عياش ان القوم سمعوه
فقال له هامسا : اخفض صوتك فقد وصلنا الى القصر ، ان الاهانة التي
توجهها الان الى الوالي ، هي الحرب ، ثم قال :

اتهتف يا مولاي لقيصر ام لهيرودس وانت في بترا ؟

قال : لا

ـ وهل يعدها الرومان واليهود اهانة لهم ؟

فتردد في الجواب ..

قال : لا تتردد يا مولاي فسترى الوالي بعد لحظة .

قال : افعل ما بدا لك وصافح من تشاء .

ـ بل تفعل انت ، فانت ولي العهد ورئيس القوم وستكون البادىء .

ـ اذن تريد ان نغض الطرف عما رأيناه ..

ـ اجل وسنعود الى النظر فيه يوم نغادر الجليل .

وكان هيرودس قد دنا منهما في تلك الساعة وهو يقول :

ادخل ايها الامير فقد وصلنا .

ووقف مع كهانه عند الباب احتراما لابن الملك . فدخـــل مالك ، وحاجبه معه ، ثم تبعه العروسان والكهان والقواد والجماعات الكثيـــرة التي ملأت اروقة القصر .

وكان بيلاطوس ، واقفا في القاعة ، وهو يحادث كاتبه ، وعينـــاه ترسلان شعاعا قاسيا من العظمة والكبرياء ...

فلما اقبل القوم ، حنى هيرودس له راسه ثم قال :

هذه زوجتي ايها الوالي وهذا اخوها ولي عهد الانباط .

فمد الرجل يده وصافح الاثنين ثم جلس في صدر القاعة كانه قيصر وجلس العروسان ومالك عن جانبيه وعمد الكهان والقوم الى مقاعدهم التي تعودوا ان يجلسوا فيها في كل اجتماع .

فقال ولي العهد لعياش وهو بالقرب منه : هذه هي الثانية يا ابا زيد .. ايكون هذا الروماني اعظم من ابناء الملوك ؟

قال : انه ضيف على هيرودس ونحن مثله .

ـ بل هو صاحب البلاد وملكها ونحن كلنا ضيوفه .. انظر انه لو كان في هذه القاعة عرش لتربع فيه ولم ينظر الينا الا كأننا اتباع له .

وقبل ان يجيبه عياش قال الوالي لهيرودس :

قيل لنا ان ملك العرب يرافق ابنته الى الجليل !

ـ لقد بعث ولي عهده وامراء جيشه كما رايت .
قال : يظهر انه لا يترك بلاده الا لامر .
والتفت الى ولي العهد قائلا : اليس كذلك ايها الامير ؟
فاجابه مالك وهو لا ينظر اليه : انه لا يتركها الا لحرب ..
قال : لقد اشتعلت نار الحرب بيننا وبينكم فيما مضى ، ثم خمدت ولكنها لم تلبث حتى عادت الى الاشتعال بينكم وبين هيرودس الكبيـــر اتعرف هـذا ؟
ـ اجل ، كما أني اعلم ان الرومان استغاثوا بالملك العربي فاغاثهـم على اليهود وقذف بالجليل الى لجة من الدم والنار ..
ـ ولكن الحرب قد انتهت ولـن يخرج أبوك من بلاده بعد الان .
ـ من يعلم فقد ينفخ غدا في بوق الحرب وتخرج الصفوف الـى الميـادين .
ـ ومن يفعل هذا ؟
ـ تفعلونه انتم ايها الوالي او يفعلها صهرنا الذي نحتفل بزواجه
ـ اما نحن فقد اتعبتنا الحروب وليس لنا طمع في بلاد العرب ، واما سيد الجليل فلااظن انه يحارب العرب ، وزوجته منهم .. وهب انـه اراد الحرب فروما لا تأذن له فيها ولا تكون عونا له !!
ـ اذن تكون عونا لنا ايها الوالي !!
ـ اذا عصى هيرودس امر قيصـر كنا كما تقول .
ـ بل تفعلون غير ذلك على ما ارى
ـ ماذا ؟

فضحك قائلا : تقفون عند الميدان لتشهدوا حرب العرب واليهود ، وانتم تسألون الالهة ان تفني الفريقين وتقضي على الامتين ..
فراى بيلاطوس فتى جريئا ، وسمع لسانا فصيـــحا ، فاحـب أن يتمادى في القول ، ليسبر غور الامير الفتى ، وغور قواده ، فقال :
وماذا يحدث بعد ذلك ؟
ـ يحدث ان هذا الجيش يظفر بالجيش الاخر فتخرج روما عـن حيادها وتعمد الى السيف تشهره في وجه الظافر ، لتخفض صوته الذي

رددته ساحات القتال ، ورأسه الذي ارتفع الى العلاء ..

ـ اي انها تقف الى جانب الضعيف .

ـ أجل ، الى جانب الضعيف حتى يستقوي .. ثم تحول وجهها عنه لتنتقل الى الجانب الاخر ، وتعيد تمثيل الدور الذي لا يتغير !

قال : اريد الان ، وانا نائب القيصر ، ان اقترح اقتراحا ..

ـ هات يا نائب القيصر ،

قالها وهو يضحك ضحك الاستخفاف .

فقال الرجل : هب ان روما ارادت ان تمد يدها الى العرب وتجعل ملكها من انصارها في هذا الشرق ، فماذا تقولون ؟

قال : هذا سؤال يجاوب عنه كبير القواد ، قل يا عياش ..

قال : ذلك من شأن الملك وحده يا مولاي ، اما انا فاذا قلت كلمة فانما اقولها من عند نفسي وارجو أن يعدها الوالي رأيا لي .

فقال الوالي : يطيب لي ان اسمع هذا الراي ، فقل .

فأجابه ، وهو يهزأ به ويتكلف الرصانة والهدوء :

ليس احب الينا نحن العرب من ان نكون انصارا للرومان ، ويكونوا انصارا لنا ، في الخير والشر ، ولكن كيف تبلغ هذه الغاية ايها الوالي ؟

ـ تعاهدوننا على الوفاء والمضي في كل أمر نامركم به !

ـ وانتم ؟

ـ ونضمن لكم نحن بقاء بلاد الانباط لاصحابها ما بقيت روما في الشرق .

ـ ولكنها ستبقى لنا ما دامت السيوف في الايدي فلا حاجة لنا الى هذا الضمان ..

ـ واذا خطر لنا ان نسعر النار ؟

ـ لقد سعرتموها من قبل ايها الوالي وانتهى الامر بتراجع قوادكم عن الاسوار بعد ان خسرتم الكثير من الرجال ، ومع ذلك فخير للرومان ان يكونوا حلفاء كما قلت فليس وراء الحرب غير الضعف .

فنظر الى هيرودس نظرة طويلة كانه يقول له :

يريدون ان يحالفونا كما حالفوك .

وفهم عياش معنى تلك النظرة ، وايقن بان هيرودس ، خبر نائب القيصر ، جميع ما جرى بينه وبين الحارث .. ولكنه تجاهل الامر ، وتظاهر بالاصغاء .

ثم قال الوالي : اذن نحالفكم يا عياش على هؤلاء ..

واشار الى عظماء اليهود!

قال : انه كلام لا اريد ان اسمعه ..

ـ لماذا ؟

ـ لان فيه استخفافا بي ..

ـ واين هو هذا الا ستخفاف ؟

ـ تقول انكم ستحالفوننا على اليهود ، واليهود لكم كما نرى وترون ! وهم في ارضهم وارض ابائهم عمال لكم ، وانتم غرباء !! قل لي يا نائب القيصر اتحالفنا على هؤلاء لترفع علم قومك على فلسطين ، وقد رفعتموه ، ام لتعود اليكم خيرات هذه الاقاليم وهي بين ايديكم تبذلون منها ما تشاؤون وتاخذون ما تشاؤون ..

ـ بل نحالفكم على امل أن نبلغ غاية اخرى لا اذكرها لك الان !

ـ لم يبق هنالك الا ان تمحوا الشعب اليهودي من الوجود !

ـ قد يكون ذلك ..

ـ وماذا تفعل روما في البلد الذي تمحو اهله ؟

ـ تنقل الى ذلك البلد شعبا اخر تضيق به بلاده !!

ـ ولكن بلاد العرب واسعة ولا تضيق باصحابها ..

فابتسم قائلا : ليأذن لنا رئيس الربع ان نسال الاميرة عن هذا ..

فقالت فدرة وهي تتكلف الابتسام : لقد خلقت السياسة والحرب لكم ، انتم معاشر الرجال .

ـ والنساء ؟

ـ اما نحن فقد خلق لنا الغنج الدلال ..

نظرت اليها هيرودية ، زوجة فيلبوس ، والي الجيدور ، نظرة هي السنة نار ، وجعلت تقول لالبيد ، الجالسة بالقرب منها :

لا اظن ان هيرودس سيطيق ان تمسي هذه العربية التكبرة، اميرة

الجليل .

فاجابتها قائلة : بل سيكون عبدا لها ولو لم يكن اثرها على جميع بنات عمه ، وحسان اليهود لما اختارها زوجة له .

قالت : سترين انها ستكون اذل من الجواري وان هيرودس سينظر اليها بعد حين ، نظره الى الاماء اللواتي يرسلهن اليه اصدقاؤه من اغنياء مصر .

ـ ولكن لا تنسي انها ابنة ملك العرب .

ـ لتكن ابنة قيصر ، فهيرودس لا يبالي بالملوك ولا يعبأ الا بلذته وهواه ..

ثم قالت لبيلاطوس وهي تبتسم له :

اتجعلون حديث اليوم يا مولانا الوالي ، حديث مخالفات وحرب ؟

فقال لهيرودس : من هي هذه المراة الحسناء ؟

ـ زوجة اخي فيلبوس .

فقال لها : فعلنا ذلك لنمازح اهل الاميرة .. اما الان فاملي علينا الحديث الذي تريدين ..

وجعل يحدق اليها والى البيد ليتبين احسنهما وجها ..

فقالت : الم تر يا مولانا ان رئيس الربع احسن اختيار زوجته ؟

فعرف اللعين ان الغيرة تدب في صدر هذه المراة فقال :

بل ارى انه ليس في اليهودية كلها من يختار مثلما اختار ..

فكادت هيرودية تسقط على الارض ..

ان جواب الروماني كان جافا وليس فيه شيء من ادب المجاملة كما رايت ، ولكنه استدرك قائلا : يظهر ان ال هيرودس الكبير يحسنون جميعهم اختيار الزوجات .. السـت يا سيدتي زوجة فيلبوس والي الجيدور ؟

ـ بلى

ـ اذن فوالي الجيدور واخوه والي الجليل لم يبقيا لاحد شيئا من الجمال ..

ـ اما هيرودس فنعم .. واما فيلبوس فلم يأخذ شيئا مما ذكرت .

ـ بل اخذ النصف وترك لاخيه النصف الاخر ..

والتفت الى الاميرة وقال : اليس في بترا فتاة ترضى بان تزف الى رجل من الرومان ؟

فاجابته بكبر : سل هؤلاء القواد فهم اعرف مني باحوال العرب ..

فقالت هيرودية : يريد الوالي ان يختار له فتاة مثل الاميرة ..

ففاجأها عياش بقوله : ولكنه لا يجد .

ـ اذن يلجأ الى فلسطين فقد يجد فيها فتاته ..

ـ واذن فالوالي يسأل عن جمال الوجوه .

فخاف هيرودس ان ينتهي الحديث بالقوم الى ما لا يحب ، فقال : انفخوا في المزامير فاليوم عرس !

واومأ الى رجاله بان تتهيأ الناس للرقص ، ففعلوا ما امرهم به ، ثم ساد السكوت القاعة ، واقبلت الراقصات يتهادين أزواجا ثم يتراجعن الى الوراء وهيرودس يختار منهن للرقص من يشاء ...

ولم يكن في ذلك الزمن ، أبرع من نساء اليهود في الرقص ، وكان الرقص شائعا في القصور، كما مر ، ونسا الاشراف والعامة ، يشتركن فيه ، حتى ان نساء هيرودس الكبير ، في ايام عزه، كن يرقصن في مجالس الانس ، فبدات الاجساد تتلوى على الانغام ، وجعلت الصدور تهتز ، والقلوب تخفق ، والعيون ترسل اشعة الحب .. حتى جاء دور البيد ، فرقصت ففتنت ، ثم برزت هيرودية الى الساحة ، هيرودية الساحرة .. هيرودية الجميلة التي يفضح حسنها الحسن نفسه .. فاستهوت النفوس ، وجذبت شعور القوم وبدت العواطف والاعجاب على الوجوه ، حتى ان ولي العهد ، الذي لم يكن يمثل امام عينيه ، غير خيال شقيلة بنت عياش كاد سحر هيرودية ، وترنحها ودلالها ينسيه غرامه !!

انها كانت فتنة الجليل ، والجيدور والجولان ، بل كانت فتنة فلسطين !

اما هيرودس ، فكان في تلك الساعة سابحا في فضاء رحب من الاحلام ومستسلما الى شعور جديد عذب ، لم يكن له عهد به من قبل كان يفكر في هيرودية التي كانت تغزو برقصها قلوب القوم ، وينظر

اليها نظرة العاشق برح به هواه !

ومن هي هيرودية الفاتنة ؟ هي ابنة اخيه ارسطوبولس الذي قتله ابوه ، وزوجة اخيه فيلبوس ، كما قرات !!!

ان هيرودية من لحمه ودمه !!!

ومع ذلك فقد فتن بها ، وهو في حفلة عرسه ، ولولا ذلك العرس ، لجثا عند قدميها ، مؤمنا بجمالها الجذاب ، وكافرا بكل جمال سواه .

وكانت فدرة ترى عيني زوجها الملتهبتين .. وهي تكاد تلمس عاطفته الثائرة ، البادية خلال النظرات ..

ولكنها لم تقل كلمة ولم ينم عليها مظهر من مظاهر الاضطراب التي احست به ..

وقد خيل اليها ، ان بين هيرودس وهيرودية حب قديم العهد ، بدليل تلك الجراة ، وذلك الدلال ، التي كانت تظهرهما المراة الحسناء ، غير انها كانت مخطئة في ذلك ، فتلك الصلة لم يكن لها وجود ، وهيرودية لم تكن تجيء الى الجليل ، غير مرة او اثنتين في العام .

ولو كانت نبية ، لعرفت ان مظاهر الاغواء التي اتخذتها هيرودية سلاحا لها ، في ذلك الحين ، لم تكن موجهة الا الى هيرودس تريد ان تصيده بها ، وتجعله من عباد جمالها الاوفياء ..

وظلت هيرودية ترقص ، والانغام تملأ النفوس اعجابا وبهجة ، حتى خارت قواها ، فارتمت على مقعدها ، بين ذراعي ابنة عمها آلبيد .

وقام الواليان ، الروماني واليهودي ، يهنئانها بخلابة ذلك الرقص ، ويحرقان على قدميها البخور ، وهي مغمضة العينين لا تفتحهما الا لتبعث السحر .

وكان قواد العرب ، قد ارتاحوا الى ذلك المشهد الخلاب ، فاستعادوه وتلوت خصور حسان اليهود ، مرة ثانية ، في تلك القاعة الفسيحة الارجاء .. وشفتا فدرة تبتسمان ، واما قلبها فكان يقطر دما ..



٢٧

كان بيلاطوس بخيلا جدا ، وطماعا مجبا للمال .
الذهب يسعى اليه ، على ايدي الفقراء والاغنياء ، والضعفاء والاقوياء
كان نصيرا لكل رجل يتقلب في احضان النعمة ، وعدوا لكل بائس لا يملك شيئا من الذهب .والرجل متكبر وكثير الغرور ، ينظر الى اليهود ، عامتهم وخاصتهم ، كما ينظر السيد الجبار الى عبيده الاذلاء . وهو ظالم عباث ، لا تجد الرحمة الى قلبه سبيلا ، ولم يعرف في حياته كلها ما هو الرفق ، يقتل الناس بالنار ، ويذبحهم بالخنجر ، ويصلبهم بالعشرات ، والشفاعات لا تصل اليه ولا تسمعها اذناه ،
كأنه قطعة من الحجر الاصم ، ليس له عاطفة وليس له قلب .
وقد استطاع اليهود ، في العام الذي مر على وجوده في اليهودية ، ان يختبروا جنونه ، وخلقه الغريب الشاذ ، لاجل ذلك لم يكن احد من الكهنة والزعماء ، والرؤساء ، يحب بيلاطوس ، واذا اظهروا له الحب ، فلكي يستخفوا به في سرهم ويهزأوا به .
وقراء الليالي ، المسيحيون منهم بنوع خاص ، يعرفون من انجيلهم ، ومن التاريخ ان هذا الرجل هو الذي سلم المسيح الى اليهود ليصلبوه ..
كما انهم يعرفون ، ان هيرودس ، صهر الملك العربي ، هو الذي هزأ بالمسيح عند موته ، والبسه ثوبا من القرمز . وكان بيلاطوس يستهين بالدين اليهودي ، ويعبث بتقليد اليهود ، وكثيرا ما كان يحاول ان يغير هذا التقليد ، فيتصدى له الراي العام ، فيقسو ، ثم يتمادى في قساوته ، ويسفح دماء الابرياء ، ثم يتراجع اخيرا الى الوراء . وقد لا يرجع الا اذا تناول لقاء رجوعه ، شيئا من المال . حتى هم اليهود ، في كل بلد ، بان يخرجوا عن طاعته ، ويسالوا القيصر ان يتحفهم بروماني غيره ، يعترف بوجود القوم ، وحتى هاجمت السامرة ، واهل الجليل ، وعمدوا الى السيف ، ولولا هيرودس ، ودهاؤه ، لاندلعت السنة اللهيب ، في كل الاقاليم . ذلك هو الوالي الروماني ، في نظر اليهود ..
فلما انصرف من قصر هيرودس في ذلك اليوم ، وانصرف وراءه

القوم ؛ طلب رئيس الربع الى الكهنة ان يتبعوه الى القاعة الخاصة التي تجالس فيها رجال المشورة والراي ، وترك فدرة مع اخيها وقواد ابيها في قاعة الجلوس قائلا لهم : ارجو ان تثقوا ؛ بانكم الان في قصر هو ملك لملك العرب . وكانت هيرودية والبيد ، تخطران في اروقة القصر كانهما صاحبتا الامر والسلطان فيه ؛ وكانت ابتسامة هيرودية لهيرودس، ابتسامة غنج واغواء . .

٢٨

لم يبق لنا ايها الكهنة ، الا ان ننظر ؛ من جديد ، في امر هذا الروماني السفاح ، الذي يستحل الاموال والدماء.

فاجابه كبيرهم قائلا : لقد اردنا ان ننظر في هذا الامر منذ بضعة اشهر ؛فمنعتنا منه ، وارجعت سيوف القوم الى الاغماد .

فقال هيرودس : لم اكن نصيرا لثورة لا تسندها الحكمة والقوة .

— واليوم ؟

— اما اليوم ؛ فنحن نطلب الاثنتين ؛ وقد دعوتكم الساعة لتقولوا لي في اي موضع نجدهما . . .

قال : نجد الحكمة في هذا القصر ايها الامير . .

— واين تجدون القوة ؟ فتردد الكاهن في الجواب

فقال : انكم لا تجدونها في فلسطين اليس كذلك؟

قال : لا تستطيع فلسطين ان تثبت في وجه الرومان .

— اذن نرسل نظرنا الى بلاد اخرى نستطيع ان نفعل معها ، ما نشاء

— وهذه البلاد هي بلاد العرب على ما اظن ؟

قال : ان ملكها يطمع في اليهودية فاحذروه .

— والى اين نذهب ؟

— الى ملك البرتيين فهو لا يطمع الا في المال . .

— ولكنك تجعل العرب اعداء لك ، ثم تستغيث بهم روما علينا وتعطيهم من بلادنا ، ما يطمعون فيه . .

— بل اجعلهم انصارا لليهود وقد تم لي ذلك !

قال : لم افهم شيئا مما تقول ؟..

قال : لقد عاهدت اريتاس على الرومانيين وانتهى الامر !

ـ واي شأن بقي لك مع الملك الاخر ؟

ـ بقي ان اعاهد هذا الاخر على العرب !!!

ـ اي انك تريد ان تنجو من الرومان ، بسيف اريتاس ، ثم تنجو من اريتاس نفسه ، بسيف ارتبان !

ـ ذلك ما اردته ، فما هو رأيك ؟

قال : اخشى ان يفضح القدر سرك فتخسر كل شيء.

ـ بل يخدمني هذا القدر وقد بدأ ان يفعل ، اليست قدرة سلاحا لي القي به هجوم الجيش العربي؟

قال : عندما يهجم هذا الجيش يسقط ذلك السلاح من يدك ..

ـ ولكني سأتعلم كيف احتفظ به ، وامنع هجوم القوم . ثم قص عليهم خبر المعاهدة قائلا لهم : وبيلاطوس الوالي يعلم من امرها ما تعلمون ...

فصاحوا قائلين : لقد هلكنا اذن .

ـ بل يهلك عدوكم قبل ان تسقط شعرة من هذه الرؤوس . وجعل يحدثهم عما جرى بينه وبين الرجل ، فايقنوا عندئذ بان النصر سيكون لهم ، واستسلموا الى رئيس الربع وهم يقولون : ان امرنا بين يديك فافعل ما يطيب لك.

قال : ولكن ينقصنا السلاح فملك البرتيين لم يسألنا الا ان نعده له.

ـ وهل لا يملك هذا الملك من السلاح ما يحارب به الرومان ؟

ـ بلى ، ولكنه يجود بدماء جنوده ولا يجود بسلاحه ، وقد طلب الينا ايضا ان ننفق على الحرب !! والان قولوا لي، الا نستطيع ان نجمع سلاحا يكفي لسبعين الفا من الرجال ؟

ـ قد نستطيع ذلك في بضعة اعوام اذا غفل الرومانيون .

قال : سنتدبر هذا الامر دون ان يشعروا به .

ـ والمال ؟

ـ اما المال فسيكون لنا منه بعد بضعة اعوام ما نحتاج اليه . ففكر

كبير الكهنة في ذهب الهيكل فقال : ولكن ليس في اليهودية مال كما يعلم رئيس الربع الا اذا كان يريد ان يمد يده الى ذهب اليهود ! فلم يجسر هيرودس على الاعتراف بما يفكر فيه فقال : لم يخطر لي ان اسلب قومي ما يملكون من المال ، ولكن لي في مصر اصدقاء يتمرغون في الذهب وسيجودون علي به .

ـ عليك انت ؟

ـ اجل

ـ بل يطلب هذا المال مجلس اليهود ثم يقوم بدفعه بعد حين .

فهامسهم قائلا : ان هيرودس الذي يريد ان يسترجع عرش ابيه، لا يطيق ان يبذل شعبه المال في سبيل هذا العرش !

ـ وهل عاهدت ملك البرتيين كما تقول ؟

ـ نعم وهو ينتظر ان نخبره كل شيء .

ـ وماذا تقول له الان ؟

ـ اقول له اننا سنعمد الى السلاح نجمعه من كل قطر حتى نملأ منازل الجليل ، ثم نعد عدة الحرب وندعوه ..

ـ ومتى عاهدت الرجل ؟

ـ في الشتاء الذى مر ولم اشأ ان اذكر ذلك لاحد .

قال : اتظن ان في هذه البلاد سلاحا نشتريه ؟

ـ لم يبق لليهود سلاح كما تعلم ، ولكننا نلجأ الى الجيدور والجولان ففيهما الكثير منه ، ونبعث رسلنا الامناء الى مصر يملأون لنا منها سفينتين كاملتين .

قال : احذر ايها الامير فالبحر فضاح الاسرار ..

ـ بل هو الطريق الرحب الامين الذي لا تصل اليه العيون .

ـ ولكن سفن الرومان تروح وتجيء فيه ، في النهار والليل وهي لا تأذن لسفينة غريبة ان تخوض عبابه .

قال : سأحاول ان اشتري بعض الرجال الذين ينتمون الىالرومان .

ـ وهذا معناه سيستولون على سلاحك ويدفعونه الى بيلاطوس .

ـ اذن فانت ترى ان نجعل البر طريقا لنا .

ـ اجل ، حتى اذا وقعت العيون على رجالك لجأوا الى الصحراء .
ـ وهل ترى ان تخاطب بالامر اخاك فيلبوس ؟
ـ اما الان فلا اخاطب احدا الا انتم فاكتموا السر ، واقسموا لي
انكم ستكتمونه جميع الناس . فاقسم كبير الكهنة بالة ابراهيم واسحق
انه لا يبوح بما سمع ، وردد الكهنة ذلك القسم ، والاخلاص على الوجوه .
ثم خرجوا ،وهم يتهامسون قائلين : اذا تم ما يفكر فيه رئيس الربع ، عاد
عرش اليهود ، الى الوجود . .
وكانت هيرودية والبيد تتمشيان في الرواق الذي خرجوا اليه .

٢٩

احست فدرة انها بين قوم لا يعرفون لها قدرا ، ولا يحترمون لها
مقاما . بل احست انها غريبة ، وبدات تشعر بما يشعر به الغريب ، من
وحشة وغصة في القلب ، ثم رات انها لا تستطيع ان تحتفظ بصبرها ،
في تلك الساعة ، فاختارت لها مقعدا في احدى زوايا القاعة ، ودعت
اخاها قائلة له : كنت اظن يا اخي اني ساغلب عاطفتي ، واظهر بمظهر
المرأة ، التي لا تعبأ الا بشرفها ، وشرف البيت الذي تنتمي اليه .
ـ والان ؟
ـ اما الان فأنا اشعر ان قلبي يكاد يتمزق، وان النار تتقد في الاحشاء .
ـ لماذا ؟
ـ لان هذه المرأة التي يدعونها هيرودية ستنغص علي العيش !
ـ واي شأن لها في قصر هيرودس ؟
ـ لا اعلم ما هو شأنها فيه ولكني واثقة بانها ستكون صاحبة
الراي الاول والكلمة النافذة . .!
قال : لقد نسيت يا فدرة انها زوجة فيلبوس شقيق الامير . .
ـ وهذا لا يمنعها من ان تكون سيدة القصر !
ـ ولكنها ستعود الى الجيدور بعد بضعة ايام فزوجها لا يطيق ان
يقيم هو بمقر امارته ، وتقيم هي بالجليل .
ـ لو كان هذا صحيحا لما ارسلها وحدها لتشهد زواج اخيه . . انه

لا يعبأ بها على ما يظهر ولا يعبأ بهيرودس . . .

ــ وما الذى يدلك على هذا ؟

ــ يدلني عليه ان فيلبوس لم يبال بهذا الزواج ولم يشاأن يترك الجيدور ليهنيء اخاه .

قال : قد يكون له عذر في ذلك . .

ــ بل قد يكون هنالك سبب اخر لا اعلم ما هو .

فاطرق قليلا ثم قال : اتريدين يا فدرة ان تعلمي الان ما تشكين فيه؟

ــ ومن اين لك ان تعلم هذا وانت غريب مثلي في هذا القصر ؟

ــ ادعو سمعان فاساله عن كل شيء.

ــ اذن تريد ان تلفت الي نظر القوم !

ــ بل اريد ان اظهر له اني اكاد امسي من العشاق . .

ــ ولكن سمعان يعلم كما يعلم هيرودس ،انك تحب شقيلة بنت عياش وانها ستصبح ولية للعهد . . . الم يقل لنا الملك انه اخبر هيرودس حكاية غرامك . .

ــ بلى ، غير ان الاثنين سيظنان اني وقعت منذ ساعة في شرك الفتاة التى يدعونها البيد . . . فسكتت فدرة وقد اعجبها الراي ، اما هو فنادى احد الحجاب وقال له : اين سمعان ناظر مخدع الامير ؟

ــ في الرواق ينتظر خروج مولانا مع الكهنة .

ــ قل له ان مالكا ولي العهد ، بحاجة اليك . ففعل الحاجب ما امره به ، واقبل الرجل . وكان الاخوان يبتسمان ابتسامة الفرح . . . . فقال مالك . اجلس يا سمعان فقد خطر لي ان اسالك سؤالا ولكن اتعدني بانك لا تذكر لاحد ما اسالك عنه ؟

فضحك اللعين قائلا : ان في هذا الصدر طائفة من الاسرار يا مولاي . ثم جلس ومد عنقه ليصغي الى ما يحدثه به ؛ فقال : رايت الان، بين النساء اللواتي اخرجن من هذه القاعة ، جمالا خلابا ارغب في ان اسالك عن صاحبته . .

ــ من هي صاحبته يا مولاي؟

ــ المراة التى رقصت قبل زوجة فيلبوس

ـ هي البيد ابنة الامير اسكندر شقيق مولاي..
ـ ابنة اخي هيرودس ؟
ـ نعم يا مولاي .
ـ ولكني لم ار اباها !
ـ وكيف تراه يا مولاي وقد قتله ابوه هيرودس الكبير يوم كانت البيد طفلة !
ـ ومن هو زوجها ؟
ـ لم تتزوج بعد . فالتفت الى فدرة كأنه يقول لها : لقد كنتمصيبا فيماظننت .
ثم قال : اليس لها اخوة يا سمعان ؟
ـ لا يا مولاي
ولماذا قتل هيرودس الكبير ولده اسكندر ؟
ـ لانه اراد مع اخيه ارسطوبولس ان يسلباه الملك .
ـ وبقي ارسطوبولس حيا ؟
ـ لا ، فقد قتل الوالد ولديه ، في ساعة واحدة ، وترك ارسطوبولس اغريبا ، وهيرودية ، التي ذكرتها الان .
ـ اذن والي الجيدور تزوج ابنة اخيه
ـنعم
ـ وكيف بقي في الجيدور والناس يحتفلون بزواج هيرودس ؟!
ـ لم يستطع ان يجيء يا مولاي لانه مريض ؟
ـلو كان مريضا كما تقول لما تركته هيرودية .
ـ ولكنه اذن لها في ذلك وهي لا تلبث حتى تعود .
ـ وتعود معها البيد الحسناء؟
ـ بل تبقى يا مولاي ، والمنزل الذي يجاور هذا القصر هو الـذى تقيم به مع جواريها الحسان اللواتي يشبهنها في الجمال .
فاشرق جبينه قائلا : لم يبق لي ما اسألك عنه فانصرف اذا شئت .
ـ اما انا فقد بقي لي سؤال يا مولاي.
قال : لقد عرفت هذا السؤال فاذهب الان ...

ـ ولكني اطلب الى مولاتي الاميرة ان تاذن لي فيه .
قالت : اذنت لك فافعل .
قال : الا يريد مولاي الامير ان يذكر لي معنى سؤاله عن البيد ؟
فاجابه ولي العهد قائلا : رايت فتاة حسناء فخطر لي ان اعرف عنها ما تعرفه انت ايها اللعين ...
ـ وليس هنالك غرض اخر ؟
قال : امرتك بالانصراف فلا تتردد ...
قال : اريد ان امهد لمولاي ولي العهد اسباب الوصول الى غرضه..

ـ ولكن ليس لي غرض كما ظننت .
ـ وهذه الدلائل التى تبدو على وجهك يا مولاي
ـ انها دلائل الاعجاب فلا تزد ..
ـ ومع ذلك فقد ينقلب هذا الاعجاب الى شيء اخر يسمونه حبا..
قال : الم تعلم وانت في بترا ، ان ولي العهد سيتزوج فتاة من قومه.
ـ وهل يتزوج ولي العهد ، وهو الامير الجميل الشجاع ، فتاة واحدة ؟

ـ اجل ، وهذا ما افكر فيه .. انظر الى مولاك هيرودس اتراه يطمع بان يتزوج فتاة غير فدرة ؟
ـ من يعلم يا مولاي فقد يخطر له غدا ان يتزوج البيد نفسها فتخرج من يدك وقد لا تجد بين حسان اليهود اجمل من البيد ...
فتظاهر بالخوف وقال : اذا خطر لي ان انظر الى فتاة اخرى ، فانا لاافعل قبل ان استأذن الملك . ساعود بعد ايام الى بترا ثم انظر في الامر ... واكتب بعد ذلك الى فدرة ما يخطر لي.. قم الان .
فانصرف سمعان وهو يقول في نفسه : سانقل الى مولاي ما حدثني به ولي العهد وقد انقل ذلك الى البيد .. وجعل ولي العهديقول لاخته ، بعد انصرافه: اتخافين هيرودية وهي متزوجة ، والجيدور بعيدة عن الجليل ؟
قالت : لا اخافها ولكني اخشى ان تمسي حياتي في القصر حياة ذل
ـ ولكنها ستنصرف بعد ايام ، كما قال سمعان .

ـ ومع ذلك فقلبي يحدثني بان هيرودس سيكون اسيرها ...
قال : لقد بدأت تغارين على هيرودس وانت لا تحبينه !
ـ بل اغار على حرمة العرب واكره ان تنتهكها هذه المراة ، فتصبح فدرة التي هي ابنة اكرم بيت في هذه البلاد ، مضغة في الافواه .
قال : لا يجسر امير الجليل على اغضاب ابنة الملك .
ـ وماذا يخاف ؟
ـ يخاف ان يتغير الملك عليه ويحالف اعداءه ..
ـ اما انا فلا اؤمن بما فعله في بترا ولا اصدق كلمة مما قال ، واعتقد ان تلك المعاهدة التى كتبها بيده ، كانت احدى حيله .
قال : لقد اصبحت كثيرة الظنون يا فدرة .
قالت : لو كنت كما تقول لما امسيت ضحية المطامع .. انهض يا اخي فهذا ما كتبته لي الاقدار ولتفعل هذه الاقدار ما تشاء. وكان ولي العهد يردد كلامها في سره ، وهو يعلم انها مصيبة فيما تفكر فيه .... ومشت لتجالس قومها ، وتمتع نظرها بتلك الوجوه العربية التي ستحجبها التقادير عن عينيها بعد ايام . وكانت الكآبة في تلك الساعة ، تملأ قلبها، وقلب ولي العهد ..

٣٠

قبل ان يخرج هيرودس ، من تلك القاعة التى جالس فيها كهنة الجليل ، دخلت هيرودية من باب اخر ، وهي تبتسم له . ففاجأها بقوله: لقد كان رقصك اليوم فتنة للناس يا هيرودية ، وكادت البيد تجاريك في ذلك .. اين هي الان ؟
ـ انها في الرواق مع نساء الجليل ، وستجيء بعد ساعة .
قال : كيف رايت فدرة ؟
ـ رايتها جميلة ساحرة ولكنها ستبيع ابتساماتها بثمن غال على ما ارى ...
ـ وما معنى ما تقولين ؟
ـ معناه ان هذه العروس الحسناء لا تريد ان تنظر الى نساء اليهود

نظرة رضى ولعلها تعتقد انها اشرف نسبا منهن !

قال : يظهر انك غير راضية وقد يكون هنالك سبب اخر .

ـ واية فتاة تنتمي الى هيرودس وترضى بما رضيت الان ؟ فقام في ذهنه ان حادثا جرى بين الاثنتين فقال : وباي شيء رضيت الان ؟!

ـ اتسألني عن هذه وكنت حاضرا ؟ لقد رضيت بالذل في سبيل عمي امير الجليل ورضيت به جميع النساء اللواتي انسن في زوجتك العظمة والكبرياء . وتظاهرت بالغضب . ثم جعلت تذرف الدموع. فقال ذلك خجل يا هيرودية استولى على فدرة فبدا للناس كأنه عظمة واستخفاف لقد ظننت ان في الامر ذلا كما تقولين . .

فجلست بالقرب منه وهي تمسح دموعها وتقول : لقد جلست في القاعة ساعتين طويلتين وهي لا تنظر الي ولا تخاطبني بكلمة افلا يكون ذلك استخفافا يا مولاي ؟

ـ ولكنها لم تخاطب احدا فهي غريبة لا تعرف غير زوجها وابناء قومها ! فمدت اليه يدها قائلة : استودعك الله يا مولاي وليبارك الله زواجك . .

قال : الى اين ؟

ـ الى الجيدور فانا لا اطيق البقاء في هذا القصر ساعة واحدة .

قال : انك بهجة القصر يا هيرودية فلا تخرجي منه .

ـ بل انا فتاة تكاد تضيع في قصر سيد اليهود . وتردد في صدرها البكاء . فلمعت عيناه قائلا : اقسم لك انك ستكونين سيدة القصر الذي تذكرين . وخيل اليه في تلك الساعة ، ان زوجة فيلبوس حورية هبطت من السماء ، ونسي انها ابنة اخيه ، وزوجة اخيه !!

فقالت بدلال : وفدرة ؟

ـ حسب فدرة انها اميرة الجليل !

ـ وحسب هيرودية انها جارية لها .... لا يامولاي اني لا اطيق البقاء وسانصرف الساعة . فأجلسها وهو يقول : وماذا تصنعين في الجيدور ؟

ـ ماذا اصنع ؟ وفيلبوس فيها ؟ وهي مقر امارته ؟

ـ اجل ، ان سيدة مثل هيرودية لا تقيم بذلك المنفى يوما واحدا
ـ واين اقيم اذن ؟
ـ تقيمين بالجليل ، بل تمكثين بهذا القصر الى الابد ...
فقالت في نفسها : لقد سقط العم في الشرك ... ثم تكلفت الابتسام قائلة : اني ابنة امير وزوجة امير ولم اكن قط جارية لبنات العـــرب يـا مولاي ...!
ـلاتعودي الى مثل هذاالقول بعد الان فانا لا اريد ان اسمعه .
ـ ومع ذلك فانا مكرهة على الاعتقاد بما قلت .
ـ اما انا فآمرك بالبقاء فاطيعي . .
ـ ولماذا ابقى يا مولاي؟
ـ لاني اريد هذا ولا ارغب في ان تسود الوحشة بعد ذهابك ، هـذا القصـــر ..

قالت : اتقسم لي انك غير هازيء ؟ ..
ـ اقسم لك بتربة ابيك ارسطوبولس ...
ـ واذا امرتني فدرة بالخروج من قصرك ؟
ـ انها لا تستطيع ان تأمر بمثل هذا وانا حي
قالت : لقد رايتها تنظر الي بعينين تشبهان الذئب .
ـ وهذا معناه انها كانت تنظر اليك نظرات الاعجاب.
ـ بل هذا معناه ان نار البغض تتاجج في الصدر . فتظاهرهيرودس بان الهوى يكاد يبرح به ، فجعل يقول : الا يكفيك ان عمك نفسه يلتمس منك هذا الامر التماسا ؟

فلم تجد اللعينة بدا من الرضى ، فقالت : لا اعلم لماذا لا استطيـع ان ارد هذا الطلب ..
ـ اذن فقد رضيت بما سألتك اياه .
ـ اجل ولكني استأذنك في الذهاب اليوم على ان اعود في وقتاخر.
ـ اي انك لا تجسرين علىالبقاء الا اذا رضي فيلبوس !
ـ نعم وسانظر في امر مرضه فالالام تكاد تقضي عليه ... وبينما هما يتحادثان ، استاذن سمعان ودخل ، فقال له هيرودس : ما وراءك يـــا

سمعـــان ؟

قال : لا شيء يا مولاي ،

وهم بالرجوع ، فاستوقفه قائلا : ولكن عينيك تثبتان لي ان لـــك ما تقوله .. فاذكر ما قدمت لاجله ولا تخف .. فتردد قليلا ثم قـــال : لقد حدثني احدهم حديثا اردت ان انقله اليك . .

ـ اذكر اولا اسم الذي حدثك .

ـ ولي عهد العرب يا مولاي .

ـ وماذا يريد ولي العهد ؟

ـ سألني عن البيد ابنةاخيك !

ـ ثـم مـاذا ؟

ـ ثم طلب الي ان اذكر كل ما اعرفه عنها ففعلت . . .

ـ وما هي الغاية من سؤاله ؟

ـ الغاية منه ان الفتى يكاد يمسي عاشقا يا مولاي . .

ـ ولكنه عاشق وسيتزوج . . .

ـ اريد ان اقول ان البيد تكاد تسلبه العقل . .

ـ وانا اريد ان اقول انه يحب شقيلة بنت القائد عياش وستمسي بعد قليل ولية للعهد .

قال : حسبي اني نقلت اليك ما رايت وسمعت .

ـ وانت ، ماذا ترين ، فقالت هيرودية : قد يكون الفتى عاشقـــا كما قال سمعان . فابتسم قائلا : وهل يخلق العشق في ساعة ؟

ـ بل يخلق ويملأ القلوب في لحظة . .

ـاذن لم يبق الا ان نزف البيد الى الامير العربي . . .

ـ وترضى انت بان تصبح الفتاة العربية التي ذكرتها الان وليـــة للعهد وتكون البيـــد ابنة الملوك جارية لهـا في بلاط اريتاس ؟!

ـ وماذا نصنع ؟

ـ نستغل موقف الفتى وعشقه ونضرم في فؤاده الغرام ، وهو في الجليل ، فيؤثر البيد على الفتاة التى ذكرت ، ثم يتزوجها وينتهي الامر .

ـ وهل تظنين انه يتزوج وهو بعيد عن ابيه ؟

ـ اذا برح به الهوى نسي اباه ... قال لنفترض ان الامر انتهى كما تحبين ، فهل يخطر لك ان اريتاس يرضى بان يجعل اليد اليهودية وليـة لعهده ؟

ـ وكيف رضي هيرودس انتيباس بان تكون فدرة العربية اميرة قومه ؟ فسكت قليلا ثم قال : ساخاطب مالكا بالامر بعد غروب الشمس .. ثم عاد الى نفسه ، وقد استصعب المهمة ، وخاف ان يسيء رجال العرب ظنهم به فيتغير عليه اريتاس ، وتضيع المعاهدة فقال : بل يجب ان يخاطبه سمعان ...

قالت : اتخاف ؟

ـ اجل فسيظن الملك اذا فعلت اني لم اتزوج فدرة الا لغايةفي النفس.

ـ اذن دعني افعل انا ، ما تخشاه انت ..

ـ انـت ؟

ـ نعم ، فاذا رايت ان تجمعني به الليلة فافعل .

قال : احذري يا هيرودية فالامير الفتى ذو دهاء ...

ـ ولكني سأضيع دهاءه واجعله عبدا لالبيد .. فأحس هيرودس ان الغيرة تستيقظ في صدره ، فقال : خير لنا ان نبعث اليه سمعان فهو قد حدثه بالامر ويهون عليه ان يستعيد ذلك الحديث ..

قالت : ان سمعان اضعف من ان يبلغ الغاية . فاومأ الامير الى الرجل بان ينصرف ثم قال لها : اخشى ان يمحو حديث هيرودية ، ما علق في قلبه ، وقطب هيرودس حاجبيه وفضحته عيناه ... فابتسمت بدلال قائلة : اتغار وانت تحتفل بزواجك ؟ فكره ان يبوح بما احس فقال: وكيف لا اغار وانت زوجة اخي فيلبوس ؟

قالت: دع زوجة اخيك تفعل ما تشاء ولا تخف..!

ـ ولكني لا اطيق ان تحادثي الامير بشأ نهواه ..

ـ اما انا فيطيب لي ان ارى الولاة والامراء واهزا بهم .

قال : سامنعك من ذلك ، فايقنت عندئذ بان عمها اصبح من عشاقها وهذا ما ترغب فيه ، فقالت : بل تكون معي وسأحدثه وانت حاضر .

ـ ولكنه سيعلم اننا متفقان عليه . فوضعت لذلك الاجتماع منهاجا

اعجب هيرودس ، فسكت .. وهو ينظر اليها والحب يطل من عينيـــه الصغيرتين ... ثم اقبلت البيد ، فحدثاها بما جرى ، وسألاها انتتجاهل الامر .. فرقص قلب الفتاة الحسـناء ، وبدات تحلم بالعرش العربي!!.

٣١

لقد قرات الاضطراب على وجه الاميرة يا مولاي.. فقال ولي العهد: اجل يا ابا زيد فقد زفت على الرغم منها الى امير الجليل .

ـ ولكن الامر قد انتهى الان فخير ان تتظاهر بالابتسام .

قال : انها تخشى ان تمسي ذليلة في هذا القصر !

ـ لماذا يا مـــولاي ؟

ـ لانها رات هذه المراة التى يدعونها هيرودية ، تأمر وتنهي فيـــه كأنها صاحبته ،وسيدة اليهود ..

قال : هي زوجة فيلبوس ..

ـ نعم وهذا لا يمنعها من ان تستهوي قلب عمها الامير .. فاستغرب عياش قائلا : ابنة اخيه ؟ قال ابنة اخيه وهي فتانة المحاسن كما رايت ..

ـ ومع ذلك فستنصرف الى الجيدور ويصفو للاميرة الجو ..

ـ هذا ما قلته لقدرة ولكنها لم تشا ان تصغي الى ما قلت .

ـ ولماذا دعوت سمعان يا مولاي ؟

ـ دعوته لاسأله عن موعد رجوع هيرودية فتطيب نفس قـــدرة ، وكنت عندما سالته عن ذلك ، من العشاق ..

ـ اي انك اظهرت له انك تحبها ..

ـ بل اظهرت له اني احب الفتاة الاخرى التي يدعونها البيد .

ـ ولماذا فعلت هذا ؟

ـ لاني لم ارد ان افاجئه بالسؤال عن اميرة الجيدور .

ـ اذن سيكون لغرامك الكاذب شأن في هذا القصر .

قال : لقد اوصيت سمعان بالكتمان

ـ وهل يقوم في ذهنك يا مولاي ان هذا اليهودي يكتم مولاه مثـــل هذا الســـر ؟

وماذا يحدث اذا باح به ؟

ـ ينقله هيرودس الى الفتاة ثم تنقله هي بدورها الى حسان الجليل، ثم تتناقله الافواه وتردده الالسنة في الاسواق .

ـ وبعد ذلك

ـ يتضح لاهل الجليل انك هزات بهيرودس والبيد ... ثم قال : وماذا تفعل يا مولاي اذا اقبل صهرك بعد ساعة يحدثك بالامر ويطلب اليك ان تشرح له هواك ؟

ـ وهل تظن انه يفعل ذلك ؟

ـ اجل وقد يخاطبك بشأن غرامك الجديد قبل ان تغرب الشمس.

ـ اذن اقول له اني لست من العشاق كما ظن سمعان ..

ـ ولكن الامر لا ينتهي عند هذا الحد فهو سيظن انك لا تريد ان تبوح له بما في الصدر .

ـ ليظن ما يشاء فأنا لا شأن لي بظنونه .. فأراد عياش ان يغير الحديث . فدنا من فدرة قائلا : كيف رأيت الجليل يا مولاتي ؟

ـ كما رايته انت يا ابا زيد ...

قال : القصر قصر ملك يجر اذيال الترف والرفاه .. وهيرودس اريم جواد يحبه قومه ويؤثرونه على سواه .

ـ وهل رايت شيئا اخر ؟

ـ رايت انك ستعيشين هنا كما كنت تعيشين في بترا تكتنفك اسباب العظمة والعز وتحف بك مظاهر التكريم والاحترام . .

قالت : اخشى ان تحسدني بعد قليل ، على هذا العيش ..ولكنك لم تصف هؤلاء الحسان اللواتي يرقصن لهيرودس ، كل ليلة ...!

قال : لم اصفهن لاني ارى انهن سيهجرن القصر منذ اليوم ..

ـ ومن قال لك ذلك يا عياش ؟

ـ هذا ما يخيل الي يا مولاتي فقد انتهى دورهن في هذا القصر بعد زواج صاحبه .. وجعل ذلك القائد الوفي ، يزين لاميرته الحياة ، في الجليل لينتزع من نفسها تلك الكآبة البادية اثارها على الجبين ولكنها لم تؤمن بكل ما سمعت ، بل كانت تقول : لو اراد الملك ان ابقى في بترا لكان ذلك

خيرا لي وله .. دعني يا ابا زيد فقد امسى الجليل مقرا لي اعيش واموت فيه ، ولا ابالي صفا لي فيه الزمان او تجهم وجهه ..

قال : سيصفو يا مولاتي وسيظل صافيا .. فهزت رأسها قائلة : من يعلم فقد يبدأ اليوم بما اكره وتكرهون لي .

قال : لقد حدثني مولاي ولي العهد بما تفكرين فيه .. ان هيرودية يا مولاتي سترحل عن الجليل ، وستعلمين بعد ايام ان اليهود عبيد لك وان هيرودس لا ينظر باحترام وحب ، الا الى الاميرة العربية التي جعلها سيدة بلاده ، فخفضت صوتها وهي تقول : اتظن يا عياش اني اخشى ان اخسر حب الرجل وهو لا يشعر بهذا الحب ؟؟

— وماذا تخشين اذن ؟

— اخشى ان اخسر الكرامة وافقد الحرمة ، بل اخشى ان تذلني هذه المراة التي فتن راسها العقول .. اني لا افكر في الحب كما يخطر لك يا عياش ، ولكني افكر في امر اخر هو ان امسي غريبة في قصر هيرودس وانا ابنة الملك العربي الذي تنحني له رؤوس النبلاء ، في كل قطر .

— وهذا كله تخلقه هيرودية اليس كذلك ؟

— اجل هيرودية فهي المراة التي تستطيع ان تفعل في القلوب ماتشاء

— ولكنها ستذهب كما يقول سمعان ..

— وتعرف هذا ايضا يا ابا زيد ؟

نعم يا مولاتي فقد قلت لك ان ولي العهد خبرني كل شيء . وفعل عندئذ ما فعله مع مالك ، اي اراد ان ينتقل الى حديث اخر ، فقال: وهذا الغرام الذي احتمي به ولي العهد ؟

— اتعني سؤاله عن البيد ؟

— فحنى رأسه ولم يجب .

فابتسمت قائلة : انه غرام كاذب تلاشى بعد ذهاب سمعان ..

— ولكنه سيكون حديث اهل القصر ، قالت يتحدثون به اليوم ـثم ينسونه بعد ان ترجعوا الى بترا .. وبينا هما يتحادثان ، اقبل سمعان يقول لولي العهد : لمولاي كلمة يريد ان يقولها لك اتأذن له ؟ قال : اين هو؟

— في قاعة المشورة يامولاي لعرف عندئذ ان عياشا كان مصيبا في

ظنه ، فقال : تقدمني الى تلك القاعة يا سمعان ومشى وراءه وهو يبتسم حتى دخل على هيرودس فقال : ماذا يريد امير الجليل ؟؟

فظهرت ابتسامة هيرودس واجابه قائلا : خطر لي ان اسألك سؤالا فاستاذنتك في المجيء فهل تريد ان اسأل ؟

ـ سل ما تشاء . فاومأ الى خادمه بالانصراف ثم قال : عرفت الساعة الك دعوت سمعان الى قاعة الجلوس لتحدثه ببعض الشؤون .. فاجابه دون ان يتردد : وهل قص عليك اللعين ما سألته ان يكتمك اياه ؟

ـ ان سمعان لا يكتمني سرا من اسراره افتقول لي الان ماهو الغرض من سؤالك ؟

قال : ليس لي هنالك غرض اسعى الى الوصول اليه ..

ـ وماذا اذن ؟

ـ رايت فتاة هيفاء جذابة المحاسن فاردت ان اعرف من هي ..

ـ ثم عرفت انها ابنة اخي وروى لك سمعان قصة ابيها الذي قتل..

ـ لقد كان ذلك .

ـ والان ؟

ـ والان ماذا ؟

ـ الم يكن سؤالك سؤال عاشق ؟

قال : اتجهل ايها الامير اني سأتزوج ؟

ـ لا ولكني اعلم انك تستطيع ان تتزوج اكثر من واحدة .

ـ ومع ذلك فانا لم اذكر الزواج ، ولم يخطر لي الا ان اسأل سمعان سؤالا يسأله كل فتى غريب ..

ـ اذن ليس للغرام شأن فيما فعلت .

ـ لا فقد احسست ان الاعجاب كان يملي علي ذلك السؤال . فاطرق هيرودس وهو يتظاهر انه يفكر في الامر .. وقبل ان يرفع راسه ، دخل سمعان يستاذن لهيرودية . وكانت قد اتفقت مع عمها من قبل ، على ان تفاجىء الاثنين وهما يتحادثان .. فتردد رئيس الربع قليلا ثم قال : لتدخل ، فقد يكون لها ما تقوله لي، في هذه الساعة . فدخلت تلك الحسناء والفتنة في عينيها الصافيتين ، والجمال يبسط حولها ظله الرائع ...

ولكنها تراجعت عندما ابصرت مالكا .. كانها لا تريد ان تحدث عمها وهو حاضر ...

فقال هيرودس : ماذا تريدين يا هيرودية ؟ فهمت بالخروج وهي تقول : ساراك بعد قليل يا مولاي ..

قال : اذكري حاجتك فهي مقضية الان ، وهذا ولي عهد العرب ، اخو فدرة ، يأذن لك في الجلوس ... فتظاهرت اللعينة بالخجل ، ثم مشت بخطى متثاقلة حتى قاربت ولي العهد فانحنت له ، وارختنظرها الى الارض . فلم يستطع الفتى الا ان يمد يده اليها مصافحا .. فقالت لعمها : قد يكون بينك وبين مولاي الامير سر

ـ اجل سر ، ولكنك سمعت حكايته منذ ساعة ..

قالت : لم اسمع شيئا يا مولاي ..

ـ انسيت ما قصه علينا سمعان في هذه القاعة ؟ فوضعت يدهاعلى جبينها كانها تتذكر ما سمعت ثم قالت له : اتعني ذلك الحديث الذي رواه عن البيد ؟

ـ هو ذاك .. فنظرت بدلال الى ولي العهد وهي تقول : هنيئا لابنة العم فستصير ولية عهد اريتاس العظيم ... فاجابها مالك وهو يبتسم : ولكن ماذا قال سمعان ؟

ـ لقد اقسم لامير الجليل انك عاشق ، وان هذا العشق كان مطلا من عينيك ...

ـ ولكنه لم يكن امينا في ما رواه .. وجعل يعيد عليها حديثه والابتسامة لا تفارق شفتيه . فارتسمت دلائل الغضب على جبينها وقالت لهيرودس : ايجسر سمعان على ان يجعل ابنة اخيك حديثا لاهل القصر ؟!

قال : سينال جزاءه الليلة ..

ـ ولكن البيد ستموت من قهرها قبل ان ينال هذا الجزاء . فقال مالك : واي شأن لالبيد ايتها الاميرة ؟

ـ لقد رويت لها انا ما رواه لي سمعان ، فقام في ذهنها انها نالت حظوة في عينيك وانتهى الامر ..

ثم قالت : ارحم شبابها يا مولاي ..

قال : دليني على وسائل الرحمة ...
ـ اذا كنت لا تريد ان تجعلها زوجة لك فاجعلها جارية في قصرك ..
ـ اما الزواج فليس لي راي فيه الان .. واما ان اجعلها احـدى جواري القصر فهذا لا استطيعه لانني لا اريد ان انسى انها حفيـــدة هيرودس الكبير ملك اليهود ...
ـ ومع ذلك فهي راضية بهذا ..
ـ ولكن الملك لا يرضى وولي العهد لا يفعل شيئا مثل هذا الا اذا امره به ابـوه ...

قالت : عدنا يا مولاي انك ستشاور الملك في امر الزواج ...
لو كنت فكرت في الزواج لما ترددت في هذا الوعد ولكني وعـــدت يا سيدتي فتاة عربية غير البيد وسيد الجليل يعرف ذلك ..
قالت : انا لا اسالك ان تجعل ابنة عمي ولية للعهد .
قال : ليست ولاية العهد في يدي فهي للفتاة التي يريدها الملك ...
ثم راى ان ينجو من ذلك الدلال ، فقال : لنفترض يا سيدتي ان غـــرام البيد برح بي واني لا استطيع ان اعيش الا اذا زفت الي ، افيليق بي، وانا ولي عهد الانباط ، ان اتزوجها والملك لا يعلم ؟
ـ نحن لا نطلب ان تتزوج بل تكتفي بان تعد .
ـ اعد باني ساقص على الملك جميع ما جرى لي في هذا القصـــر وسامتثل لكل ما يامرني به .

ـ واذا رضي بالبيد زوجة لك فماذا تصنع ؟
ـ اكتب الى الامير فيبعثها الي كما بعثنا اليه بغدرة .
ـ وان لم يرض ؟
ـ لا اكتب شيئا ..
ـ اذن كتب لالبيد ان تشقى يا مولاي ..
ـ لماذا ؟
ـ لانها احبت اميرا لا ينظر اليها نظرة حب ! فقال وهو هـادىء : ومتى خفق قلبها على حب هذا الامير ؟
ـ عندما قيل لها انك سالت عنها خدم القصر ! وجعلت تنظر اليـه

لتستهويه ... فقال في نفسه : ان سلاح الدهاء ، عندك يا هيروديـــة امضى من سلاح الجمال .. ثم قال لها : اذا كان هذا فانا اقسم لـــك وللامير ان البيد ستكون زوجة لي اذا خطر لي ان اتزوج اثنتين ...

فسكتت وهي تنظر الى هيرودس . اما هو فلم يسكت ، بل اراد ان يقابلها بمثل سلاحها ويعبث بها ، كما ارادت هي ان تعبث به ، واراد في الوقت نفسه ان يسبر غور هيرودس ويتبين عاطفته ، فقال : وساصــف للملك ، الجمال الخلاب الذي وقعت عليه العين في قصر صهره ، واذكـر له رقص هيرودية الفاتن وعينيها الساحرتين ...

ــ انا يا مولاي ؟

ــ نعم انت فقد كنت بهجة المجلس ، ومطمح انظار اليهود ، والعرب والرومان ... فترنحت الراقصة ، كما يترنح السكران ، وجعلت تنظـر الى عطفيها نظرات التيه ، والخيلاء .. اما هيرودس فاصفر وجهه ... اجل ، فقد بدأ رئيس الربع ان يغار ، على ابنة اخيه ... وكان مالك قد راى ذلك الاصفرار ، ولكنه لم يبال ، بل كان يقول : حسب قدرة وزوجها ان يريا هذا الوجه ، كل صباح ... وكل مساء .. فاضمحل دهاؤها ، وقام في ذهنها ان الفتى ينطق بما في القلب ، فتمتمت قائلة : ولكني ذاهبة الى الجيدور .

ــ ومتى يكون ذلك ؟

ــ غدا او بعد غد .

قال : اتعرفين بترا ابتها الاميرة ؟

ــ وكيف اعرفها وقد قضيت شبابي في امارة فيلبوس التي لا تقـع العين فيها الا على الغنم والنوق ... وتنهدت ، كان الجيدور امـــر لا يطيب لها ذكره .

فقال : ولكنك تستطيعين ان تمري بها ، ثم تذهبين منها الى مقـر الامــارة ...

قالت : احتاج في ارض العرب الى حراس ...

ــ اجعلي ولي العهد ورجاله حرسا لك ..

قالت : اشكرك يا مولاي فانت خير من رايت .

ـ ولكني لم افعل ما يستحق الشكر . . والتفت الى هيرودس قائلا: الا تاذن لها في الذهاب ايها الامير .

قال : الحق في ذلك حق فيلبوس اخي . واتقدت النار في عينيــــه، نقرات هيرودية غيرته ؛ فقالت : اما انا فلا استطيع ان اذهب لان فيلبوس مريض وليس في قصره من يعتني به كما تعتني زوجته .

ـ ولكن الامير لا ياذن لك في الرحيل غدا ، اليس كذلك .

قال : ترحل بعد ثلاثة ايام .

ـ ويرحل رجال العرب في اليوم الذي ترحل فيه . .

قالت : سابقى اسبوعا اخر .

ـ ونحن باقون !

ـ واذا مكثت شهرا ؟

ـ نمكث مثله الا اذا طردنا سيد الجليل من بلاده . . فلما رات ان الفتى يكاد يفضح نفسه ، تناولت سلاحها الاول وهاجمته به قائلة له لولا هذا الشقاء الذي ستلمسه اليد لاقمت بالجليل شهرين لا اذكـــر فيهما اللجا والجيدور ، ولكني لا اطيق البقاء ، وابنة عمي تذرف الدموع وتنظر الي نظرات اليائس الذي ضيع الرجاء ... والعاشق الذي خانه القضـــــاء .

قال : لو كنت استطيع ان اطرح قلبي عند قدميها لفعلت . . .

ـ قل انــك لا تريد يا مولاي . .

ـ بل اريد ما تريدين يا سيدتي ولكني غير قادر وقد اقسمت لــك اني سأتزوجها اذا اراد الملك ان يكون لي زوجتان . .

قالت : لقد اردنا نحن اليهود امرا لا تريد العرب مثله .

ـ ما هو هذا الامر .

ـ الم تر انا جعلنا ابنة الملك العربي اميرة للجليل وعبـــر الاردن ؟

قال : بلى

ـ وكان ذلك باختيارنا ام ماذا ؟

قال : ذلك فعل الامير وحده . . لقد وصفت له نضرة ابنة الحارث ففكر في ان يجعلها زوجة له ، ثم رحل الى بترا يبلغ فيها غايته دون ان

يستشير احدا من اهله .

ـ بل استشار جميع ذويه قبل ان يفعل ..

ـ ثم ماذا ؟ ثم اراد امير الجليل نفسه ان يجعل ابنة اخيه زوجة لشقيق زوجته فلم يستطع وهيرودية وحدها تعلم السبب في ذلك .. !

قال : اما هيرودس فهو حر في امارته ، وهو صاحب السلطان المطلق الذي يخضع له القوم ، واما مالك بن الحارث ، فهو ولي عهد ، وارادة الملك فوق ارادته كما قلت ، والويل له اذا هو فعل امرا ليس للملك راي فيه .. ثم قال : والان فاذكري السبب الذي تعلمين ؟

قالت : يظهر انك لا تريد ان تتزوج فتاة من اليهود ولو كانت هذه اليهودية حفيدة ملك !

ـ ولماذا لا اريد ذلك ؟

ـ لانك ورثت البغض من قومك الذين لا يحبوننا والذين يؤثرون علينا الروماني الغريب .

قال : لقد اخطأت ياسيدتي فيما ترين .

ـ بل انا مصيبة ولا ارجع عما قلت .

ـ وكيف رضي القوم الذين يبغضون اليهود ، بان يزفوا ابنتهم الى امير يهودي ؟

ـ قد يكون هنالك غرض لا اعرفه . فرفع هيرودس صوته قائلا : كفى يا هيرودية ، فليس في الامر بغض كما تقولين ولكن القضية قضية عاطفة يشعر بها القلب .

قالت : لقد راى سمعان هذه العاطفة في عيني الامير ، ولكنها لم تلبث حتى اختفت ، في هذه الساعة .

ـ ولكن الانسان لا يستطيع ان يخفي عاطفة حبه عندما يشاء . ثم خفض صوته وهو يقول : لقد انتهينا الان فليفعل ولي العهد ما يطيب له وليشاور الملك . فنهضت قائلة : اذن اسالك ان تأذن لي في الانصراف عند بزوغ الفجر . قال : اذن لك اذا اراد ولي العهد .

قال : لو كان الامر في يدي لابقيتها حتى ينقضي العام . فقالت في نفسها : لقد ظننت من قبل ، انك الفتى المغرور الذي لا يعرف ما هي

الحياة : اما الان فقد ثبت لي انك الفتى الداهية الذي يظهر شيئـا وينطبق صدره على شيء اخر ... ولكن اصبر ايها العربي فسيجمعنا الزمـان ، وستعلم انت وتعلم اختك اميرة الجليل ، من هي هيرودية زوجة فيلبوس ... وابتسـمت لعمها وهي تقول : لولا مرض اخيك لما ذكرت الجيدور .. ولكني مكرهة على الرجوع وساعود بعد حين لامكث بالجليل الى الابد ..

وارسلت عندئذ نظرة حادة الى ولي العهد كانها تقول له : خبر فدرة ما سمعت ولا تنس كلمة . وكان قلب ولي العهد في تلك الساعة يخفـق مضطربا ، وقد ملا صدره الهم ، ولكنه ظل يبتسم . ثم قام فخرج قبـل ان تخرج هيرودية وهو يخاطب في سره ، شقيقته الاميرة قائلا لها : اصبت يا فدرة فهذه المراة ستكون سيدة القصر ..

وكانت هيرودية في تلك الساعة تقول لهيرودس : لقد عبث بنا هـذا العربي ، هزا بالبيد ، وهيرودس يهز راسه ولا يقول كلمة ..



ماذا يا مالك

ـ لقد كان عياش نبيا عندما قال ان سمعان سيملا القصر اخبارا .

ـ اذن دعاك هيرودس ليسـالك عن هذا الغرام ..

ـ اجل يا فدرة وكانت هنالك هيرودية زوجة فيلبوس .. قالت الا تعيد علي حديث الاثنين ؟ فلم يشا ان يقص عليها ما سمعه من المـراة فقال : اما هيرودية فلم تقل كلمة ، واما هيرودس فهذا ما حدثني بـه . وروى لها ما قاله زوجها ، وقاله هو .

ـ ومتى ترحل الراقصة عن الجليل ؟

ـ سمعت انها سترحل بعد ثلاثة ايام ، فسكتت قليلا ثم قالـت : ادن يا عياش وقل لي من علمك النبوة ؟

ـ علمتني اياها التجارب يا مولاتي ، ثم قال لولي العهد : هل رايت الاناة يا مولاي ؟

ـ ولكني عرفت انها تعد عدة الزواج وقد هناتها هيرودية بولايـة العهد وهناتها حسان اليهود .

ـ وانت ماذا فعلت ؟

ـ سأشاور الملك في الامر ثم افعل بعد ذلك ما يامرني به .. ثم هامسه قائلا : اما هيرودية فقد فتنت لب هيرودس وستخسر فدرة كرامتها بعد حين .. فابتسمت فدرة لهمسهما وقالت : لقد عرفت ما تتحدثان به من هذا القلب .. وانا صابرة .

قال : اني اسأل عياشا عن رايه في بيلاطوس ..

ـ اما انا فقد خيل الي انك تساله عن رايه ، في هيرودس ...

قال : ليس لنا اليوم ما نقوله على الرجل ..

ـ ولكن سيأتي يوم تسالني فيه عما رايته منه فاقول لك مالضطرب له نفسك ، ونفس الملك الذي قذف بي الى هذه الهوة .. وذكرت في تلك الساعة صحراء بترا .. بل ذكرت زيداً يتبعها على جواده في تلك الصحراء ، فحولت وجهها عن القوم وتفجرت من عينيها الدموع ...

٣٢

ترك ارسطوبولس بن هيرودس الكبير ، الذي قتل مع اخيه اسكندر ولدين اثنين ، هما اغريبا وهيرودية ، كما مر . وكان اغريبا ، يوم قتل ابوه ، طفلا ، لا يعرف من دنياه ، غير احضان الجواري ، اللواتي كن يغمرنه في ايام ابيه ، بجميع اسباب العناية والعطف . فلما اصبح فتى ، ورأى اعمامه ، ارشيلاوس ، وهيرودس ، وفيلبوس ، يحملون صوالجة السلطان والعز ، في الامارات التي جعلها اغوسطس قيصر ملكا لهم ، صغرت نفسه ، وجعل ينظر الى ماضي ابيه وجده ، نظرات الوارث الابي ، الى مجده المفقود .

ولم يكن اغريبا فقيراً ، فقد ابى له ذووه ، واولياء امره شيئا من المال يستعين به على الحياة ، هو وهيرودية الطفلة ، ويعالج به امره حتى يكبر . على انه كان يظن وهو فتى ، ان اباه مات حتف انفه ، وان المال الباقي بين يديه فضالة الثروة التي كانت لابيه ، وكان اعمامه ، والقائمون بتربيته وتربية اخته ، قد اوصوا الجواري والغلمان ، بان يكتموا الولدين حادث ذلك القتل الرائع ، ويظهروا لهما ، ان اباهما سقط في السامرة ، عن ظهر الجواد ، وكان سقوطه سببا لموته ، بعد يومين .

ولكن الصدور لا تحفظ الاسرار الى الابد ، فلما اصبح اغريبا في الحادية عشرة من العمر ، لفتت نظره مظاهر مربيته المصرية ، التي كانت تانف من النظر الى الرجال الذين ينتمون الى هيرودس الكبير ، وتحاول الهرب كلما وقعت عليهم العين ، ثم لفت نظره مظهر اخر ، يوم نفى الرومان عمه ارشيلاوس عن اليهودية ، فقد سمع تلك المربية تقول : « هكذا يخسر ابناء القاتل ما يملكون ... »

فقال لها : ماذا تقولين يامنات ؟ فتلالات الدموع في عيني المرأة وجعلت تحدق اليه وهي ساكتة .. اما هو فقال : من هم ابناء القاتل ؟ فاخذته بين ذراعيها واجابته قائلة : هم اعمامك يا مولاي !

ـ وهل كان جدي قاتلا ؟

ـ كان قاتلا وظالما يسفح دماء الابرياء في كل يوم من ايام ملكه !

قال : قصي علي ما تعلمين عن هذا الظلم ...

قالت خير لك يا مولاي ان تظل جاهلا كل شيء .

ـ ولكني اريد ان اعلم كل شيء .. فترددت قليلا في الجواب ثم هامسته والبكاء يتردد في صدرها قائلة له : اذن فاعلم ان اباك قتل ذبحا ولم يسقط عن الجواد كما قيل لك..! فارتجفت شفتا الفتى وقال : ومن هو قاتله ؟

ـ اما الذين ذبحوه فجنود جدك هيرودس ، واما الامر بذبحه ، فجدك نفسه .. فاصيب الفتى بالذهول .. ثم بكى حتى بلت دموعه رداءه ، ولم يلبث حتى مسح تلك الدموع وظهر بمظهر الرجال قائلا : لا تخفي عني كلمة واحدة مما تعلمين يا منات فانا اريد ان اعلم كل ما جرى في هذه اللحظة .. وهل تكف عن البكاء يامولاي ؟

ـ لقد تركت البكاء للاطفال فقد اصبحت رجلا .. فضمته الى صدرها قائلة : كان لهيرودس الكبير ، من زوجته مريمنا ، ثلاثة بنون ، هم اسكندر وهيرودس وارسطوبولس ، ابوك . وقد ارسل الثلاثة الى روما ، ليقتبسوا فيها العلوم ، مع ابناء الملوك ..

ـ ومن هو اصغرهم ؟

ـ هيرودس وقد مات في عاصمة الروم ، وكان جدك قد قتل مريمنا

امهم باغراء اختها صالومي

وبعد ذلك ؟

ـ دعا هيرودس ولديه الباقيين في روما ، الى اليهودية، وزوج عمك اسكندر ، بكلافيرة ابنة ارشلاوس ملك الكبادوك ، واباك ، ببرنيس ابنة صالومي نفسها !

ـ ابنة القاتلة ؟

نعم كانت امك ابنة قاتلة ولكنها كانت بريئة ، ولم تشأ ان تشارك امها في الاكاذيب والسعايات ، غير ان صالومي لم تهدأ ، فقد نفخت في صدر اخيها الحقد على ولديه ، وخبرته انهما يريدان ان يخلعاه من العرش، انتقاما لامهما التي قتلها من قبل .

ـ وصدق الملك ما قيل له ؟

ـ لم يصدق شيئا في اول الامر ، ولكن صالومي اوغرت صدره ، فاستدعى عمك انتيباتر ، الذي هو بكره ، والذي كان قد ابعده عنه ، وقربه اليه ، واثره على اخويه .

ـ ثم ظهرت الخصومة بعد ذلك بين الاخوة الثلاثة . .

ـ اجل يا مولاي حتى قام في ذهن جدك اخيرا ، ان اباك واخاه يريدان ان يقتلاه ، فشكاهما اولا الى اغسطس قيصر ، ثم رضي . . . ثم ثارت نفسه وسار بهما الى بيروت ليحاكمهما في مجلس الحكماء ، ثم رجع وهما معه الى صور ، وبعث بهما الى السامرة مع بعض جنده فقطعوا راسيهما . .

ـ واين هو عمي انتيباتر اليوم .

ـ قتله ابوه بعد موته بخمسة ايام .

ـ اذن كانت حياة جدي حياة قتل ، وذبح وسعايات .

نعم حتى انه كان يطيب له ، وهو يلفظ الروح ، ان يسفح الدماء البريئة ، وينظر الى الجثث تملا الساحات

ـ وماذا فعل اعمامي هؤلاء ؟

ـ ماذا فعلوا يا مولاي ؟كان هم ارشيلاوس ان يجلس على العرش وهم هيرودس وفيلبوس ان ينازعاه الملك ، فخسر الثلاثة تاج اليهود ،

وانتهى الامر الاول بالنفي كما تعلم ، ورضي الاخـران بالجيدور والجليل منـرا لهمـا .

ولم يبق لي وانا حفيد هيرودس مكان اضع فيه قدمي كما تريـن ..

ـ نعم يا مولاي لم يبق لك غير قبضتين من المال تنفقهما ثم تستجدي المحسنين من ابناء اورشليم .. ففكر قليلا ثم قال : ساستجـدي الزمـان القاسي الذي جار علي واظفر به .. قولي لي الان يا منات . الا تستطيعين ان تربي اختي هيرودية وانا بعيد عنها ؟ فصاحت مذعورة : انت تبعـد عن اورشليم يا مولاي

ـ اجل ، فلا يمر شهر حتى تحجب البحار بلاد اليهودية عـن عيني ...

ولكني لا اطيق ان اسمع ما تقوله

ـ بل تفعلين كل ما امرك به ، فقد اصبحت من الرجال كما قلت ، والرجل النبيل لا يرى مجده الزائل ويغض الطرف عنه .

قالت : الى اين ترحل يا ولاي ؟

ـ الى روما فارى اغوسطـوس .

ـ ومن يقربك اليه ؟

ـ افتش في روما فقد اجدْ فيها صديقا لابي..

ـ ولكنك صغير وانت لا تعرف احدا .

ـ قلت لك انني امسيت كبيرا وساذهب ،وستتعهدين هيروديـة بالعناية ريثما اعود . قالت : استحلفك بدم ابيك الا تفعل .

ـ بل احلف بهذا الدم اني سانسترجع المجد الذي خسره ابي ولـم يبق لي منه غير ذكراه ..

ـ اذن فاعهد الى بعض ذويك ان يتعهدوا هيرودية فقد اموت انـا بعد ايام .

قال : ساخاطب شقيقة امي بالامر .

قالت : اترك من ذكرت يا مولاي ولا تنس انها ابنة سالومي التـي قتلت اباك .

ـ ومع ذلك فهي اخت برنيـس التي ولدتني ..

ـ لقد ماتت برنيس من القهر ، بعد مقتل ابيك وكانت تبغض امها وجميع الذين تامروا على البريء ...

ـ والى من الجأ اذن ؟

ـ الى عمك فيلبوس والي الجيدور ..

قال : لقد علمني دم ابي المسفوك في السامرة ، الا اثق باحد من هؤلاء الاعمام ..

ـ ولكن هيرودس يربي البيد ابنة عمك القتيل الاخر .

ـ اذا رضيت البيد بان تعيش في قصر هيرودس فانا لا ارضى، واخشى ان ترافقني هيرودية الى روما فتخسر العطف الذي تراه الان.. اتتركين اورشليم يا منات ؟

قالت : وهل يريد مولاي ، ان اجر شيخوختي الى روما فاموت فيها وادفن في مدافن الغرباء ؟

قال : لم يبق اذن الا ان اعهد اليك والى جارنا عزرا ، الذي كان مخلصا لابي ، في تربية هيرودية ...

قالت : افعل ما تشاء يا مولاي ، ودعني اضمك الى صدري في كل ساعة قبل ان ترحل ، لان الموت سيغمض عيني وانت بعيد ... فانطرح الفتى بين ذراعيها ، وحبس دموعه التي وعد بان لا يذرفها بعد الان . ولم يمر شهر على هذا الحديث ، حتى ركب اغريبا البحر ، الى عاصمة الروم، ومعه خادمه الامين سبيسيان وبقيت هيرودية في اورشليم ، يتعهدها عزرا ومنات..

طوى الزمان بضعة عشر عاما كما طوي امس .. فاصبح حفيد هيرودس «في روما» من اعظم الرجال ، واصبحت اخته هيرودية في اورشليم ، سيدة النساء . واغريبا لا يترك روما ، ولا يذكر بلاد اليهود.. اجل ، لم يكن يريد ان يعود الى اورشليم ، الا على مركبة المجد ، تحف به عظمة الملك . والملك لا يستمده من رجال اليهود ، بل تجود به عاصمة العالم على من تحب ، والويل لمن لا يسلم بما تجود به . لقد لقي اغريبا بين الرومان اصدقاء لابيه ، فعاش بينهم كأنه منهم ، ونشأ في بيئة صالحة راقية ، هي البيئة التي ينشأ فيها ابناء الامراء . ولم تكن هيرودية ، في

ذلك الحين ، بحاجة الى مال اغريبا ، فقد تزوجها عمها فيلبوس ، عندما ابصر جمالها الخلاب ، واضحى المال بين يديها تنفق منه ما تشاء بدون حساب ، وفيلبوس مستسلم اليها ، وعبد لارادتها التي لا ترد .

وقد وصل الى اغريبا نبأ ذلك الزواج ، فابتسم ابتسامة غريبة هي ابتسامة الحقد على اعمامه وذويه ، الذين كانوا جميعهم في نظره، خصوما لابيه . ولم يشأ ان يكتب الى اخته وعمه كلمة رضى ، بل لبث ساكتا كأن الامر لا يعنيه ، وكانه روماني لا صلة له باورشليم واهل اورشليم .

اجل ، لقد نسي الفتى الطامح الى المجد ، اورشليم الجاحدة ، التي كانت عونا لجده الظالم على ابيه البريء ، ولم يبق له فيها من يستحق عنايته ورضاه . حتى ان هيروديةنفسها كانتفينظره خائنة،ولولم تكن كذلك لما رضيت بفيلبوس زوجا لها. على ان فيلبوس وهيرودس كانا بريئين من دم اخيهما ، فقد كان امر ارسطوبولس في يد هيرودس الكبيرواخيهواخته، وهم الذين تآمروا على البريئين وقتلوهما . ومع ذلك فاغريبا الثائر على اسرته ، كان واثقا بان الجميع اشتركوا في ذلكالقتل ، ولم يرد ان يؤمن بالبراءة .

وكانت منات مربيته المصرية ، وعزرا جاره الشيخ ، قد ماتا ، وقد استولى عماه هيرودس وفيلبوس على ما بقي له في اليهودية ، من متاع ومال ، على ان يعطياه ماله عندما يعود . وكان اغوسطوس قيصر قدمات ، في السنة الرابعة عشرة للمسيح ، وخلفه على العرش ، صهره طيباريوس زوج ابنته ، الذى ابلى البلاء الحسن ، في حروب روما مع الجرمانيين .. واغوسطس نفسه ،هو الذى جعل صهره وارثا للملك وكان طلاب العرش كثارا وجميعهم من القواد والنبلاء . فامتدتالايدي الى تاج الامبراطورية، قبل ان يضعه طيباريوس على راسه ، ولتنازع ذلك التاج ، بضعة قواد ، هم رجال الميادين ، فلم يستطع طيباريوس ، الا ان يتناول سيفه، ويحطم به الرؤوس المرتفعة ، والمطامع الناظرة الىالعرش . وقد ساعده في ذلك اخوه وهو من ابطال الرومانيين ،فخمدت الاصوات ، واستقام الامر نقاهر الجرمانيين ..

وكان اخو طيباريوس صديقا لارسطوبولس ، والد اغريبا ،وقد احاط اغريبا بعنايته ، في روما ، ومهد له جميع الاسباب التي تمهد لابناء الامراء ، فشعر حفيد هيرودس الكبير ، بان ا الحظ بدأ يبسم له ، وجعل يرافق اخا القيصر الى البلاط ويطلع على شؤون السياسة والحرب ، في القصر الملكي العظيم . ولاخي القيصر ولد صغير يدعى غايوس كاليكولا ، آثره عمه طيباريوس على جميع ذويه ، وادناه منه ،واكره النبلاء والامراء على احترامه والخضوع له .

وكان كاليكولا يحب اغريبا ،كما يحب الاخ اخاه الاكبر حتى ان الناس كانوا يقولون ، كلما راوهما : لقد جاء الاخوان . وقد تمادى القيصر في حبه ابن اخيه ، وايثاره اياه ، فلم يلبث حتى تبناه ، وهو غلام ،واعلن لنبلاء الرومان ورجال الجيش ، ان كاليكولا ولي عهده .

والغلام لا يعرف ما هو الملك، ولا يبالي الا بفرس له يجعله خدمه على ظهره ، ويطوفون به في الاسواق . على ان القدر كان يدفع اغريبا الى الامام فان طيباريوس ، يوم جعل كاليكولا وليا للعهد ، ابصر اغريبا يروح ويجيء في احد اروقة البلاط ، ومظاهر البشر على جبينه فقال لاخيه : اهذا هو ابن ارسطوبولس الذي ذكرته لي ؟

ــ نعم يا مولاي

ــ وهل يقيم العمر كله بروما ؟

ــ لقد رأى روما خيرا من اورشليم فاقام بها .

فأوما الى حاجبه بان يدعوه اليه ، فاقبل اليهودي ، والابتسامة لا تفارق ثغره ، وجلال الملوك يبسط حوله ظله ، فقال قيصر : انت اغريبا حفيد هيرودس ؟

ــ اجل يا مولاي انا اغريبا الغريب عن قومه !

قال : كنت في روما يوم بعث جدك يستشير اغوسطوس في امر قتل ولديه اللذين كانا ينازعانه الملك . ثم قال وهو يريد ان يختبر نفسه :وكنت واثقا بان الاثنين سيموتان ، لان صاحب العرش ، ان لم يقطع الايدي التي تمتد اليه لا يطمع لان يسود الناس . .

ــ ولكنهما لم يطمعا بالعرش يا مولاي .

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ المراة التى ربتني . فقهقه ضاحكا وهو يقول : اهي من اورشليم؟

ـ انها مصرية . .

قال : الرجل الذى يسمع اقوال المراة يخسر كل شيء.

قال : لقد كانت مخلصة لابي وظلت على اخلاصها حتى اغمض عينيها الموت .

ـ اذن كان هيرودس ظالما لا يشعر بما يشعر به الوالدون . . .

ـ هكذا يقولون يا مولاي ، وقد علمته القسوة والظلم اخته صالومي واخوه فيروراس .

ـ وهل كان الاثنان يبغضان اباك ؟

ـ نعم يا مولاي ، وكان هيرودس قد قتل باغرائهما ، جدتي مريمنا، فخافت صالومي ان يملك ابي بعد ابيه ، فيثأر بامه .

ـ وانت يا اغريبا ؟

ـ ماذا يا مولاي ؟

ـ الا تفكر في الثأر ؟

ـ لقد رايت ان انسي الماضي يا مولاي وافكر في حاضري .

قال : صف لنا حاضرك . . .

قال : تركت بلادي لاقيم بروما مع جماعة المخلصين لمولاي القيصر .

ـ ولكنك قدمت روما وانت صغير لا تعرف ما هو الاخلاص .

قال : لقد ورثت اخلاصي من ابي يا مولاي .

ـ وهل تقضي العمر كله بعيدا عن قومك ؟

ـ اخشى ان اعود اليهم فأموت .

ـ تريد ان تقول ان في اورشليم اشخاصا لا يطيب لهم العيش الا اذا قتلوك .

ـ اصبت يا مولاي

ـ ومن هم هؤلاء الاشخاص ؟

ـ عمي هيرودس ومن يعيش في ظله من الكهنة والزعماء .

ـ ان هيرودس رئيس الربع في الجليل اليس كذلك؟

ـ اجل ، وقد يؤثر ان تضمحل ذرية هيرودس الكبير ليخلو لهالجو .
ـ ولكنه سيد قومه وهو لا يطلب غير هذا ؟
ـ بل يطلب ان يكون صاحب عرش ، وان يكون له تاج . . !
قال : لقد حطمت روما تاج هيرودس فهيلا تخلق بعده تاجا لاحد . .
ـ ومع ذلك فهو يتظاهر باخلاصه لقيصر ليجلسه على عرشاليهود
ـ اتعرف ما تقول يا اغريبا ؟
ـ نعم ، مولاي
قال : احذر فقد يثبت القيصر ، بعد قليل ، انك كاذب .
ـ اذا ثبت ذلك فاضرب عنقي . .
ـ وكيف تستطيع ان تذكر مطامع عمك وانت في روما وهوفي الجليل ؟
ـ احلف لك يا مولاي انه يكاد يذوب شوقا الى تاج ابيه . . .
ـ ومن اين لك ان تعرف ذلك ؟
ـ لقد قيل لي ان عمي يشبه اباه في كل شيء ، والرجل الذي يشهد مقتل اخويه وهو ساكت ، لا يتردد اذا استطاع، في ان يجعل اليهودية كلها ، تحت لوائه .

قال : اتقص على قيصر حكاية تمليها عليك الظنون؟
ـ نعم وستصدق ظنوني بعد حين فيعلم مولاي عندئذ ان اغريبا، يعرف ما في القلوب . وكانت لهجته لهجة واثقبما يقول ، فقال قيصرلاخيه: اذا كان هذا فلم يبق الا ان يجمع هيرودس ابناء قومه ويشهر في وجه روما السيف .

فاجابه اغريبا قائلا : بل يستعين بغير قومه يا مولاي .
ـ ولكنه لا يجد عونا له غير العرب وهؤلاء لا يتصدون للرومان . . .
ـ واي شيء يمنعهم من ذلك ؟
ـ خوفهم من قيصر . .
ـ اذا وضع هيرودس يده في ايديهم اقتحموا المجال ولم يبالوا .
فقام في ذهن طيباريوس ، ان اغريبا يحاول ان يوغر صدره على عمه ليسلبه الامارة ، فيجلس هو في مقعدها الرفيع . . فقال : لقد مر على وجودك في روما بضعة عشر عاما تعلمت فيها الاخلاص للعرش الروماني على ما نظن،

الم تقل هذا الان ؟
ــ بلـــــى
ــ وهل اصبحت من المخلصين ؟
ــ بل اصبحت عبد لمولاي يفعل بي ما يشاء .
ــ ولكن قل لنا ما هو هذا الاخلاص الذي يملي عليك السعايـــــة بالابـريـــاء ؟.
قال : لم اكن ساعيا باحد يا مولاي ولكني خبرتك ما يخطر لي ومـــا يحوم في الذهن ...

قال : لنفرض ان القيصر صدق ما تقوله له ، وعزل عمك عن ولايته ثم ظهر له بعد ذلك ان هيرودس كان بريئا ، فماذا يقول الناس عنه ؟!
ــ اعوذ فاقسم لمولاي ان هذا العم غير بريء مما ذكرته لك .. فهامس اخاه قائلا : لقد انزلت في قصرك يهوديا تماما يريد ان يستغل عنايتك بــه، وعطفك عليه ...!
قال : اضمن لمولاي صدق الرجل واخلاصه لقيصر .
ــ بل تضمن اخلاصه لنفسه ليس غير ... اتريد ان يمتحن القيصر امتحانا اخر ،في هذه الساعة ؟

ــ نعم ، فقال لاغريبا : اذن تقسم ان عمك يطمع في عرش ابيه .
ــ هذا ما اراه يا مولاي وانا واثق به .
قال : لقد صدقك القيصر وسينفي هيرودس عن الجليل .. ولكــن يجب ان تدلنا على الرجل الذي يخلفه في الامارة .. اتعرف رؤساء اليهود؟
ــ لا اعرف احد يا مولاي .
ــ ومن هم اليهود المقيمون بروما ؟
ــ ليس فيهم يا مولاي من يصلح لولاية الجليل ..
ــ ولكن قيصر يعرف احدهم ويثق به ويؤثره على سواه وهـــــذا الرجل هو انت !
فاصفر وجه الفتى قائلا : أياذن لي مولاي ان اقول كل ما اعلـــــم وانا آمن ؟
ــ ناذن لك .

قال : ان اغريبا الذي اردت ان تشرفه بحبك يلتمس منك ان تبقيه بين يديك ، وتبيح له الدخول الى بلاطك ، عندما يشاء.

ـ وتأبى يا اغريبا ان تصير من الولاة؟

ـ نعم يا مولاي فانا لا افكر في الرجوع الى اليهودية الان .

ـ وهيرودس ؟

ـ اما هيرودس فتستطيع يا مولاي ان تأمر الوالي الروماني ، في اورشليم ، بان يبعث اليك اسماء الاشخاص الذين يصلحون لان يقوموا مقامه ، في كرسي الحكم . فابتسم شقيق القيصر ، واشرق جبينه . اما طيباريوس فكان يقول : يظهر انك تخاف اليهود ولا تجسر على الاقامة بينهم

ـ ثق يا مولاي بأني لا اخاف احدا منهم ولا اعبأ بهم جميعا ولو كانوا اعوانا علي ولكني اؤثر روما على الجليل ، ولا اريد ان أتولى اليوم امرهم ولو جعلوني من الالهة .!

ـ وكيف تستطيع وانت هنا ان تسترجع ما سلبوك اياه ؟

فقال في نفسه : سأسترجع كل شيء او اموت .

ثم قال له : حسبي ما اراه من عطف مولاي القيصر واخيه .

قال : اتكتفي بما انت فيه الان ؟

ـ نعم يا مولاي ولا اطلب الا ان تجعلني من عبيد البلاط . فأيقن طيباريوس عندئذ ، بان الفتى لا يطمع بولاية الجليل ، فقال له : لقد ثبت لنا الان انك من المخلصين لنا ولم تكن ساعيا بعمك فابق اذن في روما ما طاب لك البقاء ، على ان تقيم بالبلاط ، فقد جعلك القيصر من رجاله ،وقال لاخيه : قل لاصحاب الشأن في بلاطنا ان اغريبا من المقربين الى قيصر أيكفيك هذا ؟ فجثا الشاب على ركبتيه وجعل يقبل قدمي طيباريوس وهو يقول : لقد وهبت لي يا مولاي ما لا استحقه فدمي لك . فوضع يده على كتفه قائلا : انهض يا اغريبا فأنت الان في منزلة كاليكولا ابن اخينا الذي احببته . وامر فاعطوه من المال ما يستطيع ان يعيش معه كما يعيش نبلاء الرومان . .

وعندما انصرف الفتى كان واثقا بانه قد وضع قدمه على درجات العرش .

٣٣

عرفت اليهودية كلها ، ان اغريبا بن ارسطوبولس ، اصبح من رجال القيصر الروماني ، وتناقل الرؤساءوالكهان هذا الخبر ، حتى بلغ هيرودس وفيلبوس ، ورددته افواه الرجال والنساءفي اورشليم والجليل والجيدور . وقد ارتفع راس هيرودية كبرا ، وقام في ذهنها انها ستمسي مرجعا لقومها ، في كل ما يحتاجون اليه . . بل قام في ذهنها ان امر اليهودية اصبح في يدها ، تولي من تشاء وتعزل من تشاء ، ان الحظ الذي ابتسم لاخيها : لم يبتسم مثل هذه الابتسامة ، لاحد قبله من اليهود .

اجل ، يستطيع اليهودي ان يكون سيدا في قومه ، كما يستطيع ان يجلس على كرسي الكهانة ، والزعامة، والحكم ، ولكنه لا يستطيع ان يجلس في حضن قيصر كما جلس اغريبا ، ويكون من رجال الراي، في ذلك البلاط العظيم . . ولكن هيرودية لم تكن تعلم ان ذلك الاخ ثائر على كل من ينتمي الى اعمامه الاحياء والاموات ، وكانت تظن من قبل ان سكوته الطويل ، ولحجبه عن قومه مظهر من مظاهر الشباب الطائش ، الوثاب .

وقد وصلت اخبار اغريبا الى اليهودية ، قبل ان تزف فدرة العربية الى هيرودس ، ببضعة ايام . فراى هيرودس ان امامه حاجز اخر يمنعه من الوثوب الى العرش ، وهذا الحاجز هو اغريبا نفسه ، الذي خسر عزه بعد مقتل ابيه . لقد امن شر العرب ، وهم اعداؤه ، بعد تلك المعاهدة ، وذلك الزواج ، ولكنه لم يأمن شر اغريبا الا اذا استند الى ذراع قوية ، توقفه عند حده ! ولم يكن بين اليهود كلهم ، من يستطيع اخماد ثورة الفتى ، الا هيرودية نفسها فهي من لحمه ودمه ، وكلمة واحدة منها تنسيه حقده ، على ذويه . وهيرودية ، وثابة العاطفة ، سهلة المأخذ، يفرهاهيرودس بماله . ويحيطها بعنايته ، فتستسلم اليه بالنفس والجسد وتكون اطوع له من خياله ! وماذا يخسر رئيس الربع ، اذا هواستهوى تلك المراة بجميع وسائل الاستهواء والاغواء ؟. . . بل ماذا يخسر اذا هو جعلهاعشيقته، ومعبودته ، وهي ملكة الحسن والجمال ، وصاحبة الغنج والدلال ؟!!

اجل ، يخسر ولاء فيلبوس اخيه ، اذا عرف ان زوجته آثرت هيرودس

عليه ، ولكن . . . ليمت فيلبوس !! وليفن العالم كله !! وليسلم التاج الذى يحلم به !!

واما فدرة ، فهي الفتاةالغريبة التى تؤثر خنق غيرتها ، على التظاهر بها في قصر يغص بالنساء اليهوديات ، اللواتي يرقصن في كل ليلة ،ولاينظرن اليها ، الا كما ينظرن الى كل غريب . اذ نفليمش هيرودس الى الامام ، ولتسقط السما ءعلى الارض ، فهو لا يعبأ الا بفرضه ، ولا يرسل نظره الا الى غايته . .

وبينما كانت هيرودية ترقص يوم الزواج ، وتتلوى امام القوم فتفتن العقول ، كان هيرودس يفكر في اجتذابها اليه ، ليجعلها غذاء لقلبه الظمآن، ويصيرها في الوقت نفسه ، آلة بين يديه . . .! وكانت هيرودية ، تفكر من الناحية الاخرى ،فيما يفكر فيه ، وتنظر الى القصر الذي نزلت فيه فدرة ، بعينين تلمع فيهما نار الحسد ، وكلما خطرت لها الجيدور ، خفق قلبها مضطربا في صدرها الفياض ، بالشهوات . . ان هيرودية الساحرة ، لم تخلق لتعيش بين رعاة النوق ، بل ارسلتها الطبيعة الى العالم ، لؤلؤة فى مجالس الانس ، ونورا يستضيء به ابناء الظلام في قصور الاغنياءوالعظماء. لقد كانت بلاد اللجا والجيدور ، في نظرها ، منفى لكل نفس تتوق الى الملاهي ، وسجنا لكل قلب شاعر ، يخفق على الحب !

واي شيء تراه هيرودية في الجيدور ؟ انها ترى ، في النهار ، حراس زوجها يروحون ويجيئون في الاروقة والساحات ، والوفود تتبع الوفود من ذوي الحاجات ، وتأوي في الليل ، الى مخدعها ، لترى الى جانبها ، المخدع الاخر ، زوجها المريض ، الذى يتقلب منذاعوام على فراش الالام والاوجاع!. لقد اصيب فيلبوس بمرض لا يرجى له شفاء منه . وعانى منه ما يعانيه كل فتى جبار كثير الاحتمال ،وكلما اشتد مرضه اشتدت عزيمته وصلب عوده . . حتى امسى جلدا على عظم ، وشبحا يتلألاء نور الحياة الضعيف، في عينيه . وكانت هيرودية ، في بادىء الامر ، تشعر بعض الشعور ، مع زوجها المتألم ، وتستند الى مقعدها ، بالقرب منه ، توآسيه ، وتداريه ، ولكنها ملت اخيرا حياة العزلة ، وحياة السجن وارسلت نظرها الى مدن اليهودية تستعرضها في مخيلتها ، وتختار لها منها واحدة تنتقل اليها

ولسترجع حريتها المقيدة ، والضائعة ، في جبال اللجا الوعرة ، وصحـــراء الجيدور الجرداء . ولم يكن امامها غير الجليل ، فهيرودس عمها واخـــو زوجها ، صاحب قصر عال تفد اليه طوائف الناس ، من كل قطر ، وصاحب عرش صغير يحجه اليهود، من كل اقليم ، وهذا ما ترغب فيه ابنـــــة ارسطوبولس ، الطامحة الى الظهور ، كما يطمح اخوها اغريبا ، الى المجد .

فكأنها كانت تعشق رئيس الربع قبل ان يدعوها الى حفلة زواجـه ، بل كانت تعشق حياة قصره الحافل بصور العيش الخلابة ، واسبـــــاب اللذة والحب .

واضطرمت نار ذلك العشق ، يوم رات فدرة الحسناء ، جالسة حيث يجلس امير الجليل ، وابصرت جواريها العشر يرفلن بثياب الديـــباج ، ويبتسمن لها كلما ابتسمت لهن . وكرهت عندئذ ، ان تجيء فتاة من بترا ، وتستولي على قلب هيرودس وماله ، وتستأثر بارادته وسلطانه . وكانت تلك العاطفة ، عاطفة حسد ، كما مر ، والحسد اخو الغيرة ، ثم امســت عاطفة غيرة قاتلة ، ولا توجد الغيرة الا حيثما يوجد الغرام .

وبدأت هيرودية ، منذ تلك الساعة ، بتمثيل دورها ، كما بدا هيرودس بتمثيل دوره ، هي تطلب الحب والسيادة في القصر ، وهو يطلب الحـــب مثلها ويطلب من ورائه تاج الملك . وكان واثقا ، بانه سيجعلها سياجــــا ، بينه وبين اغريبا كما قرأت . لاجل ذلك رايته يتردد في جوابه ، عندمــــا تنكت اليه كبرياء فدرة ، ثم رايته بعد قليل يعترف لها بانها بهجة قصره، ونور عينيه .... فكأنه كان يقول ، انها كل شيء ، وان فدرة ليست شيئا .

اجل ، كان ذلك معنى قوله ، وهيرودية اللعينة من اقدر الناس على ادراك معاني الاقوال والالفاظ . ولعلها كانت تريد ان تصيد ولي عهد العرب، لابنة عمها البيد ، لتستولي بواسطتها على قلوب رجال البلاط العربـــي ، وتسود بترا ، كما تسود الجليل ! امراة ، متكبرة ، مستهترة ، مغنـــاج، اريد ان يحجب جمالها ، كل ارادة وكل سلطان . . .

٣٤

ودع ولي العهد اخته ، بعد اسبوع ، وعاد مع رجاله الى بتـــرا ، وهو يفكر في ذلك الشقاء الذي قذف الملك بفدرة ، الى هوته . وكان قـــد

اوصاها ، قبل ان يغادر الجليل ، بان تصبر على كل ما تراه وتسمعـه ، وبان تخبره كل ما يجري حولها، من مظاهر وحادثات .. فلم تجبه بغير الدموع ، ولكنها كانت تقول في نفسها ، ستهنأ انت يا اخي بزواجك ، اما انا فقد شقيت ..

ولم يرد الاثنان ان يتشاكيا الفراق ،فقد جعلا ساعة التوديع قصيرة، وانثنيا ، هي الى مخدعها الزاهي ، وهو الى قومه ، يأمرهم بالركوب . وقد رافق هيرودس القوم ، الى اطراف الجليل ، ووعدهم بأن يكتب الى الملك عن كل ما يحدث من سياسات . وكان الملك ينتظر رجوع الرجال،ليسألهم عن ابنته في منفاها الجديد، والملكة الوالدة لا تكف عن البكاء . وقد خطر لاريتاس خاطر فجائي غريب ، لم يعلم اي مظهر من مظاهر صهره اليهودي اوحى به ، هو ان التعاسة والشقاء سيرافقان فدرة ، بعد ذلك الزواج . فلما رجع القوم ، قص ولي العهد على والديه ما راوه في الجليل ، من حفاوة وتكريم ، ولم ينس ان يصف لامه ، موقف فدرة الشريف ، بين طوائف اليهود ، وكبار الرومانيين ، ولم يجسر احد من رجاله ، على ان يقول غير ما قال ..

اجل ، ان قلب مالك يكاد يذوب من الاسى ، ولكن الحكمة تقضي عليه بالا يعكر على والديه صفو العيش ، بل كانت الحكمة تقضي عليه بالا يطعن اباه في القلب ...

وجعلت امه ، تعيد السؤال وتستعيد الاخبار ، وهو يروي لها الحكايات ، عن عظمة هيرودس في امارته ، وعن انس كهان اليهود وعظمائهم ويعد لها بنات الاشراف اللواتي جعلهن هيرودس جواري لزوجته .. حتى هدأ روع الملكة ، ووثقت بصحة الرواية التى تطمئن اليها النفس ، وهي لا تعلم ان النار بدات تشتعل ، في قصر امير الجليل...

٣٥

لم يتردد ولي العهد بعد ان رأى والديه ، في الذهاب الى منزل عياش، فهو على نار ... وشقيلة على نار ...

وكان اللقاء ، اثرا بليغا من اثار الحب الطاهر الذي يتغلل في صدري

العاشقين ، تبثه هواها ، ويبثها هواه ، والاثنا نيلعنان الزمان ، الـــذى يقضي بالفراق ، وقد نسيا كل شيء ، الا النظرات العذبة التي يرسلهـــا الواحد الى الاخر تتلألآ فيها عاطفة الحب .

ثم صحا مالك وذكر زيدا ، فقال : نسيت ان اسالك عن زيد فانـــا لم اره . فتنهدت شقيلة قائلة : لقد كاد زيد يطلق بترا ايها الحبيب!

ــ مــاذا ؟

ــ نعم يا مالك فقد قضي الشهر كله وهو في الصحراء على ظهر فرسه!

ــ ذهب ولم يرجع ؟!

ــ يجيء في كل اسبوع ليلة او ليلتين ، دون ان يخاطب احدا اوينظر الى احد ولم اره مرة باسم الثغر .

ــ واي شيء يصنعه في الصحراء ؟

ــ يقول انه يطارد الظباء، وعندما سالته منذ بضعة ايام ان يعود الى منزله ضحك ضحك الهازيء وقال لي: خير لي ان الهو بقوسي ، واداعب فرسي، من ان تقع عيناي على الناس الذين لا يبالون الا بانفسهم ،ولاينظرون الا الى الاغراض . . .

فتمتم قائلا : مسكين زيد فقد ضيع الياس صبره وهداه .

ــ ولكني اخشى ان ينتهي به الامر الى ما تكره . . قال سالحق به غدا فاراه ولو كان في مصر . . .

وبينما هما يتحادثان ، والشمس تتوارى في اخر الافق ، اقبل زيد ، وقوسه في يده ، وهو يسال عبيده عن ولي العهد . فناداه قائلا : اذن يــا زيد فهذا هو ولي العهد الذي تسال عنه . ففتح ذراعيه ، وتعانق الفتيــان وزيد يقول : لقد قيل لي وانا بالباب ، انك هنا ، فمتى قدمت ؟

ــ اليوم

ــ وكيف رايت الجليل واهل الجليل ؟

ــ رايتهم يبسمون للغريب كانه منهم وينزلونه في الصدور . . .

ــ اذن هم يكرمون الضيف كما تكرمه العرب .

ــ اجل يا زيد ، فعاداتهم في ذلك تشبه عاداتنا الا الرقص في القصور، فقصور العرب لا تعرفه . .

ـ ومن رايت من جماعة الروم ؟
ـ والي اليهودية وبعض قواده .
قال : يصفون القوم بالكبرياء وانا لم احادث احدهم
ـ اصبت ، فقد تظهر الكبرياء في كل كلمة يلفظها الروماني.
ـ وهل يكره اليهود هؤلاء الرومانيين النازلين بينهم كما يقولون ؟
ـ قد يكون ذلك اما انا فلم اقرا هذا الكره على الوجوه .

وسمع عياش صوت ولده ، فاقبل ، والابتسامة على ثغره ، والدمع يجول في عينيه ، فاكب زيد على يده يقبلها باحترام وشوق ، وينظر الى ابيه الباكي ، الذي لم تستطع مواقف الروع ان تستنزل دموعه ، ثم قال له : اتبكي يا مولاي ؟
ـ اجل يا بني، فقد كان لي ولد احبه كما احب الهتي ، ولكن هذا الولد ترك اباه وتاه في الصحراء . . .

فأرخى الفتى نظره وارتجفت شفتاه . . ثم قال عياش : وكنت واثقا من قبل بان الولد الذي ذكرت ، لا يبيع ملكه ، ووطنه ، واباه، عندما يخيب امله بغرامه ، وعندما يكره الواجب ، تلك الفتاة التي احب ، على تضحية حبها في سبيل الملك !!. فرفع راسه قائلا : كفى يا مولاي. قال : اسمع يا زيد ، لقد نسيت على ما ظهر لي ، انك ابن عياش نسيب الملك وكبير قواد العرب ، وحامل لواء الفخار تحت هذه السماء ، بل نسيت الاباء والعز اللذين تقرا سطورهما كل يوم ، على جبين ابيك ، ولم تعد تذكر ، يوم حملك اليأس الى البادية ، الا ذلك الهوى الساقط عند قدمي التاج العربي ، والا تلك العاطفة التي خنقتها يد الزمان ! .
فهم بالجواب فاسكته قائلا : اليس من العار ، ان يستسلم فتى الميادين الى ايدي الخيبة ، ويحني راسه للقدر الذي بخل عليه بابنة مولاه ؟ اتطيق يا بني ان تكون النساء اصلب عودا من الرجال ، وان تخرج مولاتنا قدرة ، من الساحة ، رافعة الراس، وتخرج انت معفر الجبين ؟ قل لي يا زيد ، الم تكن ابنة الملك مكرهة على ترك بترا ، كما انت مكره على خنق غرامك ؟ الم يكن حبها ، حب فتاة كبيرة النفس ، شريفة القصد، وعاطفتها ، عاطفة فتاة هي في عنفوان الصبا وزهرة العمر ؟ اينزل الرجل

الى الاعماق ، وترتفع المراة الى العلاء ؟ اتحب ، لتصبح ذليلا في عيون القوم، ولياس لتشقى ويشقى ابوك ؟ وجلس الى مقعده وهو ينظر اليه . . .

فقال : لا تلم يا مولاي فسلطان الغرام سلطان جائر لم يتعلم الرفق.

ــ صدقت ،ولكنه يجور على الضعيف ، ولايجسر على مد يده الى القوي .

قال : ما سمعت قطان قويا استطاع ان يظفر به . .

ــ اما انا فقد رايت الرجال تتصدى له ، وتثبت في المجال ، حتى تتلاشى قواه ، ويتراجع ، وهو مغلوب . . لقد هممت من قبل بان تقتل نفسك ، فمنعناك ، ثم لجات الى البادية وانت ابن القصور ، ولم انس قولك انك ستقذف بنفسك الى معترك السيوف ، يوم تنشب نار الحرب بيننا وبين الرومان ، لتموت غير آسف على الحياة . اهذه هي القوة ؟ ام هو الضعف املى عليك ما فعلت وما تفكر فيه ؛ فاحس الفتى عندئذ،انه اخطا في جميع المظاهر التيذكرها ابوه فقال : لقد كان ما كان يا مولاي فانس الماضي . .

ــ لقد نسيته انا ، فهل تنساه انت ؟ فتردد العاشق الشقي ، في جوابه . . فقال ولي العهد : يكفي ان يتناساه . .

قال : اعترف باني لست قادرا على نسيان ماضي يا مولاي ولكني اعد اني ساصبر الى النهاية كما يصبر الرجال . .

فقال ابوه : وتترك الصحراء ؛

ــ نعم يا مولاي حتى ليحسبني الناس اني لم اكن عاشقا ، ولولا حزنه لتفجرت دموعه . . لقد كان من الصعب ان يفي زيد العاشق ، بما وعد ، ولكن ماذا يصنع وابوه يبكي عندما يراه ، وقلبه يكاد يذوب ، لحال ولده ؟ ومن اين له ان ينسى فدرة ، وهي في قلبه ، وامام عينيه ؟

لا . . ان زيدا لا ينسى ، بل يعالج امره بالاحتمال حتى تفعل الاقدار ما تريد ان تفعله ، فيرضى بذلك ابوه ، ويرضى الملك ،وينظر اليه الناس ، كما كانوا ينظرون الى زيد بن عياش ، من قبل . ودار الحديث بين الثلاثة، حول المعاهدة واحوال اليهود ، وكانت شقيلة تشترك فيه ، وكلما ذكر هيرودس ، يحس زيد ان شفرة حادة تخترق فؤاده المحترق . ولم يشا

في كل ما جرى من احاديث ، ان يسأل ولي العهد او يسأل اباه ، عن الحبيبة التي حجبوها عن عينيه !..

٣٦

متى تعودين يا هيرودية ؟

ـ لا اعلم متى اعود فالامر في يد اخيك فيلبوس ...

قال : الا يأذن لك في المجيء الى الجليل عندما تشائين ؟ فـــأرادت الداهية ان تمتحن الامتحان الاخير فقالت : وماذا اصنع في الجليل لاعود اليه ؟ الم تر ان بقائي في قصر بضعة ايام ضيع هدوء زوجتك ؟

قال : لا اريد ان اسمع مثل هذا بعد الان .

ـ اما انا فاريد ان اقوله كلما سألتني عن ذلك .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لاني رأيت بعيني ما لا تستطيع ان تخفيه ..

قال : لقد عرفت الان انك تؤثرين الاقامة بين الشعب الذي لا ينظـر اليك كما ينظر الى آلهته ..

ـ ذلك خير من أن اقيم بقصر ينظر الى اصحابه كما ينظرون الـى عبيـده ...

ـ ولكني قلت لك قبل الان انك بهجة الجليل ، ونور حياةهيرودس.

ـ ومع ذلك فانا لم انس ان للقصر بهجة اخرى هي قدرة التي جعلتها سيدة قومك !!

قال : انها سيدة القوم بالاسم وقد تكون هنالك امرأة اخرى هـي سيدتهم بالفعل ، وهذه المرأة هي انت .

قالت : يخيل الي انك تهزأ بي كلماذكرت هذا ... أأكون سيدة القوم وانا في الجيدور لا ارى فيها احدا من اليهود ؟

ـ ولكنك ستتركينها بعد حين ،على ان تبقي في الجليل الى الابد!.

وكيف افعل ذلك وانا زوجة فيلبوس ، وهو مريض في فراشه لا يستطيـع ان ينتقل من مخدع الى اخر ؟

قال : يستعين فيلبوس على مرضه ، بجواريه..!

ـ واكون انا جارية في قصرك ام ماذا ؟

ـ تكونين الملكة التى تنحني لها رؤوس الناس . فضحكت وهـــي تقول : اجل ،ساكون ملكة بدون تاج ، وامراة تركت رجلها لتقيم مع رجل اخر هو زوج امراة اخرى . . . اني لم ار ، في كل ما رايت يا مولاي ، خيرا من هذا الراي . . . وتحفزت للوثوب كما تتحفز اللبوة ، وكان هو بدوره يريد ان يصل الى غايته ، فقال : اما التاج فانت تستطيعين ان تعصبي بــه راسك عندما تريدين . . واما اني زوج امراة اخرى ، فانا استطيع انامـي في الوقت نفسه ، زوجا لهيرودية وينتهي الامر .

قالت : لم افهم شيئا مما تقوله يا مولاي . . اتستطيع هيرودية ان تعصب راسها بتاج الملك ، عندما تشاء ؟

ـ نعـم

ـ وكيف يكون ذلك ؟

ـ لقد رايت ان اجعل اريتاس العربي، حليفا لي ، من اجل هذا التاج الذي ذكرت .

ـ وماذا يفعل اريتاس من اجله ؟

ـ يجرد السيف معي في وجه الرومان ، فانتزع منهم النفوذ والسلطان ، واثب الى العرش الذي كان لهيرودس الكبير .

ـ واذا خانك الحظ وسقط حليفك في الميدان ؟

ـ اسقط خلفه ويضمحل الامل الذى عللت نفسي به .

ـ ولكنك لم تقل لي ما هو شأن هيرودية بذلك ؟

ـ تحول بيني وبين الحرب ، وتتناول بيديها التاج لتضعه على راس هيرودس سيد الجليل الذي ستمسي زوجة له . . .

قالت : لا يستطيع رجل في اليهودية، ان يهب تاج الملك لواحد مـــن ابدالها ، الا بيلاطوس الرومانى ، فانت تريد اذن ان اجعل هذا الوالي آلــة في يدي ، واخذ التاج منه ؟ . . .

ـ بل اريد ان تتناوله من بين يدي رجل اعظم من بيلاطوس .

ـ ومن هو هذا الرجل ؟

ـ هو اخوك اغريبا المتمرغ في نعمة القيصر !

ـ ومتى كان اغريبا قادرا على ان يهب التيجان للناس ؟

ـ ان التاج يهبه طيباريوس ، بكلمة واحدة يقولها احد المقربين اليه ، ولا يجسر رجل على ان يقول هذه الكلمة الا اغريبا . فرأت هيــــرودية عندئذ ان تتدلل ما طاب لها الدلال، لقد ايقنت في تلك الســاعة، انعمهااصبح عبدا لها تقذف به الى حيث تشاء ، فقالت له : ولكن اغريبا لــم يكتـب الي كلمة عن رضى مولاه ، ومقامه في بلاط القياصرة ، وانا لم اعرف هــذا المقام ، الا من افواه الناس .

قال : اظن انه يلبث حتى يفعل وسيأتيك جوابه .

ـ وهل يخطر لك يا عم انيالوج هذهالعربية بيدي اذا قدرتعلىهذا؟

ـ بل تتوجين رأسك كما قلت . . .

ـ وماذا تفعل بفدرة ؟

ـ انسى فدرة كأنها غير موجودة . .

ـ ولكن هذا النسيان ، لا يكفي .

ـ اذناطلقها واعيدها الى البلد الذي خرجت منه . . .!

ـ ومن يضمن لي انك ستفي بما تعدني به الان ؟

ـ اقسم لك اني سأطلقها يوم اجلس على العرش ،! فانا لولا الحاجة الى سيوف العرب ، لما خطر لي ان اعاهد اباهاواجعلها زوجة لي .

ـ كما انه لم يخطر لك ان تتزوج هيرودية ، لولا الحاجة الى التــاج ، أليس كذلك يا مولاي ؟

قال : فتنتني عيناك الساحرتان ووجهك الفياض بالجمال ، قبلان يخطر لي ما تقولين .

ـ ولكني لم اعلم كيف يتم هذا الزواج وفيلبوس حي!

ـ تخرجينه عن حده ، فيعمد الى الطلاق ، ثم تتزوجين . . .

ـ وان لم يفعــل ؟.

ـ تمكثين في هذا القصر دون ان تذهبي الى الجيدور ،فيغضب لهذا الجفاء ويقدم على ما ترغبين فيه .

ـ وابنتي سالومي ؟

ـ تجيء معك الى الجليل وتقيم حيثتقيمين . .

ــ ومع ذلك فانا ارى انه لا يطلقني ولو خسر حياته ..
ــ اذن ففيلبوس لا يغضب لشرفه !
ــ لا اعلم ولكني واثقة بما قلت .
ــ وما الذي يدعوك الى هذا الوثوق ؟
ــ ماضيه وحاضره ، واستسلامه الي في حياته مع شعبه ، وحياته في القصر ، وخضوعه لي كأنه المرأة وانا الرجل .
قال : قد يكون هذا الاستسلام دهاء منه .
ــ وأي شيء يحمله على هذا الدهاء ؟
ــ حاجته في مرضه ، الى زوجة تشاطره همه وتنسيه عنايتها بعض المه .
قالت : يظهر انكم لا تحبون يا عم الا اذا قضت الحاجات بهذا الحب . .
قال : اذا احب هيرودس ، مضى في حبه الى النهاية ، وكان ماله وحياته ، وهناؤه فداء لمن احب .
قالت : الم تقل الان انك ستطلق فدوة يوم تتربع في العرش ؟ بلى
ــ اذن يجوز لي ان افترض ان الامر لا يتم لك الا بعد بضعة اعوام.
ــ ليكن هذا فانا لا ابالي.
ــ اما انا فلا استطيع ان اصبر حتى يهب لك قيصر تاج اليهود!! اريد ان تطلقها قبل ان ترسل اليك السماء هذا التاج ، كما اريد ان ازف اليك وفيلبوس حي !! . .
فرأى هيرودس ان تلك المرأة الساحرة ، ذات العينين الذابلتين ، والابتسامة العذبة ، قوية الارادة ، شديدة المراس ، لا تعبأ بسنة قومها وعاداتهم ، اذا كان لها من وراء ذلك غرض او عاطفة . . . تريد ان تتزوج وزوجها حي ، وهي لا تبالي بشرفها يمضغه الناس في الافواه ، ويجعلونه مثلا غير صالح ، لكل امرأة تأتي بعدها من نساء اليهود . اجل ، لقد سبى جمال هيرودية قلب هيرودس ، فضعف وهو القوي ، وخارت قوى دهائه ، امام دهائها الجذاب ، وكان التاج الذي يقبض عليه اغريبا بيديه ، والذي هو امنية نفسه ، اقوى دافع يدفعه الى الخضوع لمشيئة ابنة اخيه. وعلى الرغم من تينك العاطفتين القويتين ، عاطفة حبه ، وعاطفة طموحه الى المجد ، تردد في جوابه ، كانه يخاف ان يمسي ذلك الجواب ، سلاحا

ماضيا في يدها ، تشهره عليه في مواقف الجد ومواقف الدلال . ثم قال :
اتريدين ياهيرودية ان يخالف رئيس الربع في الجليل سنة قومه،ويتزوج امراة زوجها في الوجود ؟

قالت : الرجل الذي يفكر في عرش اليهودية ، ويحلم بالجلوس فوقه ، على الرغم من الوالي الروماني نفسه ، لا يبالي بالسنة التى ذكرت .

ـ ولكني لا اطيق ان يهزا بي كهنة اليهود والشعب ، ويلعنوني في المجالس والهياكل كأني من المجرمين ..!

ـ انهم اضعف مما تظن يا مولاي ..

ـ واذا شكوني الى قيصر ؟

ـ لم يتعود القيصر ان يمد يده في مثل هذا الامر ، فهو يعني اليهود وحدهم وليس للقياصرة شان به .

قال اخشى ان يثور الشعب يا هيرودية ويغضب لسنته التي استخف بها هيرودس ، فنخسر نحن الاثنين كل شيء..

ـ اما انا فاخشى ان اقيم بقصرك عاما او عامين ، فتلهو بي ما طاب لك اللهو ، ثم تأمرني بالخروج منه ، كما يخرج العبد الذليل ، الذى يتمرد على سيده !!

قال : اكتب لك عهدا اني ساقوم بما وعدت ، وستزفين الي يوم يطلقك فيلبوس على مرأى ومسمع من قدرة نفسها .

قالت : لااؤمن بهذه العهود يامولاي . .

ـ لماذا ؟

ـ لاني اعلم كما تعلم انت ، ان الحق للقوة !

ـ ولكن سيكون لك في هذا القصر ما هو للزوجة ، من مال وجوار وهيبة ومقام ، تحسدك عليه الملكات .

ـ على ان الناس يعلمون اني لست زوجة لك وهذا يكفي.

قال : اتخافين ان يقول الناس انك خليلة هيرودس، وانت لاتخافينهم يوم تجعلين سنتهم تحت الاقدام ؟

قالت : لا اخاف احدا عندما ازف اليك ... فحاول رئيس الربع بطلاقة لسانه وحديثه الساحر ، ان يحملها على الرضى بما طلب فضاع حديثه وسحره ، لان ارادة هذه الفاجرة ، كانت من الحديد الذي لا يلين

ثم قالت له وهي تبتسم : هبني كتبت الى اغريبا ولم يجب ، افلا تجد من الرأي ان اذهب انا نفسي الى روما لاراه ، والتمس منه وانا بالقرب منه ، ما كتبت اليه عنه ؟!

ـ واذا فعلت ذلك ؟

ـ خير لي ان افعله وانا زوجتك ، من ان افعله وانا من حظاياك . .

ـ بل تفعلينه وانت هيرودية ابنة ارسطوبولس التى تريد أن تسترجع لعمها تاج جدها هيرودس الكبير . .

ـ لا اجسر على هذا يا عم لان اغريبا سيعلم اني حظية لك، وسيغضب لعرض اخته الذي هو عرضه . . فجعل هيرودس يفكر في امره وراسه بين يديه . . وقد ايقنت المراة عندئذ بانها ستظفر به ، ثم رفع راسه وقال: اذا لم يعمد فيلبوس الى الطلاق نظرت انا في الامر ، وفعلت ما تشائين .

ـ بل تعدني الان انك تعلن اليهود جميعهم اني زوجتك . .!!

ـ اعدك بذلك وسأفي بما وعدت . . ولكن هيرودية لم تبتسم لهذا الوعد الذي تنتظره ، بل قطبت حاجبيها ورفعت صوتها قائلة : والامر الاخر ؟؟

ـ ما هو ؟ طلاق فدرة !

قال : ويلك اتريدين ان تفاجئنا خيل العرب فيغرق الجليل واهل الجليل ، في بحر من الدماء ؟!

ـ وهل تطيق المراة التى تهجر زوجها لتتحد بك الى الابد ، ان يكون في قصرك امراة اخرى ، تنظر اليها كل صباح ومساء نظرات الحقد،وتسمعها في كل لحظة ما لا تطيق سماعه ؟

ـ ولكن هل تريد المراة نفسها ان تضيع التاج، الذى خالفت سنة قومها لاجل الحصول عليه ؟

ـ وكيف يضيع ؟ قال : الا يجوز ان يمنعك اخوك اغريبا ، الامر الذي تطلبين ؟ ـ بلى

ـ ومن يضمن لك تاج الملك بعد ذلك ؟

ـ يضمنه السيف . .

ـ وهل ترين ان امير الجليل ، يستطيع ان يسترضي امة اليهود ، ويسحق الرومان النازلين في هذه الارض ، ثم يتربع في عرش ابيه علـى رغم الفريقين ؟ فجعلت تنظر الى العلاء وهى ساكتة .

فقال: قولي يا هيرودية ،ايقدر اليهود كلهم لو اجتمعوا ، ان يظفروا بروما ، وجنودها تملأ البر والبحر ؟ ـ لا

ـ اذن اين هو السيف الذى يشهره هيرودس ليبلغ غايته ؟ فعرفت انه يعني العرب ، فقالت : هو في بترا ..

ـ ولكن بترا لا تجرده من غمده الا اذا امرتها فدرة بان تنفصـل ، انطلقها ثم تقول لابيها بعد ذلك ، اعطنا سيفك ، وارسل جنودك الـى الميادين لنسترجع التاج الذى سلبنا اياه قيصر الروم ؟ ثم قال : وبمن نستعين اذا لم نستعن باريتاس ؟ انستعين بسوريا وهي لروما ، ام بمصر وهي مثلها ، ام بالشرق القريب ، والشرق القريب يستظل بظل العلم الروماني الظافر في كل حرب .. قولي يا هيرودية ، الا يضيع التاج ، بعد طلاق فدرة ، اذا لم يشأ اغريبا ان يمنحنا اياه ؟

ـ واذا شاء ان يعدنا به ؟

ـ ينتهي الامر عندئذ وتعود ابنة اريتاس الى بلاد قومها .

قالت : والان احلف لي يا مولاي برب اليهود .

ـ بل فاحلف بهذا الجمال الخلاب اني سابر فيما وعدت ، فانحدرت دموعها على خديها وهي لاتكفكفها . فقال : اتذرفين الدموع يا هيرودية وقد استقام لك الامر .

ـ انها دموع الفرح يا مولاي .

قال : اذا رحلت غدا فمتى تعودين ؟

ـ اتهيأ لهجر الجيدور الى الابد ، ثم اعود مع صالومي وجـواري لنعيش في ظلك العيش الجديد الذى نرغب فيه .

ـ وماذا تقولين لفيلبوس ؟

ـ سأقول له كل شيء قبل ان اغادر القصر .

ـ ولكنه قد يموت من قهره .

ـ بل يحتمل فانا لم ار رجلا اشد احتمالا منه .. ثم قالت له قبل ان تخرج من القاعة : اتظن ان ولي العهد سيحدث اباه بامر البيد ؟

قال : لقد كان سؤاله عنها سؤال معجب لاسؤال عاشق كما قال ، وانا ارى انه سينسى .

ــ بل كانت له غاية من سؤاله لا نعلم ما هي !

ــ مهما تكن غايته فهو لا يتزوج البيد ،ولا يترك تلك الفتاة العربية التى اختارها هو وابوه ولية للعهد .

قالت : لقد خيل الي انه سيسقط في شرك الغرام وستصبح ابنة العم سيدة بترا بعد الملكتين .

قال : لو حدث ذلك ، لانضمت بلاد العرب الى اليهودية ، بعد موت اريتاس ، وامسى الملك العربي ، بعد هذا الانضمام ، عاملا من عمال اليهود. فنهضت قائلة : من يعلم قد ينتهي امر العرب بفضل اغريبا ،على مانحب، وللذهب دولتهم من الوجود .. وهمت بالانصراف وعلى شفتيها ابتسامة الظفر ، فاستوقفها قائلا : متى تكتبين الى اغريبا ؟

ــ سأكتب اليه من الجيدور .

ــ بل تفعلين ذلك غدا قبل ان تنقلي من الجليل قدما .

ــ ولكني سارحل عند الفجر وقد امرت عبيدي بان يتهيأوا للامر ويعدوا كل شيء عند منتصف الليل..

ــ ومع ذلك فستكتبين اليه قبل بزوغ الفجر وسأملي عليك مايجب ان تذكريه له ... فوعدته بذلك ولم تنس ان تهامسه عند خروجها قائلة: ارجو ان تذكر دائما اني شديدة الغيرة ... فضحك وقال : قد تفضحنا الغيرة يا هيرودية فلا تبدأي بها ولا تلفتي الينا نظر رجال القصر وغلمانه وجواريه ..

ــ اذن فتناس فدرة فانا لا اطيق ان ارها مفترة الثغر . وخرجت من القاعة كانها ملكة ، وكان تاج اليهود يغطي جبينها الفتان ، الوضاح ..

فاستلقى هيرودس بين وسائده وجعل يقول في نفسه : لا تستطيع قوات العالم بعد الان ان تنزع التاج من يدي ، فاما العرب .. واما ملك البرتيين... واما اغريبا .. وساعلم كيف اعيش مع فدرة ،واحملها على الرضى بما فعلت ...

٣٧

رات فدرة ان هيرودية ، تكاد تكون في نهيها وامرها سيدة القصر ، وصاحبة الكلمة الاولى نيه ، بل رات ان سيد القصر نفسه ، يكاد يكون عبدا لارادتها النافذة التي لاترد!. وكانت قد تنبات من قبل ، ان الغرام سيبسط جناحيه فوق الاثنين ، وسيكون لهيرودية شان في الجليل ...
فصبرت اولا على ما رات ، والفتاة التى لا تحب ، يهون عليها ان تصبر ، وان تغض الطرف عن الاذى الذي يخلقه الزواج ...

ولكن العاشقين جوزا الحد ، ونمت عليهما في مجالس القصر مظاهر الهوى ، فاحست عندئذ انها زوجة ، وارادت ان تسمع حديث الاثنين ، وهمس هواهما .. غير انهاكانت كبيرة في كل شيء ، وكانت الابتسامات تخفي لوعتها ، وتحجب النار المتقدة في العينين . ولكن ذلك الكبر كان يضمحل ، عندما تمسي في مخدعها وتفكر في ماضيها الضاحك واحلامها التى محاها الزمان .. لقد اكرهها ابوها ، على ترك ذلك الحبيب، الذي احبته الحب كله ، وبعث بها الى الجليل ، لينسيها سلطانها لجديد، وبهجة قصرها غرامها المخنوق ، فاذا هي في ذلك القصر لا سلطان لها ولا بهجة لنفسها ،فكأنها انتقلت من مهد النعمة والعز ، الى حضيض الذل والشقاء .

وكانت جاريتها نفتاريت ، ترى كل ما تراه سيدتها ، من شذوذ هيرودس ، وميله الى الراقصة الحسناء... ولكنها لم تشا ان تقول لها كلمة ، خوفا من ان تجرح عزتها ، وتسيء الى كبريائها التى هى كبرياء الملكات .

ففي اليوم الذى اجتمعت فيه هيرودية بهيرودس ، رات تلك الجارية الامينة ان تخاطب سيدتها بالامر ، وتشاطرها الكآبة ، التى يحس بها قلبها المكسور ... الخفاق ، فقالت لها وهي تذرف الدموع : الا ترين يا مولاتي ان هذه المراة الراقصة ، ستفتن هيرودس وتضيع هداه ؟
– بل ارى اكثر من هذا واناصابرة ..
– وما الذي تطمع فيه ، وهى ابنة امير ، وزوجة امير ، ولها في

الجيدور قصر مثل قصر هيرودس ،ومال يزيد على ماله ؟!

ــ انها تطمع بان تكون فتنة الرجال ، ولا تبالي بشرفها يجعله الناس موطنا للاقدام ... اين هي الان ؟

ــ رايتها في الرواق الذى يؤدي الى قاعة الامير ..

ــ ومعها البيد ؟

ــ لا يا مولاتي بل كانت وحدها كأن بينها وبين هيرودس موعد لقاء . فبرقت عينا الاميرة قائلة : ارايتها الان ؟

ــ في هذه الساعة ...

قالت : الا تعرفين ذلك المخدع الصغير الذي يضع فيه زوجي سلاحه؟

ــ بلى ..

ــ ان بين هذا المخدع ، وبين قاعة هيرودس ، جدارا عليه بعض الاعلام التي غنمها هيرودس الكبير .. ــ نعم

ــ وهذا الباب الذي ترين ، يفتح على الدهليز الذي ينتهي عند بابه ... افهمت الان ما اريد يا نفتاريت ؟

ــ اجل يا مولاتي انك تريدين ان ادخل مخدع السلاح واضع اذني على ذلك الجدار فاسمع كل شيء.

ــ اذن فاخرجي واحصي على الاثنين انفاسهما ولاتنسي كلمة واحدة مما يقولان ، اذهبي واحذري ان يراك احد . واومأت الى الباب الذي ذكرته لها ... فخرجت الجارية ومشت في ذلك الدهليز الضيق الطويل، ثم توارت وراء الباب القائم في اخره ... فجعلت فدرة تبكي ، وتعتب اباها على طمعه ، واستخفافه بهواها المبرح ، وتطبق شفتيها الملتهبتين ، على اسم ذلك الحبيب المنكود الحظ ، زيد بن عياش .

مرت ساعة طويلة حسبتها فدرة شهرا ... ثم اقبلت نفتاريت ، والنبا المزعج على وجهها وفي عينيها فقالت الاميرة : لقد قرأت على وجهك ما تحملين ... فاذكري كل شيء . فجلست الجارية عند قدميها، وقصت عليها كل ما سمعته من العاشقين ، وهي تشهق في البكاء وشفتاها ترتجفان .. فاطرقت فدرة ، وهي تردد كلمتين اثنتين ، الطلاق والتاج... ثم قالت وهي تبتسم : اذن سيكون الطلاق بعد ان يعدهما

اغريبا بتاج الملك ؟!

ـ نعم يامولاتي وانا ارى انه ليس على الارض قوة ، تستطيـــــــع ان تثني هيرودس عما يهم به!

قالت : انه زواج قصير العمر لم يبدأ الا لينتهي .. اذن فقد اصبت واصابت امي يوم خطر لنا ان هذا الزواج زواج غاية .. فاين الملك الحارث ليرى ماأراه ويسمع ماأسمعه ؟ واين زيد لتقع عيناه على الفتاة الشقيـــــة التى طرحتها الاقدار بين يدي الزوج الجلاد الطامع بالعروش ... اجل ان هذا الطلاق احب الي من الملك ،ولكن ماذا تقول نساء العرب ، عندمــا اعود الى بترا وانا اتعثر بالذل ، وماذا يقول الحارث عندما احمل اليـــــه خيبة الرجاء؟

وكانها اصيبت بالذهول، فاستوت في مجلسها وجعلت تنظر الـــى جدران القاعة نظرات المجنون .. فقالت نفتاريت : حسبك يا مولاتي ان هذا الطلاق يمليه غرام هيرودس وانصرافه عن سنة قومه ..

ـ ولكن الناس لا يعرفون ذلك ، وقد يقولون ان ابنة الملك العربـى لم تستطع ان ترضي امير الجليل ...

قالت : ان الجواري والغلمان يفضحون الاسرار ..

ـ غير ان العالم لا يصدق هؤلاء..

ـ وماذا تصنعين وهيرودس يحلم بالتاج ، ولا يبالي بالوسائـــــل التى يستطيع معها ان يجعل هذا التاج على رأسه ؟ فسكتت قليلا ثم قالت: الا تجدين في هذا القصر رجلا مخلصا يحمل رسالة الى بترا ؟

ـ وهل تفكرين في الكتابة الى الملك ؟

ـ بل اكتب الى اخي فقد يكون له في ذلك راي..

ـ ولكنه سيخبر الملك فيغضب ، ويتناقل الخبر رجال القصر .

ـ لقد عاهدني على كتمان ما اكتبه اليه وسيحفظ السر حتـــــى يطفح الكيل ، ويعجز الصدر عن حمل الاسرار ..

ومولاتي الملكة ؟

ـ خير لها ان تجهل كل شيء ، فليس من الراي ان تقذف بهـــــا ابنتها الى هوة اليأس .. واما الملك فسيخفي وجهه بيديه خجلا من نفسه،

ومن قومه ، يوم يعلم اي شقاء يكتنف ابنته ..

ــ وهل تبعثين الرسالة اليوم ؟

ــ بل الان ،اذا وجدت الرجل

قالت : ليس في القصر يهودي اثق به

ــ فهزت راسها قائلة : ابنة الملك العربي ، واميرة الجليل ، لا تجد حولها رجلا صادقا يحمل رسالتها الى بترا !! وكيف نصنع ؟

ــ يجيء الى سوق الجليل كل يوم ، طوائف من العرب ، للبيع والشراء .

ــ ولكنك لا تعرفين احدا منهم ..

قالت : لا ابالي يا مولاتي فيكفي أن يكون الرسول عربيا .

ــ اذن فاخرجي واختاري من تشائين ، ففعلت ما امرتها به ثم عادت وهي تقول : لقد وجدت الرجل وهو ينتظرني وراء الهيكل .

ــ من هو ؟

ــ من ال مالك بن عون ، من حوران ..

ــ ويعرف بترا ؟

ــ اجل ، ويعرف ولي العهد وعياشا وزيدا وجميع رجال الملك ، وقواد الجيش ، بل يعرف غلمان القصر واحدا واحدا .

ــ ماذا يدعى ؟

ــ يدعى فياضا ، واسم ابيه سعد بن عون .

قالت : عسى ان يكون ابن سعد ، سعدا لابنة الملك المنكودة الحظ ... وقامت فكتبت الى اخيها ما تقرا : « الى ولي عهد الانباط ، مالك ابن الحارث ..

يحمل اليك كتابي هذا فتى عربي رأته نفتاريت في سوق الجليل، لقد وقع يامالك ماكنت اخشاه واستسلم هيرودس الى الراقصة الفاجرة استسلاما هو العار ... انه يطمع بتاج ابيه كما تعلم ، وسيلجأ الى اغريبا شقيق هيرودية النازل في روما ليجود عليه به ،فاذا فعل فاختك طالق ، وان لم يشأ اغريبا ان يكون عونا له ، فسيستعين بالعرب على نيل مابته ، كما جاء في المعاهدة ثم ينتهي الامر بان يعيدني الى بلاد قومي

ليعيش العمر كله مع ابنة اخيه . . . اني اؤثر العيش في الجليل ، مع الشقاء والذل على الرجوع الى بترا وانا مطلقة ، كما اني اؤثر ان اموت قبل ان يعرف الملك ما جرى . . . اجل يا اخي ، لقد بدأ الزمان ان يجور، ولكن كن واثقا باني سأصبر الى النهاية وساحتفظ برصانة الملكات » .

ثم طوت كتابها وناولتها اياه قائله : اوصي فياضا بان يحمل الي جوابه وبان يكتم اهل بترا جميعهم امر هذا الكتاب . وكان فياض بانتظار نفتاريت عند الهيكل ، فاخفى الرسالة في حزامه ، ثم تناول ما جادت به فدرة من المال ، وعمد الى ناقته فركبها وهو يقول : قولي لمولاتنا ابنة الملك اني سأعود بعد عشرة ايام . وظلت الجارية واقفة حتى احتجب الرجل وراء منازل الجليل ، فرجعت الى القصر وهي تفكر في يأس فدرة الذي لا دواء له . وكانت فدرة عندئذ ، قد خرجت الى الرواق ، وهي تبتسم للجواري والغلمان كأن الحياة تبتسم لعيشها الرغيد . .!

٣٨

ابس قصر الملك العربي ، حلة فتانة زاهية ، فيها جميع الصور والالوان . . . ان شقيلة ابنة عياش ، ستزف الى ولي العهد ، وستشارك قبائل العرب كلها ، ملكها العظيم في هنائه وافراحه ، وكانت الملكتان وشقيلة، يطلبن الى الملك ، ان يدعو فدرة وهيرودس الى بترا ، ليشهدا حفلة العرس . ولكنه لم يرد ان يفعل ، وكان عذره لزوجتيه ، انه كان يريد ان تظل فدرة بعيدة عن بترا ، لتضمحل من صدرها ذكريات الشباب . . وذلك كان رأي ولي العهد .

وعندما كانت ابنة الملك ، تعالج شقاءها في قصر زوجها ، كانت شقيلة تنظر في مستقبلها الضاحك نظرة الطمانينة والاعجاب . وبينما كان هيرودس ينصرف الى لذته وهواه، ويتمادى في الاستهتار ، كان مالك بن الحارث ، ينصرف الى اعداد الهناء للفتاة التي لم تزف اليه . اي ان الاقدار كانت تجور على فدرة وتبتسم لابنة عياش ، وسكان البلاط العربي ، لا يعرفون شيئا ، عن سكان قصر هيرودس ، في الجليل . . حتى اقبل فياض ابن سعد ، يحمل رسالة الاميرة الشقية ، الى اخيها

الذي يهم بالزواج ، وكان مالك ، مع زيد بن عياش ، عندما تناول كتاب اخته ، فقال لفياض : من اعطاك هذا ؟ فذكر الرجل وصية نفتاريت ،فقال: امير من حوران . . ثم التمس منه ان يأذن له في كلمة يقولها له . فاومأ الى زيد بان يبتعد وقال : هذا كتاب من اختي ايها الرجل فهل انت آت من فلسطين ؟

ــ نعم يا مولاي

ــ ورأيت الاميرة؟

ــ بل رايت جارية لها تدعى نفتاريت ، وهي التي سلمت الي هذه الرسالة واوصتني بالكتمان . . .

فنادى احد العبيد قائلا له : خذ هذا الرجل الى دار الضيافةواعطه ما يحتاج اليه ، ثم قال لفياض : وطلبت اليك نفتاريت ان تحمل اليها جوابا ؟

ــ اجل وسانتظر يا مولاي حتى تعطيني اياه . . فقرا الكتاب ،ويداه ترتجفان . . ثم اخفاه في يده وجعل يروح ويجيء وهو مطرق لايرفع نظره عن الارض . وكان زيد يراه ، وقد حدثه قلبه بان ذلك الكتاب من فدرة ، وان هنالك حادثا دعاها الى ارساله ، وخيل اليه ان ولي العهد سيقص عليه ما ورد فيه ، فدنا منه وقال : ماذا جرى لك يا مولاي ؟فنظر اليه الفتى دون ان يقول كلمة ، ثم مشى كأنه لا يريد ان يفشي اسراراخته، ولكن زيدا لم يسكت ، بل كان يقول : يظهر ان هذا الكتاب يحمل اليك ما تكره ،افلا تذكر لي يا مولاي ما كتب فيه .

فرفع راسه قائلا : خير لي ان اسكت يا زيد ، وخير لك الا تعلم شيئا عنه . .

ــ ومن هو صاحبه يا مولاي ؟

فجال الدمع في عينيه وقال : فتى يائس ارسل اليه الزمان سهام غدره وجوره ، وهو في زهرة العمر .

قال : استحلفك براس الملك ان تذكره لي. . .

ــ لو استطعت ذلك لاستعنت برايك على معالجة امره . . . انه يريد ان يبقي سره في صدر ولي العهد .

ـ اما انا فقد عرفته يا مولاي ، واكاد اقرا اسمه فى عينيــــــك الباكيتين . . .

قال : انك لا تعرف شيئا فلا تزد . . .

ـ بل اعرف كل شيء وسأبوح باسمه عندما تأذن لي.

قال : من هو ؟

هو فدرة ، وقد شرحت لك في كتابها ، ما تعانيه من الم ، وما تـراه من ظلم ذلك اليهودي. وحبس انفاسه ليسمع جوابه . فحاول ولي العهد ان يخفي سره ، وراء ابتسامة كاذبة ظهرت على شفتيه ، ثم قال : لــــو كانت فدرة صاحبة الكتاب لارسلته الى الملك او الى امها الملكة ، ولم تبعث بـه الـــي !

ـ ولكنها لا تكتب الى الاثنين . ـ لماذا ؟

ـ لانها تخشى ان يظن الملك ، اذا كتبت اليه ، انها تذكره بخطيئته، كما انها تخشى اذا كتبت الى الملكة ، ان تعكر عليها صفو الحياة !

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ لم يقله احد يا مولاي ، ولكنه خطر لي. .

قال : لقد كان صاحب الكتاب فتى كما قلت ، وهو من رفاق ولـي العهد ، في غزوه ، وصيده !

ـ واين يقيم ؟

ـ وراء جبال حوران ! وهم بالذهاب ليستطيع الاحتفاظ بسره ، فتصدى له زيد واستوقفه قائلا :اقسم براس الملك وراس ولي عهده، انك اذا لم تقل لي من هو صاحبك هذا ، قتلت نفسي. .

قال : آمرك بالانصراف فانصرف !!

ـ ولكني اقسمت يا مولاي وانا باق . .!

قال : ستصيبك الطعنة في الصدر ايها الشقي . . .

قال : لقد اصابتني طعنة مثلها من قبل ولم امت اليست فــــدرة صاحبةالرسالة ؟ ـ بلى

ـ وماذا تشكو ؟

ـ بعد الاوطان . . وجور الزمان.

ـ بل تشكو جور ذلك الامير المستهتر ، الذي يقضـــي لياليـه في احضان الراقصات ، والذي جعله الملك من الالهة .

قال : اخفض صوتك يا زيد فقد يسمع الملك ! ومشى امامه الـــى احدى القاعات وجعل يقول : لقد اوصتني فدرة بالكتمان ، فهي لا تريـــد ان تتناول شقاءها الالسنة ، وتردده الافواه ، ولكنك كنت ساحرا ففضحت السر ، ولم تشأ الا ان تمد اصبعك في الامر ، وتشاطر ولي العهد ما يعانيه من هناء وهم . وطرح الكتاب بين يديه قائلا : هذا كتاب فدرة فاقراه .

فقراه ابن عياش .. ثم قراه وهو يكفكف دموعه ، ولبث ساكتا ذاهلا وقد انتقل بالروح الى الجليل ...

ثم قال ولي العهد : ما رايك الان فيما قرات ؟

ـ وليس لي راي يا مولاي فافعل انت ما تشاء .

ـ وماذا افعل يا زيد ، وقد جاء في كتابها انها تؤثر البقاء فى الجليل على الرجوع الى بترا ؟ انها لا تنزل عن كرامتها ، ولا تريد ان يقول النـــاس: لقد رجعت ابنة الملك الى بيت ابيها لانها لم تتعلم ان تعيش في بيت خر..

ـ واذا طلقها هيرودس ؟

ـ اقسم بالهة العرب لئن طلقها هيرودس لاحملن سيفي واطـوف في الجليل لا ابقي على يهودي ..

ـ اما الان ؟

ـ اما الان فساحتفظ بالسكوت ، وساكتب اليها ان تحتفظ بالكرامة وتصبر على الاذى ، حتى يخرج هيرودس عن حده ويعمد الى الطلاق .

ـ ولكنها ستقضي ايامها بالبكاء ، وستعيش معه كما يعيش المرء فى بيت واحد مع عدوه .

ـ بل تعيش معه كما تعيش الزوجة مع زوجها ، دون ان تبوح لـه بما في الصدر ، ودون ان تقول لهيرودية كلمة .

قال : لو كنت ولي العهد لكتبت اليها غير ذلك ..

ـ مـــاذا ؟

ـ اكتب اليها لتأمر جواريها بان يصفعن هيرودية كـــل يوم علـى مرای من هيرودس حتى تسيل دماؤها على الارض .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تخرج من القصر او تحتجب وراء الجدران . . .

قال : لقد نسيت ان فدرة غريبة وانها تقيم بين اعداء . . .

ـ وماذا تعني يا مولاي ؟

ـ اعني انها اضعف من ان تفعل هذا ، وليس من الحكمة ان تظهر ابنة الملك بمظاهر المجانين . .!

ـ اذن يطيب لك يا مولاي ان تشقى وتحتمل هذا الشقاء .

ـ هكذا تريد هي ونريد نحن ، حتى يخرج هيرودس من تحجبه ويتمادى في جوره .

ـ وعندئذ ؟

ـ وعندئذ يطلع الملك على حال ابنته ، فيعمد الى سيفه يثار بشرفه الذي اهين ، وكرامته التي جرحها سيد الجليل .

قال : ايتزوج النذل ابنة الملك ليجعلها جارية لابنة اخيه .

ـ بل تزوجها ليجعلها سلما يصعد فيه الى عرش ابيه . .

ـ اماالان فقد اختار هيرودية لهذه الغاية ، وستلتمس من اخيها اغريبا ان يستعطف طيباريوس قيصر ، ليهب له هذا العرش .

ـ اجل ، ولم يبق الا ان ننتظر جواب اغريبا المقيم بعاصمة الروم، وستكتب الينا فدرة عن هذا الجواب .

ـ واي جواب ترسله اليها انت؟

ـ ادعوها الى الصبر ، واسالها ان تخبرنا من حين الى اخر ، كل ما يفعله هيرودس الخائن ، الناكث العهد . . .

قال : الا ياذن لي الملك في الذهاب الى الجليل ؟

ـ واي جواب ترسله اليها انت ؟

ـ اضرب عنق الرجل وعنق المراة اللذين يستخفان بفدرة ، ثم احملها واطير بها الى بلاط الملك . . .

قال : سيأتي يوم تحاول فيه ان تصنع ما ذكرت . .

ـ اخشى ان اموت قبل ان ابلغ ذلك اليوم .

ـ بل تبقى وسيكون لي ولك شأن مع الاعداء الانذال . ثم قال :ولكن

قل لي يازيد كيف يهنأ ولي العهد بزواجه واخته تقاسي في قصرها ما تقاسيه ؟

ـ بل قل لي انت يا مولاي ، كيف يطيب العيش لزيد بن عياش، وفدرة تتالم وتبكي الماضي الحافل بالذكريات ؟

فنهض قائلا : خير لنا ان نتظاهر بالبشر لئلا يعرف الملك ما نحس به ، وسنتدبر نحن الاثنين ، امر فدرة ، يوم يرد علينا منها كتاب اخر ، قم الان ... فقام الفتى وهو يضطرب ويتمتم قائلا : لقد اعتصمت بالصبر من قبل ، وساعتصم به الان ، حتى ينفذ ما بقي له منه .. والويل عندئذ لاهل الجليل !. وسار الاثنان الى دار الضيافة ، فكتب ولي العهد جوابه ، وامر فياضا بان لا يذكر لنفتاريت ، انه رأى زيدا .

وانصرف في الوقت نفسه ، الى امه وابيه يقول لهما : لقد خبرني عربي قادم من الجليل ان فدرة بخير . ولم يخطر للملكين ان يسالاه ، عن ذلك العربي .. وكانت بترا قد تهيأت لذلك الاحتفال العظيم ، فتم الزواج بصورة خلابة عجيبة لم تشهد مثلها العرب في ذلك القطر ، واصبحت شقيلة بنت عياش ، ولية عهد الانباط .

٣٩

« الى اغريبا ابن ارسطو بولس ، من اخته هيرودية زوجة فيلبوس :
اخـي اغريبـا

لقد عرفت من الرومانيين الذين يجيئون الى فلسطين ، ان مولانا طيباريوس قيصر ، جعلك من امنائه ، وآثرك على معظم الرجال الذين يعيشون في بلاطه .. انك يا اغريبا اهل لعناية القيصر ، ولو لم ير انك تستحق نعمه لما قربك اليه ، ولما اختارك عونا له في قضاء امور دولته التي هي نصف العالم ...

والان ، فانت تعلم يا اخي حال اليهود في بلدهم بعد موت جدنا العظيم هيرودس الكبير ! لقد اصبح اليهود احزابا وفرقا تعمل الواحدة منها ما لا تعمله الاخرى ، ويتصرف الجار في الامر ، على غير ما يتصرف فيه جاره القريب ، حتى ليخشى ان تشمل الفوضى كل يهودي ، قذفت

به الاقدار الى هذا القطر .

نعم ، ان الوالي الروماني يحمل لواء العدل ، فى اليهودية ، باسم مولاه ، ويبسط ظله فوق هذه الاقاليم ، ولكنه لايستطيع ان يجمع كلمة اليهود ، ويوحد فرقهم ، ويجعلهم جميعهم صفا واحدا يهتف لروما ويخضع لطيباريوس الخضوع الذي لا غش فيه .

فاذا رأيت ان تخدم شعبك ، وتخدم مولاك ، وتعيد الى اليهودية مجدها الذي كاد يطمسه الزمان !! فاسأل القيصر ان يبني من جديد ، ذلك العرش الذي تهدم ، ويضع تاج اليهود ، على راس رئيس الربع في الجليل وعبر الاردن المخلص لقيصر ، والذي هو وارث هذا التاج بعد ابيه!!

انه عمنا يا اغريبا ، وهو واسع النفوذ ، بعيد الصوت ، وقد لا يجد مولانا طيباريوس ، في اليهودية كلها ، رجلا يصلح مثله للعرش .

وارجو ان تعلم ، ان هيرودس ، سيكون مثلا بليغا في خضوعه ، وطاعته للنسر الروماني ، ولك انت . . . وسيضمن لك ولقيصر ان اليهودية ستحفظ الجميل ، ستستظل بظل العلم الروماني الى الابد . . .!

فجد يا اغريبا بما اسالكاياه ، ليمجد اليهود اسمك ، ويرددوه في مجالسهم واسواقهم ، ويخلدوا فضل مولانا طيباريوس . . كماني اسالك انتجود بالجواب على اختك »

هيرودية

هذا ما املاه هيرودس ، وكتبته هيرودية ، قبل ان يبزغ فجر اليوم الذي ترحل فيه الىالجيدور . وكان البحر في فلسطين ، يحمل اليها كل شهر طائفة من الرومان ، كما يحمل الى روما طائفة من اليهود . غير ان هيرودس ، لم يشأ ان يجعل احدهم رسوله الى اغريبا ، بل رأى ان يسلم رسالته الى سمعان ، ناظر مخدعه ، ويعهد اليه ، في حملها الى بلاط القيصر . وسمعان ، من المخلصين لمولاه ، كما رايت ،وهو لا يخونه ، ولو رفعته خيانته الى ذروة العلاء. . .

فلما كتبت هيروديةكتابها ، تناوله هيرودس بلهفة، ثم ودعها كمايودع الزوج زوجته ، وكانت تقول عندما خرجت من القصر:

لقد اصبح قصر الجيدور سجنا لي.

وكان هو يقول : ولكن ايام السجن قصيرة كما ترين .. ثم عاد الى مخدعه ،قبل ان يطلع الصبح، وفلدرة في غرفتها لم تخرج منها كما كان يظن، ¤ ءانها كانت تعلم ان هيرودية سترحل في تلك الساعة ، عن الجليل .

ودعا اليه سمعان قائلا له : سابعث بك الى بلد بعيد يا سمعان قد لا تعود منه الى بعد عام ...

فقال : ابعث بي الى حيث تشاء يامولاي فحياني لك

فقال : وسترى في سفرك هذا ما تطيب له نفسك .

ـ تطيب نفسي لكل امر استطيع ان اخدمك به ، الى اين يامولاي ؟

ـ الى روما عاصمة القياصرة !

ـ وماذا اصنع فيها ؟

ـ تحمل رسالة من مولاك ..

ـ الى طيباريوس ؟

ـ لا . بل الى رجل في بلاطه هو اغريبا ابن اخي ! فجعل سمعان يردد اسم اغريبا ويقول : ابن ارسطوبولس الذي اصبح من رجال ذلك البلاط .. لقد فهمت الان ما كتبته اليه يا مولاي ! قال : ماذا ؟

قال : تسأله ان يكون عونا لك على بلوغ غايتك ..!

فابتسم قائلا : اصبت ، غير ان هيرودية هي التي تسأله ذلك .

ـ ولكنك لا تعرف اغريبا يا مولاي ، فهو قد ترك اورشليم منذ بضعة عشر عاما وكان غلاما ..

قال : يكفي ان تكون الرسالة من اخته ، وان يكون هيرودس عمه !

ـ ومتى تريد ان اترك الجليل ؟

ـ غدا ، وستعد اليوم لسفرك كل ما تحتاج اليه .. فاطرق مليا ثم قال : واركب البحر من فلسطين ؟

ـ لا ، بل تركبه من ارض مصر او من بيروت لاني اخشى ان يراك في السفينة احد من اليهود ..

ـ اذن سيظن الناس في الجليل اني في الاسكندرية !

ـ بل يظنون انك في انطاكية ، وسأقول لهم اني ارسلتك الى والي سوريا المقيم بها ، تحمل اليه هدية من مولاك .

ـ افلا تذكر لي يا مولاي ما يجب ان اقوله لاغريبا ؟

ـ اذا سالك عن قومك فقل انك من الناصرة . ـ ثم ماذا ؟

ـ واذا سالك عن اسم مولاك ، فاذكر اسم فيلبوس وهيرودية وقل له انك ات من الجيدور !

ـ واذا خطر له ان يسالني عن عمه فيليبوس ؟

ـ قل له عندئذ انه مريض ولا يرجى له شفاء ... وان هيروديـــة اثرت عمها هيرودس على زوجها الذي سيموت بعد حين .

ـ وهل بقي شيء لم تقله يا مولاي ؟

ـ بقي ان تكون في روما اشد دهاء من اليهود والرومان .

ـ ولكني اسألك سؤالا قبل ان انصرف .

ـ اســال ما تشاء .

ـ اكتب اليك اغريبا بعد ان قربه قيصر ؟

ـ لم يكتب الى احد حتى ان هيرودية لم يرد عليها خبر منه .

ـ اذن فالفتى لا يحب اهله ولا يريد ان يكون له بهم صلة نســـب وحسب ! قال : قد ينسى الرجل ذويه عندما يصعد في سلم المجد .

ـ ولكن اغريبا نسيهم قبل ذلك وانا اخشى ان يكون في موقفه هذا ذاكرا مقتل ابيه !

ـ واي شان لنا بما ذكرت ؟

ـ يجوز ان تكون نفسه ثائرة على جميع ذويه ولو كانوا ابرياء .

ـ لم يكن لي يد في مقتل اخوي كما تعلم ، وقد مات جميع الـذيـن تامروا على قتلهما ! ومع ذلك فاذا بدا لك منه ما تصدق معه ظنونـك ، فاذكر براءتي ولا تنسى ان تسمي له اولئك الذين اشتركوا في القتل ..

قال : سترى يامولاي ويرىاغريبا انني احسن الدفاع عنك .

ـ ولكن احذر ان تقول له كلمة عن هذا اذا هو لم يحدثك به ..

فابتسم قائلا : ان القيصر وجميع من في بلاطه ، لا يستطيعون ان يعرفوا ما لا تريد انت ان يعرفوه .. ثم قال : وهل تريد يا مولاي انافص عليه خبر زواجك بابنة الملك ؟

ـ اجل فسيعرف ذلك من الناس ان لم تذكره له انت واوما اليـه

بالانصراف وهو يقول : اختر لك من غلمان القصر واحدا يكون لك عونا في سفرك واترك الجليل غدا دون ان تودع احدا من اهله .

فخرج سمعان ليتهيأ للرحيل ، ومشى هيرودس يريد مخدع زوجته وعلى شفتيه ابتسامة المكر والرياء ..

٤٠

كان الناظر الى فدرة ، عندما دخل هيرودس ، يحسب انها اسعد خلق الله ، جبين زاه .. وعينان يلمع فيهما البشر ، وشفتان تنفرجان عن الابتسامات العذبة ! وقد قال هيرودس في نفسه : مسكينة ابنة الملك ، فهي لاتعرف شيئا .. وقد فاته انها تحصي عليه انفاسه ، وانها تعرف كل شيء ...

وكانت نفتاريت ، جالسة عند قدميها ، تقص عليها حكايات طفولتها في البلاط ، بين ايدي الجواري العربيات ... فأمرها هيرودس بالخروج ثم قال لزوجته : ايطيب لك يا فدرة ، ان اقص عليك حكاية جديدة ، لا تشبه في شيء ، حكايات نفتاريت ؟ ...

فاجابته قائلة : كل ما يطيب للامير يطيب لي ..

قال : لقد رايت الان ، وقد تركت هيرودية القصر ، ان ابوح لك بما في هذا الصدر من اسرار ، وان اصف لك الامل الذي اعلل نفسي بـه ، فتظاهرت بالاستغراب وقالت : اتركت هيرودية القصر ؟

اجل ، وهي الان في طريقها الى الجيدور ..

وكيف تغادر الجليل وانا لا اعلم ؟

ــ لم تشأ ان تحدثك بأمر سفرها خوفا من ان تكرهيها على البقاء وهي لا تستطيعه الان ...!

قالت : لو عرفت انها تفكر في الرحيل ، لطلبت اليك ان تمنعها من ذلك ... ان زوجة اخيك خير من رايت من النساء !!

ــ ولكنها ستعود بعد شهر وقد جئت استشيرك الان في امر هذه العودة !!

قالت : ارجو ان تعود بعد بضعة ايام فانا لا اطيق ان تسود الوحشة

القصر ، وهي بعيده عنه ...

ــ اذن فأنت تحبينها يا فدرة وتريدين ان ترجع الى الجليل ؟

ــ بل اريد ان تقيم بيننا الى الابد ..

ــ وماذا تصنع بزوجها وهو مريض ؟

ــ نيقم فيليبوس معها فالجليل خير من البلد الذي يقيم به .

ــ ولكن والي اليهودية لا يأذن له في ذلك ، فهو امير الجيدور واللجا، والامارة تدعوه الى الاقامة بين شعبه .

قالت : اكتب اليه ليعتزل امارته .

قال : ليس من الراي ان يخرج ذلك الاقليم من يده ليستولي عليه باسم روما رجل اخر .. اني افكر في ان اجعل اليهودية كلها خاضعة لي ، مخلصة لعرشي !!

ــ واين هو هذا العرش يا هيرودس ؟ انه في المعاهدة التي وضعتها مع ابي ولست قادرا على الوصول اليه الا اذا نفخت في بوق الحرب ..

قال : سيهب لي القيصر عرش اليهود ، دون ان احتاج الى سيوف قومي وسيوف العرب !!

ــ ومن يحمل القيصر على ان يفعل ما ذكرت ؟

ــ ان لهيرودية اخا يدعى اغريبا هو من رجال البلاط في روما .

ــ وهل يستطيع اغريبا ان يسترجع ما سلبتكم اياه القياصرة ؟

ــ يستطيع ذلك اذا كان لاخته يد في هذا الاسترجاع .

ــ اذن بقي عليك ان تحدث هيرودية بالامر ..

ــ لقد حدثتها فرضيت به ، على ان يكون لها نصيب بالتاج .. !

قالت : صف لي هذا النصيب اذا شئت .

قال : اصف لك نفس هيرودية يا فدرة .. فهي تطمح الى المعالي وتطمع بان يكون لها من السؤدد والعز ما للرجال العظماء ، من اليهود والرومان . ــ نعم

ــ وقد عرفت انها ليست راضية بامارة الجيدور التي وهبت لفيليبوس ، فاذا ساعدها الحظ ، في نيل التاج ، لعمها هيرودس ، فعلى عمها هيرودس ان يشاركها فيه ..

ـ ومع ذلك فانا لم افهم شيئا ..
قال : يكفي ان تعلمي انها تريد ان تكون زوجة لي .
ـ وكيف تريد ذلك وهي زوجة فيليبوس ؟
ـ لقد عرفت ان فيليبوس يفكر في الطلاق . فرأت فدرة انه يبوح لها بما دار بينه وبين هيرودية ولا يبالي ، ولكنها كانت واثقة ، بان هـــذه الصراحة كانت دهاء منه ، فقالت له : وعلى اي امر تعول انت ؟

قال : اتؤثرين ان يكون لك ما للقيصر !
ـ اذن فالزواج لا بد منه ، وستجلسين معي بعد قليل على عرش اليهود كما يجلس ابوك الملك وزوجتاه على عرش العرب ..
ـ انا ؟!
ـ اجل انت ، فالتاج لزوجتي الاولى وليس لهيرودية ...
ـ ولكن هيرودية نفسها ستجعله على رأسك ..!
قال : اعدها به اليوم ثم ابعدها عنه يوم يجود به طيباريوس .
قالت : خير لك ان يكون لها مثل ما لي ، كما يفعل ابي الملك مـــع زوجتيه .. ولكن لنفترض ان فليبوس لم يطلقها فكيف تتزوج ؟
ـ اجعلها معي في هذا القصر حتى يمل اخي هذه الحياة ، فيطلقهـا على الرغم منه . فأرادت الاميرة ان تظهر له شيئا من الغيرة فقالت : ومن قال لك اني اطيق هذا ؟

ـ ستطيقينه كلما مثلت امام عينيك صورة العرش .
ـ ولكن الحب ، في نظر المراة اعظم من العروش ..
ـ واين يذهب الذي تذكرين ؟ انه سيبقى لك كما هو الان ، على ان تظهري لهيرودية ومن حولها ، انك الاميرة التي لاتبالي بما يحدث في هذا القصر ! فقالت في نفسها : ثم ينتهي الامر بطلاق هذه الاميرة وارجاعهـا الى بيت ابيها تجر اذيال العار ... ثم قالت : يخيل الي ان هيرودية لا ترضى بما تقـول .
ـ وماذا تطلب ؟

ـ تسألك اولا ان تكون زوجة ، ثم تتمادى فتطلب اليك ان تطلـــق فدرة ليخلو لها الجو ، وتنفرد بالتاج الذي مهدت هي سبيل الوصـــول

اليه . . . فقهقه ضاحكا كان الامر الذي تحدثه به لم يخطر له .
قالت : اتضحك ايها الامير ؟
ــ نعم ، فهيرودية لا تجسر على التفكير فيما تقولين وستموت من يدي اذا ارادت الاستئثار بالعرش .
ــ واذا اقبل رؤساء الكهنة يسألونك باسم قومك اليهود ان تطلق زوجتك العربية ليكون الملك ، من بعدك للذرية هيرودية ؟
ــ ليس لهؤلاء شأن بذلك ، وامير الجليل لا يرضى بان يحدثه الناس بهذا الامر

ــ ولكني خائفة وقلبي يحدثني بان هنالك ما يدعو الى الخوف !..
قال : اخطأت واخطأ قلبك فلو لم تكوني ملء نفسي لما تركت حسان اليهود جميعهن وجعلتك زوجة لي .
قالت : لقد صدقتك الان فلتباركك الالهة ولتبارك عرشك .. ومتى تذهب هيرودية الى روما لتخاطب اخاها ؟
ــ تبقى هيرودية الان في الجيدور ، ويذهب سمعان حاملا رسالتها الى اغريبا ، وسيترك الجليل عند الفجر .
ــ وهل تظن ان اغريبا يجسر على طلب التاج ؟
ــ يقولون ان طيباريوس قيصر يستشيره في جميع شؤونه وهو من اقرب الناس واحبهم اليه !
ــ ولكنك لا تعرفه على ما ظهر لي .
ــ عرفته وهو غلام ، ثم غادر اليهودية ولم يعد اليها بل لم يخطر له ان يكاتب احداً من ذويه ، حتى انه نسي اخته بعد أن تزوجت ، ولم يجبها عن الرسائل الكثيرة التي ارسلتها اليه !
ــ اذن فاغريبا اصبح من الرومان !
قال : لقد الهته المعالي عن كل شيء ، فهو لا ينظر الا الى المجد الذي تربع في ذروته ، في ظل طيباريوس .
ــ ولكنه سينظر الى مجد اليهود الضائع ، ويسأل مولاه ان يعيده ويجود بما بخل به اغوسطس قيصر . . .
ــ هذا ما يخطر لي ، وساعلل النفس بالامل حتى يعود سمعان . . .

قالت : والزواج لا يتم الا بعد رجوعه اليس كذلك ؟
بل لايتم الا بعد ان يتم الطلاق وبعدنا اغريبا بتاج الملك .
ـ واذا وعد اغريبا به ، ولم يفعل فيليبوس ما تفكر فيه ؟
ـ اجعل هيردية عندئذ زوجة لي واخالف سنة قومي .
ولا تخشى غضب الكهنة ؟
ـ لا اخشى احدا وسيكون السيف جزاء لمن يقول كلمة ...
ـ وهل تريد ان يعرف الناس اليوم ، ان سمعان سيذهب الى عاصمة الروم ؟
ـ لا . فسيعلم اهل القصر انه في انطاكية وقد ذهب اليها يحمل الى واليها هدية مولاه ..

ـ ولكن غيبته ستطول ، وسيظن الناس الظنون .
قال : ساقول للقوم بعد حين ان مرضا اصابه وهو فيها ولا يلبث ان يعود الى الجليل ...
ـ وهل امرته بان يذهب وحده ؟
ـ سيختار له اليوم غلاما من غلمان القصر .
ـ ومتى يعود ؟

ـ لا اعلم فقد يغيب عاما او بعض العام .. وخرج وهو يبتسم لها ويقول : ثقي يا قدرة بانك ستعصبين راسك بالتاج ..
فتمتمت قائلة : ولكن قومي سينزعون هذا التاج بحد السيف ...

٤١

وصل سمعان ، ناظر مخدع هيرودس ، الى روما ، وهو لا يعرف فيها احدا ، وليس له صلة باحد .. وروما الواسعة الجبارة ، تضيع فيها كل يوم طائفة من الغرباء ، غير ان سمعان لا يضيع ، فقد بدا منذ وطات قدماه ارضها ، يسأل عن اغريبا النازل في بلاط قيصر ، بل يسأل عن البلاط نفسه حتى ارشدوه اليه ، وابصر عظمة الرومان في تلك القصور التي ترفع رؤوسها الى السماء ... ولم يلبث حتى استأذن في الدخول
وكان اغريبا في تلك الساعة ، على احدى الشرفات يشهد صراع

الاسود ، في الملعب العظيم الذي يجاور البلاط ، وكان يخيل الى التاظر اليه ، انه غائص في لجة التفكير .. اجل ، كان اغريبا يشهد صراع الاسود ، ليعود بالذكرى الى ذلك الزمن الذي صرع فيه جده القوي ، اباه الضعيف .. اي انه كان يتعلم كيف ينشب الاسد الضاري مخالبه في اعناق الضعفاء ..

وكان خادمه سبيان واقفا وراءه ، وهو يعلم ما يقوم في ذهن سيده الثائر على ذويه . فاقبل احد غلمان البلاط يقول لاغريبا : ان في الرواق رجلا يريد أن يراك . فلم يجب ، بل لبث واقفا حتى سالت دماء الضواري وملا الزئير الساحة ... فاكتفى بما راى واومأ الى خادمه بأن يتبعه الى الداخل ، وهو يقول للغلام : اين هو الرجل الذي ذكرت ؟

فمشى الغلام امامه حتى دنا من سمعان فقال : هذا هو يا مولاي .

فنظر اغريبا الى الرجل نظرة قصيرة ، ثم تقدمه الى احدى قاعات الجلوس الكثيرة في ذلك الرواق العظيم . وسبيان الامين لا يفارق مولاه .. وجعل اغريبا من جديد ، ينظر الى الرجل ، كأنه يعرفه من قبل ثم قال : الست من اليهود ؟

ــ بلى يا مولاي ..

ــ وقادم من اليهودية ؟

ــ نعم وقد وصلت منذ ساعة . فاستعرض اغريبا ماضيه، واستعاد النظر الى الصور المطبوعة في مخيلته ،فعرف انه من رجال عمه هيرودس وكان يراه في قصره في اورشليم ،ولكنه تظاهر بانه لم ير وجهه ،من قبل فقال : ما اسمك ؟ ــ سمعان ..

ــ من اي بلد انت ؟

ــ من الناصرة ..

ــ وهل عرفت روما قبل اليوم ؟

ــ لا يا مولاي ، ولكنها وصفت لي ، اكثر من مرة ، فخيل الي الان اني لست غريبا فيها ...

قال : اذكر الان ما قدمت لاجله .

ــ اني احمل اليك رسالة يا مولاي . ــ ممن ؟

ـ من سيدتي هيرودية . . .

ـ اختي ؟ !

ـ اجل وقد اوصتني بان اصف لك شوقها اليك فهي تكاد تـذوب لهذا البعاد الذي ليس له اخر !!

ومد اليه يده بالرسالة ، فضحك الشاب في سره .. ثم جعل يقرا ويده على جبينه ، والرسالة تهتز بين اصابعه ولم يلبث سمعان حتى راى دمعة تسقط على خده ... فبرقت عيناه ، وقام في ذهنه ، ان تلك الدمعة قذفت بها العاطفة الصادقة ، وان مولاه سيظفر بالتاج ...

وقد فاته انها دمعة القهر قذف بها حقد اغريبا وثورة نفسه ، وحزنه الذي لايموت ، على ابيه !!!

وبدت على جبين اغريبا دلائل التفكير ... ثم قال : اهذا خـط هيرودية يا سمعان ؟

ـ لا اعلم يا مولاي فقد سلمت الي رسالتها وهي مكتوبة ، وانا اظن انها كتبتها بيدها ...

ـ وهل سلمتها اليك في الجيدور ؟

ـ نعم يا مولاي !

ـ وكان زوجها حاضرا ؟

ـ لا ، بل كانت مع وصيفة لها تؤثرها على جميع وصائف القصر .

قال : اريد ان اعلم لماذا تهمل هيرودية امر زوجها وتطلب الي ان استعطف القيصر على هيرودس ؟

ـ لان زوجها مريض يامولاي .

ـ ولا يرجى شفاؤه ؟

ـ لا فهو يكاد يكون بين ذراعي الموت !!

ـ وهل يزور هيرودس الجيدور ؟ فلم يدرك سمعان معنى سؤاله، فقال : ما رايته فيها يا مولاي ...

ـ ولكن هيرودية تزور الجليل وتمكث بها الايام والشهور .

قال : لاتترك سيدتي هيرودية زوجها ، لحظة واحدة .

ـ وكيف اتفقت اذن مع هيرودس على قضية التاج ؟

ـ لقد كتبت رسالتها يا مولاي دون ان تراه .
ودون ان يعلم بالامر ... ؟
ـ هذا ما اظنه يا مولاي ، ولعلها ارادت ان يكون الملك ، لعضو من اعضاء البيت المالك ...!
قال : ومعنى ذلك ؟

قال : لقد رأت ان زوجها لا يستطيع ان يكون ملكا فاثرت ان يجلس هيرودس على العرش ، على ان يخسره اليهود الى الابد ...!
ـ ولكنها تعلم ان اخاها اغريبا ، من ذرية هيرودس الكبير ، وقد يكون اهلا للملك !!
قال : اما انا فقد ذكرت لها ذلك يا مولاي ..
ـ وماذا قالت لك ؟

ـ قالت : ان اغريبا في بلاط طيباريوس ، اعظم من جميع الملوك ، وهو يؤثر منصبه ، في ظل قيصر ، على التاج اليهودي ..
قال : لقد اصابت هيرودية في هذا ، فاغريبا لا يترك بلاط قيصر الا الى القبر .. وكان عندئذ يقول في نفسه : احسنت ياهيرودية في اختيارك سمعان رسولا لك الى رومة ، انه من اولئك الناس الذين يلبسون لكل يوم حلة .. وسكت قليلا ثم قال : حدثني الان بما تعلم عن حال عمي هيرودس في الجليل ..
قال : اسمعهم يقولون ان اليهود يطيعونه كما كانوا يطيعون اباه ، وقد يلتمسون من القيصر ان يهب له التاج ...
قال : كلمة واحدة يبعث بها الوالي الروماني الى مولاه ، خير من الالتماس الذي ذكرت .. اتعرف بيلاطوس ؟
ـ رأيته مرة واحدة يا مولاي .
ـ في قصر عمي فيليبوس ؟
ـ بل في قصر هيرودس يوم زفت اليه ابنة الملك .
فابتسم قائلا : لقد فاتني ان اهنيء عمي بزواجه .. اني اذكر اسم زوجته فهي تدعى فدرة .. وهي ابنة اريتاس . قل يا سمعان ، الم تشهد اختي هيرودية حفلة العرس ؟

ـ بلى يا مولاي

ـ وكيف تركت زوجها الذي تقول انه يصارع الموت ؟

ـ امرها هو بالذهاب ، فاطاعت . .

ـ وكنت معها ؟

ـ نعم وقد شاهدت عندئذ بيلاطوس الروماني على عرش عظمته ، يحني له الكهنة ، والامراء . . . ولكن من قص عليك خبر الزواج يامولاي؟

ـ مولاي القيصر نفسه ، كما قص علي خبرا اخر على دهاء امير الجليل وبعد نظره في السياسات . .

ـ وهل تذكره لي ؟

ـ اجل فهو يتعلق بالمعاهدة التي وضعها هيرودس قبل ان تنزف القدرة اليه .

ـ اذن فالقيصر يعلم كل ما يحدث في الجليل !

قال : انسيت ان في اليهودية واليا يخبر مولاه كل شيء ؟

قال : واي راي لك في هذه المعاهدة يا مولاي ؟

ـ الراي في ذلك راي بيلاطوس ، وقد كتب الى القيصر ان الغاية منها ، القضاء على العرب . . . والان لننظر في الامر الذي تطلبه هيرودية.

ونظر الى الرسالة نظرة اخرى ثم قال : هي تقول ان اليهود اصبحوا احزابا وفرقا فهل تستطيع ان تذكر لي اسماء الرجال الذين يراسون هذه الفرق ؟ قال عمك فيليبوس رئيس الجيدور .

ـ اعرف هذا كما ان عمي هيرودس رئيس الجليل .

قال : في الجليل رؤساء غيره ينتمون الى عمك ارشيلاوس الذي نفي من اليهودية وهم مقيمون على عهده .

ـ وفي اورشليم ؟

ـ اما اورشليم فصاحب الكلمة فيها عظيم الكهنة وهو يريد ان يستأثر بالنفوذ والسلطان ، على رغم الرومان .

ـ اهؤلاء هم الرؤساء ؟

ـ بقي هنالك ابناء ارشيلاوس الذين يزرعون الفساد والبغض في الصدور !! فكاد يقول له : كما تزرعون انتم الصلاح والحب ايها السفاحون

ولكنه لم يشأ ان يبوح له بما في نفسه ، خوفا من ان ينتهي الامر على غير ما يريد ، فقال : وهل يطيع الناس من ذكرت يا سمعان ؟

ــ اجل يا مولاي فلكل واحد منهم قوم يجارونه فيما يخطر له .

ــ ومن ينتمي الى بيلاطوس من اليهود ؟

ــ اولئك الذين لا يعبأون الا بحرق البخور .. وكان اغريبا يريد ان يطلع على اسماء الزعماء ليتدبر امره فقال: سمعتك تقول ان اليهود يطيعون هيرودس كما كانوا يطيعون اباه ! ثم قلت الان ان لكل رئيس قوما ينتمون اليه ، فاليهود اذن لا يطيعون رجلا واحدا بل يطيعون بضعة رجال

ــ اردت ان اقول يامولاي ان معظم الشعب اليهودي يؤثر رئيس الربع في الجليل ، على جميع الرؤساء .

قال : لو خطر للقيصر طيباريوس ان يسمع اراء الشعب في ملكه ، فمن يظفر برضى الشعب ، من هؤلاء ؟

ــ هيرودس يا مولاي ..

ــ اتضمن ذلك ؟

نعم واقسم لك باله اسرائيل اني لا ابالغ فيما اقول .. فوضع يده على جبينه كانه يفكر في الامر ثم قال لخادمه : اذهب يا سبسيان وقل للامير كاليكولا اني اريد ان اراه .

ــ أأدعوه الى هذه القاعة يا مولاي ؟

ــ فاذهب اليه اذا رايته في البلاط . فخرج الخادم وخلت القاعة للاثنين ... فقال سمعان : من هو كاليكولا هذا يا مولاي ؟

ــ هو ابن اخي القيصر ووارث العرش .. اسمع يا سمعان ، اقد فكرت الان في امر ، ارجو ان توافقني هيرودية فيه ..

قال : ستفعل هيرودية يا مولاي كل ما تأمرها به ، ما هو هذا الامر !

قال : اذا استجاب القيصر طلبي ورضي بان يهب لهيرودس فانا اشترط عليه ان يتزوج اختي ...!!

فقام في ذهن سمعان ، ان اغريبا الذي جعله طيباريوس من اركان دولته ، فتى ساذج ابله لا يعرف من دنياه ، غير التمتع بالعز ، في بلاط مولاه فقال : اي انك تخاف يا مولاي ان يموت فيليبوس ، وتمسي

هيروديه ارملة لا تجد في اليهودية من تلجأ اليه .
ــ اجل هذا الذي اخشاه ..!
ــ اذن فانا اضمن لك ايضا ان هيرودس سيتزوج ارملة اخيه .
فتظاهر بالاستغراب قائلا : وكيف تجسر على هذا وانت خادم في قصر الجيدور وليس بينك وبين هيرودس عهد ؟
فتردد الرجل في الجواب ، ثم قال : ساسال مولاي فيليبوس ان يوصي بذلك اخاه قبل موته ، وانا واثق بانه سيفعل ما اساله اياه ....
فايقن اغريبا عندئذ ، بأن عمه واخته متعاهدان على الزواج ، ولو لم يكن الامر كذلك ، لما اثرت المراة عمها هيرودس ، على جميع من حولها من الانسباء والامراء . وقبل ان يجيب اقبل سبسيان وهو يقول : ان الامير في مجلس مولانا القيصر ــ وابوه ؟
ــ وابوه معه يا مولاي ..
ــ ومن في المجلس من رجال البلاط ؟
ــ لا اعلم يا مولاي فانا قد سألت الحجاب القائمين بالرواق. فنهض قائلا له : قل الغلمان ان يعدوا لسمعان غرفة في الرواق الغربي ، وخبرهم بانه ضيف على مولاك .
وقال لسمعان : سأقابل القيصر في هذه الساعة وسأطلب الى ولي العهد ان يكون عونا لي .. قم فاذهب مع سبسيان واحذر ان تحدث احدا بما نقلته اني ..
قال : وماذا تظن يا مولاي ، ايستجيب القيصر رجاءك ؟
ــ اعتقد الان انه سيفعل ، وستعلم غدا كل شيء .
قال : اياذن لي مولاي ان ادعو غلاما لي؟
ــ واين هو غلامك ؟
ــ امام الباب الخارجي .
ــ ان سبسيان يتولى الامر عنك فانصرف معه وسيدعوه ومشى وهو يخاطب شقيقته في سره قائلا لها : ويل لك ايتها الفاجرة وويل لهيرودس ..

٤٢

عندما مثل اغريبا بين يدي القيصر ، ابتسم له ذلك الرجل الحديدي ودعاه الى الجلوس ، وكان في مجلس طيباريوس ، كاليكولا الفتى ، وابوه وفريق من اركان الجيش الروماني الظافر وقواده ، فجلس اغريبا وهو ينظر الى الارض .. فقال طيباريوس : ما وراءك يا اغريبا ؟

ـ لي كلمة اقولها لمولاي بعد قليل. فعرف القيصر ان في صدر الشاب سرا ، فاومأ الى رجال الجيش قائلا لهم : انصرفوا الان ايها القواد ، وستعودون عندما يجن الليل ، ثم قال : قل الان يا اغريبا ماتريد انتقوله.

فخفض صوته وهو يقول : لقد اقبل الساعة على البلاط رسول من اليهودية .

قال : لقد كثرت رسل بيلاطوس في هذا الزمان ، ماذا يحمل من اخبار بلادك ؟

ـ انه رسول هيرودس ، وهو يحمل رسالة تثبت لمولاي ان عبده اغريبا كان صادقا فيما ذكره له ، عن الرجل .

ـ اذن فالرسول يهودي ، وقد بعث به سيده اليك وليس الى قيصر ....

ـ نعم يامولاي .

قال : وماذا يطلب رئيس الجليل ؟

قال : الا تذكر قولي لك يا مولاي ان هيرودس يطمع بان يجلس على العرش الذي كان لابيه ؟

ـ بلى ، ونذكر ان شقيقنا كان حاضرا . فأخرج اغريبا الرسالة قائلا : سترى الان يا مولاي انه مستسلم الى طمعه ، وماض في امره الى النهاية ، وهو يستعين الان بالحيلة والدهاء ، على بلوغ غايته .

قال : اقرا يابني ، واومأ الى كاليكولا ، ابن اخيه ، والفتى يحسن لغة اليهود كما يحسنها اغريبا ، فقراها ثم ترجمها لعمه ، وعمه يصغي اليه حتى انتهى ، فقال طيباريوس : ولكنها من اختك يااغريبا وليست من هيرودس .

قال : وهذا هو الدهاء يا مولاي .. لقد رأى هيرودس ان تكتب هيرودية الى اخيها ، لتسبر غوره ، وتقرأ في الوقت نفسه افكار القيصر فيما يعني اعادة العرش .

ـ بل رات هيرودية ان تسترجع المجد الذي خسره اليهود ، وتضع التاج على رأس رجل من ذرية هيرودس الكبير .. فبدت على ثغره ابتسامة الحقد وقال : لا تنس يا مولاي ان زوجها من ذرية ذلك الملك السفاح ، قاتل بنيه ، وهو شقيق هيرودس !!

قال : اصبت ، فقد ذكرت لنا شيئا من هذا قبل الان وكدنا ننساه ... ان هيرودية اذن تخون زوجها والي الجيدور لترضي عمها والي الجليل ....

ـ بل تخون اخاها وهو حفيد الملك !!

ـ قال : اليس لهيرودية بنون ؟

ـ لها من فيليبوس فتاة هي صالومي .

ـ وماذا ترى الان ؟

ـ ما يراه مولاي فليفعل ما يشاء .

قال : ايطيب لك ياكاليكولا ان نهب لليهودية عرشا ؟

فأجابه قائلا : يطيب لي ان يكون اغريبا راضيا ..!

ـ ولكن هيرودس من المخلصين للعرش الروماني ، وقد خدع العرب بتلك المعاهدة التي جعلها شركا لهم وللكهم اريتاس .

فقال اغريبا : اتأذن لي في القول يا مولاي ؟ ـ اجل .

ـ اذن فاعلم ان هذا الرجل المخلص للعرش الروماني لم يخدع العرب بل جعل معاهدته شركا للرومان !!

قال : اقرأ ماكتبه بيلاطوس ، في هذا الشأن .

قال : ان بيلاطوس مخدوع يا مولاي ، وانا استطيع الان ان اذكر لك ما يضمره هيرودس كأني في نفسه ! ـ هات

قال : اراد اولا ان يستولي على التاج بقوة الملك العربي ، فعاهده وتزوج ابنته ،وبدأ يعد عدته من وراء الستار ، ثم رأى بعد زواجه ، ان الطريق وعر المسلك وقد يفاجئه فيه الموت ، فعمد الى الباب الهين الواسع

يدخل منه الى العرش الذي يحلم به .

ــ ولكن اي شان لهيرودية بالامر ؟

ــ يخيل الي يا مولاي ان هيرودية تحلم مثله بتاج اليهود ، وقـــد قذف بها هذا الحلم الى الهوة ، فهي تخون زوجها واخاها لتساعـــــد هيرودس في نيله ، ثم تجلس معه على عرش جدها الملطخ بدماء الابرياء .!

قال : ويلك فهي زوجة رجل اخر ..

ــ يقولون ان زوجها مريض وسيخسر حياته ، وانا اقســـم ان هيرودية وهيرودس متامران على فيليبوس وفدرة ..

قال : انك تتهم عمك واختك يا اغريبا !

ــ نعم يا مولاي واصر على هذا الاتهام .

ــ وهل تظن انهما يخدعان القيصر كما قلت .

ــبل اقسم لك بتربة ابي انهما يخدعان جميع الناس لا استثني احدا

ــ اذن فهما يستحقان الموت .

ــ ولكني اسأل مولاي ان يهب لهما الحياة .. ــ لماذا

ــ ليلمس خيانتهما بيديه !

قال : لو فوضنا اليك ان تصنع بهما ما تشاء فماذا تصنع ؟

ــ اكتب الى هيرودية كتابا اعدها فيه بان التاج سيكون لهيرودس بعـد حيـن !

ــ وبعد ذلك ؟

ــ تظهر غاية هيرودس من المعاهدة ، ويعلم مولاي القيصر عندئـذ ان الرجل لم يتزوج فدرة ، الا ليساعده اريتاس ، في الاستيلاء علـــى العرش .. ودخل في تلك اللحظة حاجب القيصر وقال له : لقد جـــاء اعيان روما يا مولاي .

قال : دعوناهم ليشهدوا اعدام الاسرى من الجرمانيين في هذه الساعة والتفت الى اغريبا قائلا : افعل مع كاليكولا ما يطيب لكما فقد سلمنا اليكما امر اليهودية اليوم ..

ــ اذن تأذن لنا ان نكاتب القوم ..

ــ بل ناذن لكما ان تفعلا ذلك باسم القيصر . واقبل النبلاء علـــى

القاعة والبشر طافح على الوجوه ... انهم كانوا يذوبون شوقا الى رؤية الدماء تسفح في ميادين السباع ..

فقال طيباريوس : اتريدون ايها الاشراف ان يقتل الجرمانيون ؟

فاجابوه قائلين : لا نريد غير هذا !

ـ وهل تؤثرون سيوف الجلادين على مخالب الاسود ؟

قالوا : الاسود !!! الاسود !!

فوقف قائلا لحجابه . مروا الحرس بان يخرجوا الاسرى لنجعلهم طعاما للوحوش الجائعة !!

ثم خرج وخرج الجميع وراءه ، ليروا اجسام الاسرى الاشقياءتمزقها مخالب الضواري !! ودعي سمعان ، بامر اغريبا ، الى تلك الحفلة التي ترقص لها فرحا ، قلوب القوم ! وبعد ساعتين ، سدل الستار على اولئك الكهول والفتيان ، الذين طرحتهم الاقدار بين يدي طيباريوس الجبار ...

٤٣

لم يقل اغريبا في ذلك اليوم كلمة لسمعان ، فلما كان اليوم الثاني، دعاه اليه ، وكاليكولا في القاعة ، وقال له : اجث اولا امام ابن اخي القيصر فجثا الرجل باحترام كأنه في هيكل الله ، ثم امره اغريبا بالجلوس قائلا :

لقد نقلت الى مولاي طيباريوس ما جاء في رسالة هيرودية فغضب ولم يشأ ان يذكر امامه اسم هيرودس والي الجليل . فاصفر وجهسمعان وقال : وكيف يبغض مولانا القيصر ، الرجال المخلصين له ؟

ـ يقول انه لم يكن مخلصا ، ولو استطاع لانفرد بامره ، ومنع اهل الجليل من الخضوع للوالي الروماني !

ـ ولكن هيرودس لا يفكر في ذلك يا مولاي ، فاجابه كاليكولا وهو يبتسم : بل يفكر في امر هو اعظم مما ذكرنا .. الم يقم بين رجال الجليل من يقول : لا يحل ان يدفع اليهود الجزية لقيصر ، لانه وثني ؟؟!

قال : اولئك هم اتباع يهوذا الجولاني يا مولاي .

ـ ولكنهم من الجليل ، وكان هيرودس قادرا لو اراد ، على انيخمد اصواتهم قبل ان تصل الى روما .

قال : يكفي ان بيلاطوس الوالي خلط دماءهم بدماء الذبائح .

ـ ولماذا لم يسبقه هيرودس الى ذلك ؟ ايظن ان القيصر يعجز عن ان ينزل القصاص بالمتمردين ، الخارجين عن طاعته ؟

قال : لقد اكره هؤلاء المتمردين على دفع الجزية يا مولاي .

ـ بل اكرههم بيلاطوس قبل ان يذبحهم ، ولم يكن لمولاك يد في الامر ، واعلم ياسمعان، وليعلم هيرودس ، انه لولا رجاء اغريبا ، واستعطافه القيصر على عمه ، لسلبه طيباريوس امارة الجليل ، ونفاه من اليهوديةالى الابد ، كما فعل اغسطوس بارشيلاوس اخيه .

فقال لاغريبا : اذن قضي الامر الان يا مولاي ولم يبق لي ما افعله ، في روما .

ـ بل تبقى ريثما يرى القيصر رأيا اخر .

ـ ومن ثم يستطيع ان يغير رايه الذي ذكرت ؟

ـ الامير كاليكولا ، فقد وعدني ، في هذا الصباح ، بانه سيحمل عمه على الرضى ، بما طلبته هيرودية .

ـ وهل يثق مولاي كاليكولا بانه يقدر على ذلك ؟

قال : الرجل الذي يستطيع ان يشعل نار الحرب ، ويخمدها عندما يشاء ، يقدر على مثل الامر الذي نتحدث به . فقام في ذهن سمعان، انه سيحمل تاج اليهودية بيده ، يوم يعود اليها من عاصمة الرومان ..!

وايقن عندئذ ، بان مولاه سيبلغ بحيلته ، ما تبلغه صفوف الجنود ، بقوة السيف ثم قال : ومتى يخاطب الامير القيصر ؟

ـ يخاطبه اليوم ، ثم يخاطبه غدا وبعد غد حتى يلين ، ويرضى عن هيرودس الذي تضمن طاعته واخلاصه ... والان فقد بقي لي سؤال ارغب في ان تجيبني عنه .

ـ اسأل يا مولاي ؟ قال : كانوا يقولون لي ، وانا في اورشليم ، ان ابي ارسطوبولس قتل في السامرة ، وان فرسه كان قاتله فهل تعرف ذلك ؟ فخاف اللعين ان يكون سؤال اغريبا ، شركا يسقط فيه ، فقال : اما ان اباك قتل في السامرة فنعم ، واما ان فرسه كان قاتله ، فلا ..!

ـ ومن قتله اذن ؟

قال : قل لي يامولاي من هو الذي قص عليك خبر الفرس .
ـ مربية لي كانت تدعى منات .
قال : لقد كتمتك السر لغاية لها يا مولاي .
ـ اذن فانت تعرف كل شيء .
ـ نعم يا مولاي فجدك هيرودس الكبير هو قاتل ابيك !
فاختلجت عينا اغريبا ، واصفرت شفتاه ويداه ، وجعل يتمتم قائلا: جدي هيرودس الكبير قاتل ابي ؟؟ اني لا اصدق بما سمعت . .
ـ بل تصدق ما اقوله لك الان ، وتنسى ما قيل من قبل .
ـ وكيف يقتل الاب ابنه ؟
ـ عندما يقولون له ان ابنه سيخلعه عن العرش ويلبس تاجه . . . هذا ما ذكروه لجدك يامولاي ، فكان قاتلا .

قال : لقد جعلوا ابي مذنبا وهو البريء ، اليس كذلك ؟
ـ كما كان عمك اسكندر بريئا فجعلوه من المذنبين .
ـ ومن كان الساعي بالبريئين ؟
ـ اخو الملك واخته ، ومن حولهما من رجال السوء . وشاركهم في ذلك اعمامي على ما اظن . . .
ـ لا يامولاي . ان اعمامك لم يكن لهم راي فيما فعله جدك ، الا عمك البكر انتيباتر الذي بغى فكان القتل جزاء بغيه .
ـ والاخرون ؟
ـ اما الاخرون ، فيشهد اله اسرائيل انهم لم يغمسوا ايديهم بدماء القتيلين !

قال : عرفت هنا في روما ، بل في هذا البلاط ، ان ارشيلاوس المنفي، واخويه الباقيين ، كانوا من الجلادين .
قال : لقد كان هيرودس طفلا يامولاي ، وكان فيلبوس ، في سن لم يكن يعرف معها معنى الحياة .
ـ اكان عمي طفلا يوم قتل ابي ، وكنت انا مثله ؟
ـ اردت ان اقول يامولاي ، انه لم يكن قادرا في ذلك الحين على الاشتراك في المؤامرات .

ـ وهل يذكر هيرودس اليوم ، اخويه اللذين قتلا ظلما ؟
ـ نعم يامولاي وكلما ذكرهما تفجرت الدموع من عينيه .
ـ قال : وكيف عرفت ذلك ياسمعان ؟
ـ عرفته يوم كنت في الجليل مع سيدتي هيرودية ، وقد سمعته يسألها عنك والبكاء يتردد في صدره !!

ـ سيكفكف التاج دموعه بعد قليل ، بفضل الامير كاليكولا حامي اليهودية ، اني واثق بهذا ، وسينتهي الامر بعنايته على مانحب . والتفت الى الامير كانه يسأله الجواب ! فقال كاليكولا : سأطلب الى القيصر ، في الصباح والمساء ، ان يعدني بالتاج ، ولا اكف حتى يجود بوعده .

وكانه اراد ان يبدا بطلبه منذ تلك الساعة فأومأ الى اغريبا بان يتبعه وكان يقول لسمعان : اما انت فاخرج الى المدينة العظيمة اذا شئت ، وانظر الى آثار القياصرة الذين جعلوا عاصمتهم عاصمة للعالم كله .

ـ سأفعل ذلك يامولاي يوم يعدك القيصر بانه سيهب لهيرودس تاج ابيه .

ـ اذن فاصبر بضعة ايام ريثما احمل اليك هذا الوعد . وتركاه في القاعة مع سبسيان ، الذي اوصاه اغريبا بان يكون خادما له . . . !

وكان دهاء الاثنين ، اغريبا وكاليكولا ، قد اعمى بصيرة سمعان ؛ فلم يخطر له انهما يعبثان به . . . .

٤٤

كان فيلبوس يتألم ويشكو الزمان ، يوم رجعت هيرودية من الجليل الى الجيدور . وكانت هي تتألم مثله من تلك العودة ، وقد رات سماء الجيدور مظلمة سوداء هناك . . في الجليل ، تعيش هيرودية في غمر من اللذات ، وهنا . . . في الجيدور تغمرها الوحشة القاتلة ، والسكون الرهيب :

ان الليالي البيضاء ، التي قضتها الراقصة في قصر هيرودس ،ومشت فيها وراء عاطفة الشباب الوثاب . . متمرغة في احضان الغرام ، ان هذه الليالي ، لاتشبه ليالي الجيدور ، التي تكتنفها فيها جميع الوان

الكآبة ، والالم والشقاء ، هناك .. النغم الساحر ، والرقص المغـــري ، والنظرات الفاتنة !! وهنا الانين الذي لايهدأ ، والدموع التي لاتجـــف .. هيرودس يطمع بالمجد ، ويطمح الى الحب ، وفيلبوس يطلب الموت في كـل يوم ، لينقذه الموت من شقائه والمه . وهيرودية لاتستطيع ان تعيش ، الافي فيض من العواطف . على ان فيلبوس استعاد بعض الرجاء ، عندما ابصـر زوجته ، وخيل اليه ، انه يستطيع في ظلها ، ان يحتمل اوجاعه . ولكنهـا لم تبال به ، ولم تسأله عما جرى له وهي بعيدة عنه !!

كانت اشباح الموت ، تتراءى لها وهي في غرفة زوجها ، فتخرج منها مذعورة خائفة ، مع ابنتها صالومي ، لتفتش في القصر المظلم ، عن اشبـاح الحياة ... وفيلبوس يظن انها لاتطيق ان تراه على فراش الاوجـاع ... حتى جاوزت حدها ، ومرت ايام لم تزره فيها غير مرة واحدة في كـــل صباح ، فايقن عندئذ بان الجليل قد غير زوجته ...

وكانت هي ، تريد ان توغر صدره ، وتخرجه عن حده ، ليكون لهـا عذر عند اهل القصر ، عن هجرها اياه .. والرجل مثل فيلبوس ، يضيق صدره ، ويسوء خلقه ، فدعاها اليه في صباح يوم ، وكانت قد همت بـان تخرج الى السهل القريب لتقضي نهارها فيه . فلما دنت من فراشـــه ، جلست على مقعد قريب منه ، وجلست ابنتها الى جانبها وقالت لـه : الا تستطيع ان تقول لي عند المساء ، ماتريد ان تقوله الان ؟

قال : وهل تريدين الخروج من القصر ؟

ـ اجل فقد احسست ان القصر سيسقط على اصحابه !

ـ ولكني اقول لك كلمة ثم تنصرفين بعدها الى حيث تشائين .

ـ وما هي كلمتك ؟

قال : لقد رايت في هذين اليومين ، انك لست هيرودية المـــاضية ، التي كانت تعيش مع فيلبوس !! فهل كان الجليل سببا لهذا التغير الـذي اراه ؟

قالت : لااعلم ماذا تعني بقولك هذا ...

ـ اعني اني اكاد المس البغض توجهينه الي مع هذه النظرات .

قالت : تسألني عن شيء لااشعر به ، ولا يخطر لي ...

ـ اما انا فلست مجنونا لاسألك عن شيء لم اره ، قلت انك لست اليوم كما كنت بالامس ؛ ويقوم في ذهني ان قصر الجليل ، الذي تحجبه طوائف اليهود ، احب اليك من قصر الجيدور ، الذي لاترين فيه غير طوائف العبيد والرعاة . فارتجفت شفتاها وجعلت تقول : قد يكون ذلك !

ـ ولكنك زوجة رجل مريض ليس لك ان تغضي الطرف عنه ؛ وتبتسمي لكآبته وألمه !!

قالت : في قصرك الغلمان والجواري فمرهم بان يقوموا ببابك ، ويقضوا لياليهم عند قدميك !!

ـ وانت ؟

ـ اما انا فاريد ان اعيش في القصر ، كأني غريبة عنك !

ـ لماذا ؟

ـ لان قصر الجليل جعل لي رأيا جديدا في الحياة !!

ـ وما هو هذا الرأي ؟

ـ هو ان ابتسم للحياة والمنى ، وامشي وراء عاطفة الشباب الذي كدت اضيعه بين جدران هذا القصر السوداء .

قال : لاتنسي ياهيرودية انك ابنة امير وزوجة امير ..

ـ وانت لاتنس ان مرضك هذا سيقودني الى القبر وانا لايطيب لي ان اموت فداء عنك ..!

فحاول المريض ان يجلس فلم يستطع فقال : اقسم بالله اسرائيل انك عاشقة !

فقال وهو يتكلف الهدوء : ومن هو الرجل الذي فتنك سحره ؟

ـ هو اخوك هيرودس !!!

فاستوى جالسا كأنه صحيح الجسم ، وقد نسي مرضه والمه وجعل يقول : اخي هيرودس يسلبني زوجتي واناعاجز عن الدفاع ؟

قالت : لم يسلبك اياها كما تظن ولكنها سلمت نفسها اليه ،مختارة راضية ، وهي تعلم ماذا تفعل ...

قال : ويل لك يا فاجرة فانت تفتحين لي بيدك ابواب القبر الذي اعد لي .. فجحظت عيناه ، واهتز جسمه كما يهتز الغصن النضير

في مهب العاصفة ، ثم سقط على ظهره وهو يتمتم الفاظ اللفنة ، ولم يلبث حتى اغمض عينيه .. واغمي عليه .

فصاحت صالومي قائلاة : لقد مات ابي ...

فقالت لها : لو كان الموت جريزا كما تظنين لمد اليه يده منذ بضعة اعوام .... قومي ولا تقولي كلمة ..

وتقدمتها الى الجناح الذى تقيم به ، ثم نادت وصائفها وغلمانها وقالت لهم : اني راحلة مع صالومي على ان لا نعود فاعدوا لنا ما نحتاج اليه . .

فقالت احدى الوصائف : الى اين يا مولاتي ؟

ــ الى الجليل ، فمن اراد ان يتبعني فليستعد الساعة ..

ــ ومولاي فيلبوس ؟

فصفعتها قائلة : اذا طاب لك تن تمكثي في قصر مولاك فلا تغادري حجرته !! لقد اصبح فيلبوس غريبا عني وليس على الارض قوة تستطيع ان تعيدني اليه !!

فرفعت الوصيفة راسها وقالت : اما انا فقد علمني الوفاء ان اقضي العمر كله عند فراشه حتى يشفى او يموت . وخرجت من حجرة سيدتها دون ان تسألها عن السبب الذي يدعوها الى هذا الهجر الفجائيالغريب، وهكذا كانت الخادمة لمسكينة ، بنة القوم الفقراء اشد وفاء لفيلبوس من زوجته الخائنةسليلة الامراء...

وبعد ساعتين ، اعد الغلمان كل شيء ، فركبت هيرودية وصالومي فرسيهما ووراءهما عشرة من وصائف القصر وعبيده ، ولم يخطر للزوجة الفاجرة المستهترة ،ان توجه الى حجرة زجها المريض الشقي ، نظرة التوديع الذي لا اقاء بعده . وكان ذلك الحديث ،القصير الجاف ، اخر حديث بين الزوجين ، اما الوصية الوطية ، فقد قبلت على حجرة سيدها، وكان قد صحا من غمائه ، وقالت له : انس يا مولاي الاميرة هيرودية فقد رحلت عن الجيدور ... ولم تسأله عما دعاها الى هذا الرحيل .. فاجابها وهو يطوي وسادته بيديه : خير لمولاك ان تكون هذه الفاجرة بعيدة عنه .. فاحذري وليحذر الغلما ان يذكروا اسمها فيالقصر ..

ولم تر الجيدور ، منذ ذلك اليوم ، وجه هيرودية زوجة اميرها ، الذي يحبه شعبه ! وقد استطاع فيلبوس ، ان يستعيد قواه ، ونسي تلك المراة التى آثرت هواها ولذتها ، على العيش في ظله ..

٤٥

لقد قلت لي يا سمعان ، انالقيصر اذا سأل اليهود عن رايهم في العرش ، وفى الرجل الذي يجلس فوقه ، كان هيرودس هو الفائز ؟

ــ نعم يا مولاي .

ــ وهل انت واثق ان هيرودس اوسع نفوذا من رئيس الكهنة والامراء الذين يلتفون حوله ؟

ــ اثق بهذا كما اثق ان مولاي اغريبا هو سيد اليهود !

ــ اذن فاعلم ان القيصر وعد كاليكولا ان يهب عرش اليهودية ، لرجل الذاي يختاره ليهود ملكا لهام !

ــ وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : يعلم القيصر ، كما نعلم نحن ، ان لهيرودس الكبير ثلاثة اولاد اكبرهم ارشيلاوس الذي هو في المنفى ، والاخران ، فيلبوس وهيرودس ..

ــ نعم .

ــ ولكنه لا يعلم ، اي واحد من الثلاثة يؤثره الشعب اليهودي على سواه ، ويريد ان يوليه امر الملك .

قال : ولكن نسي القيصر ان ارشيلاوس وفيلبوس لا يصلحان للعرش ...

ــ بل نسيت انت ان ارشيلاوس اكبر انجال الملك ، والملك للاكبر ، في كل دولة ، وفى كل مكان وزمان .

قال : لقد كان مغضوبا عليه منالقيصر اغوسطوس ، ثم خلفه طيباريوس ولم يرض عنه ..

ــ ومن قال لك هذا ؟

ــ لو رضي لاعاده من منفاه واعطاه الامارة التى كانت له .

ــولكنه راض عن فيلبوس وهذا يكفي.

ــ ان فيلبوس مريض كما قلت ولا يلبث حتى يموت .

قال : هب انه قضى حياته كلها مريضا فالقيصر لا يبالي ، يجعلـــه ملكا عندما يشاء ، ثم يولي غيره بعد موته ، دون ان يخسر شيئا مـــن النفوذ والسلطان .

قال : ارجو ان تستجيب رجاء هيرودية يا مولاي . . .

قال : يظهر انك لم تفهم شيئا مما ذكرت يا سمعان ، قلت لك ان القيصر سيأمر اهل اليهودية باختيار ملكهم وهذا معناه انه يريد هيرودس ملكـــا . . .

ثم قال : يخيل الي ان هيرودس لا يحبه اليهود كما قلت ولا يريدون ان يولوه ...

ــ بل يحبونه ويكرمونه كما يكرمون انبياءهم .

ــ اذن فخير لهم ان يختاروه للعرش ، ليعلم القيصر انه سيدهم .

ــ بل خير لنا يامولاي ان لايعمد القيصر الى الاختيار لان فيه مـــا يضعضع احوال الشعب اليهودي .

قال : لايستطيع القيصر ان يخالف النظام الذي تمشت عليه القياصرة من قبل ، ان الملك يخلفه كبير انجاله ، الا اذا استولى احدهم على العرش بقوة السيف .

قال : اخشى ان يمد بيلاطوس اصبعه في هذا فيفسد على هيرودس امره . . . .

ــ والى اي امر يميل بيلاطوس ؟

ــ اظن انه يؤثر رئيس الكهنة على جميع الناس .

ــ ولكن رئيس الكهنة لايكون ملكا .

ــ اذن فهو اقرب الى والي الجيدور ، منه الى والي الجليل .

ــ لماذا ؟

ــ لان هذا الاخير ينازعه النفوذ والجاه ، وفيلبوس بعيد لا يهتم الا لامر نفسه ، فسكت قليلا ثم قال : سنكتب الى بيلاطوس كتابا نامره بـــه بان يكون عونا لهيرودس ، من وراء الستار .

فاشرق جبينه قائلا : وهل يأمره القيصر بذلك ؟

ـ بل يأمره به كاليكولا فهذا الفتى هو راس الدولة بعد عمه ، وهو قادر على ان يصنع بأمره مايشاء .

ـ ورئيس الكهنة ؟

ـ يوعز اليه الوالي بان يساعد هيرودس ، فينتهي الامر على ماتحب هيرودية وتحب انت . . .

ـ واذا لم يشأ بيلاطوس ان يفعل ماامر به ؟

ـ انه لايجسر على هذا

قال : يتظاهر بالطاعة والخضوع لامر مولاه ، ثم يبعث رجاله في ظلام الليل فيهدموا مايبنيه هيرودس في وضح النهار . فقهقه ضاحكا وقال : اذا عرف القيصر ان عامله في اليهودية يستخف به ، يأمر جنوده بان يقذفوا به الى البحر !

ـ ومع ذلك فانا خائف وقد رايت رايا .

ـ اذا كان الصواب في هذا الرأي ، جعلت القيصر من انصاره ، قل ماهو ؟ قال : ايطمع ارشيلاوس بالعودة الى اورشليم وطيباريوس حي ؟

ـ لا ، الا اذا اراد كاليكولا ذلك . . .

ـ ولكنه لايريده وانت في البلاط وهو يسمع لك .

قال : لك ان تظن اذا انه سيقضي العمر كله في منفاه .

ـ كما اظن ان فيلبوس سيغادر هذا العالم فلا يبقى من ابناء هيرودس الكبير غير هيرودس الصغير . .

ـ وماذا تريد ان تقول ؟

ـ اريد ان اقول انه من الرأي ان نصبر ريثما يموت فيلبوس فيخلو الجو لصاحب الجليل ويعطيه القيصر ملك ابيه .

قال :لو لم يكن ابناء عمي ارشيلاوس خصوما للرومان لمـاخلا الجو لصاحبك . . . انهم اصحاب حق بالملك

ـ ولكنهم يبغضون القيصر . .

ـ اجل وهذا مايبعدهم عن العرش . . . وتظاهر اغريبا بانه يفكر بهذا الاقتراح الذي اقترحه سمعان . . . . وطال تفكيره وسمعان ساكت ؛

وقلبه يخفق خوفامن ان يصر اغريبا على جعل العرش في يد الشعب يختار له من يشاء ، نعم ، كان يخاف ذلك ، لان اليهود لايطيقون ان يملكوا مولاه ، ولان بيلاطوس نفسه ، لايرضى بان يخرج الحكم من يده ، ليتولاه يهودي ؛ فقال : قل كلمتك يامولاي .

قال : ان هذا الراي خير الاراء ، ولكني اخشى ان تظن هيروديــــة الظنون .

قال : سأنقل اليها اني انا سألتك هذا .

ــ ومعذلك فسيقول هيرودس في نفسه ، بل سيقول لمن حولـــــه : لقد بخل علي ابن اخي بالعرش وهو قادر عليه .

ــ بل سيقول لمن حوله : لابن اخي الامر وعلي الطاعة

ــ وهل يستطيع ان يصبر حتى يموت اخوه ؟

ــ اذا لم يصبر يامولاي فلا خير فيه ..

قال قد يعيش فيلبوس بضعة اعوام يضيع فيها هيرودس حكمتـــــه وهدوءه .

ــ ليعيش عشرين عاما فالصبر لابد منه وهذا هو الراي.

قال : اذا كان هذا فقد انتهى الامر .

ــ ولكن عدني يامولاي .

ــ لااكتفي بان اعدك ، بل سأكتب الى هيرودية اني نزلت عند طلبــك والعرش لايكون بعد موت زوجها الا لهيرودس !!! ولكن اترضى هي بذلك ؟

ــ انها راضية وستقرأ رضاها في رسالة اخرى .

قال : اذا كان هذا فسأرى القيصر الليلة واعطيك الجواب غدا على ان تمكث في روما شهرا .

ــ لااستطيع يامولاي فقد امرتني سيدتي هيرودية بالرجوع ،عندما تسلم الي الجواب .

ــ وانا امرك بالبقاء فالامر في روما لاغريبا وفي اليهودية لهيرودية .

ــ ولكني ارجو ان تلجأ في هذا الى اللين فخير لي ان اترك روما اليوم لاني لااعلم متى تصل السفينة الى فلسطين . وكان اغريبا يريد ان يبقيــه لغاية له ،ان روما ستحتفل بعد شهر بعيد القيصر ومن الراي أن يشهــد

سمعان عظمته ومنزلته لدى القيصر في ذلك اليوم ، ليقص على عمه واخته اخبارهما . . . فقال له :

امرتك بالبقاء فلا تتردد في الطاعة وسترى في روما بعد شهر ملوك الاقطار والامراء يمشون امام مركبة القيصر في الاسواق . .

ـ وهل يترك طيباريوس روما في ذلك اليوم ؟

ـ لا ، ولكنهم يحتفلون بعيده ويدعون اليه ، الملوك والرؤساء والقواد، من جميع الاجناس ، وغادره ليذهب الى مجلس مولاه ، دون ان يسمع جوابه ، وكان يهامس خادمه سبسيان قائلا له : سترضى الفاجرة بان يكون هيرودس ملكا بعد موت زوجها ، وقد تتعجل هي اسباب هذا الموت . . . ولكن مهلا ياهيرودية فالعرش لايراه هيرودس واخوك حي . . .

٤٦

لم يكن في بترا في ذلك الحين ، شيء يستحق الذكر ، الهدوء يبسط ظله في العاصمة وفي البلاد ، والناس في السهل والجبل مطمئنون الى السلام تخفق اعلامه في كل فضاء ،الا بعض القبائل النازلة في الاطراف ، في الشمال والجنوب فقد كان سلامها الغزو ،وكانت راحتها وعيشها الرغيد في النهب والسلب . . . ان الغزو شريعة لها ، من قديم الزمان ، فهي لاتستطيع العيش بدونه ، ولو حال بينها وبينه طيباريوس قيصر وجنوده .

اما البلاط ، فمتى كان الملك ضاحكا فهو ضاحك ، واذا عبس وجهه ، تجهمت الجباه واكفهرت الوجوه ، على ان الجو كان صاحيا والسما صافية . . . فالامن يسود الربوع ، والرومان لايجسرون ان يتصدوا له في شؤون دولته ، وفدرة ، ملكة الجليل ، وهي تكتب اليه من حين الى اخر انها في قصرها ، كالملاك في الجنة .!! وولي العهد مع عروسه الحسناء ، يتمتعان بالنعم وتشملهما البركات !!

وماذا يطلب الملك غير ذلك ؟ انه اذا اسعد الملوك واقربهم الى الكمال . . وقد فاته ان النار تشتعل في صدر ولي عهده ، وانه يهم بان يبوح له بسر فدرة ، ثم يمنعه من ذلك ، خوفه من ان يهتز البلاط لهذا السر . ومن اين

للملك ان يعلم اسرار قصر هيرودس ، وابنته لاتذكر له شيئا عن هـذا ، ولا تريد ان تعكر عليه صفو عيشه ، ولكنك لو حدثت الملكة الوالدة ، لبـدا لك ان الزفرات تخرج مع الفاظها ، ولايقنت بانها تحس الما لاتعرف اسبابه !

كانت تبكي اذا جن الظلام ، وتخاطب ابنتها بالاحلام ، وتقضـي لياليها كلها ، بالاوجاع والالام . ان قلبها يحدثها ، بان فدرة لم تجـد بزواجها ، ذلك الهناء الذي اراده لها الملك ، وكلما قرات كتابا من كتبهـا ، خيل اليها ، ان السعادة التي تصفها ، سعادة كاذبة ، وان هناءها الـذي لكتب عنه ، ليس له ظل . وهنالك زيد بن عياش ، الذي كان يعلم كـل شيء ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا .. صدره يغلي ، وهو عاجز ... وقلبه يقطر دما وهو لايقدر ان يضمد الجراح .. وكلما هم بان يفضي الى الملكة بما يعلم ، تصدى له ولي العهد قائلا له : يظهر ان كتريد ان تقتل الملكة والملك ..

حتى ضاق صدره ، وخاف ان يقص على الملك ، في ساعة من ساعات كابته ، حكاية هيرودية وهيرودس،فاقبل يقول لولي العهد : احس يامولاي اني لااطيق ان احتفظ بسر الرسالة وسأبوح به اليوم ! فابتسم بكابة قائلا : لولا خوفي من ان اهدم في لحظة ،مابناه الملك ،لبحت به قبلك وسلمـت رسالة فدرة الى ابي .. اصبر ايضا يازيد ريثما يرد علينا من الجليـل كتاب اخر .

ـ اذن ارجو ان تاذن لي في الذهاب .

ـ الى اين ؟

ـ الى الجليل ، فاعرف عن كثب كل مايجري في قصر ذلك اليهودي ، الذي يستهين ببنات الملوك !!

قال : ويلك اتريد ان تفضح العرب في ذهابك .

ـ ولكني استخفي عن العيون فلا يراني احد !

ـ ان العار في الاستخفاء .

ـ وماذا اصنع وانا اخشى ان يخونني الجلد فاقتل نفسي او ابـوح بالسر ؟ فاطرق مليا ثم قال : نبعث رجلا اخر يحمل كتابا الى هيرودس ، ويدعوه باسم الملك الى زيارة بترا مع زوجته .

ـ ومن يكتب الكتاب ؟
ـ انا ، فقد وعدنا قبل زواجه ، بانه سيزور بترا ، مرة في كل عام.
قال : لقد نسي اللعين وعوده الان فهو لايذكر غير الراقصة .
ـ ومع ذلك فنحن نذكره بها كاننا لانعلم شيئا من امره .
ـ بقي علينا ان نختار رجلا يحتفظ بالاسرار .
ـ لقد اخترته الان .. انه ابوك عياش نفسه ، الذي رأى في قصر هيرودس ، يوم الزواج ، مالم يره غيره ، والذي تبوح له فدرة بما في الصدر .
قال : كانك تريد ان يذهب بأمر الملك .
ـ بل يذهب بامر ولي العهد والملك !
ـ واذا سألنا وهو غائب ؟
ـ سيقول له عياش قبل سفره انه سيذهب الى اليهودية ليبيع طائفة من خيله ..
ـ وهل يأذن له ؟

ـ اجل فالملك لايرد لابيك طلبا .. ادعه الان . ففعل واجتمع الثلاثة ، فقال ولي العهد : لو خطر لولي العهد ان يبعث بك غدا ياابا زيد الى فلسطين فماذا تقول ؟ فاجابه حموه قائلا : اصغي اولا الى ماتأمرني به ، ثم اركب فرسي واركضه لاالوى على شيء ... ماذا جرى في فلسطين يامولاي ؟

فقص عليه ماورد في رسالة اخته ثم قال : اريد ان اتبين اليوم ، حال هيرودية وهيرودس ، واسمع ماتقوله اختي ، في هذا الشأن ..
قال : لقد راينا جميعنا ، ورات الاميرة فدرة ، يوم رقصت هيرودية انها ستفتن عمها وقد وقع مانخشاه
ـ كل ذلك يهون عند الطلاق .... اني لااستطيع ان اصدق ان هيرودس يجرؤ على ذلك ونحن في الوجود .
ـ اما انا فاصدقك كل شيء ، وارى ان طمعه بالتاج وغرامه ، سيضعان حجابا على عينيه ، فيتمادى في الجفاء ، ـ وعندئذ ؟
ـ عندئذ نفاجيء الجليل بالخيل ، كما تعودنا ان نفعل ، ولا نعود حتى

تتخطف السيوف هيرودس وابنة اخيه !

ثم قال : مرني الان بما تشاء .

قال : ترى الملك بعد ساعة وتقول له : از كذاهب الى بلاد اليهود لتبيع بعض الخيل .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تعود الي لاكتب الى هيرودس ادعوه مع فدرة الى بترأ .

ـ ولكنه قد يجيء ياMولاي . .

ـ بل اقسم براس الملك انه لايفعل ، ولو اراد المجيء لمنعته هيرودية منه واكرهته على الرفض !

قال : اكتب كتابك اذن فقد فهمت كل شيء . . .

ـ ولكن لاتنسى ان تستدرج فدرة الى الاعتراف بجميع ماتشعر به ، وما تراه .

قال : لقد علمتني الايام الا انسى شيئا ياMولاي . . . وقام فخرج ليرى الملك ، وعمد ولي العهد الى الرق فكتب الى صهره ماامللاه عليه الدهاء . .

ثم رجع عياش ، وقد اذن له الملك في السفر ، وحمل الكتاب الى منزله ليتهيأ للذهاب وقد احس ولي العهد وزيد ، ان لوعتهما تكاد تزول . . . .

٤٧

رات فدرة بعينيها هيرودية وصالومي ، والوصائف والغلمان يدخلون قصر زوجها ويقيمون به ! كأنه قصرهم ، غابوا عنه زمنا قصيرا ثم عادوا اليه . فتفجرت الدموع من عينيها وكادت تسقط على الارض ، لو لم تعدها نفتاريت الى رشدها ، وتسألها بأسم شرفها ان تلجأ الى الصبر .

وبينا هي تبكي وتشكو جور الزمان ، دخل هيرودس واغلق الباب ثم قال : لقد عرفت الان انك تستسلمين الى البكاء ، فمسحت دموعها وجعلت تقول : اذن تريدين ان ابتسم لهذا المظهر الغريب الذي رايته بعيني

كأني لست من لحم ودم ..

ـ بل اريد ان تعمدي الى الحكمة فقد ذكرت لك كل شيء وقام في ذهني انك راضية بما ذكرت !واومأ الى نفتاريت بان تنصرف فقالت له ، دعها فهي تعزيني في كابتي ، وقد لااجد فى هذا القصر من يمسح لى هذه الدموع !

ـ ولكن البكاء سلاح الضعفاء . فقهقهت كما يقهقه المجنون وجعلت تقول : ومن في الجليل اضعف مني انا زوجتك ؟؟ الامر والسلطان لهيرودية امراة اخيك ، والقصر بمن فيه ملك لها تفعل بسكانه ماتشاء ، فلم يبق الا ان تجعلني وصيفة لها وينتهي الامر . فظهر الغضب على جبينه ،ثم اضمحل وراء ابتسامة كاذبة هي ابتسامة المجرمين الانذال ، ثم قال :

اتريدين ان اقول لك مااريد ان اقوله ، ونفتاريت حاضرة ؟

ـ اجل فهي تعلم مااعلم ..

قال : اضمني لي تاج الملك لاطرد هيرودية وابنتها من القصر الان ، كما يطرد العبد ، واعيدها متعثرة بالذل الى الجيدور .

ـ وهل ضمنت لك هي هذا التاج ؟

ـ نعم ، وهي قادرة على ان تمنعني اياه عندما تشاء .

ـ اذن فانت واثق بأن اغريبا سيجود عليك به وسيرسل لك مع سمعان امر القيصر .

قال : ان لم يرسله اليوم ارسله غدا وانت تعلمين ان بقاؤها في القصر يتعلق على وجوده ...

ـ بل اعلم غير ذلك ...

ـ ماذا ؟

ـ اعلم ان الفتنة التي ارسلتها عيناها الى عينيك .. هي التي جعلت لها المقام الاول في قصرك ، ولو لم يكن الامر كما ذكرت ،لكان التاج لفيلبوس الذي هو زوجها وليس لك ...

ـ ولكن فيلبوس مريض وهو لاينتظر الا الى الشفاء من مرضه.

قالت سيشفى غدا عندما يقال له ان اخاك اصبح ملكا ..

ثم خفضت صوتها قائلة : الم تقلْ الان ان التاج وحده هو الذي

يدعوك الى قبولها في قصرك ؟ ــ بلى

ــ ولكنك لم تقل لي اي شيء يدعوها هي الى هجر زوجها والعيش في نعمتك ..

قال : لقد ملت العيش في الجبال وفي الصحراء ...

ــ بل قل ملت زوجها وهي تريد ان تعيش مع سواه ... اسمع ياهيرودس .. ان ابي يستولي على التاج بقوة السيف ويهبه لك ..!

قال لقد تعاهدنا نحن الاثنين على هذا ، ولكن يعوزنا السلاح وانا لااملك منه شيئا ..

قالت : تجود العرب بالسلاح والرجال ، حتى تظفر ..

قال اؤثر الجلوس على العرش بالحيلة والدهاء ، دون ان تهرق دماء اليهود !

ــ بل تؤثر هيرودية على جميع العروش وهذا ماأراه ..

قال : هبي ان امير الجليل يريد ان تكون له زوجتان فماذاتقولين اذا فعل ؟

فسكتت قليلا ثم قالت : لا اقول شيئا .

ــ اذن ارجو ان تعتقدي ان هيرودية زوجتي ليهون عليك الامر ..

ــ اهون علي ان اعتقد انها حظية لك لان زوجها في الوجود .

قال : دعي عنك هذا الان وسننظر فيه بعد ان يعود سمعان من روما .

ــ اي انك تريد ان تعلم جواب اغريبا .

ــ نعم ، فاذا وعدها بتاج الملك فهي باقية في القصر وليس لك ان تقولي كلمة ، واذا خاب الرجاء نظرت في الامر من جديد . فهزت راسها قائلة : واذا جلست على العرش ؟

ــ اذا تم لي الامر كما تقولين احتفظت بهيرودية الى الابد ، خوفا من ان يسلبني اغريبا ، ماجاد علي به ...!

ومشى الى الباب وهو يقول : خير لك ولها ان ترضيا بما قسم لكما الله .

ثم توارى في الرواق وهو يبتسم ، كأن الامر يدعو الى الابتسام .

فقالت فدرة لنفتاريت : ماذا ترين الان ؟
ــ ارى ان للرجل عذرا يامولاتي فهو يطمح بان يصير ملكا ...
ــ ولكن ابي وعده بذلك .
ــ لايستطيع السيف ان يضمن العرش فقد يظفرالرومان...
ومع ذلك فالرجل حر بان يملاء بيته من النساء !
قالت : كنت اؤثر الموت على الطلاق ، اما اليوم فانا اؤثر الموت على ان اعيش تحت رحمة هذه المراة .
قالت : لاتنسي يامولاتي ان شرف الملك يقضي عليك بان تصبري فقد يتغير هيرودس بعد عام او عامين .
ــ وبعد ذلك ؟
ــ وبعد ذلك تختارين واحدا من امرين ، اما ان ترضي كما قال هيرودس ، بما انت فيه ، واما ان تهجري الجليل ، هجر لالقاء بعده .
قالت : الم تري كيف خرج دون ان يبالي ؟
ــ ذلك هو شأن الرجال فهم لايعرفون النساء الا على قدر الاغراض .... وجعلت تعزيها وتدعوها الى الاعتصام بالحكمة ، لئلا تشمت بها هيرودية وتهزأ بكابتها ولوعتها الظاهرتين . حتى استسلمت الى القدر ، ورأت ان الصبر خير دواء

٤٨

هذا عياش ، كبير قواد العرب ، في قصر هيرودس .
غير انه لم ير صاحب القصر ، فهو في اورشليم وقد دعاه اليها عامل القيصر ، لينظر معه في امر الجزية ، التي يتردد في دفعها ، بعض طوائف اليهود ، في اعالي الاردن . فراى ان يقابل فدرة ، ويحدثها بالامر الذي قدم من اجله ، قبل أن يعود الامير ، من عصمة اليهود .
فنقل اليها الغلمان خبر قدومه ، فاذنت له في المثول بين يديها ، وهي تضطرب ، وقد عاودتها الذكريات ، ولكنها تجلدت ، وحاولت ان تخفي شقاءها ، وراء مظاهر الراحة والهناء ، على انها ، لم تقع عينها على

عياش ، حتى سبقتها الدموع ، وعقدت اللوعة لسانها ، فلم تستطع ان تقول كلمة .. فجثا القائد على ركبتيه قائلا : احمل اليك يا مولاتي شوق الملك والملكتين ،ولو استطعت لحملت اليك قلب ولي العهد وقلب زوجته ..

فأومأت اليه بالنهوض وهي تمسح الدمع ، ثم قالت : اعد علي يا عياش ما ذكرت وخبرني كل شيء . فجعل يصف لها حال القوم وهي ساكنة ، والدموع تظهر وتختفي في عينيها الذابلتين حتى انتهى من وصفه فقالت له : وما هو غرضك من المجيء الى الجليل ؟

ـ ليس لي غرض يا مولاتي الا ان اراك ، واسمع منك ما لا تكتبينه الى مولاي ولي العهد ..

ولم يكتب الي الملك ؟

ـ لم اقل له اني ساجيء الى الجليل ، ومع ذلك فقد امرني بان ابذل الجهد ، لاراك في هذا القصر .

ـ اذن فانت قادم بامر مالك ؟

ـ نعم فقلبه يقطر دما ، وهو يطلب اليك ان تذكري لي ، جميع ما تحسين به في قصر هيرودس . ـ وامي ؟

ـ ما اردت ان اراها قبل ان اغادر بترا لان ولي العهد اراد ذلك .

قالت : لقد تزوج ولي العهد وانا لم اشهد زواجه، فهل رايت او سمعت من قبل ، ان اختا يتزوج اخوها وهي بعيدة عنه ؟

ـ قال لي ولي العهد انك لا تريدين ان تشهدي هذا الزواج .

ـ اجل ، فقد خفت ان اذهب الى بترا فيستولي على الضعف وهذا هو الضعف نفسه ... ماذا تريد ان تعلم الان ؟ ااقص عليك اخبار هيرودس الذي عاهده ابي على الوفاء ؟

ـ نعم يا مولاتي فلاجل هذا وحده قدمت الجليل .

قالت : لقد خطر لي من قبل ان اكتم جميع الناس ، ما رأيته عند هيرودس ، ليظل الملك قرير العين .

ـ واما انا فارى ان تبوحي لي ، باسم ولي العهد الذي ارسلني بما اردت ان تكتميه .

قالت :لقد عرفت ان هيرودس يطمع بعرش اليهود . ـ نعم

ـ ولكنك لم تعلم ان هيرودية ، ستحمل هذا العرش على كتفيها ، لتضعه تحت قدميه !!

ـ بلى ، فقد قرات شيئا من هذا ، في رسالتك الى ولي العهد ولكن هل تستطيع هيرودية ، ان تبني عرشا ؟

ـ هكذا قالت له ، وقد سمعتهما نفتاريت يتحدثان بالامر ، كما سمعت هيرودس يعدها بانه سيطردني من قصره ..

ـ واين هي المراة ؟

ـ تسألني اين هي ؟ انها في هذا القصر مع ابنتها وجواريها وعبيدها الذين رافقوها من الجيدور وهي اليوم سيدة الجليل وصاحبة الامر فيه.

ـ وكيف يقولون ان زوجها مريض وهي لاتفارقه ؟

قالت : تلك كلمة كانت تقولها للناس لتضع حجابا على العيون ... انها تكره هذا الزوج ولا تطيق ان تعيش بالقرب منه ، ولو استطاعت لارسلت خنجرها الى قلبه ليخلو لها الجو .

قال : الم تحدثي هيرودس بهذا ؟

ـ بلى ، ولكنه كان قاسيا نذلا ، لا ينظر الا الى غرامه ، اتعلم ماذا قال ؟ لقد اراد ان يحملني على الاعتقاد ان هيرودية زوجته ، وانها ستبقى له حتى يغيبهما القبر !

ـ وعلى اي امر تعولين اليوم ؟

ـ على ان اصبر الى النهاية كما ذكرت في رسالتي الى اخي .

ـ اما انا فقد رايت غير ذلك وارجو ان تسمعي لي .

قالت : ستنصح لي بان اداريه واجارية وانا سأفعل ...

ـ بل استحلفك براس الملك ، ان تصوني . كرامة العرب كما يصونها كل عربي ابي .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ تسألينه عندما يجيء ان يكتفي بزوجة واحدة !! اما انت ، او هيرودية .

ـ ولكنه يريد اليوم ، ان يحتفظ بنا نحن الاثنتين ، فاما ان يجود عليه اغريبا بالتاج فيستغني عني وعن سيوف قومي ، واما ان يبخل به ،

فيتغير على زوجة اخيه ويقربني اليه من جديد ..

قال : ان ولي العهد لا يرضى بهذا ، هو يطلب ان يعمد هيرودس الى واحد من امرين ، اما ان يعيد هيرودية الى الجيدور ، او يطلق فدرة.

قالت : يخيل الي ان الطلاق اهون عليه .. — ليفعل ..

— ولكن عار الطلاق يلحق بالملك .

— بل يلحق بهيرودس وحده ثم ينال جزاءه ، من سيوف الانباط .

— وماذا يقول الناس عن فدرة .

— يقولون ان زوجها اراد ان يكرهها على الخضوع لهذه الراقصة، فابت ، فطلقها ، وهذه هي الكرامة ! .

قالت : لا اعلم يا عياش لماذا اخاف هذا الطلاق .

— تخافينه لان الملك سيندم على ما فعل ، وسيغضب على نفسه ، وانت لا تريدين ذلك . فارسلت نظرها من نافذة الغرفة الى السماء ، كانها تشاورها في الامر ، ثم ابتسمت وهي تقول : اصبت ، فالملك قبل كل شيء ، وشرف الملك هو الذي يدفعني الى التضحية ، ويملي علي هذا الاحتمال ... وجعل البكاء يتردد في صدرها وهي تقول : ليفعل هيرودس ما يشاء فانا لا اطلب اليه شيئا بعد الان ولا اسأله عن شيء .. وعندما يخطر له ان يطلقني اخرج من هذا القصر وانا باسمة الثغر وامر وصائفي بان يتبعنني الى بترا دون ان يحملن ثيابهن .

قال : سمعت ولي العهد يقول لزيد : انه سيغزو الجليل وهو لا يستطيع ان يفعل الا اذا خان هيرودس عهده . فخفق فؤادها لذكر زيد واجابته قائلة : سيخون الرجل العهد بعد قليل ، فالطلاق لا بد منه وسيغزوه بعد ذلك ، عندما يطيب له الغزو ..

ثم قالت : قل لي يا عياش ماذا تقول لهيرودس عندما يعود من اورشليم ؟

— ادعوه باسم الملك الى زيارة بترا واثبت له اني قدمت لهذه الغاية، ولكن متى ذهب الى اورشليم يا مولاتي ؟

— منذ بضعة ايام وسيعود غدا او بعد غد . وكانها خافت ان يخرج عياش عن حده ، في حديثه مع هيرودس ، فقالت له : احذر ان

تذكر له شيئا مما قلته لك الان .

قال : واي شأن لي معه يا مولاتي حتى احدثه بهذا الامر، لقد عرفت الان ما اراد ولي العهد ان اعرفه ، فسأقيم بالقصر حتى يجيء صاحبه ثم ارحل .. افلا تقبلين النصح الذي وجهه اليك اخوك ؟

ــ لا ، ان امرا مثل هذا لا افعله الا اذا امرني به الملك !!

ــ اذن سيأمرك بذلك بعد ان يقص عليه ولي العهد حكاية هيرودس مع هيرودية ..

ــ لا يجسر ولي العهد على هذا ، الا اذا اراد ان يقتل اباه ، ومع ذلك فانا هنا خاضعة للملك ، كما كنت خاضعة له في بترا .

قال : سأنقل الى ولي العهد كل شيء يا مولاتي عن اغريبا ، اهو من رجال القيصر كما يقولون ؟

ــ بل هو من رؤوس الدولة وقد سمعت كهنة اليهود يذكرون هذا، ويتحدثون بنفوذ الرجل في البلاط .

ــ ومن يطلب اليه ان يساعد هيرودس في نيل التاج ؟

ــ ارسلت اليه هيرودية ذلك اللعين سمعان ، ناظر مخدع هيرودس، وسألته ان يجود بالمساعدة برسالة كتبتها اليه .

قال : اظن انه لا يعود الا بعد بضعة اشهر .

ــ اجل ، فروما بعيدة ، وقد يمر على ذهابه ورجوعه عام كامل ، اذا سلمت سفينته من الغرق . فأطرق ذلك القائد المجرب لحظة ثم رفع راسه قائلا : يقوم في الذهن ان هيرودس لن يجلس على العرش ، وسيرى التاج بعينيه ، على جبين رجل اخر ...

ــ ومن هو هذا الرجل ؟

ــ هو اغريبا نفسه !!

فجعلت تحدق اليه وتقول : لا ادري اي شيء اوحى اليك بهذا .

ــ اوحاه الي امر واحد ، هو ان اغريبا حفيد ذلك الملك اليهودي الذي يريد هيرودس ان يخلفه على العرش .

ــ واذا كان ذلك ؟

قال : ان الرجل الذي يعيش في بلاط ملك ، ويشهد عظمة الملك

وابهته ، والمجد الذي يحيط به ، تجيش في صدره المطامع ، وقد يدب الحسد فيه ، فيود لو يصبح ملكا .

— ولكن اغريبا لا يفكر في اليهودية لانه غادرها وهو طفل لا يعرف فيها احدا غير اعمامه .

— ومع ذلك فهو قادر على ان يصنع العروش ويهب التيجان لمن يشاء . .

— هكذا يقولون .

— اذن فسيصنع العرش لنفسه ، ويهب التاج لراسه وينتهي الامر .

— وهل تظن انه يغضب اخته ويرد رسولها خائبا ؟

— لو خطر له ان يفكر في اخته ، لطلبها الى روما وجعلها زوجة لرجل من عظماء الرومان . . انه يزرع اليوم ليستغل غدا ، وسيضيع هيرودس رجاءه على ما اظن .

قالت : من يعلم فقد تكون روما في نظره احب اليه من العرش .

قال : لو لم يكن طامحا الى المعالي لما اصبح في بضعة اعوام ، من المقربين الى قيصر ، وهل يطمح الرجل في حياته الى اكثر من الملك ؟ فرات قدرة ان الصواب فيما يقول ، فقالت له : اذا كان هذا ، فاليهودية ستهتز وستنشب الحرب بين الرؤساء والامراء .

— ولمن يكون الظفر ؟

— لاغريبا لان روما تسنده من الوراء .

— هذا ما افكر فيه وسترين . . وبينا هما يتحادثان ، دخلت نفاريت وهي تقول : لقد اقبل هيرودس يا مولاتي وهو في ساحة القصر .

فنهض عياش قائلا : خير لي اذن ان انتظره في قاعة الجلوس .

فقالت قدرة : وانا اذهب معك الى تلك القاعة . ومشى الاثنان اليها ، وجعلا يتحادثان والابتسامات على الشفاه ، حتى دخل وهو مشرق الجبين مفتر الثغر . وكان الغلمان قد خبروه ان القائد العربي في القصر .

★ ★ ★

هش الجليلي لضيفه ورحب به ، وكأنه اراد ان يفاجئه بحديث السياسة والدهاء ، ليخدر اعصابه ، فقال له : لقد دعاني بيلاطوس الى اورشليم . لان مولاه القيصر يحتاج الى المال . . .

فجاراه القائد في دهائه قائلا له: ايطلب القيصر مالا منك ايهاالامير !

ــ لا . ولكن بعض اليهود في الاردن ، بدؤوا بالعصيان ، وردوا جباة الجزية ردا قبيحا غضب له الوالي .

ــ وكيف يعصون وسيف الروم فوق الرؤوس ؟

ــ لقد تعجلوا في الامر ، وكان عليهم ان يصبروا ، ريثما نتهيأ نحن، وتتهيأ العرب لحرب الرومان !

ــ وماذا طلب بيلاطوس ؟

ــ طلب الي ان اخضع هؤلاء العصاة واخذ مالهم ، ولكني لا افعل الا اذا ارسل الي الفين ، من جنوده ، كما وعد . فقال عياش : اطلب من الملك من تشاء من الجنود . . .

قال : ستحارب جنود الملك ، رجال القيصر ، لا رجال اليهود . ثم قال : نسينا ان نسألك عنه وعن الاسرة المالكة ، كيف ولي العهد ؟ لقد تزوج ولم تشأ فدرة ان تشهد زواجه . . . اليس كذلك يا فدرة ؟

ــ اجل ، فقد طابت لي الاقامة بالجليل حتى نسيت بترا ومن فيها ، من الاهل والانسباء !! . . .

فقال عياش : لقد ذكرت لي شيئا من هذا الان ، وهذا ما يريده الملك وولي عهده

ــ اي انهما لا يريدان ايها الامير ان نزورهما

ــ بل يريد ايها الامير ان تطيب الاقامة للاميرة بالبلد الذي يقيم به زوجها العظيم

قال : اليست ابنتك ولية العهد ؟

ــ بلى !. .

ــ انها اذن ستصبح ملكة ، دون ان تخسر مالا او تهرق دما . .

ــ مع اني كنت اؤثر ان تعيش في الحقل ، على ان تتربع في العرش.

ـ ولم ذلك ؟

ـ لانها تنسى وهي على عرشها ، اباها وامها ، بل تنسى نفسها ، وانا لا اريد ان اخسر ابنتي التي ربيتها بدم القلب .

قال : يظهر انك تحب ابتعاد عن الملوك ...

ـ اجل ، ولو لم اخلق عربيا .. بل لولا كرامة العرب لما شهرت السيف في سبيل الملك .. !

ـ اذن فانا اخشى ان تصبح عدوا لي ، بعد حين !

ـ عندما اصبح عدوا لمولاتي الاميرة ، اصبح في الوقت نفسه عدوالك

ـ اردت ان اقول اني سأصير ملكا .

قال : اتهزا بي ايها الامير وانا اعلم ان الملك لا يتم لك امره ، الا بعد ان نحارب الروم ؟

فكره هيرودس ان يتمادى في خفته فقال : اصبت فالحرب هي التي ستوجد العرش ، وانا ارى ان يومها ليس ببعيد ...

قال : ستحادث الملك بشانها بعد ايام ..

ـ واين اراه ؟

ـ في بترا ، فقد قدمت لادعوك باسمه الى الزيارة . ـ اليوم ؟

ـ نعم وقد اوصاني بان الح في الطلب .

ـ ولكني لست قادرا على الذهاب ، فقد خبرتك بما جرى على ضفة الاردن ، وانا بانتظار جنود بيلاطوس .

قال : ستخضع القوم بعد رجوعك وستاخذ الجزية منهم عندما تشاء

قال : لا استطيع الا ان افي بما وعدت ، فقد عاهدت الوالي على انتظار الرجال ، وسأبقى في الجليل حتى يجيئوا ..

ـ متى تذهب اذن ؟

ـ في العام المقبل ، فلتذهب فدرة اليوم ، ولتمكث ببلاط الملك شهرين ، اذا ارادت .

قال : اتذهبين يا مولاتي ؟

ـ لا ، فسابقى في الجليل ولو ذهب هيرودس . فضحك هيرودس كما يضحك المستهزيء ، ولم يقل كلمة . اما عياش فقال : ولكن الملك

يريد ان يراك ويرى صهره .

قالت : نحن في زمن لا يجوز فيه ان نترك القصر ...

ـ اذن لم يبق لي ما اصنعه فسانصرف غدا .. وعندئذ دخلت هيرودية وصالومي ، فنهض عياش وهو يقول : انها زوجة اخيك التي رايتها في هذا القصر يوم الزواج ..

فاجابته هي قائلة : وانت ... عياش كبير قواد اريتاس .. وصافحته وهي تنظر الى هيرودس ، ثم قالت : متى قدمت من اورشليم ؟ ـ الان

ـ وماذا يريد الوالي ؟

ـ يريد ان يخضع القوم الذين خرجوا من الطاعة .

ـ وتذهب انت الى الاردن ؟

ـ اجل ، وسيكون معي قائد الحامية وقائد اخر يبعثه بيلاطـوس .

قالت : اخشى ان يتمرد القوم فتهرق الدماء ..

ـ ولكنهم لا يفعلون ذلك اذا راوا امير الجليل .

ـ بل يفعلونه لانهم يبغضون روما التى ذبحت رجالهم .

ـ اذا اقدموا على هذا جعلنا السيف حكما بيننا وبينهم .

قالت : اتبعني ان شئت فلي ما اقوله لك . ومشت امامه دون ان تنتظر جوابه ، ودون ان تنظر الى فدرة وعياش ، كانها ملكة تحف بهـا الجنود والحراس ....

فالتفت هيرودس الى الجانبين ثم قال : امكث مع فدرة ايها القائـد فسأعود بعد ساعة .. وتبع هيرودية هو وصالومي ، فهامست فدرة عياشا قائلة : ارايت بعينك يا ابا زيد ؟

قال : انها وقاحة لم ار مثلها في كل ما رايت .

ـ وهو استسلام من هيرودس يخجل منه الرجال النبلا ء..اتعرف ماذا ارادت ان تقول له الساعة ؟ ستخبره اني جالستك قبل المجيء الـى قاعة الجلوس .

قال : لو كنت امراة ، وقذفت بي الاقدار ، الى هذا القصر كما قذفت بك ، لما صبرت لحظةواحدة على ما اراه . قولي لي يا مولاتي كيـف تستطيعين ان تحتملي مثل هذا ؟

قالت : في النفس غاية لم اذكرها لك الان ، كما اني لم اذكرها لاخي

مالك يوم ودعته !

ـ ولكن ليس من الراي ان تكتمي شيئا .

قالت :الم اقل لك اني لا اذهب الى بترا ولو ذهب اليها هيرودس ؟

ـ بلى

الم اقل اني ساصبر على ذلي الى النهاية ، ولو قتلت ؟

ـ لقد سمعت كل ذلك يا مولاتي ؟

ـ وهل تعلم لماذا افعل ذلك ؟

ـ نعم ، فأنت تخافين ان يستولي عليك الضعف من ناحيـة ، وان يستولي الندم على الملك ، من ناحية اخرى .

فابتسمت بمرارة قائلة : هذا هو الظاهر يا عياش ، ولكن الامر الذي عولت عليه في سري ، لم ابح به لاحد ، خوفا من ان يكرهوني على العدول عنه ، وسأبوح لك به الان . . وتلالات الدموع من جديد، في تينك العينين الخلابتين .

فقال : اذن فأنت تثقين بي الوثوق كله يا مولاتي ،

ـ اجل ، وارجو ان تحتفظ بسري الذي يجب ان يموت معنـا ، عندما يفاجئنا الموت .

قال لا اعدك بهذا فانا اخشى ان ابوح به لولي العهد

ـ ولكنه سر رهيب يا ابا زيد

قال: خير لك اذن يا مولاتي ان تكتميني اياه فقد اعجز عن الاحتفاظ به

ـ ومع ذلك فسأذكره ولا ابالي .. ان هذا الاحتمال الذى تراه، معناه اني اؤثر الموت على الحياة . .

قال : مولاتي ؟!!

قالت : اجل ، وسأرهق نفسي احتمالا وامتنع عن الذهاب الى بلاد قومي ، حتى يذوب جسدي كما ذاب هذا القلب ، وحتى يغيبني تـراب الخليل فيعلم الملك عندئذ ان مطامعه بعثت بابنته الى الموت . .

فهاله هذا الاعتراف ، فقال : اهذا ما تفكرين فيه ؟

ـ نعم ، وسيقضي الملك ايامه ، بعد ان اموت ، بالبكاء والحزن ، على الفتاة التي ذهبت ضحية الظلم .

قال : اما وقد اعترفت يا مولاتي بكل شيء فانا اقسم لك اني سانقل

هذه الكلمات، الى ولي العهد ، عندما تقع عليه العين ، واطلب اليـــه ان ينقلها بدوره الى الملك . فكفكفت دموعها قائلة : لا تفضحني يا عيــاش !

قال : الفضيحة يا مولاتي خير من جعل الملك والملكة ، وولي العهـد، والدولة بأسرها ، في حزن دائم لا يزول اثره !

ـ ولكني وثقت بك كما اثق بنفسي ...

ـ وماذا ينفعني الاحتفاظ بالسر ، اذا كان من ورائه موت الاميرة التي تهتز لموتها قبائل العرب ؟!

قالت : اذا عرف الملك ما قلته لك ، ترك بترا وجاء الى الجليل دون ان يخبر احدا

ـ وهذا ما اريده ، فاما ان تتركي هذا الزوج القاسي الفاجر ، واما ان تعدلي عما هممت به .

قالت : لقد عدلت .

ـ ارجو ان تقسمي لي انك لا تكلفين النفس فوق ما تطيق. فترددت قليلا ثم ابتسمت ، ثم تمتمت قائلة : ومع ذلك فستقص على ولي العهـد كل ما سمعت .

ـ اجل ، ولكن الملك لن يعرف شيئا . وجعل يحدثها باخبار العرب ويزرع في نفسها الرغبة في الطلاق ، حتى ابتسمت واشرق جبينهـــا المكفهر ولم تغادر قاعة الجلوس ، حتى وعدها بانه سيبقى في الجليل ثلاثة ايام ..

★ ★ ★

دعوتك لاقول لك يا عم ، ان قدرة خبرت هذا العربي ، ما يجب ان تكتمه اياه . فقال هيرودس : اي انها خبرته انك تقيمين بهذا القصر ..!

ـ وهذا يكفي لاغضاب ملكك ... قالت له ذلك لتمتحن حبه .

فقال : واي شأن للملك مع امير الجليل ؟ انه يعيش مع زوجتين ، وانا قد يطيب لي ان اعيش ، مع طائفة من النساء .

ـ ولكنه لا يرضى بان تهان ابنته ..

قالت : لنفترض انه غضب لما تقولين ، فانا لا ابالي به ، ولا اهتم الا للتاج ، تعصبين به هذا الجبين الوضاح ..

ـ لم يبق اذن الا ان تعمد الى الطلاق فتستريح ، وتستريح هـــذه

المرأة التي اكرهك الزمان ، على جعلها زوجة لك ...

قال : سننظر في هذا بعد رجوع سمعان كما قلت ، ولكن فاتني ان اقول لك ان فدرة راضية بما هي فيه ..

ـ وهل عرفت كل شيء ؟

اجل ، ولم انس ان اقول لها انك سيدة القصر وستبقين العمـــر كله فيـــه .

ـ متى حدثتها بذلك ؟

ـ قبل ذهابي الى اورشليم .

ـ وكيف كتمتني مثل هذا الخبر وانا اتوق الى معرفته ؟

ـ لقد خطر لي ان افاجئك به اليوم .

قالت : لو كنت انا هيرودس لذكرت لها الطلاق .

قال : ما اردت ان احدثها بشأنه قبل ان اقرأ جواب اغريبا ... ان الصبر في مثل هذه القضية ، امر لا بد منه .

ـ وهذا العربي عياش ، ماذا جاء يصنع ، وما هي غايته ؟

ـ اوفده اريتاس ليسألنا الذهاب الى بترا ، فضحكت قائلـــة : انصح لك بان تذهب غدا مع زوجتك ، لان الملك امرك بهذا وامره لا يرد .

ـ سافعل ذلك على امل ان اعد لك ولفدرة هودجا واحدا ، كالهودج الذي جعلوه لها ، يوم الزواج ...

ـ ولكني اقتلها قبل ان تصل الى البلاط !!.

قال : اذا كان هذا فخير لنا جميعنا ان نبقى في الجليل . وضحـك الاثنان ، ساخرين بتلك الفتاة العربية النبيلة ، شامتين بلوعتها وشقائها الذي ليس له حد . وكانت نفتاريت تسمع ، كل كلمة ، وقد نقلت الـى سيدتها الشقية ، هزء العاشقين ...

٥٠

لم يلبث عياش حتى عاد الى بترا ، وهو يحمل غصة القلب . ولـم تلبث هيرودية ، بعد عودته ، حتى تمادت في القسـوة والجور ، فامرت عبيد القصر وغلمانه ، بالا يخدموا فدرة ولا ينظروا اليها ، الا كما ينظرون الـى

كل غريب . والعبيد والغلمان ، لايستطيعون الا ان يخضعوا الخضوع الصحيح لتلك المراة الامرة ، التي لاتعرف اللين ...

وكيف لا يفعلون ذلك ، وهيرودس نفسه هو الذي امرهم بالطاعة وهدد بالجلد كل من يخالف هيرودية في امر . حتى رات فدرة نفسها، انها في سجن قسا حراسه ، وان الوصائف اللواتي رافقنها الى الجليل ، ليس لهن وجود في القصر . فاستسلمت اولا الى اليأس تعالج امرها بالبكاء ، ثم خرجت من يأسها فجأة كأنها لا تريد الاعتراف بالذل الذي يبسط فوقها ظله ، او كأنها استلذت تلك القساوة التي تنتهي بها ، الى الطلاق ، او الى الموت !

اجل ، لقد اصبح الطلاق ، الذي كانت تكرهه ، وتخشى ان يفاجئها زوجها ، هدفها الوحيد الذي ترغب في الوصول اليه ... لقد وعدت عياشا بانها ستبتعد جهدها عن الموت .. بل اقسمت له انها ستفكر في الحياة ، وليس في القصر ، ما يساعدها في الوفاء ، بما وعدت به ...

مسكينة فدرة ! انها لا تجد الحياة الا اذا خرجت من القصر ، وهي لاتستطيع الخروج منه ، الا اذا اكرهها هيرودس على ذلك .. وقد قام في ذهنها ، ان ذلك الجور الذي تلمسه ، في كل يوم هو المقدمة للخروج من سجنها الضيق ... الرهيب ...

ليس في كل ما رايت شيء من الغرابة ، فقد يقسو الرجل وتجفو المرأة ، وتقع العين على مشاهد البغض والحب ، والقساوة والجفاء ، في كل مكان وزمان .. ولكن الغريب ، ان هيردس كان يمر بما يجري حوله، كما يمر الكرام .. بل كان يستطيع ان يلبس ثوب الحمل وهو الذئب ! ! ويحاول الاستخفاء وراء مظاهر النبالة والشرف ، ليحجب وحشيته الرائعة عن العيون ! ..

واغرب من هذا ، ان فدرة لم تشأ ان تشكو اليه وحشيته ... ولم تتنازل ، بعد كل ما جرى ، الى الاستعطاف والرجاء .. وهيرودية الراقصة ، على رغم استهتارها وفجورها اللذين تحدثت بهما الافواه ، ونقلتهما الاجيال الى الاجيال ، كانت تظهر بمظاهر الملكة التي ترسل الى ما حولها الجلال . ولعلها كانت تظن انها اصبحت ملكة اليهود ...

٥١

كان عياش قد وعد فدرة ، بان يرسل الى الجليل عربيين من بترا وصفهما لها ، ودل نفتاريت على المكان الذي سينزلان فيه . ومعنى ذلك ان هذين الفتيين ، سيحملان رسائل فدرة الى ولي العهد ، كلما خطر لها ان تبعث رسولا اليه . وقد وفى ابو زيد بما وعد ، بعد رجوعه ،وبعد ان قص على وليالعهد حكاية اخته لم ينقص فيها ولم يزد . فغضب الامير لما سمع ، وثارت نفسه .. ولكن عياشا اعاده الى هدوئه ، ودعاه الى التأني والصبر ، ريثما يرجع سمعان من عاصمة الروم وتكتب اليه فدرة عن جواب اغريبا . ولولا حكمة القائد ، وبعد نظره ، لخبر ولي العهد اباه بما يفعله هيرودس الجائر ، وبما تعانيه فدرة ، من كابة وشقاء.

امازيد ، فكان رأيه راي الفتى الطائش الذي لا ينظر الا الى هواه ! ..يركب مع فرسان عشيرته الذين عرفتهم الحرب ، ويقودهم الى الجليل ... الى قصر هيرودس ، فينتزع فدرة انتزاعا من ذلك القصر، على رغم الحراس والجنود ، وكل من يتقلد سيفا ، ثم يحملها على فرس له وهيرودس ينظر اليه ..!!!

ثم يعود الى بترا فيقول للملك : هذه ابنتك يا مولاي انقذتها من اشداق المنون !! ذلك ما كان يراه زيد بن عياش ..

وهو عمل لا ينتهي الا بالخيبة ، ولا يفضي الا الى العار .. على ان اباه لم يسمع له ، حتى ان ولي العهد لم يستطع الا ان يبتسم ابتسامة الاستخفاف ...

وقد راى ان يسلم الامر الى عياش ، ويفوض اليه ان يضع المنهاج الذي يسير الثلاثة عليه ، لانقاذ فدرة من الجليل ، اذا لم يعد هيرودس الى الرشد ...

٥٢

رجع سمعان من روما ، في اخر العام . فلم يصدق هيرودس حراسه الذين خبروه برجوعه ، وكان يقول لهيرودية وهو في حجرتها : لاادري ماذا حمل الي هذا الرجل .. وهم بالخروج ليسأله عما راه ، وهو في الرواق

فقالت له : ادعه اليك ولا تلفت نظر الغلمان .

وكان اهل القصر يقولون : لقد اقبل الانطاكي ، وهذا معناه انهم كانوا واثقين بان سمعان ذهب الى انطاكية بامر هيرودس ، ولم يعد منها الا في هذا اليوم . فلما راه هيرودس ، حبس انفاسه ، وجعل يحدق اليه ليقرأ على جبينه وفي عينيه ، ظفره او خيبته . ثم امر جميع الجواري بالخروج ، وقال له وصوته يرتجف : ماذا يا سمعان ؟ نعم او لا ؟

فاجابه سمعان وهو هادىء : نعم ولا يا مولاي . . فاشرق جبينه لكلمة نعم ، فقال : انه جواب لم افهم منه شيئا . . . قل لمن الملك لي او لسواي ؟

قال : اني احمل كتابا لمولاتي هيرودية . . .

ــ ولكن اريد ان اعرف جواب اغريبا قبل ان اقرا هذا الكتاب ، قل ولا تتردد .

قال : اذا رات روما ان تبعث العرش من قبره فسيكون لك . . .

فقال وقد ضاق صدره : اذن فالقيصر لم يشأ ان يعيد العرش اليهودي الى الوجود . .

ــ سيعيده يامولاي ، ولكن بعد ان يموت اخوك فيليبوس .

ــ واي شأن لاخي الذي ذكرت .

ــ انك اصغر ابناء هيرودس يامولاي ، ولا يستطيع الصغير ان يجلس على العرش واخوه الاكبر حي !

ــ اغريبا قال ذلك ؟

ــ نعم ، ولو لم يكن القيصر غاضبا على اخيك ارشيلاوس لكان الحق الاول له ، لا لسواه . .

فتنهد رئيس الربع تنهد اليائس ، وكانت هيرودية ساكتة ، فقالت له: اصبر يا عم فسأتولى انا سؤاله ، اسمع يا سمعان ، لقد قلت ان القيصر سيعيد العرش يوم يموت فيليبوس : ــ نعم

قالت : لنفترض ان فيليبوس في زهرة عمره ، فكيف ينتظر اغريبا موته ؟

ــ ليس لك ان تفترضي ذلك يامولاتي : لماذا ؟

ـ لماذا ؟

فقال هيرودس : ويلك هل تغير القيصر علي

ـ اجل حتى هم بان يدعوك الى روما ليسألك عما انتهى اليه من اخبار الجليل .

ـ لاني قلت له انه مريض وسيموت .

فابتسمت قائلة لهيرودس : لقد هان الامر الان ، هات ايضا يا سمعان ولا تنس كلمة قالها اغريبا ..

قال : لقد اراد ان يأمر بيلاطوس الوالي ، باجلاس مولاي هيرودس على العرش اليوم ، ولكن القيصر لم يرض ، بل لم يشأ ان يذكر امامه اسم هيرودس رئيس الربع في الجليل .

ـ وما هي هذه الاخبار ؟

ـ اخبار يهوذا الجولاني يا مولاي .

ـ وهل بلغ القيصر ان يهوذا قال عنه انه وثني ولا يحل لليهود ان يعطوه الجزية ؟

ـ بل بلغه اكثر من ذلك ، قيل له انك كنت من انصار يهوذا وقد نفخت في صدور اليهود روح التمرد والعصيان .

فجعل هيرودس يرتجف من الغضب والقهر ، فقالت هيرودية : الم تعرف يا سمعان من قال له ذلك ؟

ـ بلى يا مولاتي فان بيلاطوس الوالي هو الذي كتب الى مولاه كتابا قص عليه فيه هذه الحكاية الكاذبة .

فتمتمت قائلة : ويل للاعداء الذين يلبسون ثياب المخلصين ... ثم ماذا ؟

ـ ثم استطاع اغريبا بفضل كاليكولا ابن اخي القيصر ، ان يثبت لطيباريوس براءة مولاي مما نسبوه اليه .

ـ ولكنه لم يرض بان يجعله ملكا ..

ـ لقد تردد اولا في اعادة العرش ، ثم رضي بذلك على ان يجلس فوقه ، اكبر اعضاء البيت المالك .

ـ وعندئذ خبره اغريبا ان فيلبوس لا يصلح للملك .

ـ بل خبره ان الاخوين ، ارشيلاوس وفيلبوس لا يصلحان له ، وان مولاي هيرودس سيكون اصدق الملوك في خدمته .

فقالت بفرح : اذن كان اغريبا نصيرا لنا وهذا يكفي .

قال : لقد كان اشد منا رغبة في بلوغ الغاية ، وقد لج في طلب العرش لمولاي ، فوعده عندئذ وعد ملك انه سيهبه له بعد موت اخيه المريض ، وكان يقول : ان روما لا تخالف النظام الذي يتمشى عليه الملوك ...

ثم ناولها الرسالة التي يحملها من اغريبا قائلا : لقد ورد فيها يا مولاتي ما خبرتك عنه . فقراتها ثلاث مرات ، وهي تبتسم للوعود ، وتضحك للامل الذي يعللها ويعلل هيرودس به ، ثم دفعتها الى عمها وقالت له : استطيع ان اقول الان انك نصف ملك !! فتناولها هيرودس ساكتا ، وجعل يقرا . وكانت هي تقول لسمعان : كيف رايت اغريبا في بلاط طيباريوس ؟.. يقولون انه من اقرب الناس اليه ، فهل صدقوا فيما قالوه ؟

ـ نعم يا مولاتي ، فقد رايت اغريبا يدخل ويخرج من مجلس القيصر كأنه في منزله .. ورايت القيصر ، في الدخول والخروج ، يهش له ويجلسه بالقرب منه .

ـ وكل ذلك بفضل كاليكولا الذي ذكرت ؟

ـ اجل ، فهذا الفتى الذي تبناه طيباريوس وسيخلفه في الملك ، يخضع لاغريبا كما يخضع لعمه ، ويسمع له كما يسمع لولي امره .

ـ وهل كانت روما كما يصفها الرومان ؟

ـ انها اعظم مما يصفون ، حتى ان الهياكل العظيمة التي ترينها في اليهودية ، تصغر في نظر الناس ، عندما يبصرون قصور الرومان ، وهياكلهم الجبارة ... وبماذا اصف لك القيصر يا مولاتي ؟ أأقول انه اله يعيش بين صفوف العظماء والنبلاء ؟ انه يشبه الالهة في سؤدده وعزه ، وعظمته ومجده ..

قالت : لكل رجل من رجال القيصر منصب في بلاطه أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ وما هو منصب اغريبا ؟

ـ امين سره ، وكاتبه الذي يراسل باسمه جميع الاقطار .
ـ وماذا قال لك عني يا سمعان ؟
ـ انه يكاد يذوب شوقا اليك يا مولاتي ، وقد سألني عنك عندما عرف اني يهودي ، وقبل ان يعلم اني رسولك اليه ... ثم قال لمولاه : نسيت ان اقول لك يا مولاي ، ان القيصر اراد في بادىء امره ، ان يأمر اليهود باختيار ملكهم .
ـ وكيف تغيرت ارادته بعد ذلك ؟
ـ طلبت الى اغريبا ان يسأله العدول عن هذا الامر ففعل ، وعدل القيصر عنه .
ـ ولكنك كنت جاهلا في طلبك ..
ـ وكيف ذلك ؟
قال : لقد قام في ذهن اغريبا ، انه لولا خوفك من ان يختار اليهود ملكا غير مولاك ، لما طلبت ما طلبت .
ـ بل قام في ذهنه ، اني اردت ان احقن دماء قومي ، لان هذا الاختيار الذي ارادوه سيفتح ابواب الثورة والحرب .
ـ اهذا ما قلته ؟
ـ نعم يا مولاي ، وقد اثبت له ان اليهود لا يختارون غير امير الجليل ، ولو اكرههم القيصر على اختيار سواه ...
قال : اذا كان هذا صحيحا فقد احسنت .. ولكن قل لي الم يذكر اغريبا مقتل ابيه ؟
ـ بلى ، وكان يظن انك كنت شريكا لابيك في قتله .
ـ وزالت ظنونه الان ؟
ـ اضمحلت يا مولاي كانها لم تكن ، وقد وثق الان بان اعمامه جميعهم كانوا ابرياء من دمه .
ـ وهل يفكر في الرجوع ، الى اليهودية ؟
ـ اجل فسيجيء اليها حاملا اليك تاج الملك !!
فنظر الى هيرودية كانه لا يصدق انه سيرى التاج .
قالت : وما رايك الان ؟

قال : لقد فكرت في كل ما سمعت فلم اجد لي رأيا فيه .
ـ اذن فأنت تشك في اغريبا يا عم !
ـ بل اشك في القيصر الذي لم يشأ ان يغير عادات الملوك ... لقد وضع التيجان في جميع الاقطار ، على رؤوس الرجال الذين ارادهم ، دون ان يبالي بهذ العادات ، ودون ان يسأل عن الاسر المالكة ، فلماذا خطر له ان يحفظ نظام الوراثة في اليهودية وحدها ، ويوجه نظره الى الابن الاكبر من ابناء هيرودس الملك ؟؟ انه خاطر لم أفهم معناه ، وقد تكون لطيباريوس غاية من ورائه ..
فقال سمعان : لقد سألت اغريبا عن ذلك يا مولاي .
ـ وماذا اجاب ؟
ـ اجاب ان في اليهودية مذهبا يخالف مذهب طيباريوس ، ولكهنة اليهود اراء في ديانة الرومان ، فهو يخشى ان يقولوا ، اذا هو عرض لنظام ملكهم : ان هذا الامر لا نقبله لانه مخالف للسنة !!
ـ ولماذا لم يخش اغوسطوس قيصر ثورة اليهود ، عندما حطم عرشهم بيديه ، بعد موت الملك ؟؟
قال : ان اباك الملك نفسه هو الذي حطم هذا العرش ..
ـ ابي نفسه ؟
ـ نعم يا مولاي فتلك الوصية التي اوصى بها لابنائه ، هي التي جعلت دولته الواسعة اقاليم ضيقة على كل اقليم منها رجل من صلبه .
ـ ولكن اغوسطس لم يعبأ بوصيته ، فقد نفى ارشيلاوس وهو الاكبر ، ثم سلم اليهودية كلها ، التي هي الدولة ، الى عامل من عماله يرجع اليه الامراء في جميع الشؤون ، ولا ينقلون قدما الا بامر منه
فقالت هيرودية : يكفي ان تعلم ان اغريبا حي ، وانه سيعيد ملك قومه .
قال : اخاف ان يهزا به القيصر في اخر الامر ويتناسى وعده .
ـ لا اظن ان طيباريوس يخون امين سره واقرب الناس اليه .
فقال سمعان : لا يستطيع القيصر ان يفعل ما تقول ولو اراد ذلك .
ـ ومن هو الرجل الذي يمنعه منه ؟

ـ كاليكولا يا مولاي ، فقد اقسم لاغريبا وانا حاضر ، انه سيسلم اليه التاج الذي يطلبه ، ليضعه على راس من يشاء ...

قال : من يعلم فقد يتغير كاليكولا ايضا

ـ ولكنه اقسم براس عمه وراس ابيه .

ومع ذلك فأنا لا اؤمن بوعود هؤلاء الرومان .

قال : لي كلمة اخرى يا مولاي تثبت لك ان اغريبا واثق بالقوم ، وانه يشتغل لنفسه ، كما يشتغل لك ..

ـ قل كلمتك .

ـ لقد امرني بأن اشترط عليكما انتما الاثنين شرطا لا تريان العرش الا اذا نفذتماه ....

ـ اذن هنالك شروط لم تذكرها بعد .

ـ نعم ، ان اغريبا يريد ان تكون مولاتي هيرودية زوجة لك ، بعد موت عمه فيلبوس ، وهذا معناه انه يحب ان تشاركك اخته ، في الملك الذي سيهبه لك ..

فعاد الامل الى صدر هيرودس فقال : وكيف نسيت هذا

ـ لم انس يا مولاي ولكني اردت ان اختم روايتي به .

فاكتفت هيرودية بما سمعت ، فاومأت الى الرجل بالانصراف ثم قالت لهيرودس : والان فقد بقي امر واحد لم يأمرك اغريبا به ، هو الطلاق ... فهز راسه قائلا : سيكون لك ما تشائين ولكن بعد حين ... وقام فخرج يريد مخدعه ليستعيد في سره ، حكاية سمعان ، ويفكر في كل كلمة سمعها منه .

اما هيرودية فكانت تقول في نفسها : افعل ما تشاء يا عم فقد اصبحت في يدي الان ...!

٥٣

جلس اغريبا مع كاليكولا ، على ضفاف النهر الكبير الجاري في روما ، يصيدان السمك ويتحادثان ، وحولهما الغلمان . وكان ذلك ، يوم ركب سمعان السفينة راجعا الى بلاد قومه . فلما فرغا من الصيد ، دفعا زورقهما الى ظل الاشجار التي تتدلى اغصانها الى الماء ، وكان اغريبا يقول:

كنت اقول لك وللقيصر ان رئيس الربع في الجليل يطمع بالملك ، وانتما لا تصدقان ، فماذا رايتالان ؟

فأجابه قائلا : لقدذكرت لي هذا قبل اليوم واقسمت انه لا يلبس تاجا وانا حي !

ـ ولكن لم اذكر لك كل ما يخطر لي ..

ـ اذن تذكره الان وانا مصغ اليك .

قال : لقد خبرتك كيف قتل ابى وانا طفل وكيف اقتسم اعمامي الملك دون ان يتركوا للطفل اليتيم شيئا منه ..

ـ اجل .

ولكن هذا الطفل قد كبر اليوم يا مولاي واصبح رجلا .

ـ وماذا يريد هذا الرجل

ـ يريد ان يسترجع الحق الذي سلبوه اياه ، ثم يسلبهم في الوقت نفسه ما هو لهم ، حتى يعلم العالم كله ان الطفل الذي استخفوا به، لم يرض الا بان تدين له ارض آبائه ..

فابتسم قائلا : اذن فانت لا تطلب ان يخيب رجاء هيرودسوحسب، بل تطلب ان يكون عرش هيرودس الكبير لك انت !

ـ نعم يا مولاي ، فأغريبا خير من هيرودس ، وسأبقى على الولاء والطاعة الى الابد .

فأطرق الفتى قليلا ثم قال : ولكنك تعلم ان عمي يكره العروش ولا يطيق ان يرى تاجا على رأس ..

قال : يخيل الي انه يحب اغريبا ويرغب في ان يجعله زعيما لقومه.

ـ أصبت ، غير انه يخشى ان تبطر العروش اصحابها ، فيرفعوا رؤوسهم ، ويتعب هو في ردهم الى الصواب ..

قال : ان الرجل الذي قضى شبابه كله في بلاطه ، مستظلا بظله ، ومشمولا بعنايته ، لا يبطره التاج .

قال : سأخاطبه الليلة بالامر ولكني واثق بأنه سيهزأ بي .

ـ وهل حدثته بهذا قبل اليوم ؟

ـ اجل ، وكان يغضب كلما ذكرت له عرشا ، وسألته ان يعطفعلى

ملك مخلوع او صديق طامع بالملك .

قال : خير لي اذن ان انسى العرش ، وانسى اليهودية كأني لست منها وليس لي فيها اهل ..

ـ بل خير لك ان تلجأ الى التأني في طلبك فقد اصبح القيصر شيخا عاجزا لا يلبث حتى يعتزل الملك او يفاجئه هدام العروش الذي لا يرحم ولا يلين .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ يجلس كاليكولا على عرش روما ، ويجلسك انت على عرش اليهود .

ـ اتعدني بهذا يا مولاي ؟

ـ بل اقسم لك بجميع الالهة انك ستصير ملكا يوم ينتهي الي امر الرومان .

ـ وانا اعدك بأني سأصبر حتى يجيء ذلك اليوم دون ان اقول كلمة او افكر فيما احدثك به الان .

ـ ولكن لا تنس ان توغر صدر هيرودس على بيلاطوس كما قلت لك ، لانه ليس من الراي ان يكون بين الاثنين صلة ولاء .

قال : لقد اوصيت سمعان بما امرتني به ، وسهظن والي الجليل ان الوالي الروماني هو الذي يحول بينه وبين الملك

ـ وهل كتبت الى هيرودية شيئا عن هذا ؟

ـ لا ، فالكتابة في مثل هذا الشأن ، سلاح في يد هيرودس ، يشهره علي عندما يشاء ، فيغضب بيلاطوس ، ويغضب القيصر ..

ثم قال : ولكن لم تقل لي يا مولاي ما هي الغاية من اضرام النار في صدري الرجلين ؟

ـ الغاية منه ، ان يخرج بيلاطوس عن حده ، فيكتب الى القيصر في كل شهر ، طالبا عزل هيرودس عن رياسة الربع .

ـ وهذا معناه انك تريد ان يمل القيصر هذه الشكوى فينحي الرجل من الولاية وينتهي الامر .

ـ بل اريد ان يسلم اليك امارة الجليل بعد عمك فتضع قدمك على الدرجة الاولى من درجات العرش ، ثم قال : وسأكتب الان الى بيلاطوس

وآمره بان يمد اصبعه في كل امر من امور رئيس الربع ، ويحصي عليه انفاسه وانفاس من حوله من الرجال ، وستقرأ انت اخبار قومك في كل شهر ..

ـ وانا ماذا افعل يا مولاي ؟

ـ تثبت لهيرودس ان الوالي الروماني يسعى به لدى القيصر ، ويطلب اليه ان يعزله عن الولاية .

ـ سيقوم سمعان بما اوصيته به ... ولكن بيلاطوس سيعلم كل شيء يا مولاي ...

ـ وهل تخافه ؟

ـ لا ، بل اخاف القيصر ، فهو سيغضب عندما ينتهي اليه انني انم بين الامرين ..

ـ ليس لك أن تخشى احدا وانا حي ، ومع ذلك فسآمر بيلاطوس بان يغض طرفه عن كل ما يسمع. ودفع الزورق الى الشاطىء وهو يقول : سيأتي يوم يجثو اليهود فيه عند قدمي ملكهم ، اغريبا بن ارسطوبولس الذي اخاطبه الان ، واومأ الى الغلمان فاحاطوا به ، ثم قفز الى الارض مع رفيقه ومشيا يريدان البلاط ليكتب كل واحد ما يخطر له ..

وكان طيباريوس في الرواق ، فقال لابن اخيه : اين هو صديقك يا كاليكولا ؟

ـ بين ايدي الغلمان يا مولاي .

ـ وانت يا اغريبا اين هو رسول اختك ؟

ـ لقد غادر روما في هذا الصباح ..

ـ وهل ارسلت الى عمك معه تاج قومك ؟

قال : لو كان امر التيجان في يدي يا مولاي لارسلت الى عمي تاجا من الحراب يسيل معه دمه ..!

فتمتم قائلا : سيتولى طيباريوس نفسه هذا الامر عنك .. وحول وجهه وانصرف

فقال كاليكولا لاغريبا : ويل لهيرودس فقد غضب القيصر ..

فابتسم الاخر قائلا : اما انا فلا اصدق ما اراه الا عندما ينتقل هذا

الغضب الى الجليل ويسقط على راس اميره ..
وضحك الاثنان .. ثم تبعا مولاهما الى قاعة الجلوس .

٥٤

اغلق هيرودس باب مخدعه ، وجعل يستعيد رواية سمعان ، وينظر في فصولها واحدا واحدا ، بحكمة وهدوء ، فبدا له ان اغريبا لم يعده بالتاج ، بل هو يأمل الحصول عليه ، بعد ان يموت اخوه والي الجيدور ، وهو امل قد يكون كاذبا ، وقد يخلق الزمان ما يمحوه ... افلا يجوز ان تنقض صاعقة على اغريبا فتقتله قبل ان يغمض الموت عيني فيلبوس ؟ افلا يستطيع القدر ان يمد في اجل فيلبوس المريض فيعيش عشرين عاما وهو على فراش المرض والالم ؟؟

ومن قال لاغريبا ان الزمان لا يتغير ، وان دولة طيباريوس وكاليكولا ستبقيان ؟؟ يثور الجيش غدا في روما ، ويحمل لواء الثورة قائد من قواد الاقاليم ، فيهاجم البلاط ـ كما تعود الرومان ان يفعلوا ـ ويحطم العرش على راس طيباريوس ليبني له عرشا جديدا يتربع فيه !.. فيخسر كاليكولا التاج الذي اعده له عمه ، وتحط الاقدار اغريبا عن مقامه وقد يقذف به تيار الثورة الى هوة الموت !! وعندئذ ؟ عندئذ لا يبقى لهيرودس، من هذا الامل الذي عللوه به ، غير ذكراه ، وهي ذكرى مؤلمة لا يستلذها الطامع بالعروش . اذن فمن الراي ان يعبث بالمراتين ، ويلعب على الحبلين .. حتى تسعى اليه المعالي ويصبح ملكا !!

انه لا يعلم الان ، من هو الذي يجود عليه بالتاج !! الحارث ام اغريبا !! بل هو لا يعلم ايهزأ به اغريبا ام يبر في وعده ، فخير له ان يعمد الى الدهاء ، في شؤون قصره ، ومع زوجته ، وابيها الملك العربي ، من ان يستسلم الى الاحلام . ولكنه كان واثقا ، بانه لا يستطيع الا ان يجاري هيرودية في كل ما تشاء ، فهو اعجز عن ان يستقل برايه ، ويتخذ له منهاجا غير المنهاج الذي تعد له ! ومع ذلك فقد اراد ان يعيد لزوجته فدرة ، تلك البهجة التي خسرتها بالامس ، ويثبت لها ، من وراء الستار ، ومن جديد ، انها سيدة القصر ، وان هيرودية لم تكن غير السلم الذي

يصعد نبه الى العرش .. وكان سمعان في تلك الساعة ، في مخدع سيدته فدرة وهو يقص عليها ما رآه في عاصمة الرومان ...

فدعاه احد الغلمان الى مخدع مولاه . فاستأذن في الخروج ، ولم يلبث حتى مثل بين يديه ...

فقالت فدرة لنفتاريت : اريد ان اعلم ما يدور بين الاثنين فهيرودس لم يدع خادمه الا لامر .. فخرجت الجارية دون ان تقول كلمة ، ومشت الى تلك الحجرة المظلمة ، التي تسمع من وراء جدارها ، كل شيء .

٥٥

لقد استعدت يا سمعان هذه الحكاية التي نقلتها الي ، فلم اجد في كل ما سمعت ، ما يضمن لي التاج الذي ذهبت الى روما من اجله !

ـ اما انا فقد لمست هذا التاج بيدي يا مولاي ...

ـ ولكنك لم تره ...

ـ كدت اراه ، عندما كان اغريبا يصفه لي ، وعندما سمعت كاليكولا يعده به ، ويقسم له ..

ـ ومع ذلك فانا لا استطيع ان اؤمن بكل ما رايت انت وسمعت ..

ـ وماذا ترى اذن ؟

ـ ارى ان هذا الجفاء الذي اظهره لفدرة ، ويظهره لها اهل القصر ، بأمر هيرودية ، لا معنى لوجوده !

ـ اتجفوها يا مولاي ؟

ـ اجل ، حتى كدت انسى اني اتخذتها زوجة لي .

ـ وانت الان نادم على ما فعلت ..

ـ لا ، ولكني خائف .

قال : ما فهمت شيئا مما تقول يا مولاي .

قال : اريد ان افترض دائما ان وعد اغريبا وعد كاذب .

قال : سترى انك غير مصيب في هذا الافتراض .

ـ اذن يخطر لي خاطر آخر هو انه سيعجز عن الوفاء بما وعد .

ـ اي انك لست واثقا بما انتهى اليه امر العرش .

ـ لا ...

ـ اذن لم يبق الا ان تعيد هيرودية الى الجيدور وتهتم لجمع السلاح كما وعدت اريتاس العربي .

ـ اما السلاح فقد جمعت بعضه كما تعلم ، واما ان اطرد هيرودية فهذا ما لم افكر فيه .

قال : الا تذكر لي يا مولاي ما يخطر لك الان ؟

ـ ما دعوتك الا لاذكر لك كل شيء .. اني سأعيد الى فدرة مقامها في القصر ، وامر عبيدي بان يخضعوا لها كما يخضعون لهيرودية ..

ـ ولم ذلك ؟

ـ اخشى ان يبلغ الملك العربي ما يجري في قصر صهره فيغضب ، ثم يزحف بجيشه الى الجليل ..

قال : اذا فعلها تصدى له الجيش الروماني .

ـ ولكن بيلاطوس لا يمد الي يده اليوم .

ـ لماذا يا مولاي ؟

ـ لانه يسعى بي كما قلت ، وهو يؤثر ، على ما ارى ، ان يظفر بي اريتاس ، في ساحة الحرب .

قال : ان روما يا مولاي لا تطيق ان يظفر العربي ، في ارض هي لها ، ويغلب اميرا هو من عمال القيصر ...

ـ لو كنت تعرف هؤلاء الرومان ، لايقنت بأنهم لا ينظرون الا الى غرضهم ، وقد يضع بيلاطوس نفسه سيف الحرب ، بيد الملك ، ويدفعه الى هذه الارض .

وسكت قليلا ثم قال : سأعود الان الى ماضي مع فدرة ليقوم في ذهنها اني لم اكن خائنا ولم انكث العهد .

ـ غير ان هيرودية لا ترضى !.

ـ سترضى غدا كما رضيت امس ، وستعلم ان العرش قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ... والان فانا اوصيك بان تأمر الغلمان جميعهم ان يكونوا عبيدا لابنة الملك .

ـ واقول ذلك لهيرودية ؟

ـ لا ، فساقول لها انك انت الفاعل ، وانك رايت من الحكمة ان تلجأ الى هذا الراي ..

قال : لقد فهمت الان وعلي الباقي .

ـ ولكن احذر ان تقول اني امرتك بذلك ... قم فانصرف واسأل اله اسرائيل ان يعجل في ارسال فيلبوس الى العالم الاخر ..!

فخرج اللعين وهو يضحك ، اما نفتاريت فكانت تبكي ، وقد ذهبت فخبرت سيدتها حديث الاثنين ...

٥٦

جسم ضعيف هزيل ، كتب الالم والشقاء ، في كل عضو من اعضائه، سطورهما الرائعة .. وصرعه الداء ، فأصبح هيكلا مضطربا ، جافا ، هو جلد على عظم ! وانك لترى وجها يخيل اليك ، لولا عيناه الغائرتان ، المتحركتان ، انه وجه ميت .

ذلك هو فيلبوس والي الجيدور !!

مسكين هذا الوالي !! انه في فراشه لا يرى نور الشمس ، واذا ارادت جواريه ان يروح ويجيء في مخدعه ، استعان برجلين يتهادى بينهما ، ثم تخور قواه ، وتسترخي رجلاه ، فيحملانه الى فراش اخر ، في مخدع اخر . انه وال بالاسم ، ليس غير ، الامر والنهي في ايدي اعوانه والجيش المطمئن في الجيدور ، خاضع لقواده ، والمال الذي يحمله الجباة الى القصر ، تتنازعه الجيوب الواسعة والمعد الجائعة ..

وفيلبوس ! لا يبالي بما حوله . بلى ، كان يصلي ليطفيء الله نور حياته وينقذه من مخالب الداء القاتل الذي اختاره له .. وقد نسي هيرودية كأنها لم تكن ، ولكنه لم ينس ابنته التى جارت امها فأبعدتها عن عينيه . لقد كانت صالومي ، على رغم جفائها واستخفافها به ، عزاء لقلبه ، ودواء لدائه ، وقوة لاحتماله وصبره ، والابتسامة الواحدة تجود بها شفتاها من حين الى اخر ، كانت تبعث الامل الى صدره ، ولكنها طلقته كما طلقته امها الفاجرة ، فهي ستمسي فاجرة مثلها ، وسيطوقها الفجور الى الابد ، كما طوق هيرودية ، بذراعيه الناعمتين . وهذا ما كان يزيد شقاءه ويدنيه من القبر . كانت له زوجة ، فخسرها الى الابد ،

وكانت له فتاة فسلبه اياها القدر الجائر الذي ليس له قلب !

وكثيرا ما كان فيلبوس يبكي .. يبكي كما يبكي الشقي البائس الذي تكتنفه المحن ، وتحيط به صنوف العذاب ، اما لياليه الطويلة فكان يقضيها بذرف الدموع . والموت !.. اما الموت فكان يمشي اليه متثاقلا وعيناه ترسلان النار .. والزمان يمر ، وهو يلعن زوجته واخاه ، ويستنزل عليهما غضب السماء ...

حتى راى اخيرا ان يغادر القصر المظلم الذي يحمل الذكريات ويترك ولايته الواسعة التي كان عزه فيها ، مقترنا بكآبة النفس .. ولكن الى اين ؟! والذكريات ، في نفسه ، وفي قلبه ، والداء في جسده .. والهم والالم في فراشه ..!

الى الاردن .. فأودية الاردن بعيدة عن الناس ، وهو يريد ان يفاجئه الموت ، في الوادي الذي يحجبه عن العيون ، فكتب الى والي اليهودية يقول له : لقد مللت الامارة ، فاختر لك رجلا اخر يكون عاملا لقيصر .

فكتب الوالي الروماني الى طيباريوس : ان والي الجيدور يريد ان يعتزل الولاية ، فهو مريض ، وقد جار عليه اخوه فسلبه زوجته هيرودية مخالفا في ذلك سنة اليهود . فلم يشأ القيصر ان يتخلى عنه ، وامر بيلاطوس بان يبقيه في منصبه قائلا : ليبقَ فيلبوس اليوم ، وليس لقيصر شأن مع سنة اليهود ...

فاستسلم الامير الشقي الى يأسه وفوض الى رجاله وقوّاد جيشه، ان يتولوا باسمه امر ولايته . وكانت الايام تجري .. والداء يجري معها ، طاويا عمر الزوج المنكود الحظ ..

٥٧

سافر هيرودس الى الاردن ليخمد ثورة اهله . فارسلت فدرة الى اخيها ولي العهد تقص عليه ما نقلته اليها نفتاريت ، وما حمله سمعان من روما ، من اخبار وحكايات . ولم تنس ان تصف له عيشها الجديد ، الذي املاه دهاء هيرودس ، وخوفه من غضب اريتاس .. فارتاحت نفس ولي العهد ، وايقن بأن الخوف الذي يستولي على صهره ، سيمنعه ويمنع

هيرودية من ان يمدا يد الاذى الى اخته .

وكان قد هم من قبل ، بالاشتراك مع عياش وزيد ، بأن ينقل الى الملك جميع ما يعلمه عن رئيس الربع الغدار ..

على ان والدته الملكة ، كانت مضطربة ، وكانت تسأل الحارث ان يأذن لها في الذهاب الى الجليل لترى فدرة . ولم يبق الا ان يعين لها اليوم الذي تذهب فيه ، وكان يقول : تذهبين انت في هذا العام ، واذهب انا في العام المقبل ، ففدرة قد نسيت قومها ..

ولكن ولي العهد لم يرض وكان يقول لابيه : ليس من الراي ان تنتقل ملكة العرب الى الجليل ..

وذلك هو راي الملك ، اما الملكة فكانت تلج في الطلب ، ومالك يلج في الرفض ولم تكف عن طلبها الا عندما وعدها بأن فدرة ستجيء ..

ثم مر العام وهي لا ترى لها وجها ، فأعادت السؤال ، وتصدى لها هو من جديد ، حتى أحس الملك ان هذا الاصرار من ولده لا يكون الا لامر . فدعاه اليه في احدى الليالي وقال له : لقد رأيت يا بني ان بينك وبين فدرة عهداً .

— وما هو هذا العهد يا مولاي ؟

هو ان تمنع اباها وامها ما استطعت من زيارة الجليل ..

فتردد الفتى في الجواب ثم قال : اردت ان افعل ذلك يا مولاي حفظا لحرمة الملك !

— ومن يمس هذه الحرمة ؟

— الملك نفسه ، فقد وعدنا هيرودس بان يزور بترا في كل عام ، فليف بما وعد .

— ولكن الملك والملكة لا يصبران على فراق ابنتهما وابنتهما لا تجيء .

— ذلك ان زوجها لا يريد هذا . — لماذا ؟

— لانه يحب ان يظهر لليهود انه اعظم منك مقاما ، وان كنت من الملوك !!

— واين العظمة فيما ذكرت ؟.

— يريد هيرودس ان يجعل الزيارات واحدة بواحدة ..

ـ ومن قال لك ذلك ؟
ـ لم يقله احد يا مولاي .
قال : لقد زار هيرودس بترا مرة واحدة كما تعلم ، ولم يكن في زيارته اميرا بل كان طالب زواج .
ـ ومع ذلك فهو لا يزورها مرة ثانية الا اذا زاره الملك في بلده وهذا ما لا ارغب فيه .

قال : ليست الزيارة لهيرودس بل هي لفدرة وسأقول ذلك له ..
قال : اذا فعلتها صفرت في عيون اليهود يا مولاي .
فاطرق مليا ثم رفع راسه قائلا : مالك .. ان في الامر ما فيه وانا آمرك بان تقص علي ما تعلم ..
قال : لا اعلم شيئا يا مولاي .
قال : استحلفك براس الملك ...
فقال : التمس منك يا مولاي الا تسألني عن هذا .
ـ بل اسالك ولا تخرج من هذه القاعة الا بعد ان تبوح لي بما في صدرك من أسرار .. قل ولا تتردد . فجعل ينظر الى ابيه ، ثم ارخى نظره الى الارض . فكاد الملك يجن من ذعره .. لقد خيل اليه ان الخطر ، وراء ذلك السر الذي يكتمه اياه ولي العهد ، فقال وعيناه تختلجان : قل ماذا جرى لاختك .. احية هي ام ميتة ؟..

فدمعت عينا مالك واجابه قائلا : انها حية يا مولاي .
قال : ارى الدموع تتلالا في عينيك ، فهل هي مريضة ؟
ـ لا يا مولاي ، ولكن الذي اصابها شر من المرض ... فنهض عن مقعده ، ومد يده الى ولده ، كانه يريد ان ينتزع الكلام من صدره ! فراى الفتى انه قد بدأ بالاعتراف ، ولم يبق له الا ان يبوح لابيه بكل شيء ، فقال : لقد استخف بنا هيرودس رئيس الربع استخفافا لم يخطر لنا من قبل ...
ـ وماذا فعل ؟
ـ جعل ابنة الملك جارية في قصره !
فارتخت ركبتا الحارث ، وسقط على مقعده ، وهو يحدق اليه

كأنه لا يصدق ما سمع... ثم تمتم يقول: فدرة جارية في قصر هيرودس ؟؟

ـ نعم يا مولاي ، واستطيع ان اقول ان الجواري اعظم شأنا وارفع مقاما منها ، في ذلك القصر ...

فتكلف الملك الهدوء وقال : ومن هي سيدة القصر اذن ؟

ـ هيرودية زوجة فيلبوس والي الجيدور .

ـ هذا شقيق امير الجليل ؟

ـ نعم ، انها ابنة اخيه ، وزوجة اخيه ، وقد تركت زوجها لا تبالي به ، لتقيم بين حسان اليهود ..

ـ اليست هي تلك الراقصة التي وصفها ابو زيد ؟

ـ بلى ، وقد تزوجها عمها مخالفا سنة قومه .

فهدأ روع الملك ، وزال غضبه ! ان القضية قضية زواج ، والزواج لا يستطيع احد ان يمنع هيرودس منه . فقال وقد ظهرت الابتسامة على شفتيه : لم أر يا بني ، فيما قصصته على ابيك ، ذلا لابنة الملك ... ان اليهودي كالعربي ، يتزوج من يشاء من النساء ، حتى تملأ نساؤه قصره !

ـ اجل ، ولكن نسيت ان زوج هيرودية حي ، ولم يخطر له ان يطلق زوجته ! فاطرق الملك ، وقد عرف ان ولده مصيب في قوله ، وجعل مالك في تلك الساعة ، يروي له ما يعرفه عن هيرودس وهيرودية ، ويصف حال اخته ، وصبرها على الذل واستسلامها الى القدر ، حتى حكى الحكاية كلها لم ينس منها شيئا ..

ثم قال : على أن هيرودس استبدل شدته باللين ، وجفاءه بالحب ، بعد رجوع سمعان من روما ، وقد كتبت الي فدرة تقص علي رواية هذا الاستبدال الفجائي ، فظهر الغضب عندئذ ، بقوته وروعته ، على جبين الملك ، وخرجت من فمه كلمات متقطعة لم يفهمَ منها ولي عهده غير كلمتين اثنتين : ويل للّعين ...

وعقب هذه الثورة ، سكوت طويلَ ، بدا الملك بعده مضطربا هائجا ، كما يهيج النمر ، وكان يقول : لقد اراد هيرودس الخائن ان يضع التاج اليهودي على راسه ، بقوة اغريبا ابن اخيه ، لينقض العهد الذي كتبه ..

ولكن فاته ان التاج لا يثبت على ذلك الراس ، الا بسيف الحارث ملك الانباط ..

وجعل يستعيد الحوادث الماضية التي جرت في اليهودية ثم قال : ان اغريبا هذا ، هو ابن ارسطوبولس الذي قتله ابوه ، أفيكون هذا الفتى ايضا من الانذال ، فيهب التاج لعمه الذي استباح الحرام ، وسلب اخاه زوجته ؟

قال : من يعلم يا مولاي ، فقد يمنعه عنه ، وقد يكون طيباريوس قيصر غير راض عن رئيس الربع .

ــ ولكن يجب ان نعرف ما هو الجواب الذي حمله سمعان الى مولاه ، في هذا المعنى .

قال : استطيع ان اقرأ لك سطوره كأنه في يدي الان .

قال : اقرأ ..

قال : لقد وعد اغريبا هيرودس بالتاج ، وعدا لم يثق به أمير الجليل ، ولم تطمئن اليه نفسه ..

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ لو لم يكن الوعد كما ذكرت ، لما عمد هيرودس مع فدرة الى اللين بعد الشدة ، ولما اغضب هيرودية وهي سيدة الموقف ... ان هذا اللين يا مولاي معناه الخوف ، فهيرودس يخشى ان تقص عليك فدرة كل شيء ، فتغضب وهو لا يطيق هذا الغضب الان .

قال : قد يكونُ هذا ، فالخائن جبان في كل ما يصنع ، وماذا ترى انت ؟ أنصبر على ما نعلم ، أم نطلب الى فدرة ان تغادر الجليل وتعود الى بترا ؟

ــ نصبر يا مولاي فالصبر خير ما نلجأ اليه اليوم .

ــ ولكن هذا الصبر يقتل اختك ...

قال : نسيت ان اقول لك يا مولاي ان فدرة تؤثر البقاء في الجليل ، مع الجفاء والذل ، على العودة الى بلاد قومها يتبعها العار ...

ــ وأي عار هذا ؟

ــ سيتحدث الناس بأمرها ويقولون : لقد طرد رئيس الربع في

الجليل ، ابنة الملك العربي ، وهذا يكفي .

فقطب حاجبيه قائلا : اذا كانت فدرة لا تطيق ان يتحدث بهـــا الناس ، فكيف يطيق الملك ان تقول العرب عنه ، انه نسي ابنته المعذبـة في الجليل ، ونسي كرامته ..

قال : اذا بقيت حال هيرودس كما علمت ، فالطلاق لا بد منـــه ، وعندئذ يعلم هذا الرجل الذي وثق الملك به ، ان هذا الملك لا ينســى الاهانة التي وجهت اليه ... ثم قال : وهذا راي فدرة يا مولاي .

ـ وكيف كتمتني ذلك يا بني ؟

ـ لقد سألتني هذا الكتمان ، ففعلت ولم اشأ ان اعكر عليك وعلى امي صفو العيش .

قال : فعلها الخائن ولم يبال ؟ اذن فقد استسلم الملك الى الاحلام ، وكان مخطئا في وثوقه به .. ولعله ذكر في تلك اللحظة نصـــائح قومه ، فجعل يردد لفظة « الخائن » وشفتاه ترتجفان ، ثم اخذ يخاطب نفســه قائلا : ويل للملك فقد جنى على ابنته ..

فقال ولي العهد : بل جارت الاقدار يا مولاي .

ولكن الملك لم يسمع بل كان يقول : ويلي انا الجاني ، وقد ضيعت فدرة ... وهذا ما كان يخافه ولي العهد واختـــه ، كـانا يخشيان ان يستولي الندم على ابيهما فتسوء حاله ، ويدفع جيشه الى الجليل ليثار لشرفه ، فيتصدى له الرومان وقد يخسر الحرب .

وبينا الملك يلوم نفسه ، وولي العهد يحـــاول ان ينسيه ماضيه ، استأذن عياش ودخل ، وكان قد سمع صوت مولاه الملك ، وايقن بأنـــه عرف كل شيء . فلما وقعت عين الملك على قائد جيشه ، فاجاه بقـوله : لقد طمع مولاك بفلسطين يا عياش ، فقذف بابنته الى بلد لم ترع له فيــه حرمة ، وعاهد على الوفاء رجلا يعبث بالكرامات .

فقال وهو يتظاهر بأنه لا يعلم شيئا : أتعني هيرودس يا مولاي !

ـ اجل ، فهو الخائن النذل ، الذي عندما راى ان هنالك رجلا يهبه له تاج اليهودية ، حول وجهه عن الملك العربي ، واستهان بابنته التـــي تساوي الجليل واهلَ الجليل ..

فكره ابو زيد ان يظهر له ما يعلم فقال : ومن هو الرجل الـذي يهب العروش ؟! انه القيصر نفسه يا مولاي أليس كذلك ؟

ـ لا ، بل هو اغريبا اليهودي احد المقربين الى قيصر ... قص عليه يا مالك ما تعرفه عن هيرودس !

ففعل ولي العهد ، ثم قال : وقد رأيت ان نصبر حتى يتم الطلاق ، وهذا ما تريده فدرة ، وهي قادرة على الاحتمال والصبر .

فقال الملك : وانت يا عياش ، أترى ما يراه ولي العهد ؟

ـ نعم يا مولاي وانا اشكر القدر الذي خدم الملك من حيث لا يعلم.

ـ واين هي هذه الخدمة ؟

قال : يكفي ان الرجل الذي وضعت يدك بيده ، لتطردوا الرومان من فلسطين قد ظهرت خيانته ، قبل ان تخوض معه المجال ، وقبل ان تجود عليه بالسلاح الذي وعدته به ..

فهز راسه قائلا : اجل لقد خدمتنا الاقدار من حيث لا نعلم ، ولكن بعد ان امست فدرة ضحية المطامع .

قال : اضمن لك يا مولاي ان فدرة لا تبالي بكل ما تراه ، اذا كان الملك راضيا ..

قال : لقد ذهب الرضى الان ، وقام مقامه القهر ، والندم ، والغضب ، قل يا عياش .. ماذا اقول للملكة ام فدرة ، وهي تسألني في كل يوم ، بل في كل ساعة ، ان اظهر لها الرضى بالذهاب الى الجليل .

ـ تقول لها يا مولاي ، ان فدرة لا تريد ان تجيء الى بترا ، كما انها لا تريد ان يذهب احد من اهلها ، الى البلد الذي تقيم به !!

ـ ولكنها ستسأل عن السبب .

ـ اما السبب فهو هذه الذكرى المؤلمة التي ترافقها والتي تريد ان يمحوها الهجران والبعد عن قومها وعمن تحب .

فوضع يده على جبينه وجعل يقول : انه رأي لا بأس به ، وسنقوله لها الليلة ... ولكني كنت افكر في الحرب منذ ساعة ، وقد خطر لي ان اسعر نارها فتحرق ارض اليهود من الشمال الى الجنوب !

قال : ستسعر هذه النار بعد حين يا مولاي ، اما اليوم ، فلنبث

العيون حول هيرودس ولننتظر هذا التاج الذي يطلل نفسه به .

ـ وفدرة ؟

ـ تكتب اليها يا مولاي انك تعرف كل شيء ، وتسألها ان تعالج امرها بالهدوء وتصبر على كل ما تراه .

فرأى الملك ان الصواب فيما يقوله الاثنان فقال : اكتب اذن يا مالك ما ذكره عياش ، وقل لها ان تطلعنا على كل ما يحدث في القصر .

ـ سأكتب الليلة يا مولاي .

قال : وهذا السلاح ، الذي كنا نعده للرومان ، بالاشتراك مع هيرودس ، سنعده لهيرودس نفسه ، يوم يرتفع الحجاب ، وتفتضح الاسرار . وقام الى النافذة ينظر الى الفضاء ويقول : نعم يا هيرودس ، ان راسك سيكون ثمنا لهذا الاستخفاف الذي ظهر منك ، ثم خرج من القاعة ، وقد اشرق جبينه ، وعاد الى هدوئه فقال ولي العهد لعياش : لقد جاء دور الندم الان فليذق الملك ثمرة طعمه .

قال : ولكنه سيمزق على كل حال ، ذلك العهد الذي كتبه بيده ، وستعود البهجة الى قلب فدرة ، يوم يلفظ هيرودس كلمة الطلاق ...

٥٨

اخمد هيرودس ثورة الاردن في شهر واحد ، ورجع الى الجليل ، تخفق فوقه اعلام النصر ، ويجر اذيال الفخار . ودار الزمان دورة طويلة مرت معها الاعوام ، حتى اصبح القوم ، في السنة الثلاثين لميلاد المسيح. وكل شيء في اليهودية ، وفي بترا ، وفي روما ، باق كما كان ... حتى ان الحال ، لم تتبدل في قصر امير الجليل ... ان فدرة بين مد وجزر .. تنشر الايام شقاءها ثم تطويه ، ويضيق صدرها لما تراه ، ثم تستعين بالصبر ، وهيرودس في الحالتين ، مستسلم الى هيرودية ، خاضع لها خضوع العبد الذليل ، الذي لا ارادة له !

اما القوم في بترا ، فقد حالت حكمتهم بينهم وبين الحرب ، وباتوا يتوقعون ان يخلق الزمان لهم اسبابها . بل قل انهم كانوا يتوقعون ان تقول فدرة كلمتها ، لتعمد الرجال الى السيوف ، وتزحف الخيل الى الجليل !

واما اغريبا ، فكان داهية في وعوده ، وكان يظهر لعمه في كل عام ، ان القيصر راض عنه كل الرضى ، وقد يجود عليه بتاج ابيه ، قبل ان يغمض الموت ، عيني فيلبوس اخيه ، وكان يعلم كل شيء من رسائل بيلاطوس الى كاليكولا ، حتى استطاع بفضل جواسيس الوالي الروماني ، ان يطلع على ما يتحدث به القوم ، في قصر هيرودس . وكان قد عرف ، ان بعض رؤساء اليهود ، انكروا على عمه زواجه بهيرودية ، ولكنهم لم يجسروا على ان يجاهروا بالعداوة ، خوفا من ان يعمد الى السيف ، ويساعده الرومان في الامر .

وكانت هيرودية قد خبرته ، ان زوجها على فراش الموت ، وانه ليس هنالك قوة تعيد اليه العافية ، غير قوة الله .

كتبت اليه ذلك ، وراسها مرفوع .. كأنها لا تعرف الرجل الذي تستعجل موته ، او كأنه عدو اليهود !!

على ان هيرودس كان مضطربا كثير الخوف ، ولولا تلك القوة التي كانت هيرودية تنفخها في صدره من حين الى حين ، لهوى تحت تأثير خوفه ، واستسلم الى اليأس ، الذي لا يعقبه رجاء .

ذلك لان الكهنة كانوا يلومونه ، من وراء الستار ، كما قرأت ، وقد بدأوا ينظرون اليه ، نظرهم الى الرجل الكافر الذي يعبث بدينه ، ولا يبالي بسنة آبائه . ان هؤلاء الكهان ، حراس عرشه ، بل هم اركان هذا العرش اذا كتب له ان يتربع فيه .. الامة تسمع لهم ، والشعب نصير دعوتهم ، وماذا يصنع هيرودس الطامع ، اذا كان الشعب ورؤساؤه ، اعداء له ..

وزاد في خوفه ، ان رجلا بارا يدعى يوحنا بن زكريا ، ظهر في اليهودية ، وبدأ يدعو الناس الى التوبة ، ويسألهم ان يبتعدوا عن الاثم ، وقد تبعه الفريق الكبير من اليهود ، وجعلوا ينشرون اقواله في المجالس والاسواق ، ويحملون اسمه الى الاقطار .. وهذا ما يزعزع ذلك البناء الذي يبنيه الامير الجليلي ، ويهدمه على راس صاحبه ، اجل ، ان كلمة واحدة ، يقولها يوحنا بن زكريا ، الذي يعرفه المسيحيون « بيوحنا المعمدان » تكفي ليهيج الشعب ويثور على الرجل الذي داس دينه

بقـــدميه !

ولماذا لا يخاف هيرودس ويستولي عليه الذعر وهو اليهـــودي المؤمن باله اسرائيل ، والخاضع للشريعة ؟؟ ان اليهـــود لا يريدون ان يتزوج ابنة اخيه وزوجها حي ، والعرش في يد هيرودية تهبه وتمنعـــه عندما تشاء ، وهي تريد ما لا يريدون ..

ولكن هيرودية لا تخشى ما يخشاه ! فهي قد علمته ان يهزأ باقوال الكهان وتعاليمهم ، ويستخف بثورة الشعب وجنونه ، بل علمته ان يخنق الاصوات التي ترتفع ضده ويقذف بأصحابها بين ليـــلة وضحاها الـى هوة الفناء . وهيرودية اذا قالت كلمة ، استعانت بدلالها وقوة فتنتهـا وجمالها على جعل كلمتها شريعة لرئيس الربع . وهذا ما استطـاعت ان تفعله هذه المرة ، فهيرودس الجبان اصبح شجاعا ، والخوف الذي كـان يملأ قلبه امسى استخفافا بالاهوال وجراة على الرجال .

وكان يوحنا منذ اصبح من رجال الله ، يفكر في كفر هيرودس ، ويهم بأن يزوره في قصره ليعيده الى هداه .

ولكن القوم كانوا يمنعونه من ذلك خوفا من ان يغدر به ذلك الامير الذي لا دين له ... اما هو فلم يسمع لهم ، بل خرج الى الجليل حامـــلا روحه بيده ومستعينا بالله الذي يقويه ، وكانت شهرته قد ملأت المسامع والاذهان .. فلما مثل بين يدي هيرودس احس ان له قوة يجعـــل هيرودس معها عبدا لارادته ، وآلة في يديه .

ولا تنس ان هيرودية كانت قد اعدت للامر عدته ، ونفخت من جديد في صدر هيرودس ، تلك القوة الساحرة التي تخمد صوت يوحنا الوقح الى الابد ...



من انت ايها الرجل ؟

– انا يوحنا بن زكريا ايها الامير ...

– انت الرجل الذي تدعو الناس الى التوبة ؟

– نعم ، وقد سألتك ان تأذن لي في الدخول الان لاقول كلمـة ... فهل تريد ايها الامير ان افعل ؟

ـ قل ما تشاء .

قال : لقد كانت لاخيك فيلبوس زوجة تدعى هيرودية ، اليس كذلك ؟

ـ بلى ...

وكانت هذه الزوجة تقيم معه في الجيدور منذ بضعة اعوام ، ثم خطر لها ان تنتقل الى هذا القصر لتتزوج صاحبه ..!

ـ وقد تزوجته يا يوحنا وانتهى الامر ..

ـ وكيف حل لك ذلك وأخوك لم يمت ؟

فقهقه ضاحكا ثم قال : لقد خطر لي ان اتزوجها ففعلت وهي الان في مخدعها الذي يجاور هذه القاعة أفتريد ان ادعوها لتراها ؟

ـ بل اريد ان تعيدها الى اخيك وتستغفر الله ..

قال : لم افكر في ذلك ولن افكر فيه .

ـ ولكنك ستندم يا هيرودس يوم ينزل آله اسرائيل القادر على كل شيء ، صواعق غضبه على راسك !

قال : حسبك انك بعيد عن هذا الغضب .. وعاد الى ضحكه مستهينا بهذه الالفاظ الجوفاء .

فقال : أنصح لك بأن تفعل ما اقوله لك في هذا اليوم ...

ـ في هذا اليوم نفسه ؟..

ـ أجل فقد يفاجئك الموت غدا قبل ان تتوب الى خالقك !

قال : لقد طلبت الى هيرودية ان تعود الى الجيدور فلم تسمع لي.

ـ اطردها كما تطرد الابرص اذا دنا منك .

قال : اعترف لك اني عاجز عما تقول .

فوضع يديه على صدره قائلا بصوت عال : الويل لك اذن ، ايها الهازىء بدين اسرائيل .. وهم بالخروج دون ان يزيد كلمة .

فاستوقفه هيرودس وقال : اتهددني يا يوحنا ؟

ـ نعم فالويل للاقوياء الذين يستهينون بالضعفاء ... ثم قال وصوته يملأ القاعة : ان القوة التي تستعين بها على قتل شريعة قومك ، ستسلبك هي نفسها هذا السلطان الذي تتمتع به .

فاكفهر وجه الرجل وجعل يقول : سيكون لي ، وراء هذا السلطان

أيها اللعين ، عرش ، على الرغم منك ..!

قال : اذا بقيت ، وبقي سلطانك ...

ــ ومن ينتزع سلطاني من يدي ؟

ــ الشعب . فسيحطم قصرك ويسلبك هذه المرأة الفاجرة التي بعت سنة ابائك ، بنظرة من نظراتها الكاذبة !

فاستيقظت وحشية هيرودس في تلك الساعة ، وجعل ينظر الى ما حوله نظرات المجنون ، ثم نادى سمعان قائلا له : ادع الحراس ، وليقبضوا على هذا الرجل الذي ينتهك حرمة الامراء ..

فصاح سمعان : اقبضوا على هذا الشقي قبل ان يجاوز الرواق فقد اهان سيدنا .. فامتدت اليه الايدي ، ثم ربطوا يديه ورجليه ، وهو يبتسم للقوم ابتسامة الاستخفاف ، واومأ هيرودس الى حراسه يدلهم على القلعة الكبرى التي تطل على الجليل ، وهو يقول : خذوه الى هذه .

« وهي قلعة مشيرا » التي تزهق في سجونها ارواح الابرياء . ولكنهم قبل ان يخرجوا به ، برزت هيرودية من مخدعها تقول لهيرودس : خير لك ان تقتله الساعة ، من ان يراه الشعب .. فقطب حاجبيه كأنه يأمرها بالسكوت . اما هي فكانت تردد قولها ولا تبالي : اقتله اقتله قبل ان يراه الشعب .

فهامس سمعان قائلا : دعوه في الرواق حتى يجن الليل ، ثم دنا من هيرودية وقال : اخشى ، ان قتلته ، ان يثور الشعب الذي يتبعه .

ــ ولكن في حياته خطرا علينا نحن الاثنين ...

ــ سنقتله بعد حين ، يوم ينسى الناس امره .

قالت : عدني بهذا ..

قال : لقد وعدتك . فيوحنا سيموت بعد ايام .

فعادت عندئذ الى مخدعها ، وانصرف الحراس الى اخر الرواق ، يضعون في احدى زواياه ، يوحنا بن زكريا ، الذي تجرأ على اهانة مولاه !!

وعندما ارخى الليل سدوله ، حملوه الى القلعة المظلمة ، التي كانت في تلك الايام ، قبرا للاحرار ، والابرياء . وعرف اليهود في اليوم الثاني ، ان يوحنا في السجن ، فساد الصمت ... ولم يجسر احدهم على

ان يرفــع صوته ، وكاد الامر يتم لهيرودية كما ارادت ، أما فدرة فكأنها لم تسمع ولم تر ، وكأنها غير موجودة ...

٥٩

لا يهنأ للمراة الفاجرة عيش ، ويوحنا في السجن !

ان ساعة يثور فيها انصار هذا الرجل ، تكفي لاخراجه من سجنه ، والقضاء على هيرودس وهيرودية ، اللذين ظلماه . وقد تعبت كثيــرا لتحمــل هيرودس على الايقاع به ، فلم تفلح ، فالخوف كان يمنعه مــن ان يعاقبه بالموت ، وكثيرا ما كان يعدها بذلك ، ثم يتردد في الوفاء .

ففي صباح احد الايام ، اقبل من الجيدور رجل يريد ان يرى زوجة فيلبوس لغرض له ، فأذنت له في الدخول ، وعندما ابصرته عرفت انــه رئيس حراس القصر ، وصديق زوجها الوفي الامين . فقام في ذهنها انــه رسول صلح فقالت له : ما وراءك يا واسان ؟

قال : تركت مولاي يتقلب على فراش الموت ، ولا يلبث حتى يلفظ الروح بين ايدي حراسه وجواريه .

فقالت وهي لا تصدق قوله : اتهزأ بي ايها الرجل ؟

ــ اقسم لك يا مولاتي ان حال زوجك كما وصفت .

فأخفت بيديها ، مظاهر الفرح التي بدت عــــلى جبينها وتمتمت تقول : اذن لم يبق لفيلبوس أمل بالحياة ..

ــ لا يا مولاتي ، وانا اخشى ان تريه ، يوم تصلين الى الجيــدور ، جثة خرساء ..

ــ انا ؟.. وماذا أصنع في الجيدور وقد طلقتها على ان أمكث بالجليل الــى الابد ؟

قال : تودعين زوجك الراحل ، وتنظرين في امر الثروة التي سيتركها لك ولسيدتي صالومي التي لم ارها الان .

فأجابته قائلة : ان زوجي هو هيرودس وانا لا أعرف زوجا سواه . قل ، أهو فيلبوس الذي ارسلك الي ؟

ــ قلت لك يا مولاتي ، ان مولاي الوالي كان يقاسي آلام النــــزاع عندما تركت قصره ، وهو لا يعلم في اي بلد انا الآن .

ـ وانت رسول نفسك ؟

ـ اجل ، وقد املى علي اخلاصي ، ان احمل اليك امر مولاي قبل ان يرحل الى العالم الاخر .

قالت : عد الى الجيدور ، وشيع جثة مولاك ، عندما يموت ، بالاحترام والاجلال ، اما انا فلست بذاهبة ، ولن اذهب .

فأطرق وقال : وماذا نصنع بما في القصر ؟

ـ تغلق ابواب القصر على ما فيه ، ريثما ابعث اليك رسولا من الجليل يحمل اوامري ..

فلم يطق الرجل ان يسمع فوق ما سمع ، فقال : وهل بقي شيء تقولينه لي ؟

ـ لا ، فاذا اردت الرحيل الساعة ، فارحل ، وافعل ما امرتك به .

فخرج دون ان يلتفت اليها وهو يقول في نفسه : خير لي ان اقضي هذا اليوم في سوق من اسواق الجليل ، من ان اقضيه في قصر تسوده امرأة مثل هيرودية ..

أما هي فجعلت تبتسم ، وقلبها يرقص من الفرح ، ثم دعت هيرودس وقالت له : ستحمل صولجان الملك في هذا العام ففيلبوس يصارع الموت !

فتراجع الى الوراء قائلا : ومن قال لك ذلك ؟

ـ رجل من رجال اخيك هو رئيس الحراس !

ـ وأين هو الان ؟

ـ لقد انصرف ، وقد كدت أطرده لما بدا منه .

قال : ماذا ؟

قالت : جاء يدعوني الى الجيدور لارى فيلبوس قبل موته .. وضحكت ضحك المستهتر الهازىء الذي لا يعبأ الا بلذته .. اما هيرودس فقد ارتسم البشر على وجهه وكان يقول : لقد اتت الساعة التي يعود فيها الى امير الجليل ، ملك ابيه .

ثم انثنى يقول لسمعان ومن حوله من الغلمان : اعدوا الان جميع اسباب الطرب .. وقولوا للراقصات : ان مولانا سيجعل هذه الليلة

ابهى واعظم لياليه !

وقد صدق هيرودس ، فقد كانت تلك الليلة غريبة في كل شيء ؛ خرج الرجل فيها عن جميع عاداته ، بل خرج فيها عن رصانة الامراء وجلال الامارة ، وجارى غلمانه في عبثهم ولهوهم كأنه احدهم لا يبالي بما في النظرات من معاني الاستخفاف .

وكانت هيرودية قد تهيأت لذلك الليل .. وخطر لها ان تجعله ليلا جانيا يسفح فيه الدم البريء .

أجل ، كانت قد هامست ابنتهـا صالومي ساعة طويلة ، خرجت الاثنتان بعدها الى القاعة الكبرى تبتسمان ابتسامة الفوز . وصالومي اليوم في ميعة الصبا ، وزهرة الشباب . وكان الناظر الى القوم ، يرى فدرة بينهم ، وهي ساكتة هادئة ترسل عيناها الذابلتان ، الهيبة والجلال. لقد كان الدهاء يوحي اليها ، بان تفرح لفرح هيرودس وتبكي لبكائه ، وتشاركه في هنائه وبأسه ... والا ، فخير لها ان ترحل الى بلاد قومها فهي لا تصلح لان تكون زوجة له ، واميرة القوم . على أن هيرودية لم تحفل بهذه العربية التي جاءت من بترا لتعكر عليها هناءها في القصر ، بل كانت تروح وتجيء ، وتأمر وتنهي كأنها ولية الامر ، وهيرودس معجب بجمالها الخلاب ، وفتنتها الساحرة العقول .

ودار الرقص دورته الاولى على انغام الاوتار والمزمار ، وكان هيرودس ، كلما انتهت راقصة ، يدعوها اليه ، ويهب لها قبضة من المال، تستعين بها على الحياة ...

لقد بذل هيردس من المال ، في تلك الليلة ، ما يبذله الملك الجواد، الكثير العطاء !! وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فهو سيصير ملكا بعد حين ، وستحمل اليه اموال اليهودية ، من كل اقليم ..

ثم جاء دور صالومي – وهي ابنة امها – فرقصت ، فارتسمت مظاهر الاعجاب على الوجوه .. ثم رقصت فارتفعت اصوات الاستحسان. ثم رقصت فاستهوت القلوب وخلبت الالباب ..

وترنح هيرودس وجعل يقول : يا صالومي ، يا سيدة الحسان وفتنة الجليل ، تعالي واطلبي من هيرودس ما تشائين ...

فمشت خطوتين .. ثم ترددت وهي تظهر الدلال ...

فقال : تعالي فوالله لاعطينك الليلة ما يخطر لك ولو طلبت رياسة الربع !! قولي .. ماذا تريدين ؟

فدنت منه وهي تقول بصوت متقطع : انا اعيش في ظلك فلست بحاجة الى شيء ...

كانت تقول هذا ، وفي عينيها مظاهر الرغبة ، في حاجة لها يمنعها الخجل من ان تذكرها له .

قال : ومع ذلك فلا بد لك من ان تطلبي شيئا فهكذا انا اريد ولا ارجع عما قلت ..

فنظرت الى امها نظرة قصيرة ثم قالت : وهل يقضي مولاي الحاجة التي اطلبها الان ؟

ـ اجل فهي مقضية مهما تكن واقسم باله اسرائيل .

ومشى هيرودس مع غروره وزهوه ، وقد نسي كل شيء . فدنت منه قائلة : اطلب راس رجل ...

فذعر الامير وجعل يردد هذه الكلمة وهو لا يعرف اي رجل ، يستحق في نظرها الموت ...

ومد القوم اعناقهم ليسمعوا اسم هذا الرجل وقد سكتت المزامير ، وساد القاعة سكون رهيب. ثم قال هيرودس : من هو هذا المنكود الحظ ؟

فتمتمت تقول : هو يوحنا بن زكريا ..

فاصفر وجهه ، ووقفت الالفاظ عند شفتيه ، ولكنه وعدها واقسم لها فمن الراي ان يفي بوعده ويبر في قسمه ، فقال وصوته يرتجف : اتطلبين راس يوحنا ؟

ـ نعم يا مولاي ..!

وكان القوم يظنون ان رجاءها سيضيع .

ان ذنب يوحنا لا يستحق القتل ، وهيرودس اضعف من ان يأمر بقتله ، ارضاء لفتاة ، كانت فتنة في الرقص ...

غير ان ظنونهم كانت كاذبة ، فان نظرة واحدة وجهتها اليه هيرودية، كانت كافية لترسل اليه القوة ، التي تمحو ذلك الضعف ...

وسمعه الناس يقول لحجابه : علي برأس يوحنا بن زكريا !!!
فقال احدهم : الليلة يا مولاي ؟
ــ بل الان ، وستبدأ صالومي بالرقص مرة ثانية عندما تحملونه الي ... اذهبوا وقولوا لرئيس حراس السجن ان يدلكم على الرجل .

فجعل القوم يتهامسون مضطربين ، حتى ان الراقصات استندن الى الجدار والذعر يملأ قلوبهن ، وهن يعجبن بصالومي التي تطلب ثمنا لرقصها ، رؤوس الرجال ...

ثم اتجهت النظرات الى هيرودية ، فقد ايقن القوم بأنها هي التي تطلب قتله ، لتنجو من وقاحته .. وكانت فدوة تبتسم ... نعم كانت تبتسم ، ابتسامة غريبة هي دليل الالم والكآبة اللذين يغمران النفس .

ومرت ساعة كان الصمت فيها يبسط ظله على الجميع .. الا هيرودس الذي كان يعربد كما يعربد السكران ، والا هيرودية التي كانت تحاول ان تعيد البهجة الى صدور القوم . ثم اقبل الحجاب يحملون راس بريء يشخب دما ...

فأخفت النساء وجوههن بأيديهن ، أما هيرودية وصالومي فقد رقصتا للدم المسفوك ، وظلتا ترقصان حتى تلاشت القوى ودب النعاس في الجفون . فانصرف القوم والراس المقطوع ماثل أمام العيون ، اما هيرودس فكان تاج ابيه ، ماثلا امام عينيه ...

٦٠

واخيرا اقبلت الرسل من الجيدور ، تحمل الى هيرودس ، والى رؤساء اليهود ، والوالي الروماني ، نعي فيلبوس الوالي المنكود الحظ .

كان موته في السنة الحادية والثلاثين للمسيح ، فلم يبق لهيرودية الا ان تطرد فدرة من الجليل ، ليخلو لها الجو ويصفو لها العيش فقالت لهيرودس : والان يا هيرودس ؟ الم تأت الساعة التي تعيد فيها هذه العربية الى البلد الذي خرجت منه ؟

ــ بلى ، ولكن بعد ان نسأل اغريبا أن يفي بوعده .

ــ اذن فأنت لم تكن واثقا بهذا الوعد !

ـ اثق الوثوق كله باغريبا فهو المرجع الذي اعود اليه ، ولكنــي اخشى ان اخرج اريتاس عن حده ، فيشهر علي السيف ، ونحن اليــوم كما تعلمين ، بغنى عن الحرب

ـ وهل ترسل سمعان الى روما ؟

ـ لا ، فرسالة منك الي اغريبا ، تقوم مقام سمعان ، وسنجد في الجليل من يحملها الى عاصمة الرومان ، اكتبي الساعة فنحن نخســر الزمان الذي يمــر . فكتبت :

الى اغريبا احد امناء القيصر طيباريوس من اخته هيرودية :

لقد مات فيلبوس يا اغريبا ولم يبق الان ما يمنع هيرودس مــن الجلوس على عرش ابيه ، فاذا رايت ان تســـأل القيصر ان يبر فيمـا وعد ، فافعل .

ثم كتبت اليه في ذيل الرسالة بضع كلمات تسأله بها رايه في طـلاق قدرة ، وذكرت له خوف هيرودس من اريتاس .

وسلمت الرسالة في صباح اليــوم الثاني ، الى رجلين جليليين ، تعودا السفر الى روما للبيع والشراء .

على ان بيلاطوس ، كان قد كتب الى مولاه ، يصف له مقتـــل يوحنا بن زكريا ، وموت فيلبوس ، وذكر له ان اهل الجـليل يتهامســون بأن هيرودس سيطلق ابنة الملك العربي .

ولم ينس ان يكتب اليه ، ان اليهود في جميع الاقطار يلومــــون هيرودس على ما فعل ، الا انصارا له يتملقونه ويحرقون له البخور .

وقد انتهت رسالة بيلاطوس الى كاليكولا ، ثم تناول اغريبا رسالة اخته بعد اربعة ايام ، فذعر لموت عمه فيلبوس ، وجعل ينظر في حيــلة اخرى ، يعلل بها هيرودس الطامع بالعرش .

فلم ير الا ان يستعين براي كاليكولا ، فقال له : لقد وردت عـــلي من الجليل رسالة تشبه في معناها رسالة بيلاطوس الى القيصر ، الا مقتل يوحنا فلم اجد له فيها ذكرا .

قال : ممن ؟

ـ من هيرودية وهي تسألني ان يفي القيصر بوعده .

ـ وعلى ماذا عولت ؟

ـ لقد خطر لي خاطر يا مولاي اريد ان اشاورك فيه .

قال : ماذا ؟

قال : لهيرودس زوجة عربية هي ابنة اريتاس ملك العرب .

ـ اعرف ذلك .

ـ وهيرودية تريد ان يطلق هيرودس هذه المراة ليخلو لهـا الجـو، وتنفرد وحدها بالمجد الذي يكتنفها وهي على عرش اليهود . . .

قال : ومتى كان اليهودي يشاور الناس في طلاق زوجته .

قال : ان هيرودس خائف يا مولاي ، فهذا الطلاق يخلق حربـا ، ويغرق الجليل الامن في بحر من الدماء ...

ـ واي شيء خطر لك ؟

قال : اتـردد اولا في ارسال الجواب حتى يمر العام كله ..

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ثم اكتب في العام المقبل كتابا الى هيرودية اقـول لها فيه : ان التاج ان يعصب به هيرودس راسه ، الا اذا طلق زوجته .

ـ وهذا معناه انك تريد ان تغرق الجليل ، في البحر الذي ذكرت..

ـ بل اريد ان اجعل اريتاس القوي ، عـدوا لهيودس الضعيف فيخسر بذلك هذه القوة ، التي اراد من قبل ، ان يجعلها سلما لاغراضه .

ـ وتقف انت متفرجا على الاثنين حتى يخرج احدهما من الساحة ظافـرا ...

ـ نعم يا مولاي ...

قال : هب ان اريتاس خسر الحرب ، فماذا تصنع ؟

قال : جئت اطلب اليك الا يكـون الرومان في اليهودية ، عونـا لهيرودس في حربه مع العرب .

ـ ومن قال لك ان القيصر يرضى بهذا؟؟ ان هيـرودس من عمـال روما ، فهو لا يطيق ان تزحف العرب من بترا الى الجليل لتنتهك حرمته في ارض يخفق فوقها العلم الروماني .

ـ ولكنه يرضى يا مولاي اذا كان لك في ذلك راي ، انه لا يرد لـك

رجـــاء ، ولا يخالفك في رغبة .

قال : خير لك ان تسأله انت ، ما تطلبه الان .

ـ اني لا أجسر على هذا يا مولاي لاني اخاف ان يغضب .

قال : اعدك من الان ، اني سأبذل الجهد كله ، ليكون لك ما تشاء .. ولكني لا اضمن النجاح لان الامر يتعلق بشرف روما ...

ثم قال : ومع ذلك فقد يظفر هيرودس دون ان نساعده .

ـ لا اظن ذلك يا مولاي ، فلولا الرومان ، لكانت اليهودية ملكــــا للعرب ، منذ نزلوا في ذلك القطر .

ـ ولكني اريد ان أعلم ما تفكر فيه ، لاتدبر الامر ، قل بماذا تعـد هيرودس اذا كان هو الظافر .

ـ اقول له عندئذ ، ان القيصر عدل عن رأيه ، فيما يعني العرش .

ـ واذا غلب على أمره ؟

ـ اقول له ان الرجل الذي لم يستطع ان يصون بلاده وهو امير ، لا يستطيــع ان يصون عرشه ، وهو ملك ..

ـ اذن فأنت اليوم لا تكتب اليه شيئا ..

ـ لا ، فهو يلج في طلبه ، وانا اهزأ به واتردد حتى يمر الزمـــــان ، وتكتب الي هيرودية مرة ثانية .

ـ أما انا فأرى ان تكتب الى اختك كلاما لا معنى له .

ـ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ـ قل لها ان يبقى كل شيء على ما هو حتى يرد اليها كتابا اخــر منك يحمل رايك الاخير .

قال : أصبت يا مولاي فسأفعل . وقد كتب ما امره به وبعث بكتابه الى اخته دون ان يذكر لها فيه شيئا عن الطلاق ، ودون أن يجيء عـلى ذكر القتيل يوحنا بن زكريا .

٦١

لم يحدث في السنتين ، الحادية والثلاثين ، والثانية والثـــــلاثين ما يستحق الذكر .

الا هيرودية فقـــد ازدادت جورا وجفاء ، وجاوزت في لؤمهــــا

وقساوتها الحد المألوف بين ضرتين ...

وفدرة لا تبالي ، فقد كانت تعلم ان هذه الحال لا تدوم ، بل كانت قد تعودت العيش داخل نطاق من الحسد والقسوة والجفاء . وكان الامل بالطلاق يهون عليها كل صعب .

وقد كتبت الى ابيها واخيها تقول لهما : ان الصاعقة توشك ان تنقض ..

فتهيأا لطوارىء الزمان ، وقصا على عياش وبعض القواد ما كتبته اليهما فدرة ، فغلت الصدور واستيقظ العداء الكامن في النفوس

وزيد يغالب شوقه وغرامه ، وينتظر بصبر تلك الساعة التي يأذن فيها الملك لرجاله بركوب الخيل . وكثيرا ما كان الحارث يحدث من حوله، بخيانة هيرودس ونكثه العهد ، ويعترف بخطاه في الوثوق به على مسمع من رجال دولته .

اما هيرودس الداهية فلم يكن مكتوف اليدين ، فقد كانت رسله تحمل اخبار اليهودية الى ملك البرتيين ، وكانت رجاله تجمع السلاح سرا من جميع الاقطار ، حتى اصبح لديه منه ما يكفي لخمسين الفا من الرجال ، انه كان يحسب للدهر حسابه ، ويعلم ان من الجهل ان يستهين بملك مثل اريتاس العربي .

وبيلاطوس من ورائه يحصي عليه انفاسه ، ويرسل الى روما في كل شهر ، بيانا بهذه الانفاس .. حتى كانت السنة الثالثة والثلاثون ، فضاق صدر هيرودس وهيرودية لما رأياه من تحجب اغريبا ، وقام في ذهنيهما ان الامل الذي يعللهما به ، مظهر من مظاهر الاستهزاء . ولم يبق الا ان يبعثا اليه بكتاب اخر يسألانه فيه ان يفي بما وعد ، اذا كان هنالك مجال للوفاء ، وبعثا الكتاب فعول اغريبا عندئذ ان يضرب هيرودس تلك الضربة التي لا يرتفع له بعدها صوت ، فكتب الى اخته : لا استطيع ان اعيد الى عمي هيرودس تاج ابيه الا اذا طلق فدرة العربية ، لان روما تأبى ان يكون الملك لرجل بينه وبين العرب صلة نسب ..

وقال لكاليكولا : سيكره هذا الطلاق هيرودس على اهمال امر العرش ، ريثما تنتهي الحرب بينه وبين اريتاس . وقد تنتهي حياته

قبل ان يعود السلام الى الجليل .

ثم قال له : أحدثت القيصر يا مولاي بشأن ولاية الجيدور ؟

ـ أجل ، ولكن رأيه لم يتغير قط ، فهو لا يطيق ان يكون في دولة الرومان كلها تاج غير تاجه ، فاذا اردت ان تكون واليا فليس لك الا ان تذكر له ذلك ليعهد اليك في الامارة منذ غد ..

قال : لقد اقسمت يا مولاي اني لا اعود الى اليهودية الا وانا ملك ، وذلك بعد ان وعدتني بذلك .

ـ اذن فأصبر ولتبق الجيدور في يد بيلاطوس اليوم .

وهكذا كان هيرودس ، كما رايت ، قليل الحظ ...

وبينما كان يرفع عينيه الى سماء روما ، ليهبط عليه التاج من فوق ، كان أغريبا فاتحا لذلك التاج ذراعيه ليتناوله بهما قبل عمه ، ويضعه على راسه مستعيدا مجده المفقود . ولم يتردد في ارسال كتابه الاخير الى هيرودية وقد حمله اليها رجل روماني كان جلادا لوالي سوريا في انطاكية ...

فلما قرأت الكتاب ، اشرق جبينها ، وجعلت تخاطب فدرة في سرها ، قائلة لها : احملي الى بترا ما تريدين حمله غدا ، وقولي لاريتاس ان هيرودية تعرف ان تصير ملكة ...

ولم تلبث حتى أطلعت هيرودس على كتاب اخيها وجلس الاثنان يتهامسان ساعتين طويلتين وفدرة لا تعلم شيئا .. على انها عندما ابصرت هيرودية في المساء ، تروح وتجيء مع جواريها في الرواق ، وهي تبتسم لهن وتضحك ضحك المراة المستهترة ، ايقنت بأن ساعة الطلاق قد أتت ، ولم يبق لها الا ان تتهيأ للرحيل ..

ثم خبرت نفتاريت بما جرى ، وباتت الاثنتان تلك الليلة تتحادثان حتى بزغ الفجر ، دون ان يغمض لهما جفن .

٦٢

دعا هيرودس فدرة اليه قبل ان تطلع الشمس . فأحست الاميرة في تلك الساعة انها ابنة ملك ، فقالت للغلام : ليحضر هيرودس فانا

عاجزة عن المضي اليه .

وقالت لنفتريت : امكثي بهذه الغرفة ولا تخرجي منها فقلبي يحدثني بأن حياتي في هذا القصر قد انتهت ..

وبعد قليل اقبل هيرودس تتبعه هيرودية ، والاثنان يبتسمان ابتسامة الشماتة والاستهزاء . وكان هيرودس يقول : لقد قيل لي الان انك عاجزة عن الخروج من هذه القاعة ، ولكني لم ار دلائل هذا العجز.

قالت : وهل استصعبت المجيء ايها الامير ؟

ـ لا ، ولكن هيرودية ارادت أن تدعوك الى مخدعها لان لها كلمة تقولها لك الان ..!!

ـ اذن فهي التي أمرتني بالذهاب ..

ـ نعم ، ثم رات ان تجيء بنفسها لتقول هذه الكلمة ، فهل تأذنين لي ولها في الكلام ؟

وكانت كلمته قاسية ليس فيها شيء من الشعور واللين ...

فابتسمت فدرة قائلة : ماذا تريدين يا هيرودية ؟

ـ اريد ان اقول ان الاعوام التي مرت عليك وانت في هذا القصر ، كانت اعواما سوداء ، أليس كذلك ؟

فأستغربت الاميرة هذه الوقاحة واجابتها قائلة : اجل ، ولكني عرفت ان احتمل الجور الذي رايته في هذه الاعوام ..

قالت : ولكن ارى انك لا تستطيعين الاحتمال بعد الان ...!

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ هذا الهم الذي آثاره على جبينك .

قالت : لا تشمتي الان يا هيرودية ، واصبري حتى ينتهي بي همي الى ما تحبين ...

قالت : لقد جئت انقذك منه الساعة .

ـ وانا لا اعجب لهذا ، فانت في هذا القصر ، تستطيعين ان تفعلي كل شيء ...

فالتفتت هيرودية الى هيرودس وقالت له : افعل يا هيرودس فعلى الرجل ان يهتم لامر زوجته ...

فقالت فدرة : بل افعلي انت ، فانت الرجل ، وهيرودس هذا هو الامراة .. !!!

فاصفر وجه الامير وتمتم قائلا : لقد كتب لنا ان نفترق فنحن لم نخلق لنكون متحدين ...

قالت : اصبت فقد رايت الان سبيلا الى تاج الملك غير ملك العرب، قل ما تريد ان تقوله ولا تتردد .

فنهض ، ففتح باب المخدع ثم قال : اين انت يا سمعان ؟ فدخل سمعان ومعه رجلان من زعماء اليهود .

فأومأ هيرودس الى فدرة وقال لهما : لقد طلقت هذه الامراة !!

فحنى الرجلان رأسيهما واقبلا ينظران الى هذه المراة التي استقبلت الطلاق بالابتسام والاستبشار ... وحدقت هيرودية اليها بعينين ناريتين فيهما الشماتة واللؤم ..

فقالت فدرة عندئذ لذلك الرجل الذي كان زوجها : كنت اكره هذا الطلاق من قبل ، خوفا من ان يظن الناس بابنة الملك الظنون ، أما الان فأنا أوثره على كل شيء ، ولا اتردد في الشكر ، على مسمع من هؤلاء !

واشارت الى الباب قائلة : اخرج من هذا المخدع ايها الرجل ، واتبعوه انتم ..

فارتجفت شفتا هيرودس وخرج ، دون ان يقول كلمة ، وخرج بعده الرجال الثلاثة أما هيرودية فلم تشأ الا ان تضحك ضحكة النصر ، قبل ان تجاوز الباب وكانت تقول للقوم : مسكينة ابنة الملك فهي ستموت من القهر ...

على ان فدرة لم تقل بعد ذلك شيئا ، بل امرت جواريها بان يتهيأن للرحيل ، وارسلت نفتاريت الى اسواق المدينة تبحث فيها عن رجال العرب ! وقد تم لها ما أرادت ، فقد كان في تلك السوق طائفة من اولئك الرجال ، معها الخيل والجمال ، ولم يلبثوا ، حتى اعدوا لابنة ملكهم عدة السفر ولم تغرب شمس ذلك اليوم ، حتى غادرت فدرة و جواريها قصر هيرودس ، لا يلتفتن الى شيء ، ولم ينظرن الى شيء . وكان هيرودس نذلا ، فهو لم يعبأ بسفرهن ، ولم يمهد لزوجته المطلقة اسباب الرحيل ،

عن الجليل،ولكنه كان في الوقت نفسه خائفا ،وكان يقول لهيرودية :لنستعد للحرب ، فأريتاس لا يسكت ، وسنرسل غدا الرسل الى بيلاطوس نخبره بما حدث اليوم ، ونسأله رايه في الحرب ، اذا راى اريتاس ان يسعر نارها ...

٦٣

عندما همت فدرة بالركوب ، كتبت الى ابيها تقول له انها اصبحت طالقا ، وانها ستكون في بترا بعد بضعة ايام . وارسلت كتابها مع فتى من فتيان العرب ، وكان الحارث ، عند وصول الرسول ، يحدث قواده بشأن الحرب ، اذا خلق هيرودس اسبابها .

فلما دخل ذلك الفتى العربي يحمل رسالة الاميرة ، اضطرب فؤاد الملك وفاجأه بقوله : ويلك الست قادما من الجليل ؟

قال : نعم يا مولاي .

ـ وتحمل رسالة من فدرة ؟

ـ نعم يا مولاي .

قال : ورأيتها ؟

ـ أجل ، وهي التي سلمت الي هذه .

فقال : اقرأ يا مالك . فتناولها ولي العهد وقراها في سره ثم سقطت الرسالة من يده وقال : لقد وقع ما كنا نخشاه يا مولاي : قال : اطلقا ؟

ـ نعم وهي الان مع الجواري في طريقهن الى بترا ...

فجعل ينظر الى الارض وهو ساكت ... ثم أومأ الى عياش وزيد اللذين كانا في مجلسه ، بأن يتبعاه مع ولي العهد .

وخرج من القاعة يريد ان يرى زوجتيه ، والثلاثة وراءه ، والرسالة في يد زيد يقرؤها ثم يقرؤها وقلبه يخفق . حتى جلس الملك في مجلسه الخاص ، ودعا زوجتيه قائلا لهما : يريد الملك ان ينقل اليكما خبرا تهتزان له فرحا ...

فقالت الملكة خلدو ، الوالدة : أتريد ان تبشرنا بقدوم فدرة ايها الملك ؟

ــ اجل ، فهي ستكون في هذا القصر بعد ثلاثة ايام ...

قالت : اتمزح يا مولاي ؟

ــ ليس المجال مجال مزاح ، ولكن ...

ــ ولكن مــاذا ؟

ــ انها قادمة على ان تمكث ببترا الى الابــد !!

ــ اذن فهي ... طالــق ...

ــ نعم طالق ، وهذا ما كنت انتظره . فامتقع لون خلدو وصاحت قائلة : ولكنك لم تقل لي شيئا من هذا قبل الان .

ــ لم ارد ان ابوح لك بالامر خوفا من ان تخرجي فدرة عن صبرها اما الان فلم يبق ما يمنعني من ذلك . وحكى لها حكاية ابنته مع هيرودس منذ بدات هيرودية تلعب دورها الغريب في قصر الجليل . فأخفت الملكة وجهها بيديها لتذرف الدموع ، فقال لها : اتبكين ايتها الملكة وقد اعــاد القدر فدرة اليك لتعيش هنا كما تعيش الملكات ؟؟

ــ وهل تريد ان اضحك عندما يقول الناس ان هيرودس الخــائن طلق ابنة الملك من اجل راقصة ؟

ــ نعم ، فهذا الخائن سيندم على ما فعل عندما نكرهه على امتشــاق الحسام للدفاع عن قومه ، وستجد فدرة ، في بترا ، زوجا شريفا ، قويا ، لا يجاريه هيرودس في النسب ، ولا يذكر معه .

فعرف الرجال الثلاثة عندئذ ذلك السبب الذي دعاهم الملك مــن اجله ، الى مجلسه الخاص ... وكان قلب زيد يرقص من الفرح ..

فقالت خلدو : ومن هو ذا الزوج ؟

ــ هو هذا ... واشار الى زيــد .

ثم قال لعياش : انحدثك بهذا ام نحدث زيدا ؟

قال : حدث من تشاء يا مولاي فكلانا عبد للملك ...

ــ وانت ماذا تقول يا زيد ؟

ــ ماذا اقول يا مولاي ، وهذا القلب يخفق اليوم على الحب ، كما كان يخفق منذ سبعة اعوام .

ــ اذن تعزي ايتها الملكة ، وتهيأي لهذا الزواج .. فمسحت الملكة

دموعها وقد شعرت ببعض العزاء . ثم قال لزيد : قل يا بني انك تريد فدرة زوجة لك ؟ .

فقال : التمس من مولاي الملك ان يزوجني ابنته ...

قال : لقد زوجتك ، وستزف اليك عندما تصل الى هـذا القصـر ، وقبل ان ترى جميع اهل بترا .

فقال ولي العهد : افي مثل هذه السرعة يا مولاي ؟

ـ اجل ، وهل تريد يا مالك ان تدخل اختك بلاط ابيها ، ويراها العرب جميعهم ، وهي مطلقة .

قال : الرأي رأي الملك فافعل ما تشاء يا مولاي . فذكر الحارث عندئذ أمرا اخر ، فقال لحاجبه : ادع مضاضا وولده ، وذيابه الصفوي.

فذهب الحاجب ، ثم اقبل ذيابة ، ومضاض ، وصياح . فوجه الملك حديثه الى صياح قائلا : لقد كنت تحب فدرة من قبل وقد سألنا ابوك مضاض ان نجعلها زوجة لك فلم نقدر ، اتذكر ذلك ام نسيته ؟

فاحمرت وجنتا صياح من الخجل وقال : اذكره يا مولاي .

ـ وتذكر ايضا انك كنت تؤثر ان تكون فدرة لرجل غريب ، على ان تكون لزيد بن عياش ؟ فسكت الفتى ولم يجب ...

قال : يسألك الملك فلا تتردد .

قال : لقد كان هذا ايضا يا مولاي .

ـ ولكن ماذا صنعت بحبك ، عندما قضت الاقدار بان تترك فدرة بلادها وتزف الى رئيس الربع في الجليل هيرودس الخائن .

ـ خفت حدة هذا الحب يا مولاي ثم اضمحل .

ـ وهل عرفت الان ان فدرة ستعود الينا بعد ثلاثة ايام ؟

ـ نعم ، وقد طربت لما عرفت لان هذا الطلاق انقذ ابنة الملك من مخالب الذئب الغادر الذي لا زمام له .

ـ ولكن الملك سيزوجها يوم تصل الى البلاط وانت تعلم من هو هـذا الزوج فماذا تقول ؟

ـ اعلم ان هذا الزوج ، زيد بن عياش ، واقول اني ساكون اول مـن يصافحه مهنئا ويدعو له بصفو العيش .

قال : اقسم براس الملك ..

ــ لا حاجة الى القسم يا مولاي ، فقد اضمحل حبي كما قلت .

ــ ومع ذلك فسيزوجك الملك يوم يتزوج زيد وقد دعوتك الان ، مع مضاض وذيبة ، لاجل هذه الغاية .

ــ ولكن ليس لي في الزواج راي يا مولاي .

ــ اما الملك فله في ذلك راي ، وهذا ذيابة يريد ان يزوجك ابنته ... هات يا ذيابة ...

ــ لا يبقى لذيابة ، ما يقول عندما يأمر الملك .

ــ اذن فليتكلم مضاض الان .

فقال مضاض : وليس لي انا ما اقوله يا مولاي .

قال : بقي ان تطلب الفتاة من ابيها يا صياح .

فقال صياح لذيابة : اتزوجني ابنتك ايها الامير ؟

ــ لقد زوجتك ...

وهكذا استطاع الملك ان يصافي القلوب ، قبل ان يخوض مجال الحرب ، ويمهد لابنته اسباب الهناء والصفاء، قبل ان تدخل البلاط .

وبدا اهل البلاط ، وال مضاض وذيابة ، منذ تلك الساعة ، يستعدون للعريسين ،ولم ينس الملك ان يرسل فريقا من جيشه ، لاستقبال ابنته المطلقة . وكانت الدنيا على رحبها ، لا تتسع لزيد بن عياش ، ان تلك الفتاة التي حرمته اياها الاقدار ، تعود الى بترا لتمسي زوجة له وسيبسم له الزمان .. وماذا يطلب زيد في حياته ؟ حسبه ان قدرة ستكون له وهذا غاية ما يتمناه ، ويسعى اليه ...

٦٤

اكب الملك والملكة خلدو على ابنتهما يقبلانها والدمع في العيون ..

ثم اقبلت الملكة شقيلة وولي‌وزوجته ، وقواد الجيش ورجال البلاط ، يعانقون ويصافحون هذه الاميرة الحسنا ، التي خانها الحظ بين اليهود .

وقد راى الجميع انها لا تكف عن البكاء ...

وقبل ان يدخل القوم البلاط ، قال الملك : لقد ارادت الالهة ان

تنقذك من بين يدي ذلك الرجل اللعين ، الذي قذفت بك الى بلاده ، فانسي الماضي يا ابنتي واعلمي ان اباك سيكفر الان عن ذنبه . .

واشار اشارة خفية الى حاجبه طارق ، ففتح طارق باب الحجرة الاولى القائمة في مدخل الرواق ، وظهر زيد بن عياش على عتبة ذلك الباب . . ووقعت العين على العين فارتعش الجرمان ، ولو لم تكن ذراع ولي العهد تسند فدرة لسقطت على الارض .

ثم مشى زيد بخطى هادئة ، وهو لايرفع نظره حتى دنا من الملك . فرفع الحارث صوته قائلا : ليدن زيد بن عياش من زوجته !. فانتقل الفتى الى جانب فدرة . فزاد اضطراب الاميرة لانها ادركت عندئذ معنى ذلك التفكير الذي ذكره لها الملك ، في حديثه . ثم قال الحارث : وانت يا فدرة ، فارفعي راسك فقد امسيت زوجة لزيد . فتنهدت الصعداء ثم نظرت الى زوجها نظرة قصيرة ، لمعت فيها عاطفتها التى لم يغيرها الزمان ، وتلاءلاء فيها الغرام . . . ثم التفتت الى الملك كانها تشكر له هذا الجود . . .

وقال الملك ايضا : وليقف صياح بن مضاض الى جانب زوجته . .

فوقف الفتى حيث امره الملك بان يقف ، وكانت ابنة ذيابة من حسان العرب ، فى ذلك القطر . ثـم تقدم الملك والملكتان القوم ، الى القاعةالكبرى التي تم فيها الزواج على عادة الانباط ، وجعلوا تلك الليلة ليلة فرح وطرب، لم يشهد مثلها البلاط ، غير مرة واحدة هي ليلة زواج ولي العهد . .

وكان الاثنان ، فدرة وزيد ، لا يصدقان انهما امسيا زوجين ، وقدظن كلاهما انه في حلم ، وان اليقظة ستلاشي حلمه . اجل ، ان تلك المفاجأة كانت تشبه الحلم ، وقد اثرت في قلب فدر ةتاثيرا عذبا ، كانت تخاف ، لهول ما رات في الجليل ان تمحوه الحادثات بعد حين .

وانا لا نعرض ، لما دار بين الزوجين ، بل بين العاشقين من حديث وهمس ، فيكفي ان يعلم القارىء انهما تلاقيا بعد سبعة اعوام ، وان القضاء الذي جار عليهما بالامس ، قد لان الان ، بل يكفي ان يعلم ان هذا اللقاء لم يكن لهما به امل من قبل . . .

ولنتركهما ، ولنترك صياحا وزوجته ، يتذوقون لذة الاجتماع .

٦٥

عرف هيرودس من الجواسيس الذين ارسلهم الى بلاد العرب ، ان اريتاس تهيأ للحرب ، وانه سيغسل عار الطلاق بحد السيف . فازداد خوفه ، ولم يستطع الا ان يسير هو نفسه الى اورشليم ليحدث بيلاطوس بالامر ، ويسأله ان يكون الجيش الروماني عونا له ، على رجال الانباط ، مع انه كان قد كتب اليه يسأله رايه ، ويستغيث به . وسافر ، وهيروديـة تنفخ في صدره من جديد ، الشجاعة والقوة ، ولكنها كانت خائفة مثلـه ، وهي تتظاهر بالاستخفاف .

وكان بيلاطوس قد كتب الى القيصر ، والى والي سوريا ، الذي هو رئيسه ، يسألهما عما يريدان ان يفعلاه ، فلما وصل هيروس الى اورشليم، استقبله الوالي كما يستقبل الامراء ، وخبره انه بعث يستشير مولاه .

فقال : ولكننا لا نعلم متى يجيء جواب القيصر ..

قال : قد لا يطول امره ، فقد طلبت اليه ان يتعجل في ارساله ، كما كتبت الى القنصل في انطاكية ، ان يتعجل مثله ، وانا واثق بان جواب القنصل سيكون هنا بعد بضعة ايام ..

ــ وهل تظن انه يفعل شيئا قبل ان يأمره طيباريوس ؟

ــ اجل ، فأمر سوريا وفلسطين في يده ، وهو لا يستطيع ان يرى الجيش العربي زاحفا الى الجليل ، ويقف مكتوف اليدين .

ــ وانت ماذا تصنع اذا زحف هذا الجيش قبل ان يرد احدالجوابين؟

ــ اتهيأ للدفاع ولا انقل من اورشليم قدما .

ــ واذا ظفر اريتاس بالجليل ، ثم اطلق خيله الى الاقاليم يفتحها ويضمها الى بلاده ، ويضرب عليها الجزية ؟

ــ استغيث ثانية بالقنصل ثم بالقيصر .

قال : ولكن قد يخطر لاريتاس ان يهاجم اورشليم نفسها ويقتل حاميتها ، ويستولي على ما يملكه الرومان ..

ــ اذا فعلها ادافع عن اورشليم ، بقوة الرجال الذين هم فيها ، حتى اقتل او يتم لي النصر ..

ثم قال : يظهر انك تخاف اريتاس ايها الامير .

ـ نعم اخافه ، فجنوده اشداء ، وهم اكثر عددا من جنود الجليـــل والاردن ، ويخيل الي ان بعض اليهود يترددون هذه المرة ، في امر الحرب ، وقد لا يخوضون المجــال .

فابتسم قائلا : الست انت الذي عاهدت ملك العرب، على طرد الرومان من هذه البلاد ، لتوقعه في الشرك الذي ذكرته لي منذ اعوام ؟ ـ بلى

ـ ولكنك لم تفعل ما قلت ، بل نسيت عهدك ، واسأت الــى المــلك ، بطلاق ابنته ، كأنك تقول له انك لا تعبأ به . . افلا تذكر لي الان ما الـــذى دعــاك الى هـــذا . . . .؟

فذكر هيرودس عندئذ ، ان الوالي عدو له ، وهو الذي يسعى بـــه لدى قيصر . فقال : لقد كرهت فدرة ان تعيش في قصر تقيم هيرودية به . .

قال : انه سبب لا يدعو الى الطلاق .

قال : نصح لي بعض رؤساء اليهود بان افعل .!

ـ واعتقد انهم هم الذين نصحوا لك بان تتزوج هيرودية ، قبــل ان يموت اخوك !! ثم طلبوا اليك بعد ذلك ان تأمر بقطع راس يوحنا بن زكريا .

قال : ان هذا يتعلق باليهود انفسهم ايها الوالي .

قال : ما اردت ان اعرض لليهود في شأنهم الخاص ، ولكن سمعتـــك تقول الان ان البعض يترددون في امر الحرب ، فعرفت انهم يلومونـــك من وراء الستار ، وان هذا التردد نتيجة غضبهم للسنة التي دستها بقدميك، وللدم البريء الذى سفحت !! وضحك كأنه يمازحه ، ثم قال : والان قــل لي كم هو عدد جندك الذي سيبرز الى الساحة ؟

ـ يقول القواد ان عندهم اربعين الفا .

قال : تستطيع اذن ان تتصدى للعرب وتمنعهم من دخول الجليـــل ، ريثما يأمر القيصر والقنصل بارسال الجنود اليك .

قال : حسبي اذا خسرت الحرب ، ان روما تخسر الجليل والاردن ، ولي فى ذلك بعض العزاء .

ـ ومعنـــى ذلك ؟

ـ معناه اني كنت واثقا بان روما نفسها ستدافع عن الجليل ، وستملأ هذه الارض جنودا يمنعون العرب بالحراب .

ــ ومن قال لك انها لا تفعل ؟

ــ هذا ما ظهر لي ايها الوالي . وكان بيلاطوس كما علمت ، يبغض اليهود ، ويستبيح دمهم ، وكان مقامه بينهم ، مقام السياسي الداهية ، يأخذ من هذا ليعطي الاخر ، ويجاري القوي ليغضب الضعيف ، وقد يسلب هذا القوي حقه عندما يرى غرضه في هذا السلب .

ولم ينس ان يكون في جميع ادواره لينا ، ناعم الاسلوب ، كثير الابتسام ، كما انه لم ينس ان يجعل للمال ، مقامه الاول في كل ما يسعى اليه . فقال لهيرودس : لا تخف فروما لا يطيب لها ان تتخلى لارتاس عن ارض اليهود ، وسترى جنودها بعد حين يتصدون للعدو ، وقد يغزون بلاده

ــ اذن لم يبق الا ان ابدا الحرب ريثما يجيئون . .

ــ بل تبدأ بالدفاع فانت لم تشهر حربا .

ــ لكن الا ترى ان تأمر الحامية بان تشترك في هذا الدفاع ؟

ــ بلى ، فحامية الجليل مكرهة على ذلك ، اما انا فلا استطيع ان ابعث الى الساحة جنديا واحدا بدون اذن قيصر .

فاستأذن في الانصراف وهو يقول في نفسه : افعل الان ما تشاء يا بيلاطوس فسنرى لمن يكون النصر . . .

وكان يعلم ، ان ويتلوس ، والي سوريا ، المقيم بانطاكية ، عدو لبيلاطوس ، لا يطيق ان يلفظ اسمه في مجلسه ، فعول على ان يسعى به لديه ، ويوغر ، من الناحية الاخرى ، صدور اليهود ، لترتفع اصوات الشكوى من كل اقليم ، وتغلق في وجه هذا الروماني المتكبر ، ابواب الرجاء ولم يعد الى الجليل ، حتى كتب ما يريد ان يكتبه الى القنصل الانطاكي ، متهما بيلاطوس بانه لا يعبأ بالمحافظة على اليهودية ، الا اذا تناول لقاء هذه المحافظة ، الذهب الوهاج . ولقنصل انطاكية ، الكلمة النافذة في بلاط طيباريوس ، والمقام المحترم العالي ، بين قواد الجيش ، ورجال الدولة . اجل ، ان طيباريوس نفسه ، كان يسند بيلاطوس وهو الذي ارسله واليا الى اورشليم ، ولكنه لم يكن ليغضب من اجله قنصله الانطاكي ، المدافع عن العرش .

وكان الجيش العربي ، قد تهيأ للقتال ، ولم يبق الا ان يزحف الى

البلاد التي اهان اميرها ، مليكه .

اما جيش اليهود فكان يتهيأ ، والذعر يملأ قلب قواده ..

٦٦

... اتريد الفتح يا مولاي ، ام تريد ان تقهر هيرودس الخائن ؟ وكان القائل عياش ، القائد العربي .

فأجابه الحارث قائلا : ان ساعة الفتح لم تأت بعد ولكن ستجيءبعد حين .

ـ اذن فهيرودس وحده هو الفرض من الحرب .

ـ اجل فليس لنا غاية الا ان نعيد هذا المغرور الى صوابه ، ونعلمه من جديد ان يحترم العرب .

ـ واي مكان تريد ان تجعله ساحة للقتال ؟

ـ سنختار هذا المكان بعد ان يعود قرة بن سليم الذي ارسلناه الى اليهودية يحصي جنودها ويقرأ اسرار اليهود .

قال : اخشى ان يغدر اليهود بقرة يا مولاي .

ـ وكيف يغدرون به وهو يهودي ؟؟ الم تره عندما لبس ثياب اهل الاردن ، وتقلدهم ، في لغتهم ولهجتهم ، كيف خدع به اهل البلاط وحسبوه غريبا عن بترا ؟

ـ لكنه لا يعرف جميع الاقاليم ، وقد تفضحه بعض العادات .

قال : هب انهم عرفوه فهم لا يجسرون على قتله .

ـ اذن فنحن لا ننظر في امر الحرب الا بعد رجوعه . فحنى راسه ولم يجب ، لانه انتقل بالفكر الى سهل يطل على الجليل ، وهو يصلح لان يكون ميدانا للخيل . وكان قد مضى على غيبة قرة ، بضعة وعشرون يوما ، وقد دنت الساعة التي يعود فيها الى بلاد قومه .

ولم تخطى ظنون القوم ، ففي مساء ذلك اليوم نفسه ، وصل الرجل الى البلاط ، وطلب ان يرى الملك فأذن له ثم دعي القواد وسأله الملك قائلا : نبدأ بالجليل يا ابن سليم فكم هو جيشه ؟

ـ لا يستطيع اليهودان يجعلوه اكثر من ثلاثين الفا . فاشرق جبينه وقال : وجنود الحامية ؟

ــ انهؤلاء الجنود القلائل يا مولاي، يضيعون بين فرق الجيش وصفوفه ولا يزيدون في قوته ...

ــ ولكنهم سيشاركون هيرودس في القتال.

ــ نعم وقد امرهم بيلاطوس بذلك .

ــ واورشليـــــم ؟

ــ لم ار في اورشليم جنودا من الرومان ، وقد سمعت ان الوالي لا يجسر على خوض المجال الا باذن القيصر نفسه .

ــ ولكننا عرفنا ، ان رجال السيف من يهود اورشليم ، اقبلوا علـى الجليل ليساعدوا هيرودس في حربه .

ــ لا تصدق ما يقال يامولاي ، فعدد اليهود قد ذكرته ، وليس هنالـك ما نخشاه الا الجند الذي يبعث به قيصر .

قال : لقد تعود القوم ان يبرزوا الى الساحة بخمسين وستين الفـــا ، ما عدا الجند الروماني الذي لا يعد .

ــ ولكن هيرودس نفر بعض قومه يا مولاي.

ــ بمـــــــاذا ؟

بقطع راس رجل بريء ، كان يطوف في القرى ..

قال : ويدعى هذا الرجل يوحنا ، وقد قتل منذ زمن طويل .

ــ نعم ، ويظهر ان بعضهم لم ينسوا مقتله .

ــ وبمـــاذا ايضـــا ؟

بطلاق فدرة الذى سيخلق الحرب ، اتعلم يا مولاي لماذا فعل هيرودس كل هذا ؟ فعله ارضاء لهيرودية الفاجرة التي تسود الجليل اليوم .

ــ وهل سمعت شيئا عن الرومان ؟

ــ قيل لي ، ان والي سوريا سيكون عونا لهيرودس ، وسيبعث اليه بالجنود ، من انطاكية ..

ــ ومن قال لك ذلك ؟

ــ خادم في قصر هيرودس، وقد قال لي ان والي سوريا وعد مولاه بذلك فقال الملك لقواده : ان جيش انطاكية سيصل الى الجليل بعد فوات الاوان .. واين يجتمع جيش هيرودس ؟

ـ في البقعة الجرداء القائمة شرقي البلد .
ـ ونحن قد فكرنا في ان تكون هذه البقعة ميدانا للحرب ، الا توافق الملك في هذا الرأي يا عياش .
ـ بلى يا مولاي ، فقد تعود الجيش العربي ان يظفر فيها ، بصفوف اليهود ..
ـ ومتى نترك بترا ؟
ـ بعد بضعة ايام على ان يبقى الملك في بلاطه .
فهز راسه قائلا : ان الملك الذي يقيم بقصره عندما يخوض جيشه الميادين ، ملك جبان لا يصلح لقيادة الناس ..
ـ ولكن قوادك ، يعرفون ان ينتصروا باسمك ،على اعدائك ..
ـ اما الملك فلا يريد الا ان يكون مفتاح النصر بيده .. بل لا يريد الا ان يرى هيرودس ، وجها لوجه ، في ساحة الموت .
فسأله ولي عهده ، وصهره زيد ، أن يبقى ، فلم يرض ، بل اصر على ان يقود ، يكون اول عربي في الجليل ، يشهر سيفا ..
وامرهم منذ تلك الساعة، بان يجعلوا الجيش الزاحف فريقين ، يتقدم الواحد منهما الاخر ، لطمع اليهود به . واوصاهم بان يكونوا جميعهم رسل الموت ..

٦٧

ماذا تريد يا كاليكولا ؟
ـ جئت اسألك يا مولاي عن كتاب والي اليهودية الذي يحمل نبأ الحرب .
فقال طيباريوس : وهذا كتاب اخر من قنصلنا في انطاكية يحمل النبأ نفسه ويستعجلنا في الجواب .
ـ ولكن الحرب لم تبدأ يا مولاي وهما ينتظران ان يشهرها اريتاس .
ثم قال : وعلى اي شيء عول القيصر ؟
ـ على الوقوف في وجه العرب ، وارجاعهم بقوة السيف ، الى الاقليم الذي يقيمون به ، او نغزوهم في بترا .
قال : لي راي في هذا يا مولاي.
ـ ما هو ؟

ـ هو ان تعدل عن سياسة الشدة مع العرب وتعمد الى سياسة اللين، لتجعل بلاد الانباط ، سورا لبلاد اليهود .

ودخل اغريبا في تلك اللحظة ، فقال لقيصر : اجلس يا اغريبا واسمع ما يقوله صاحبك . . اعد يا كاليكولا ما قلت ليستطيع اغريبا ان يبدي رايه.

وكان اغريبا وولي عهد الرومان متفقين . فقال كاليكولا : قلت لمولاي القيصر ان ينظر الى اريتاس العربي ، نظره الى ملك من اعوان عشه . . .

ـ وانت ماذا تقول يا اغريبا ؟

ـ اقول انه خير للقيصر ان يكون ملك الانباط من اصدقاء العرش، من ان يكون من اعدائه . .

ـ ولم ذلك ؟

ـ لانه من الملوك الابطال الذين يتعبون الجيش الروماني المقيم باليهودية، ويتصدون لشؤون روما في ذلك القطر .

ـ ولكن نسيتما انتما الاثنين ، ان طيباريوس قيصر ، يستطيع ان يجعل هذا القوي ضعيفا ، في اول جولة .

فقال كاليكولا : لم ننس هذا يا مولاي ، كما اننا لم ننس ان القيصر طيباريوس لم يشأ ان يعتنق مذهب القيصر اغوسطس في حربه الدائمة مع الانباط .

قال : اردنا ان نسالمهم من قبل ، فاخرجهم غرورهم عن الحد .

ـ ومتى كان هذا الغرور يا مولاي؟

ـ اليوم ، الم تقرأ ما كتبه والي سوريا ؟ انه يقول : « خير لروما ان تخير في حرب العرب خمسين الف رجل من ان تغض الطرف عن غرور اريتاس » .

ـ اما انا فلم اجد غرورا يا مولاي ، بل وجدت شرفا وعزا ، يريد اريتاس ان يصونهما بسيفه ، دون ان يعرض في ذلك ، لسلطان الرومان .

ـ وهذه الحرب التى سيشهرها في الجليل ؟

ـ انه لا يشهرها على روما ، بل على هيرودس الذى اهانه ، وهزا به ، مستعينا على ذلك بقوة القيصر .

قال : ان هيرودس هذا ، عامل من عمال طيباريوس ، فمن استهان به

فقد استهان بطيباريوس نفسه ، وهذا ما لا نرضاه .
ـ ولكن هيرودس هو البادىء.
قال : لا يعرف القيصر ما تقوله ، انه يعرف امرا واحدا ، هو انه يجب ان يخفض الرؤوس التى ترتفع الى العلاء ..! ومع ذلك ، فنحن لا نحب هيرودس ولا نريد ان نسمع له ، ولكن ويتلوس الوالي يريد ان يحارب العرب ، فليفعل ، ولتخسر روما نصف جيشها في سبيل هذه الحرب .
ـ مع ان بيلاطوس لا يطلب حربا يا مولاي .
ـ الامر في ذلك امر القنصل ولا شأن لبيلاطوس به .
قال : ستجعل العرب اعداء لروما الى الابد ..
ـ وقد كانوا اعداءها منذ وجدوا الى اليوم .
ـ بل كانوا اعداء اليهود فلم تشأ روما الا ان تنتصر لاعدائهم دون ان يكون هنالك مبرر لما تفعل .

قال : لو سمعك القواد الان لخيل اليهم جميعا ان بينك وبين اريتاس العربي عهدا .. احذر يا كاليكولا فانت تخون قومك. .
ـ بل احقن دماءهم ، واسأل مولاي ان يكثر اصدقاءه في الشرق .
قال : ستكثر انت هؤلاء الاصدقاء ، عندما تتربع في العرش ، اما الان فيكفي ما سمعت ، فلا تزد . واومأ اليه والى اغريبا بالانصراف ، وامر احد الحراس بان يدعو مستشاريه لينظر معهم ، في ما كتبه اليه قنصل انطاكية. .
فخرج الاثنان وكاليكولا يقول : لم اطلب الى القيصر ما طلبت منعا له من مساعدة هيرودس ، ولكني امسيت واثقا بان الدنو من ذلك الملك العربى خير من البعد عنه ، واعتقد ان عمي سيندم على ما فعل . وكان اغريبا متأثرا يضطرب من قهره ..

لقد كان يظن من قبل ، انه سيستطيع بقوة كاليكولا ، ان يقنع القيصر بترك هيرودس وحده ، في ساحة الحرب . فاذا فعل هذا ، وردت الاخبار من اليهودية ، بعد ذلك ، ان الظفر كان لاريتاس وهذا ما يريده .
اما اليوم فماذا يقول اذا خرج هيرودس ظافرا يجر اذيال الفخار بقوة الرومان ؟! ان هيرودس عندئذ يكبر في عيني طيباريوس ويضيع امل اغريبا بالقضاء عليه . وجعل يقول لكاليكولا : لقد وقف القيصر نفسه حاجزا

بيننا وبين ما نسعى اليه ، اما كاليكولا فكان يقول : ليفعل عمي ما يطيب له، فليس لهيرودس حياة وانا حي.
وطابت نفس اغريبا ،بعد ان استولى عليه اليأس ..

٦٨

خرج جيش الانباط من بترا على راسه الملك .
وخرجت الملكتان ، وفلدرة ، ونساء القواد واركان الحرب معه ،برافقنه مرحلتين ، ويسألن الآلهة ان تهب له النصر .
وكانت الجواسيس قد نقلت الى هيرودس خبر زحفه ، وخبــروه، والذعر في القلوب ، ان رجاله يبلغون الخمسين الفا .
فخاف خوفا شديدا ، وقاد الجند اليهودي الى الميدان ، كأنه ذاهــب الى الموت ، ولولا ذلك الامل الذي علله به القنصل ، ووعده اياه بالمعونـــة، لترك الجيش ، وهرب من الجليل !.

اجل ، انه لم يكن يجهل قوة اريتاس الزاحف الى اليهودية . بل كان يرى في كل يوم ، اثار هذه القــوة في عاصمة امارته ، ولم يقم في ذهنه قط ان النصر سيتم له ، الا اذا خفقت في مقدمة جيشه اعلام الرومانيين ..
مشى مضطربا .. وعيناه تنظران الى الشمال ، عله يرى هذه الاعلام في منتهى الافق ، ولكنه لم ير شيئا ، بلى ، كان يرى النسور والعقبان تحوم في الفضاء ، كأنها كانت تعلم أن ذلك السهل سيكون لها ، بما يسقط فيه من جثث الانســـان ، المرعى الخصيب ..

وكان اريتاس قد استعد للمفاجأة المروعة التى تعودها فيحروبه ،لقد كان له منهاج لا يتغير .. هو انه يفاجىء عدوه بهجوم عنيف عندما تقـــع العين على العين ويستقبله بالسيوف والرماح حتى يزعزع اركانه ، ثـــم يدور حوله ، ويسوق صفوفه الى نطاق ضيق ، تضمحل فيه القـــوى ، وتزهق فيه الارواح ..
وقد جعل جيشه قسمين كما قرات ، فلما ابصر اعلام اليهود ، امر رجاله ، فجعلوا يمشون ببطىء حتى اصبحوا قلبا وجناحين ، وتحفزوا للـــوثـــوب ...
ثم صاح الملك قائلا : اتبعوا الملك ! . وهمز جواده فمرق كالسهم بين

الصفوف ، ولحقت به الخيل تصدم الرجال ، وتجعل الاجساد مواطىء للنعال ، ووثب ولي العهد ، وزيد ، وصيـــاح ، من الجانب الايمن ، وهـــوذة من الجانب الايســـر ، وارتفعت اصوات الاستغاثة من بين الصفوف .

والسيوف تبري الرقاب والرماح تطعن الصدور ..

حتى ضيع الجيش اليهودي نظامه وابتعد عن قواده ، وخيل العرب تدفع جانبيه ، لتجعل بينهما ممرا للفريق الاخر ، الذي يقوده عياش وقرة ومضاض ، والذي لم يصدر له الملك امر بالهجوم ..

وقد راى عياش هذا الممر ، فغاص فيه مع جيشه ، عندما امره الملك وكانت سيوف العرب تحصد الرؤوس ، من الامام والوراء ، والفرسان تتدحرج عن ظهور الخيل ، ولو ابصر الناس الملك ، في تلك اللحظة ، لرأوه يدور حول الصفوف ، وهو على ظهر فرسه ، كما تدور الفراشة حـــول السراج ، والسيف مشهور بيده ، وهو يفتش عن هيرودس اللعين ليجود عليه بضربة منه ..

وكان زيد بن عياش يفعل مثله ، وهو يقول له كلما رآه : لـم ار لهذا اللعين اثرا يا مولاي ..

فيقول الملك : لقد رأيته منذ لحظة ثم ضيعته .. حتى تعبا وتعب الفرسان ، ولم يجدا لهيرودس ظلا ، وحتى هلك قسم من اليهود ، قبل ان تغرب الشمس .. وقد خسر العرب طائفة من الرجال ، هم ازاهير الجيش على انهم كانوا واثقين بان النصر سيكون لهم ، وان امر هيرودس ، سينتهي بالفرار ، ان لم ينته بالموت ..

ولكن الملك ، لم يكن راضيا عن ذلك اليوم ، فقد خسر قومه اكثر مما كان يظن ، وخانه القدر ، فلم يعثر على صهره « القديم » الذي سعر مـــن اجله نـــار الحرب . ولم يقل احد قواده ، في ذلك الليل ، انه راى هيرودس ، في الميدان ، وقد قام في اذهانهم انه استخفى عن العيون ، فرارا من الـــسيف .. وقد اصابوا في هذه الظنون ، فان الرجل كان وراء الجيش ، بيـــن خيام المؤونة ، وقد اثر الاستخفاء على الظهور ، خوفا من ان يخســـر حياته ...

فلمـــا جن الليل ، اجتمع بقواده وقال لهم : ليـس من الراي ان نحارب العرب في الساحة ، فخير لنا ان نتراجع ونحتمي بالقلاع ، ريثما تجـــيء

الجنود من انطاكية .

فقال كبيرهم : ولكن العرب يحصرون المدينة فيثور القوم فيها وقد يؤثرون الاستسلام على الحصار فنخسر كل شيء .

قال : سيكون السيف جزاء المستسلمين .

وقال : لي راي اخر يا مولاي ،هو ان يلجأ عشرة الاف رجل الى حصون الجليل ، ليدافعوا عن الجيش الذي يحارب امامها بالنبال يرسلونها من فوق .

قال : كل جيش يتصدى للعرب يهلك .

ـ بل نثبت في وجههم يا مولاي حتى يرسل الله عونه ..

ـ ولكني رأيت اليوم انكم لا تستطيعون ذلك ، ولا طاقة لكم بالاحتمال

ـ واين كنت انت يا مولاي في هذا اليوم ؟

قال : لو لم اكن على راس الجيش لضيعتم الرجاء ...

فسكت القائد وكان يقول في نفسه : ويل لليهود الذين يستظلون بظلك

ثم قال هيرودس : تراجعوا عندما ينقضي الهزيع الثاني من الليل واتركوا الخيام في هذا السهل !

ـ لماذا يا مولاي ؟

ـ لكي يظن العدو انكم فيها .

قال : يكفي ان يغنم العدو خيامنا عند الصباح ، ويستعين بها على الحرب !

ـ ذلك خير من ان يشعر بالانسحاب ، فتدور علينا الدوائر في هذا الليل ، وتصبغ دماء اليهود هذه الارض .. وهكذا كان هيرودس الشجاع!! هيرودس الذي يطمع بالجلوس على عرش اليهودية ، يبعث الذعر والخوف الى صدور القوم ، بدلا من ان ينفخ فيها روح التضحية والاقدام ، وقد اكره قواده ، على الرجوع الى جانب الاسوار ، ليدخل الجيش المدينة ، عندما يرى نفسه عاجزا عن الدفاع ..

وكان العرب يغطون في نومهم ، وجفون الحراس اثقلها النعاس .

لم ينس الحارث ان يعقد في تلك الليلة ، مجلسه الحربي . وكان الجميع متفقين ، على الهجوم العنيف المستمر ، حتى يستسلم الجيش

اليهودي او يصرعه السيف . وكان لهم في ذلك راي واحد ، هو ان تكون غيبتهم عن بترا ، غيبة قصيرة ، خوفا من ان يداهمها الرومان بالجنود ، وليس في بترا غير النساء ، وبعض الشيوخ الذين لا يطيقون حمل الرماح وهو راي رشيد فيه حكمة الابطال المجربين ..

على ان الحظ لم يكن من هذا الراي .. فهم لم يستفيقوا عند الصباح، حتى رأوا ذلك السهل خاليا، ليس فيه غير بقايا الراحلين .

فأطرق الملك يفكر في ذلك ، وقد خطر له خاطر هائل ، هو ان تراجع اليهود الفجائي ، لم يكن غير خدعة ، اراد بها القوم ان يتبعهم هو الـــى الجليل ، ليخلو الجو من الناحية الاخرى ، لجيش اخر يطمع بالاستيلاء على عاصمة الانباط . وتردد ساعة وهو لا يتكلم ولا يصدر امرا ..

فاقبل عياش يقول : ماذا يرى الملك الان ؟

ــ راينا اننا سنمسي في خطر يا ابا زيد !

قال : دلني على هذا الخطر يا مولاي .

ــ اني اكاد المسه في فرار اليهود .

ــ تريد ان تقول يا مولاي ان فرارهم خدعة لنا ؟

ــ اجل ، فلا نكاد نتبعهم الى الجليل ، حتى تكون اسوار بترا قـــد سقطت تحت ضربات الرومانيين ..

فابتسم ذلك القائد الشجاع قائلا : لو رايت هؤلاء الرومان داخـــل اسوارنا لما صدقت عيني ، اتراهم يجسرون على مهاجمتنا في بلادنا ، وهم يترددون في الدفاع عن الجليل ! ...

ــ وما معنى الانسحاب اذن ؟

ــ معناه ان القوم جبناء ، وقد رأوا انهم سيسقطون تحت حوافر الخيل ، اذا هم اصروا على الدفاع يوما اخر .

قال : لقد فكرت في ارسال الرسل الى بترا .

قال : لـــو كان الامر كما تظن ، لما ترددت الملكتان في ارسال الاخبار .. ان القضية قضية خوف يا مولاي ، وقد يكون غرضهم الالتجاء الى الابراج والدفاع من وراء الجدر ، ليطول زمن الحرب ، ويمل الملك الاقامة في بلاد اليهود .

قال : وفي هذا ايضا بعض الخطر .
ــ وكيف ذلك ؟
ــ كنا نظن اننا سنضرب هيرودس وجنوده الضربة القاضية ثم نعود الى بترا ، دون ان نعرض للمدن الامنة ، ودون ان نصطدم بالرومان ..
ــ واليوم ؟
ــ اما اليوم فقد قضت الحال بان نلحق بهيرودس الى الجليل ، لنحاربه وهو وراء الاسوار ، وسيمر الزمان دون ان نثأر بالشرف الذي اهين ، ثم يجيء الجيش الانطاكي فيقع ما نخشاه .. ثم قال : كنا نريد ان يعلم الرومان هذه المرة ، اننا لا نرغب في حربهم ، ولكن الاقدار ستكرهنا على ما لا نريد ، وسيقوم في ذهن روما ان الحرب حرب فتح ، وان غايتنا الاستيلاء على الارض التي يخفق فوقها النسر الروماني .
ــ اما انا فاذكر ، ان هذا الفتح ، كان ولم يزل غاية الملك .
ــ اجل ، ولكننا لا ننصرف اليه ، الا بعد ان نقضي على اليهود ، ونسلبهم السلاح الذي يحاربوننا به .
قال : نحن اليوم في ساحة القتال يا مولاي ، ولم نجرد السيف غير يوم واحد ، افيطيب لك ان تعود الى بلاد قومك وانت غير ظافر ؟
ــ الموت في الجليل ، خير من ان نعود ونحن لم نفعل شيئا .
ــ اذن فلنذهب ، ولترسل روما جميع جنودها ، ولننصرف بعد ان نقهر هيرودس الى التخريب والتدمير ، حتى يتراجع الرومان والذعر ملء القلوب .

فتمتم الملك قائلا : ويل لهيرودس الخائن الذي نكث عهده فضيع مطامع العرب .. ان هذه الخيانة لم تخطر لنا من قبل ، ولو عرفنا ان الرجل سيكون نذلا لما فكرنا في فلسطين ، ولما ضيعنا هذه الاعوام ونحن ندرس فيها ، وفي ابنائها وامرائها ، مواضع الضعف ..

ــ ان الطامع في فلسطين يا مولاي يتصدى لقوتين ، قوة اليهود ، وقوة الرومان ، وتكرهه الاقدار على توزيع قواه ، فتضعف هذه القوى.. لقد هممت يا مولاي غير مرة ،بان اسألك العدول عن التفكير في هذه الارض ، فلم اجرأ على ذلك ، وكنت اخشى ان تغضب وتسمعني ما لا

احب ، اما الان فقد رايت ان افضي اليك بما اعلم وانا لا ادري أأخرج من هذه الحرب حيا ام اموت في الجليل .

قال : وما تعلم يا عياش ؟

قال : خير لمولاي الملك ان يبذل جهده كله لتكون له دمشق ، فهي المدينة العظيمة التي تلتقي فيها معظم شعوب الشرق ، والتي تملأ الجزية التي تؤخذ من اهلها في عام واحد ، بيت المال العربي .

قال : لقد كان لنا هذا الراي ، قبل ان يعاهدنا هيرودس على الوفاء .. اركب يا عياش .. اركبوا ايها القوم ، واتبعوا ملككم الى الجليل .. ولا تنسوا ان تجعلوا الجيش هذه المرة ثلاثة اقسام خوفا من ان يغدر بكم العدو وركض جواده وهو لا يلتفت الى الوراء ، وقد جاشت المطامع في صدره وبدأ يحلم بالاستيلاء على دمشق .

فأيقن عياش عندما ركض مولاه فرسه ، بان دمشق اصبحت مطمع نظره وانه لم يبق له في اليهودية غاية غير القضاء على رئيس الربع اذا استطاع ...

٧٠

من طيباريوس قيصر الى عامله وتيلوس القنصل والي سوريا .

لقد قرأ مجلسنا الحربي كتابك الذي تقول فيه ، ان اريتاس العربي سيشهر الحرب على اليهود ، ففوض اليك ان تفعل ما يحفظ شرف روما وتدافع عن اليهودية بنفسك دفاع الابطال الذين يستحقون اكاليل المجد ، فاعهد في الولاية الى من تشاء وكن قائدا للعدد الذي تشاء من جنود سورية

ورد كتاب القيصر هذا بعد فوات الاوان ، اي بعد انّ شتت الحارث شمل جنود الجليل وهدم الاسوار والابراج وشفى غليله من عدوه الجبان الذي فر من وجهه ..

ولم ير بعد ان فعل ما فعل ، الا ان يتراجع ببطء الى بترا ، ليحتفل فيها بظفره ، ويقول لزوجتيه وابنته : لقد انتصرت للكرامة الجريحة !

وكأنه كان يريد ان يقول للقيصر : كنت قادرا على تدمير اليهودية ولكني عفوت ، لان هذا التدمير لم يكن غرضي من الحرب ..

على ان والي سوريا لم يعجبه هذا التراجع ، وقد قام في ذهنه

عندما بلغ بلاد الجليل ان اريتاس كان خائفا في رجوعه ، وانه تعجل في العودة الى بلاده هربا منه !

فكتب اليه يقول : كنت اظن اني اراك في سهول الجليل ...

فأجابه قائلا : اما انا فكنت اظن انك لا تجسر على المجيء ...

وهو جواب يجرح عزة القنصل ، ولكنه كان مكرها على السكوت ريثما تقع العين على العين ، أجل ، كان يريد أن يعلم الملك العربي ، كيف تكون الحرب ... ولكن هذا الملك ترك الساحة قبل وصوله ، وهو لا يجسر على مهاجمته في عقر داره ..

وهب انه كان جريئا ، فالقيصر لم يامره بالهجوم على بترا ولم يعهد اليه في فتحها ..

فرأى ان يبقى في الجليل شهرا يعيد فيه الى هيرودس الخائف روعه وهدوءه ، ويبني من جديد بالاشتراك مع اليهود تلك الحصون والاسوار التي حطمها الظافر العربي ، ثم انتقل منها الى أورشليم مارا بالمدن والقرى التي لم يكن يعرفها من قبل ، ولم ينس بيلاطس وهو عدوه ان يستقبله كما يستقبل الوالي ..

اما عداوة الاثنين فسببها تنازع النفوذ ، وطمع كل واحد منهما بالاستئثار بالسلطان ، كانت اليهودية ولاية مستقلة عن سوريا ، القيصر مرجع واليها ، ويد الوالي مطلقة فيها الا في شؤون الحرب . فجعلها اغوسطس قبل موته ، خاضعة لولاية سوريا ، واستبد ولاة سوريا بامرها لا يراعون لاصحابها عهدا وحرمة . فنشأت العداوة ، حتى انتهى امر سوريا الى وتيلوس ، وامر اليهودية الى بيلاطوس وكلا الاثنين عزيز النفس يطمح الى الاستقلال بالرأي . وبدأ منذ اختلف الرأيان بالمشادة والنزاع ، هذا يحاول ان يجعل رايه الراي الاول والاخر يسعى ليحبط مسعاه ، وكان القنصل الايطالي يريد ان يمتحن اخلاص بيلاطوس ، فقال له وهو في قصره : الم يكن من الحكمة ان تمد يدك الى هيرودس في حربه مع العرب ؟

قال : ان الحرب التي ذكرتها لا تحتاج الى الحكمة ايها القنصل ، بل تحتاج قبل كل شيء ، الى امرك الذي هو امر القيصر ...

قال : لنفترض أن اريتاس فاجأ اورشليم بالجيش وانا لم امرك بان تحاربه ، فماذا تصنع ؟

ــ ادافع عن نفسي وامر الجنود بان يمنعوه .

ــ وتفعل ذلك حفظا لاورشليم التي هي ملك لروما ام ماذا ؟

ــ بل افعله دفاعا عن شرف الرومان .

ــ ولكن شرف الرومان يقضي بان تحفظ اليهودية كلها لقيصر .

ــ اجل ، غير ان هذا الشرف لا يتعلق بالدفاع عن امير يهودي ، ينفر قومه وجيرانه ، ويخلق اسباب الحرب ...

قال : أراك تبغض هيرودس وتسعى به ..

ــ لم تكن السعاية من شأني ، ولكني اعلم ما لا تعلمه انت عن الرجل وارى منه في كل يوم ما لا تستطيع انت ان تراه .

ــ وماذا تعلم ؟

ــ اعلم انه لم يفكر قط في الاخلاص لروما ، ولم تكن له من التقرب اليها غير غاية واحدة هي ان تجود عليه بتاج الملك .

ــ وهل انت واثق بهذا ؟

ــ نعم واكاد المس رغبته بيدي .

ــ وما هو رايك في اريتاس ؟

ــ اني لا اعرف الرجل وقد لا اعرفه وانا في اورشليم ، ولكن الاخبار التي اسمعها عنه تملي علي ان اقول : ان قلامة ظفره تساوي هيرودس ، وانه خير لروما ان تجعله حليفا لها من ان تحاربه دفاعا عن امير لا يعرف الجميل .

ــ اذن انت تؤثر الملك العربي على رئيس الربع .

ــ اجل ، وليس في ذلك عار ، ولو كنت انت في اورشليم لاثرته مثلي ، وحولت وجهك عن الخائن الجبان ...

فأراد القنصل ان يثبت وجوده كرئيس ، فقال : انك في هذا الايثار تخون مولاك ...

فابتسم قائلا : بل اخدمه والفت نظره الى الملك الذي يستحق ان يضع يده بيده ... اتظن ان اليهود كلهم ، رؤساءهم وامراءهم يستطيعون

ان يصونوا اليهودية ويحموها لقيصر كما يحميها هذا الملك ؟؟ ..

قال : يكفي الان ما سمعته ، فاسكت وتهيأ للقتال .. فانا لا اترك اليهودية حتى انقذها من اريتاس .

ــ اين تحــاربه ؟

ــ لا اعلم الان ولكني سأعلم بعد قليل .

قال : ساكون اول من يحمل السيف في هذه الحرب .

ــ احسنت فدلني الان على القواد الذين يعرفون بلاد العرب .

قال : انصح لك ايها القنصل بان تظل بعيدا عن بترا فقد جــرب القواد قبلنا ان يفتحوها ، ويهدموها على رؤوس اصحابها الانباط ،وكانت نتيجة تجربتهم خسارة الجيش .

قال : سنسمع الان اراء قوادك في هذا الشان .

فخرج بيلاطوس ليدعو رجال مجلسه ، وخرج الاخر الى المخدع الذي اعد له ، ليكتب الى القيصر : ان بيلاطوس يخون روما ويؤثر العرب على اليهود .. !! وان اريتاس خرج ظافرا من الحرب .

٧١

قضى قنصل انطاكية ، ثم قضى قواده ، بعد رجوع القنصل الى مقر ولايته ، زمانا طويلا ، يدورون حول بلاد العرب ، ويحاربونهم فــي سهول اليهودية ، ليظفروا بهم ، فلم يكتب لهم الظفر . بل كان الظفر في جميع الميادين ، لجيش الانباط ، الذي عرف بقوة ملكه ؛ وفضل حكمته الحربية ، كيف يحمي بلاده .

على انها كانت حربا تشبه حروب العصابات ... يتقاتلون في هــذا السهل الجنوبي مثلا ، ثلاثة ايام ، ينسحب الرومان ليظهروا بعد شهر ، في سهل اخر في الشمال ، ثم يتحجبون عن العيون ، ليشهروا السيف في احدى نواحي الغرب . وغايتهم من هذا كله ، ان يضعفوا الانباط ، ويلاشوا قوى ملكهم الجبار فيستسلم في النهاية صاغرا ، ويطرح سيفه على الاقدام

ولكن اريتاس ، لم يضعف ، بل كانت قواه المعنوية تزيد ، كلما خفقت اعلامه ظافرة وشهرته تمتد حتى بلغت مسامع القيصر نفسه ، يحمــل اخبارها اليهود ، الذين يزورون عاصمة الروم .

حتى مر عامان كاملان ، واريتاس هو اريتاس ، لا تخور له عزمية ، ولا يلوي له عود . وقد اشتدت رغبته في دمشق ، فجعل يحارب عدوه كلما سكت هذا العدو ويدعوه الى القتال ، مكرها اياه على الخروج عن سكوته ..

فضاقت صدور الرومانيين ، وارتفعت اصواتهم يطلبون الراحة في انطاكية وفلسطين وراح بعض قوادهم يسألون اريتاس الهدنة ، فكان يقول : لم يخطر لي من قبل ان احارب الرومان او اعرض لهم ، ولكنهم ارادوا ان يمنعوني من الدفاع عن كرامة قومي ، فكانوا عونا لهيرودس الخائن الذي سيخونهم بعد قليل ، كما خان العرب ... اني لا اترك السيف حتى يتخلى لي القيصر عن دمشق !!

فراى الرومان ان يتركوا الحرب ، ريثما يتهيأون لها في وقت اخر ، يخدمهم فيه الحظ ،وضحك طيباريوس عندما نقلوا اليه ان الحارث يريد دمشق ، وانه يشترط على قيصر ، ولو كان الامر وقتئذ في يد كاليكولا ، لوهب لاريتاس ما طلب ، وكفى الرومان مؤونة الحرب الدائمة التي لا تخمد نارها . وكان هو واغريبا فرحين لفشل هيرودس ليس لانهما على صلة مع اريتاس ، بل لان هيرودس عدو طبيعي لاحدهما ، وكانا يعلمان ، ان مساعي قنصل انطاكية تبذل في البلاط ، للقضاء على سياسة بيلاطوس والي اليهودية

٧٢

كانت الحادثات ، في السنة الخامسة والثلاثين ، كثيرة ، غيرت الموقف في بلاد اليهود ، وتنفس هيرودس بعدها الصعداء . لقد اوى ، بعد هزيمته الى قصره ، ذليلا مضطرب الفؤاد ، ليس لانه فر من الساحة كما يفر الجبناء ، بل لان الاعوام كانت تمر ، واغريبا يهزأ به ، وبهيرودية.

أمره بان يتزوج هيرودية ، وكان هذا الزواج قد تم قبل امره ، ثم طلب اليه ان يطلق قدرة ليجلسه القيصر على العرش ، ففعل ولم يبال بغضب العرب ، ثم اشتعلت نار الحرب بينه وبين هؤلاء العرب ، فخسر الحرب ، مهانا ، ، معفرا بالذل ، ومرت سنتان طويلتان وهو ينتظر الفرج من اغريبا اولا ثم من الله ..

ولكن اغريبا ساكت ، وهذا السكوت معناه الجفاء ... ولماذا يجفوه ابن اخيه اذا لم تكن يد بيلاطوس في الامر ؟ ان بيلاطوس يوغر صـــدر القيصر وصدر اغريبا ، ويرسلّ اليهما الاكاذيب ... ولولا اكاذيبه ،لكان التاج على راسه ...

وماذا صنع والي سوريا ؟ لقد وعده هذا الوالي يوم كان في الجليل، ان يقضي على نفوذ بيلاطوس ، ولكنه لم يفعل شيئا الى الان . وكان اليأس قد دب في صدره ، وكاد يدب الجفاء بينه وبين هيرودية ، التي استسلم الى سياستها البعيدة عن الحكمة ، والتي لم تثمر غير الذل والعار ، وهي تداريه وتجاريه في عمله ، وتعلله بالوعود ... حتى طلعت عليهما الأقــدار ، بحادثٍ جديد ، مد هيرودس اصبعه فيه ، واستعان بالقنصل على ايقاد ناره ، ليسحق بيلاطس ، عدوه القوي.

لقد خبروه ان رجلا من السامرة ، اثبت لاهلها ان الانية المقدسة التي اخفاها موسى ، كما يقولون ، مدفونة في جبل غريزيم ، وكان هــذا الرجلّ نصف مجنون ، وقد وعدهم بانه يريهم هذه الانية ، في الموضع الذي دفنت فيه ، فامنوا بقوله ، واظهروا رغبتهم في الصعود الى الجبـل ليروا ما وعدهم به ، غير ان فريقا اخر من اليهود ، لم يرض بذلك ليس لانه غير مؤمن باقوال الرجل ، بل لانه اراد على ما يظهر ، ان يستأثر وحده بانية موسى عليه السلام ، او يمتع نفسه بالنظر اليها ، دون ان يشـاركه ســـواه .

ورفع هذا الفريق امره الى الوالي في اورشليم ، فرأى بيلاطوس ، ان يمنع الناس من الصعود في الجبل ، ارضاء للقوم الذي طلبوا اليه ، هذا المنع ، وقام هيرودس ، من الناحية الاخرى ، يدفعهم الى الصعود ، ويظهر لهم من وراء الستار ، ان بيلاطوس ظالم في منعه ، وان الامر لا يعنيه
واشتد النزاع بين الفريقين ، هذا يسنده الوالي ، وهذا يسنده رئيس الربع ، حتى راى العقلاء ، انه لم يبق للفريقين الا ان يعمدا الى السيف ،
وبلغ بيلاطوس ، ان القوم يستخفون به ، ويهزأون بسلطانه ، وهـو الرجل المتكبر الذي لا يطيق هذا الاستخفاف . فبعث الى الوادي ، الذي يقوم الجبل امامه ، بجنوده الامناء المخلصين وامرهم بان يمنعوا ، بقوة

السيف ، كل من تحدثه النفس ، بالخروج عن طاعته ، ومشى الفريق الاخر من الناحية الاخرى ، يريد الصعود وهو لا يبالي ببيلاطوس وسيوف جنوده . والتقى الفريقان عند الجبل ، وقبل ان تتلاحم السيوف ، اقبل بيلاطوس نفسه مع حراسه ، وكانت ابتسامته الغريبة ، امرا للجنود بالقتال . وحجب الغبار القوم عن عيني بيلاطوس ، ثم انجلى عن مشهد رائع ابصر فيه اجسام الجرحى فوق جثث القتلى ، ورأى دماء الابرياء تقطر من سيوف رجاله .

وكان الناظر الى المعركة يظن انها قد انتهت لان طلاب الانية المقدسة قتلوا قبل ان يبلغوا قمة الجبل .. !

غير ان بيلاطوس لم يكتف بهذا النصر بل اصدر امرا اخر يقضي بالقبض على زعماء القوم ، وباشارة خفية منه ، قطعت رؤوس هؤلاء الزعماء وتدحرجت في الوادي . ثم فر من بقي من القوم وساد الوادي سكون رهيب لا يسمع فيه ، غير انين الفتيان الذين يصارعون الموت .. وبعد لحظة ، اي بعد ان استراح الوالي ليهضم فريسته ، هتف الجنود هتاف الظفر ، وارتفعت اصواتهم : ليحيى قيصر ، ومشوا بعد ذلك كما يمشي الجيش الفاتح تحت أعلام النصر ، على ان فوز الوالي على الصورة التي قرأت ، كان وبالا عليه وقضاء على سياسته ونفوذه ثم على حياته ..

فان اليهود من اهل المنكوبين المنكودي الحظ ، شكوا واليهم الى القنصل ، باغراء من هيرودس ، فسنحت الفرصة لذلك القنصل ليستريح من حاكم اورشليم الذي لا يعبأ به .

ولم يكتب الى القيصر كما كان الناس يظنون ، بل كتب الى بيلاطوس نفسه يامره بالذهاب الى روما ليظهر براءته في مجلس طيباريوس مما نسب اليه ، وكان امره شديد اللهجة لا يراجع فيه . وبعث بكتابه مع صديق له يدعى مرشلوس ، وفوض اليه ان يتولى باسمه امر اليهودية ريثما يرى القيصر رأيه . فلما وصل الرجل الى اورشليم يحمل الامر الجائر ، تنحى له بيلاطوس عن كرسي الامارة ولم يتردد لحظة واحدة في امداد المدة للرحيل . ثم سافر الى روما والامل في صدره ، وهو يظن انه سيعود الى بلاد اليهود ، محترم الجانب عزيز المقام ، وقد حمل من

اليهودية طائفة من الذكريات العذبة ، يتخللها شيء من الالم وكابة النفس اللذين خلقهما له القنصل الانطاكي ، زد على هذا انه كان يحمل شماتة هيرودس وانصاره ، وتشفي انسباء الابرياء الذين سفحت دماؤهم في وادي غريزيم ، وكان طيباريوس قد بلغه خبر قسوته ووضعه السيف في غير موضعه ، فغضب ، بل تميز غيظا وعول على طرده من اليهودية الطرد القبيح . وقد رأى كاليكولا واغريبا هذا الغضب ، فلم يريا ان يتصديا للقيصر ويسألاه الرحمة به خوفا من ان يتهمهما بالميل الذي لا مبرر له .

ولم يكن من الحكمة ان يخالفاه فيما يهوى ، فهو اصل نعمتهما ومرجع النفوذ العالي الذي يتمتعان به .

وكان القيصر الشيخ في اخر ايامه ، وقد حنت ظهره السنون وستغرب شمس عمره ، كما يقولون ، واقبل بيلاطوس على البلاط في يوم ضاق فيه صدر مولاه وكثرت همومه ، ولم يكن كاليكولا في القصر فقد خرج منه ساعة دخوله ، لانه لم يكن يريد ان يستعين بيلاطوس به .

وكانت عندئذ ، بين القيصر وعامله تلك المقابلة التاريخية القصيرة التي كان طيباريوس قاسيا فيها ، كما كان بيلاطوس قاسيا في ضرب الرقاب ....

اراد الوالي ان يبسط عذره ، فأومأ اليه سيده بان يسكت ثم قال : اقتلت اهل السامرة في غريزيم ام ماذا ... قل نعم او لا ...

قال : نعم يا مولاي

فقال القيصر لكاتبه : اكتب امرا بنفي هذا الرجل الى البلد الذى تختاره انت ، ولا تتردد !! ..

فكتب الامر ، فقال : اما الان يا بيلاطوس فتستطيع ان تذهب الى الموضع الذي تقرأ اسمه ولا تقم بروما غير هذه الليلة .

فقال : كلمة واحدة يا مولاي ...

فأشار الى حراسه قائلا : اخرجوا هذا الرجل ورافقوه الليلة الى البحر ليقضي ليلته في احدى السفن .

وهكذا نفي بيلاطوس الى فيان في فرنسا ، بعد ان ولي اليهودية عشر سنين ، واشتد يأسه في منفاه فانتحر .

وكان هذا النفي في السنة الخامسة والثلاثين .

٧٣

هذا طيباريوس على فراش الموت ، وقد مر على نفي بيلاطوس سنتان كاملتان ، فدعا كاليكولا ابن اخيه ، ووجوه قواده ورجال دولته ، واوصاهم بالاهتمام لامر العرش بعد موته والاخلاص لكاليكولا خليفته . وكانـــوا جميعهم على دعوة الخليفة الشاب .

ثم مات طيباريوس ، فارسل نعيه الى الاقطار وملا الدعاء للقيصر الجديد البر والبحر ، وكان هنالك رجل يدعى سجان ، تامر على طيباريوس ولم تساعده الاقدار ، وقد قيل لكاليكولا واغريبا ان لهيرودس يدا فـــي مؤامرته .

فكتما طيباريوس الخبر ، حتى مات ، فبعث القيصر الجديد اوامره للقبض على المتامر الخائن دون ان يجيء على ذكر هيرودس . وكانت لــه غاية من وراء هذا السكوت ، على ان هيرودس ، عندما عرف ان كاليكولا خلف عمه ، عاد الى قلبه وقلب هيرودية الرجاء الذي كانا قد ضيعـاه ، وظلا ينتظران التاج الذي وعدهما اغريبا به ، ثم مرت الايام والشهور وهما ينتظران ، والتاج لم يهبط من سمائه . فلم يبق الا ان يواصل هيرودس ما ابتدأ به ، ويجمع السلاح في قصره ، لليوم العصيب . ولم يتردد فـــي ارسال رسله الى ملك البرتيين ، ليقولوا له باسمه : انه باق على العهـــد ، وانه سيجمع سلاحه ، ويعد المال الذي طلبه اليه . اجل ، انه قادر على استرجاع العرش بقوة السيف ، اذا بخلت به روما ...

غير أن في روما رجلا اخر يطلب تاجا وعده به القيصر الجديد نفسه هو اغريبا ، وقد سأل مولاه ان يجود به ، فاستمهله كاليكولا ريثما تستقيم له امور الملك ، وترد اليه كتب التهنئة بالخضوع من جميع الاقاليم ، ولم ينكث القيصر عهده ، فبعد ان تم له ما اراد ، البســه التاج بيده ، وجعله ملكا للجيدور ، واللجا ، وحوران ووهب له نفوذا في ملكه يشبه نفوذه . فاشتعلت النار في صدر هيرودس ، وايقن عندئذ بان اغريبا كان يهـــزا به وبزوجته ، وهم في بادىء امره ، بالخروج عن الطاعة ولكن هيروديـــة أرادت ان تمتحن الامتحان الاخير فزينت له الذهاب الى روما ليســـأل

القيصر ان يعطف عليه . فرضي بذلك ، وكانت ارادة هيرودية امــرا لا يستطيع رده ، وقد وافقها في ان تذهب معه وهما يظنان ان وجودها في بلاط كاليكولا يهون الامر الصعب ...

وكان اغريبا قد عرف اسرار عمه ، فكتب الى مولاه يذكره باشتراك هيرودس مع سجان المتامر ، ويخبره انه يتامر اليوم مع ملك البرتيين ، وان في قصره سلاحا يكفي لسبعين الفا من الرجال ، وكتب اليه ايضا ان العرب يطمعون بدمشق وانهم قوم اقويا ومن الراي ان يهبها لملكهم اريتاس

مثل هيرودس وهيرودية بين يدي القيصر ، فسأله القيصر قائلا : أتريد تاجا يا هيرودس ؟ فتمتمت هيرودية قائلة : انه احق بالتاج من سواه

ـ ولكنه كان يطمع بالوصول الى هذا التاج ، بقوة المؤامرات عنــى طيباريوس .

قالت : لقد كذب الذي نقل الى القيصر هذه الرواية .

فقال ولم يبال : ثم هو يطمع اليوم بالوصول اليه ، بقوة ارتبان ملك البرتيين ، وقد بلغنا ان في قصره من السلاح ما يكفي لسبعين الف رجل، اصحيح هــذا ؟

فحاولت ان تجيب ، فانتهرها قائلا : ليتكلم هيرودس ، قل ، اعندك السلاح الذي ذكرت ؟

ونظر اليه نظرة غضب لم يستطع هيرودس معها الا ان يعترف له بوجود السلاح في قصره . فقال له عندئذ : اسمع يا هيرودس ، لقــد عزلناك عن ولاية الجليل والاردن ونفيناك الى ارض لا ترى بعدها ارض بلادك وسلبناك كل ما تملكه في وطنك ..

وقال لهيرودية : اما انت فقد ابقينا ما هو لك من المال ، ونأمر بان تعودي الى الجليل ارضاء للملك اغريبا الذي هو اخوك .. اخرجا الان .

فدمعت عينا المراة الفاجرة وقالت له : اني اؤثر النفي مــع زوجي على الرجوع الى بلادي ، وقد كفرت في عاطفتها هذه عن بعض الذنوب ...

فقال القيصر : ليكن لك ذلك فانت تطلبينه . ونفذ رجال البلاط امره ، في صباح اليوم الثاني ، وقد نفي الاثنان الى ليون ــ في فرنسا ــ ثم الى بلد اخر في اسبانيا قضيا فيها ما بقي لهما من الحياة .

وكتب الى اغريبا : لقد نفي عمك واختك وسنضم الى ملكك بعــد

قليل ، امارة الجليل وعبر الاردن

وكتب الى والي سوريا يقول : اترك حرب العرب فقد رضهنا عن اريتاس ، ونأمرك بان تسلم اليه البلاد التي تجاور ملكه ، من الشمال والغرب وتعطيه دمشق .

وعندما انتهى هذا الامر الى بترا ، ابتهج العرب ، وجعلوا ذلك اليوم عيدا وطنيا يحتفلون به في كل عام ، وارسل الحارث الى دمشق احد رجاله ليتولى امرها ويكون نائبه فيها . وفي السنة التي بعدها ، ضم كاليكولا امارة الجليل والاردن الى مملكة اغريبا ومشى اغريبا في سبيل المجد .

٧٤

ارايت عاقبة الظلم يا ابنتي ..

فاجابت فدرة اباها قائلة : اجل يا مولاي ، رأيت هيرودس الظالم الذي لا عاطفة له وهيرودية الفاجرة القاسية التي تشبه اللبؤة ، يصبحان متفيين في بلد لا يعرفان فيه احدا ... انها عبرة لكل قوي يجور على ضعيف فلتغفر لهما الالهة .

وكان الحارث مريضا ، والسنون تساعد مرضه على الفتك به فقال : نعم يا فدرة لننس الماضي ولتغفر الالهة لهما .. اين مالك وزيد ؟

ــ انهما في البلاط يا مولاي .

قال : اريد ان اراهما فأنا افكر في ان اجعلك نصف ملكة .

فسكتت قليلا ثم قالت : عرفت ما تريد يا مولاي ، انك ستجعل زيدا نائبا للملك في دمشق .

ــ اصبت وارغب في ان يذهب اليها قبل ان اموت ، اما انت فمن الراي ان تقضي نصف العام في بترا ، والنصف الاخر مع زيد .

فحنت راسها قائلة : سنفعل كل ما تأمرنا به . ثم دخل ولي العهد وزيد فقال للاخير : تهيأ للذهاب الى دمشق فقد جعلناك نائبا عنه فيها،على امل ان تحسن السياسة مع الرومان ومع جميع الناس . فجثا زيد على ركبتيه يقبل يدي الملك ، ثم قال الحارث لولده : اما انت فلا اوصيك بشيء فقد عرفت ، وابوك حي ، كيف يسوس الملوك شعبهم . ولم تمر على هذا

الحديث بضعة ايام ، حتى فارق الحارث العظيم هذه الحياة ، وهو بعيد الصوت ، واسع الشهرة ، كبير المقام عند اليهود والرومان .. وبويع مالك بالملك ، في تلك السنة التي هي السنة الاربعون .

لم يلبث كاليكولا حتى اصبح مجنونا ... يدخل فرسه الى دار الندوة .. ويأمر الرومانيين بان يعبدوه كما يعبدوا الهتهم .. الى اخر ما هنالك من هذا الطراز الغريب .

ثم جار وبغى ، جورا لم ير الرومانيون مثله ، فتامر الاشراف عليه، واغتاله رئيس حرسه في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ٤١

ظل مالك على العرش ، خمسا وثلاثين سنة تشاركه زوجته في الحكم كما تعود ملوك الانباط ان يفعلوا . حتى كانت السنة الخامسة والسبعون فخلفه على العرش ولده ربيال الثاني الملقب « بسوتر » وشاركته زوجته « جميلة » في ادارة الشؤون الى سنة ١٠١ حيث انتهى الملك ، الى ولده مالك الثالث الذى هو اخر ملك من ملوك العرب في بترا .

على ان هذا الملك لم يهنأ بعرشه ، فقد خلع عنه ، وغلب على امره في سنة ١٠٦ ثم انتقلت مملكة الانباط ، الى حوزة الرومان ، ولم يقم على عرش بترا ، بعد تلك السنة ملك عربي . اما فاتح البلاد العربية ، فكان يدعى كنيليوس بلحا وقد فتح ذلك القطر وسواه ، لمولاه الامبراطور تراجان .

واما زيد ، فقد مات في السنة السابعة والسبعين ، ولحقت به فدرة في السنة الحادية والثمانين ، وقد شهدا من صنوف المجد والعز ، ما لا يشهد مثله غير الملوك ..

وفى بترا وضواحيها اليوم ، اثار فى الصخر، كما قرات ، تدهش عقول العلماء ، الذين يزورونها في كل عام .

((تمت))

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس